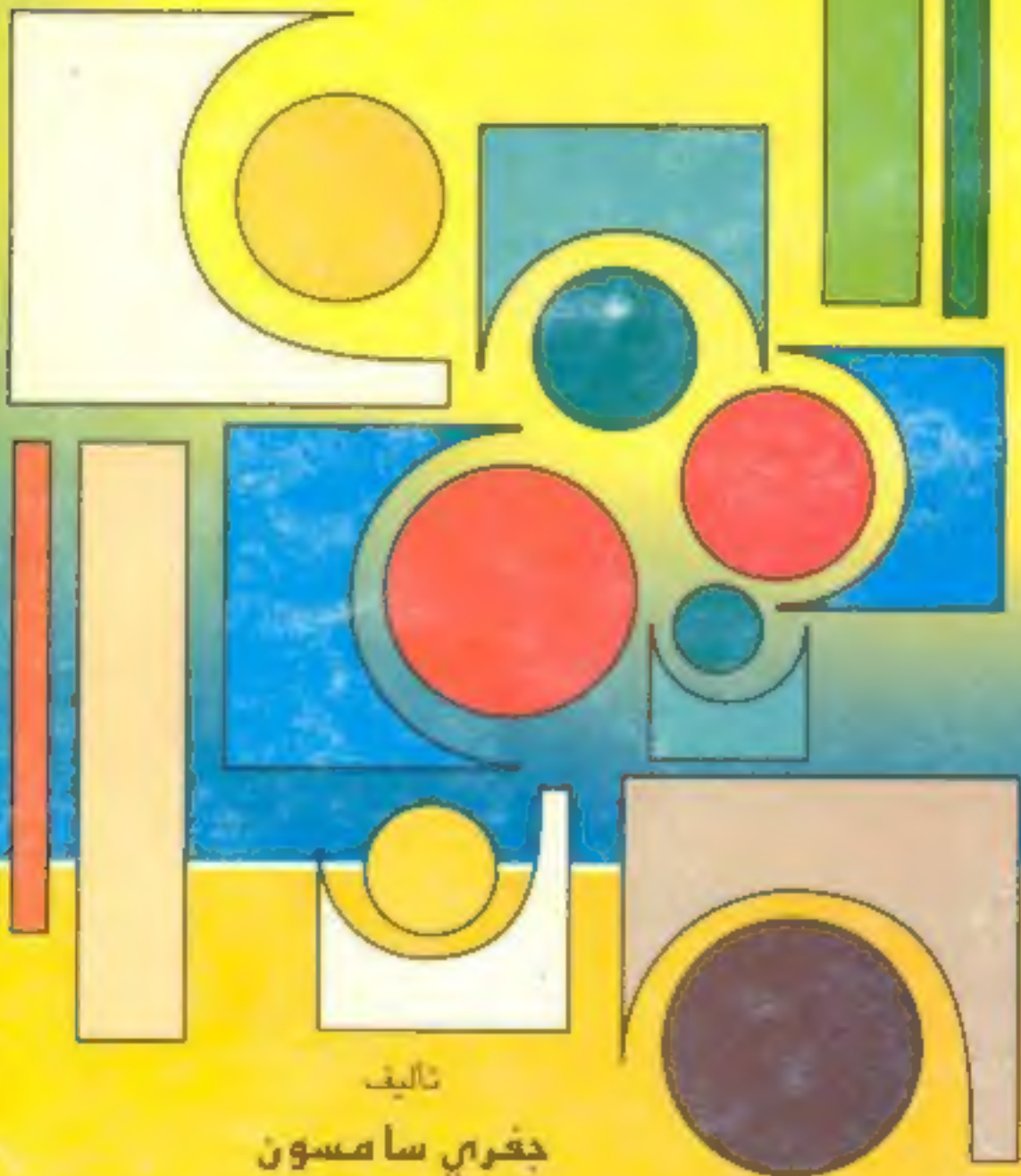


# مبادئ اللسانيات التسابق والتطور



تأليف

جفري سامسون

ترجمة

الدكتور محمد زياد كبة

النشر العلمي والمطابع

جامعة الملك سعود



# مدارس اللسانيات التسابق والتطور

تأليف  
جفري سامسون

ترجمة  
الدكتور محمد زباد كبة  
قسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب  
جامعة الملك سعود

النشر والطابع - جامعة الملك سعود

ص.ب ٢٤٥٤ الرياض ١١٤٥١ - المملكة العربية السعودية



ح) جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ

© Geoffrey Sampson 1980

هذه ترجمة عربية مصرح بها لـ

This arabic translation of:

"Schools of Linguistics: Competition and Evaluation"

Illustrations © Hutchinson & Co. (Published) Ltd.

Translation Copyright © 1997, by King Saud University

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سامسون، جفري

ممارس اللسانيات : التسابق والتطور / ترجمة محمد زياد كبة

- الرياض .

٣٢٠ ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٤-٤٧٦-٠٥-٠٠-٩٩٦٠ (جلد)

X-٥٤٠-٠٥-٠٠-٩٩٦٠ (غلاف)

١ - اللغات ٢ - علم اللغة أ - كبة، محمد زياد (مترجم)

ب - العنوان

١٧/٣٢٢١

دبوي ٤٠٠

رقم الإيداع: ١٧/٣٢٢١

ردمك ٤-٤٧٦-٠٥-٠٠-٩٩٦٠ (جلد)

X-٥٤٠-٠٥-٠٠-٩٩٦٠ (غلاف)

حكمت هذا الكتاب لجنة متخصصة شكلها المجلس العلمي بجامعة، وقد وافق المجلس على نشره في اجتماعه الخامس للعام الدراسي ١٤١٤/١٤١٥هـ الموافق ١٩٩٤/١١/٩م.

مطبع جامعة الملك سعود ١٤١٧هـ



## مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد.

ازدادت أهمية اللسانيات (أو ما يعرف قارة باللغويات، وقارة أخرى بعلم اللغة أو الألسنية) ازديادا كبيرا بعد ظهور العالم اللساني نوم تشومسكي وانفراده بالساحة اللسانية طيلة أربعة عقود ونيف. فمُنذ عام ١٩٥٧، حين نشر كتابه «البنى النحوية» اتخذت اللسانيات منعطفًا جديدًا أدى إلى قيام ثورة في هذا العلم، وأصبحت مدرسة تشومسكي التي تعرف بالتوليديّة محط اهتمام الباحثين في شتى أنحاء العالم.

والكتاب الذي أضع ترجمته بين أيدي القراء اليوم ذو أهمية خاصة. فهو يواكب تطور اللسانيات منذ القرن التاسع عشر وحتى الثمانينيات من هذا القرن. كما يتناول مختلف مدارس اللسانيات التي ظهرت في تلك الحقبة بالتقد والمناقشة مبينا ما لها وما عليها معرّفا بأبرز أعلامها. ويفرد الملف فصلا خاصا لمناقشة النظرية التوليديّة، وفيه يعرب صراحة عن خلافه مع تشومسكي بشأن العديد من القضايا اللغوية، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن النظرية التوليديّة كانت نقطة تحول سلبية في تطور اللسانيات رغم كل الضجة التي أثارت حولها.

ومن ميزات هذا الكتاب أيضا أنه يلقي الضوء على مدرسة فيرث وهو العالم اللساني البريطاني الذي وقع ضحية الدعاية الأمريكية الهائلة، إذ أنها حولت الأنظار عن نظرياته في اللسانيات، خاصة وأنها ظهرت حين كانت المدرسة الأمريكية تروج نظرية زيليك هاريس التي تستبعد «علم الدلالة» من الدراسة اللسانية استبعادا كاملا. ولقد بذلت جهدي كي تكون ترجمتي أقرب ما يمكن إلى النص الأصلي، لكن

الترجمة في حد ذاتها، كما لا يخفى على القارئ، عمل مضمّن لا يخلو من الصعاب، لا سيما حين يتعلق الموضوع باللغة بالذات. حتى أن الأساتذة الذين تفضلوا بقراءة المخطوطة المترجمة تباينت آراؤهم إلى حد بعيد حول كثير من النقاط. فمنهم من طالب بنقل الأمثلة الإنجليزية إلى أخرى عربية مدعياً أن هذا من شأنه أن يقرب الفكرة إلى القارئ العربي، ومنهم من رأى للمحافظة على الأمثلة الإنجليزية والابتعاد عن مقارنتها بالعربية ما أمكن توخيًا للدقة. وقد واجهت كذلك المشكلة التي يواجهها كل من يكتب في اللسانيات، ألا وهي مشكلة تعريب المصطلحات، وهي مشكلة مستعصية ما زالت تنتظر الحل على أيدي علماء اللغة والمترجمين العرب. لذلك أستمع القارئ عذراً إن وجد بعض الاختلاف بين المصطلحات التي وردت في هذه الترجمة وبين تلك التي ألفها في السابق. كما حرصت على سرد المصطلحات المعربة في آخر الكتاب للرجوع إليها حين الحاجة.

وأخيراً أمل أن يشكل هذا الكتاب إسهاماً في إغناء مكتبة اللسانيات العربية، وأن يكون عوناً للقارئ العربي في الدراسة والبحث اللساني. وأحب أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جامعة الملك سعود التي تولت طبع هذه الترجمة عن طريق مركز الترجمة وإلى كل من أسهم في إصدار هذا الكتاب في شكله النهائي، والله من وراء القصد.

محمد زهاد يحيى كبة

## مقدمة المؤلف

نشأت دراسة اللسانيات في العديد من بلدان العالم الغربي على اتساع المسافات بينها . وغالبا ما كان فرد أو جماعة من المبدعين ترسي دعائم ظرف معين يهيمن باستمرار على منحنى الدراسات اللغوية في الجامعة أو البلد الذي ظهر فيه . كما كانت الصلة بين أنصار المذاهب المختلفة محدودة نسبيا . ومن هنا جاء هذا الكتاب . فمن المؤكد أنه سيعود بالفائدة على طالب اللسانيات (سواء أكان المقصود هو الطالب بالمعنى المحترف أم بمعنى الهاوي) لأنه سيتعلم بعض الأفكار التي كانت سائدة في أعراف تختلف عن العرف الذي هو أكثر إلما به . ولا يرجع هذا إلى مجرد احتمال الخطأ في بعض الأفكار التي تعلمها ظانا أنها مسلمات (مع أنني أعتقد أن هناك أخطاء جوهرية في فكر أكثر المدارس اللسانية المعاصرة رواجاً . وأمل أن يشجع هذا الكتاب البحث في هذه الأمور) إذ أن هناك الكثير من الحالات كانت فيها كل مدرسة توجه اهتمامها نحو قضايا لم تكن تحفل بها المدارس الأخرى . وهكذا نستطيع أن نستفيد من دراسة المذاهب الأخرى دون أن نرفض أي عنصر من عناصر معتقداتنا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن من المستحيل أن نفهم أفكار أي عالم دون أن نفهم الجو الفكري الذي تطورت فيه تلك الأفكار وتفاعلت معه . لذا ينبغي على المرء أن يتعلم شيئا عن النظريات السابقة ولو لمجرد معرفة وجه الخطأ فيها في بعض الحالات .

ومن المتعذر في كتاب بهذا الحجم أن ترسم أكثر من صورة عريضة وعامة لاتجاهات الفكر التي نغطي بموافقة مجموعات كبيرة من علماء اللغة . ومن حسن الحظ فإن العلماء لا يتدرجون ضمن فئات محددة . فبعض من سأتي على ذكرهم هنا يسرون وفق الاتجاهات التي أنسبها إلى مدارسهم أكثر من غيرهم - وحتى من يسهل



تصنيفهم ضمن فئة معينة تبوأوا في معظم الأحيان آراء في مرحلة ما من مراحل حياتهم تبرر تصنيفهم ضمن فئة أخرى مختلفة تماما إذا ما أخذت تلك الآراء بشكل منفرد . ولا أزعم أن الكتاب جامع شامل . فمعرفتي بالتطورات خارج العالم الناطق بالإنجليزية أقل من معرفتي بالتطورات داخله . وأعتقد أنه كان حرياً بي أن أناقش حركة «الجغرافيا اللسانية Linguistic geography» الفرنسية واللسانيات الإيطالية الجديدة «Neolinguistics» لكن عدم إلحامي بها حال دون ذلك . وبما لا شك فيه أن هناك تطورات أخرى لم أسمع بها ولا أعرف عنها شيئا . إلا أن ثمة مجموعة واحدة فقط ممثلة هنا أستطيع ادعاء المعرفة بها ألا وهي مجموعة «علماء اللغة الطبقيين Stratificationalists» من أتباع سيدني لام Sydney Lamb . وعلى أية حال ، فقد أتاحت لي فرصة التعرف على عدد من المذاهب اللسانية في مواطنها الأصلية أكثر من أي زميل آخر خلال الفترة التي قضيتها طالبا ومدرسا في عشر جامعات أمريكية وبريطانية وفي الكليات الجامعية . وإذا دعت الخماسة أحد أنصار مدرسة معينة إلى تذكيرنا بالمثل الشائع عن «السبع صنابير» فاسمحوا لي أن أقول إن الخطر الأكبر الذي يهدد العلم (لا سيما اللسانيات) لا يكمن في عجز المرء عن الإحاطة بفكر مدرسة معينة إحاطة تامة بقدر ما يكمن في نجاح تلك المدرسة بالسيطرة على فكره .

ولقد تعمدت أن يقتصر الكتاب في هذا المقام على «جوهر» اللسانيات دون فروعها الجانبية . فلم أت على ذكر علم الاجتماع أو علم النفس أو علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) إلا عندما تكون هذه العلوم على صلة (كما هي في أغلب الأحوال) بالنظريات اللسانية لمدرسة معينة . إلا أن ثمة أنواعا من اللسانيات يرمز لها بكلمتين مثل «اللسانيات الاجتماعية» و«اللسانيات النفسية» إلخ» ومثل هذه الأنواع تستدعي دراسة العلاقة بين علم الاجتماع مثلا وإحدى النظريات اللسانية السائدة، بصرف النظر عما إذا كان ذلك النوع من اللسانيات يحملنا على التفكير ضمن الإطار الاجتماعي أم لا ، فمثل هذه الدراسات لها ما يبررها ، رغم أنني أهملتها هنا .

أما اللسانيات التطبيقية (وهي في الواقع دراسة طرق تعليم اللغة) فلم تحظ بنصيب كبير من الذكر لاعتقادي بعدم جدواها في الإسهام في تعليم اللغة الإنجليزية أو اللغات الأوروبية الرسمية . أما أولئك الذين يدعون أن اللسانيات قد أسهمت بالفعل

في هذا المجال فيبدو لي أنهم لا يخذعون أنفسهم فحسب، بل ويخدعون الآخرين أيضا. (وما كان هذا ليسبب ضررا يذكر لو لم تكن الأموال التي تنفق على الأعمال القائمة على اللسانيات التطبيقية، شأنها في ذلك شأن العديد من المشروعات الأخرى، تأتي لا عن يرون فيها بعض الفائدة، بل من دافع الضرائب المسكين الذي يزرع تحت نير دولة طاغية جشعة. إن اللسانيات دورا مشرقا في تعليم اللغات الغريبة التي تفتقر إلى أصول تعليمية. ومع ذلك، يفترض أن يكون هذا الدور محدودا دائما. فما نحتاجه في ذلك المجال ليس نوعا خاصا من اللسانيات التطبيقية، بل لسانيات وصفية مباشرة من النوع الذي يتناوله هذا الكتاب.

ولم أتردد في الجهر بأرائي الشخصية حول شتى الموضوعات التي يعرض لها هذا الكتاب - رغم أنني أمل أن أكون قد تجنبته الخلط بين آرائي الخاصة وآراء مختلف الكتاب الذين أعرض لهم - فكتاب من هذا النوع يقدم لقرائه فائدة أكبر بإعطائهم أحكاما معللة من شأنهم قبولها أو رفضها بدلا من معالجة كل عالم وكل مدرسة في ضوء تقويمها الذاتي الذي لا تزيد فائدته عما لو أعطي القاري قائمة بالمراجع وترك ليقرأ المصادر بنفسه. وإضافة إلى ما تقدم، وعلى العكس مما يفعل العلماء غالبا، فإنني لم أكلف نفسي عناء اجتثاث جذور كل ما يعبر عن الذوق الشخصي، ونقاط الضعف، والانحيازات غير العلمية التي ربما كان لها أثر في حكمي على القضايا المطروحة على بساط البحث. وباعتباري من المعجبين بفلسفة إيمري لاكاتوس Imre Lakatos فإنني أرى أن مثل هذا الإجراء غير مستحب بتاتا، ولا يفيد إلا في إضفاء مظهر السلطة المحايدة على عمل الكاتب. الأمر الذي لا يتوافر في الواقع في نتاج العقل البشري. ومن نافلة القول أن للمقاريء ملء الحرية في معارضة آرائي مرارا وتكرارا، إذ إن هذا دأب كل أصدقائي.

إنني مدين في هذا الكتاب إلى دك هدسون Dick Hudson، فهو الذي طلب مني في بادئ الأمر، وقبل ست سنوات، أن ألقى سلسلة المحاضرات التي تمخضت في النهاية عن هذا الكتاب. وكان قد تكرم بالتعليق على مسودته، كما فعل ريتشارد هوغ Ritchard Hogg ونايجل فانسننت Nigel Vincent في تعليقاتهما على أجزاء منه. والكتاب مدين بالكثير إلى تشارلز هوكيت Charles Hockett الذي تعلمت منه الكثير دون أن



أقابله شخصيًا ، فكم من مرة عثرت في كتابه «اللسانيات اليوم State of the Art» أو في أحد منشوراته الأخرى على أصل بعض الأفكار التي كنت أحسبها جديدة . وبالطبع فإن اللوم لا يقع علي عاتق أي من هؤلاء من جراء أي خلل في عملي هذا .

ومن دواعي سروري أن أتقدم بالشكر للقائمين على مكتبة جامعة لانكاستر والمتحف البريطاني لما أبدوه نحوي من مساعدة قيمة بحماسة طوعية . وينبغي أن أتقدم بشكري الى جامعة لانكاستر أيضا التي منحتني الوقت الكافي للكتابة . كما أشكر الرابطة الأمريكية لتقدم العلوم والجمعية اللسانية الأمريكية لنحي الإذن بالاستشهاد بنصوص من كتاب إدوارد ساپير Edward Sapir في الصفحات ١٠٦-١٠٧ .

وإنني عاجز عن التعبير عن مدى شكري لفيرا Vera .

انغلتون ، يوركشير

سبتمبر ١٩٧٧م

## المحتويات

مقدمة المترجم .....	هـ
مقدمة المؤلف .....	ز
الفصل الأول: تمهيد: القرن التاسع عشر .....	١
الفصل الثاني: «سومير» واللغة بوصفها حقيقة اجتماعية .....	٢٥
الفصل الثالث: الوصفيون .....	٥١
الفصل الرابع: فرضية سابير وورف .....	٧٩
الفصل الخامس: اللسانيات الوظيفية: مدرسة يراغ .....	١٠٥
الفصل السادس: نوم تشومسكي والنحو التوليدي .....	١٣٥
الفصل السابع: نحو العلاقات .....	١٧٥
الفصل الثامن: الصوتيات الوظيفية التوليدية .....	١٩٧
الفصل التاسع: مدرسة لندن .....	٢٢٥
الفصل العاشر: الخاتمة .....	٢٥٣
الهوامش .....	٢٦١
المراجع .....	٢٧٩
ثبت المصطلحات (عربي - إنجليزي) .....	٢٩٥
(إنجليزي - عربي) .....	٣٠٣
كشف الموضوعات والأسماء .....	٣١١

## تمهيد: القرن التاسع عشر

يعالج هذا الكتاب في المحل الأول تطور اللسانيات في القرن العشرين . وعني عن القول إن الدراسة العلمية للغة لم تبدأ في هذا القرن ، غير أن السنوات القريبة من عام ١٩٠٠ م تمثل منعطفًا مهمًا في تاريخ اللسانيات الحديثة . ففي ذلك الوقت على وجه التقريب ، عبرت اللسانيات اتجاهها في أوروبا وأمريكا ، كل على حدة ، مما جعل الكثير من منجزات القرن التاسع عشر في هذا الميدان تبدو بعيدة نسبيًا عن اهتمام اللسانيين في السنوات الأخيرة . ولا يعني هذا أننا أن اللسانيات في القرن العشرين اختراع جديد لا صلة له بالماضي ، بل على العكس تمامًا . فالعالم نون تشومسكي Nonn Chomsky ، وهو أكثر اللسانيين المحدثين تجددًا في كثير من النواحي ، يؤكد العلاقة بين عمله وعمل فيلهلم فون هومبولدت Wilhelm von Humboldt (١٧٦٧ - ١٨٣٥ م) وأعمال الفلاسفة العقلانيين في القرن السابع عشر في فرنسا . بيد أننا إذا أردنا أن نحدد لحظة تفصل بين ما يمكن أن يسمى «التاريخ» و«الفصايا المعاصرة» في تيار البحث لنعوي ، وجدنا أن بداية القرن الحالي تفي بالغرض .

لقد كان التحول الذي حدث في تلك الآونة انتقالًا من اللسانيات التاريخية historical linguistics إلى ما يسمى باللسانيات التزاممية synchronic linguistics وتعرف اللسانيات التاريخية أيضًا باللسانيات النحائية diachronic linguistics أو بفقه اللغة philology . وقد هتم هذا النوع من اللسانيات على البحث اللغوي إبان القرن التاسع عشر ممثلًا في البحث في تاريخ اللغات واكتشاف العلاقات بينها وإعادة تركيب اللغات الأولى المعهودة ، وهي التي انحدرت منها عائلات اللغات الموجودة حاليًا . أم اللسانيات التزاممة فتعتمد على تحليل اللغات باعتبارها نظم تواصل كما هي عليه في

لواضع خلال حصة معينة من الزمن (غالباً ما يكون في الحقبة الحاضرة) مع إهمال الطريق  
سدي سلكته تلك اللغات حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن (وهذا ما يفعله الأطفال  
بها).<sup>(١)</sup>

وليس من السهل بتاتا استيعاب الأفكار الجديدة في معزل عن المساح الفكرية  
التي كان سائداً لدى تلور تلك الأفكار والتي جاءت بمثابة رد فعل عليه وبعبارة  
ذلك، سأحدد في الفصل الأول الاتجاهات الفكرية التي حدثت في القرن التاسع  
عشر إلى اتساع المنهج التاريخي وذلك توطئة لما سأستعرضه في الفصول اللاحقة من  
آراء مديلة في اللغة ظلت تطرح منذ أخذ ذلك المنهج التاريخي في الانحسار.

ويسهل على المتدنيين في اللسانيات اليوم رفض آراء فقهاء اللغة philologists  
لذين عاشوا في القرن التاسع عشر على أساس أنهم كانوا أناساً دقيقين يدفعهم حب  
تجميع الحقائق لذاتها بدلاً من اللذة التي تنتج عن التنظير. لكن مثل هذا الحكم حاطىء  
كل الخطأ صحيح أن جزءاً من الجهد الهائل الذي كرس للدراسة التاريخية لعائلة  
اللغات الهندوأوروبية<sup>(٢)</sup> كان وليد المزاج الشخصي مقابل الاعتبارات الخاصة  
بإستراتيجية البحث العلمي العقلاني. وقد حدث تحول التركيب من فقه اللغة التقليدي  
إلى اللسانيات الجديدة بادية الأمر في ألمانيا (وبالفعل فقد كانت اللسانيات في القرن  
التاسع عشر مبحثاً ألمانيا بصورة رئيسة) وسارت الدراسات اللسانية بلغات  
الهندوأوروبية (ويسمىها الألمان: اللغات الهندجرمانية Indogermanisch) حياً إلى جانب  
مع تلك الحركة النموية والفكرية العامة التي شأت في نهاية القرن الثامن عشر واستمرت  
حتى منتصف القرن التاسع عشر في ألمانيا، والتي تعرف بالحركة الرومانسية، بما عرف  
عنها من رفض لكل ما هو تقليدي وتركيزها على الحذور الثقافية والعرفية المحلية  
(تنصص الرابطة بين اللسانيات وهذه التيارات الفكرية والحمالية الأشمل بشكل خاص  
في أعمال عدد من الكتاب مثل ي. ج. هرر G. Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣ م) الذي  
كان الشخصية الرئيسة في الحركة الأدبية المعروفة باسم العاصفة والاندفاع Sturm und  
Drang والذي جمع التراث والأعاني الشعبية التي يعود تاريخها إلى بواكير حضارة  
الشعب الألماني ومن أكثر ملفاته تأثيراً كتاب (رسالة في أصل اللغة Treatise on the  
Origin of Language ١٧٧٢) وهك أيضاً ياكوب غريم Jacob Grimm (١٧٨٥ - ١٨٦٣)

وهو من مؤسسي اللسانيات الألمانية الذي جمع مع أخيه فيلهلم Wilhelm مختارات من الحكايا الألمانية الشعبية اشتهرت في جميع أنحاء العالم . ولما كان من المفترض انذاك أن العرق واللغة والحضارة على صلة وثيقة بعضها ببعض ، فقد استحوذت إعادة بناء التاريخ القديم للغة الألمانية ومجموعات اللغات الأخرى على اهتمام الإحساس الرومانسي .

ولكن كانت هناك عوامل أخرى تتجاوز هذا العامل بكثير . فقد ارتبطت الأفكار المرتكزة على أسس تاريخية ، والتي نساها اللسانيون في القرن التاسع عشر ، بالتوصع العام للعلم في تلك الآونة .

فمن الشائع في تاريخ العلم أن تحقق بعض المبروع مخاحا باهرا خلال حقبة معينة من الزمن يجعلها نماذج تحتذى لبقية العلوم . وهكذا فإن من شبه المحتم أن يلجأ لعلماء الذين يحاولون إجراء بحوث علمية في طواهر جديدة إلى محاكاة الأساليب واسطرييات التي تقدمها العلوم «الأموذجية» . ولقد أدخل توماس كون Thomas Kuhn (١٩٦٢م) ، وهو من فلاسفة العلوم الحديثين ، عبارة «الأموذج المشترك paradigm» ليبين كيف أن التفكير في موضوع معين ، وخلال فترة معينة من الزمن ، يتحدد عادة بأفكار تشكل فيما بينها نظاما متماسكا إلى حد ما ، وتكون هذه الأفكار بمثابة افتراضات ضمنية تتعلق بمدى المرصيات الممكنة التي قد تراود فكر العالم أكثر من كونها معتقدات صريحة لنظرية علمية . ويعتقد الفيلسوف كون أن أهم مراحل التقدم في العلوم لا تحدث إلا فيما ندر ، كأن يتمكن العلماء من التحرر من الأغلال الفكرية السائدة ، فيرصدون فرصيات كان أجدادهم يتمسكون بها كأنها أمور بديهية (مثلا حدث عندما استجاب إيششاين Einstein لبعض المشكلات المتعلقة بسرعة الضوء الظاهرية وقال «إن مفاهيم المكان والزمان والكتلة ربما تعتمد على الناظر بدلا من كونها كميات مطلقة»<sup>(١)</sup> ولما أن يستعمل عبارة «الأموذج المشترك» التي أدخلها الفيلسوف «كون» أيضا معنى أشمل بحيث تشكل نظرة المشتغلين بعلم باجج بصمة خاصة «أموذجا» لا يعنى بذلك العلم في حد ذاته ولكن معلوم أقل تطورا أيضا . ولقد شهد القرن التاسع عشر أمموذجين مشتركين أصابا قدرا كبيرا من النجاح في هذا المجال .

لقد تمثل النموذج الأول بالميزياء الميكانيكية التي أناحت لنا وصف كل الظواهر  
معدنية القوة والحركة التي تتسم بالبساطة والتحديد حتى أصبح باستطاعتنا من حيث  
مبدأ أن نتكهن بما سيؤول إليه العالم في المستقبل إذا عرفنا أوضاعه الحالية معرفة كاملة  
[هذه الفكرة عبر عنها لابلاس Laplace تعبيراً كلاسيكياً في مقدمة كتابه «النظرية  
الحسابية للاحتمالات Théorie analytique des probabilités» (١٨٢٠م) لكنها أصبحت  
في القرن الحالي تعدّ تنبؤاً نظرية الكم quantum] أما النموذج المشترك الثاني فكم  
نظرية التطور في علم الأحياء بواسطة الانتخاب الطبيعي والتي نشأت من الاهتمام  
بواسع بالتاريخ الطبيعي الذي ساد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبلغ ذروته  
في كتاب داروين «أصل الأنواع The Origin of Species» (١٨٥٩م) وعاصفة الجدل  
التي أثارت حوله.

ومن الفيزياء اقتبس فقهاء اللغة philologists فكرة وصف تاريخ تبدل الأصوات  
في لغة وفق قوانين تطبق بالطريقة نفسها على سلسلة كاملة من الأمثلة بدلاً من  
مناقشة كلمات مفصلة بسرد مستقل لكل حالة يعالج فيها المؤرخ (بالمعنى المؤلف)  
الناس والأحداث. فعلى سبيل المثال كان من أول هذه الاكتشافات التبدل الذي طرأ  
على الصوامت consonants في اللغة الجرمانية الأولى Proto-germanic والذي يعرف  
بقانون غريم Grimm's Law (مع أن رارموس راسك Rasmus Rask الدنماركي كان في  
الخلفية أول من أشار إليه في عام ١٨١٤م) فالصوامت في الفرع الجرمانى من اللغات  
بهندو أوروبية تحولت على النحو التالي:

الهندو أوروبية الأولى	الجرمانية
الصوامت الانفجارية المهموسة [p, t, k] <	< احتكاكية مهموسة [f, θ, x]
الصوامت الانفجارية المجهورة [b, d, g] <	< انفجارية مهموسة [p, t, k]
الصوامت المجهورة التقية [bh, dh, gh]	< انفجارية مجهورة [b, d, g]

وبما أن الصوامت في الفروع الهندو أوروبية الأخرى بقيت دون تغيير (أو أنها  
تطورت بشكل مختلف بحيث أصبحت الصوامت المجهورة التقية في اللغة الأوروبية  
لأولى مهموسة تقية [ph, th, kh] في اليونانية الكلاسيكية، وهذه أصبحت بدورها



أصواته احكامية مهموميه في اليونانية الحديثة) فإن تبدل الصوامت في اللغة الجرمانية يعطي العديد من الكلمات المتشابهة في المعنى رغم اختوائها على صوامت متباينة في سمات المختلفة . قارن مثلاً الصوامت في أول كلمة thyra اليونانية وكلمة door الإنجليزية و genos اليونانية و kun الإنجليزية و pous اليونانية و foot الإنجليزية<sup>(١)</sup> . إن «قانون غريم» يختصر منات من مثل هذه الحالات في ثلاثة قوانين بسيطة .

لقد كان فرانز بوب Franz Bopp أول من استعمل كلمة Laugesetz والتي تعني قانون الأصوات في عام ١٨٢٤م (فكسلر Wechsler ١٩٠٠م ، ص ٤٠٠) حتى إن بوب قدم ما أسماه بالتفسير الميكانيكي للظاهرة الهندوأوروبية والذي يعرف بإبدن صوامت ablaut أي تناوب الصوامت vowels المختلفة في جدول التعبير الصوري الذي م رينا ندنس آثاره في تصريف الأفعال الإنجليزية القوية مثل sing, sang, sung كما يستشهد بقوانين الحادية لدى الحديث عن الورن السبي للمقاطع المختلفة (انظر دلهبروك Delbrück ، ١٨٨٠م ، ص ٦٨ و ٦٩) وإذا كانت هذه المحاولة مقصودة حرفياً فهي لا تعدو كونها محاولة بسيطة لتطبيق مكتشفات أحد العلوم على مادة علم آخر) . ولم تكن القوانين الصوتية التي وضعها بوب سوى تعبيرات عن اتجاهات عامة ، حيث لم ير ضرورة تفسير الحالات التي تحالف القاعدة العامة لكن مفهوم (قوانين الأصوات) باعتبارها قوانين علمية حقيقية تشبه قوانين الفيزياء ، ارداد صرامة مع مرور الزمن . وما إن حل الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى فتح الباب على مصراعيه أمام الأمثلة المضادة لقانون الأصوات شريطة أن تكون قابلة للتفسير وفق قوانين معينة خاصة بها .

وفي الوقت الذي قدمت فيه الفيزياء الميكانيكية النموذجاً مشتركاً واحداً للمسابيات ، كتب عدم الأحياء بالتأكيد أشد تأثراً عليها . فبما كان الفكر الألماني يميز بين naturwissenschaften أي العلوم الطبيعية و geisteswissenschaften أي العلوم الأخلاقية ، أو ، إن شئت استعمال المصطلح الحديث ، بين «العلوم» و «الفنون» أي «الإنسانيات» ، حرص اللسانيون على الوقوف إلى جانب الطرف الأول . ولكن إذا كان اللسانيات أن يصنف ضمن العلوم الطبيعية ، وجب أن يكون اللغة نوعاً من الكيان القابل للوصف الموضوعي ، شأنها في ذلك شأن بقية الأحسام الموحدة في الطبيعة . وليس من اللائق

أن يفسر كلمة «اللغة» على أنها مجرد وسيلة مفيدة للدلالة على شتى سميات الحياة الفكرية الإنسانية المحصورة لأمة من الأمم. كما قد يعتقد مؤيدو المنهج «الإنساني» على انعكاس من المنهج «العلمي». (وقد لا يكون هذا تحديداً واضحاً لموقف العلوم الإنسانية من اللغة، فليست متأكداً من وجود عبارة أكثر وضوحاً في هذه المرحلة، لأن وضع اللغة كمادة بدراسة العلمية مازال مشكلة حذيفة). ولقد تمثل الحل الذي رآه علماء اللغة في الغرب التاسع عشر في رؤية اللغات كصنف من أصناف الكائنات الطبيعية، شأنها في ذلك شأن النبات والحيوان. وفي هذا السياق يكتب بوب (Bopp ١٨٢٧ م، ص ١):

«يجب أن نطرح إلى اللغات على أنها أجسام عضوية *naturkörper organische* تشكلت تبعاً لقوانين محددة وتحمل بين جناتها مبدأ الحياة. إنها تتطور وتموت تدريجياً بعد أن تفقد قدرتها على فهم ذاتها، فهي تسد المفومات والأشكال التي كانت ذات أهمية في الأصل والتي أصبحت شيئاً فشيئاً روالاً سطحية سبياً، أو قد نشوهها أو قسيء استعمالها»

وقد عبر أوجست بوب August Pair عن آراء مشابهة بعد ذلك بعدة سنوات (١٨٣٣ م، ص ٢٧) حين قال:

«إن اللغة تتغير باستمرار خلال حياتها، شأنها شأن كل الأجسام العضوية *organische naturgegenstand* حيث تمر في فترة حمل ونمو، وتمررات نمو متسارعة أو متباطئة، كما أد لها فترات ازدهار وانحلال وانقراض تدريجي...»

ومن الصعوبة بمكان أن نرى الآن كيف يمكن أن يكون قول بوب إن اللغة «تفقد قدرتها على فهم ذاتها» أكثر من مجرد تعبير ملاحي (انظر ص ٢٩ و ٣٠). أما بالنسبة للأحرار فإن هذه الملاحظات تبدو معقولة رغم أنها لا تحظى بتأييد الكثيرين في يومنا هذا. صحيح أن اللغات هي من نتاج العقل البشري، إلا أنها تتمتع على ما يبدو بوعى خاص من الحياة. فهي ليست أشياء مصطنعة وصفت عن سابق إصرار كالمؤامرات الموسمية أو تصاميم الطائرات. وهكذا فإن اللغة الإنجليزية التي كانت سائدة قبل العزو تطورت تدريجياً إلى إنجليزية شومر وإنجليزية شكسبير، وإلى أنواع الإنجليزية الحديثة التي نعرفها اليوم دون سابق تصميم من جانب الساطقين بها. رد على ذلك أن مجموعات اللغات أساسها تماماً كيفية أنواع الكائنات الحية. وكما رأينا أنها فإن الفرنسية وإيطالية والرومانية انحدرت جميعها من اللاتينية، بينما انحدرت الإنجليزية

وسروية من الجرمانية الأولى . كذلك انحدرت اللاتينية والجرمانية الأولى ، وكذلك  
 العديد من اللغات المعروفة أو اللغات القديمة التي يفترض أنها كانت موجودة ، من  
 لغة موعلة في القدم هي الهندو أوروبية الأولى Proto-indo-european . ولا شك في أن  
 هذا يدركنا موقف علم الأحياء الذي يقول إن الإنسان والشمبانزي والعوريللا انحدروا  
 جميعا من فصيلة مفترضة من القروود ، بينما انحدرت القطاة والأسد والسم من فصيلة  
 أسوريات الأولى المفترضة ، مثلما انحدرت فصيلة القروود الأولى وفصيلة السوريات  
 الأولى أيضا من أصل مشترك في العصور الجيولوجية السحيقة . وفي بداية القرن قبل  
 بعض العلماء ومن بينهم فريدريك فون شليغل Friedrich von Schlegel (١٨٠٨ م ،  
 ص ٢٨) وياكوب عريم (١٨١٩ م ، ص ١٢) إن أقرب العلوم إلى علم السحور المقارن  
 الجديد هو علم التشريح المقارن . ولقد جاء ذكر ما يعرف بنظرية stammbaum أو شجرة  
 نسب في التطور اللغوي رسميا لأول مرة على لسان أوغست شلايخر August  
 Schleicher (في كتابه «الخلاصة» Concpndium ١٨٦١ م) الذي وافق تقريبا ظهور كتاب  
 «أصل الأنواع» لداروين (وقد نشر في إنجلترا عام ١٨٥٩ م ، كما نشرت ترجمته الألمانية  
 عام ١٨٦٠ م) . وقد لفت نظر شلايخر إلى كتاب داروين صديقه أرنست هاكل Ernst  
 Haeckel (وهو من أوائل أنصار مبدأ الارتقاء البارزين) ، فرد شلايخر (الذي عاش بين  
 ١٨٢١ م و ١٨٦٨ م) بنشر بحث قصير عام ١٨٦٣ م بعنوان «نظرية داروين واللسانيات»  
 جاء على شكل رسالة مفتوحة موجهة إلى هاكل يجادل فيها بأن من واجبا أن ندرج  
 اللسانيات ضمن فئة العلوم الطبيعية التي تخضع لنظرية داروين (إن شلايخر لم يقل  
 هذا ، ولكن يمكننا القول أن الداروينية من الناحية التاريخية مديرة إلى اللسانيات ، كما  
 أن العكس صحيح : انظر هايك Hayek ، ١٩٦٠ م ، ص ٥٩ ويومير Newmeyer ،  
 ١٩٧٥ م) إن العائلات اللغوية واللغات واللهجات واللهجات الفردية عند اللغوي  
 تقابل الجنس والنوع والفصيلة والسلالة والأفراد عند عالم الأحياء<sup>(١)</sup> . فاللغات  
 وعائلاتنا ، شأنها شأن الأنواع ، تتنافس فيما بينها بما يعرف «بالصراع على البقاء»  
 (انظر مثلا إلى الجزر البريطانية وكيف انتشرت اللغة الإنجليزية على حساب اللغات  
 الكلتية . فاللغة الكورنية Cornish واللغة المانكة Manx انقرضتا ، والويلزية Welsh  
 ولعيبية الأسكتلندية Scottish Gaelic لا تزالان على قيد الحياة لكنهما في انحسار مستمر

أمام رجع الإنجليزية. أما الإيرلندية Irish فيحافظون عليها صناعيًا في منطقة صغيرة وكأنها نوع من الحيوانات المهددة بالانقراض تعيش في محمية خاصة. وعلى اسطقس العالمي رأى شلاحر أن عائلة اللغات الهندوأوروبية احتلت موقع الصدارة من ناحية بلعوية مثلما سطر الإنسان على سواه من الكائنات الحية.

ويقول شلاحر في إحدى المناسبات، وفي قوله بصيب وافر من الصحة، إن من السهل إثبات مصداقية التفسير الارتقائي في اللغة أكثر منه في مملكتي الحيوان والنبات. فمن الصعوبة بمكان بالنسبة لعالم الأحياء أن يثبت بالفعل فرضيته بشأن وجود الفصيلة العليا اللازمة لتفسير العلاقات بين السلالات الحالية نظرًا لأنها انقرضت منذ أمد بعيد ولم تترك سوى مستحاثات ضئيلة. وبما أن المقياس الزمني للتغير في اللغة أقصر بكثير، فإنه من الممكن غالبًا دراسة الحقائق المعنية دراسة مباشرة بدلا من الاقتصار على الفرضيات. وهكذا نجد أن لدينا عددا كبيرا من الوثائق مكتوبة لا بدغات الرومانسية فحسب ولكن باللغة الأصل التي انحدرت منها تلك اللغات وهي اللاتينية، بالإضافة إلى وثائق مكتوبة بتلك اللغات وهي في مراحلها الانتقالية من اللاتينية إلى ما هي عليه اليوم. ولم يستطع أحد أن يدعي أن اللاتينية هي من بنات أفكار اللسانيين كما حدث بالنسبة لفكرة الأصل المشترك للإنسان والقرود التي اعتبرها معارصو نظرية الارتقاء غير جدية بالاهتمام. (وبالعمل فقد استعمل السير تشارلز لايل Sir Charles Lyell، ١٨٦٣م الفصل ٢٣، هذه المناقشة في تدعيم نظرية الارتقاء في علم الأحياء). ولا أعقد أن الاعتراض التقليدي الذي يوجه ضد نظرية شجرة النسب التي وضعها شلاحر ينتمى بالقوة التي نسب إليه غالبا. ففي عام ١٨٧٢م قال يوهان شميدت Johannes Schmidt إن أشمودج شجرة النسب أحقق في التوافق مع حقائق اللغة الهندوأوروبية وهو الذي كان شلاحر قد وضعه من أجلها. فهي كثير من الحالات كانت هناك سمعة مشتركة بين مجموعتين لعونتين متاعلنيتين نسبيا في شجرة شلاحر، وبتل (أ) و (ب)، في الوقت الذي كانت فيه تلك السمعة مفقودة بين مجموعتين أخرى معطرة مما يفرض أن الأصل المشترك للمجموعتين (أ) و (ب). ولم يكن بالإمكان تصحيح ذلك الوضع بمجرد تعديل شكل الشجرة بحيث تصح (أ) و (ب) متحدورين لأن (ب) تشترك مع مجموعة ثالث، ولتقل (ج)، سمعة أخرى مفقودة في

(أ) وحسما يمول شميدت فإن مثل هذه المكشحات لا يمكن تفسيرها إلا بالاستعانة عن نظرية شجرة النسب واستبدالها برؤية التبدل اللغوي من خلال التجديدات التي يصهر في معاط حمرافية مختلفة ثم تمتد إلى مناطق عشوائية بحيث تبدو اللغات الناجمة منذ حينه فيما بينها بدلا من أن تشكل نية هرمية. ولو افترضنا اهتمامنا على أحدث مراحل هذه العملية وهي تشعب اللغات الحديثة إلى لهجات محلية، لكان من المؤكد أن نلاحظ تداخل خطوط التماثل مع بعضها البعض في خرائط اللهجات 'isoglosse'، وهذا عكس ما تنص عليه نظرية شجرة النسب التي وضعها شلايخر (ولو مفيد B cornfield ، ١٩٣٣ م، ص ٣٢٥). وإذا لم تتفق نظرية الموجة Wave Theory التي وضعها شميدت مع نظرية شجرة النسب، تلاشى عندئذ القياس على التصنيف المتبع في علم الأحياء. لكن تداخل خطوط اللهجات المتماثلة ضمن إقليم اللغة الواحدة لا يرب من نظرية شلايخر. فتلك الخطوط ما هي إلا قرائن لطفرات مختلفة ظهرت بين أفراد سلالة معينة ومن ثم ورثتها مجموعات متداخلة جزئيا من أحفاد هؤلاء الأفراد. وهذا أمر طبيعي تماما ويتفق مع مبدأ الداروينية. وفي عام ١٨٧٦م قام أوغست لسكاين August Leskien باختبار نظريتي شلايخر وشميدت وأعلن أن ليس ثمة تناقص بينهما<sup>(٧)</sup>.

وقد يشعر بعض القراء، كما شعر شلايخر، أن الادعاء بأن اللسانيات فرع من فروع علم الأحياء بكل معنى الكلمة، شأنها شأن علم النبات والحيوان، أمر لا يقبله لعقل فمن الجلي أن اللغات ليست أحساما مادية، إذ لا يمكن أن نتكهن بوجود سمات وطبيعتها، أو حتى اللهجات الفردية، إلا عن طريق سلوك المتكلمين، وليس بملاحظة المباشرة كما في النبات والحيوان. ويبدو أن هذا يستبعد مقدما احتمال اعتبار نظرية داروين على أنها تقدير أكثر من مجرد تعبير مجازي إيحائي مألوس للسانيات غير أن حكما كهذا خاطيء تماما. فما يميز الحياة عن الجماد لا يزال مرآ من الأصرار وده سلما منذئذ بأن اللغات وحدات قائمة للوصف أصلا، وأنها مشتركة، ولو سطحيًا على الأقل، بعدد من الخصائص مع كائنات حية أخرى تنتمي إلى الأصناف المعروفة، فرب لا نملك الحق سلفا في تجريد اللغة من صفة الكائن الحي. ولكن علينا بدلا من ذلك أن نبحث فيما إذا كان التعمق في الدراسة يبيّن بالفعل خصوع اللغات لقوانين

علم الأحياء نفسها التي تتسحب على مملكتي الحيوان والنبات. وعندما اتضح بعد كل ذلك أن قوانين علم الأحياء لا تنطق على اللغة بمعنى أن الكائنات الوحيدة التي تدخل ضمن نطاقها هي النباتات والحيوانات المادية تكرم بعض العلماء مثل لين (1909م، ص 315) - بتفسير المساواة التي وضعها شلايحر بين التلسيبيات وعلم الأحياء على أنها مساواة مجارية لا حرية، بينما انتقد آخرون المواقف المشبهة بوقوف شلايحر كما لو كانت تناقض نفسها. وهذا ما عيّر عنه حوليانو بومفرتي (Guiliano Bonfante 1941م، ص 295) حيث يقول: «إن اللغات مخلوقات تاريخية وليست كالحصر» ولم تبلغ البلاهة بشلايحر ومعاصريه حد الافتراض بأن سمات أجسام محسوسة مثل الحرر، مع أنهم في الحقيقة لم يكتشفوا جيداً أوجه الخلاف بين القوانين التي تحكم كلا من تطور اللغات وتطور الحُصر<sup>(١٨)</sup>

وقبل مائة سنة كان المنهج التاريخي هو المتبع في دراسة اللغة، كما بدت لسانيات التاريخية وكأنها الأفاق التي تبشر بتحقيق إنجازات علمية جديدة ومثيرة. وعندما أشرف القرن التاسع عشر على نهايته نصاءل احتمال تحقيق تلك التوقعات لأسباب عديدة.

كانت المشكلة الأولى تتعلق بجهة التعبير. فمن الأشياء الجوهرية في التطور هي علم الأحياء أن إحلال سلالات جديدة محل القديمة ليس مجرد عملية تعبير عشوائية (حتى لو كانت الطفرات المتفرقة التي يعتمد عليها مبدأ التطور عشوائية)، لكنه حركة تسير من الأدنى إلى الأعلى والطفرات التي تنجح في الانتشار هي التي تعطي صاحبها ميزة في معركة الصراع من أجل البقاء، وفي الوقت نفسه تخلصه من مواطن الضعف وهذه الفكرة - أي أن أشكال الحياة المختلفة تحت درجات مختلفة على سلم الارتفاع - ليست بآه حال من الأحوال سمة جديدة في نظرية داروين عن الانحدار المصحوب بسعدي فقد كانت الفكرة معروفة بالطبع منذ زمن أرسطو كمبدأ فلسفي ودسي سلسلة الوجود العظمى، وقد ساد تأثير هذا المفهوم بشكل خاص في القرن الثامن عشر (لوجوي Lovejoy 1936م).



وفي كثير من الحالات سلم علماء اللسانيات التاريخية في القرن التاسع عشر أن التعبير اللغوي يملك جهة معينة أيضا . فعلى حد تعبير راسك (Rask ١٨١٨ م ، ص ص ٣٥ - ٣٦) تصبح اللغات أكثر ساطعة بمرور الزمن :

«إن اللغة التي تمتلك أدق أنواع القواعد grammar هي أكثر اللغات صلاء وأكثرها أصالة، وهي الأقدم والأقرب إلى الأصل ، لأن التصريعات والمهايات تنعصر للتأكل أثناء تطور اللغات الجديدة ، كما تتطلب رماء طويلا وقدرام الاحتلاط مع الشعوب الأخرى لكي تتطور وتعيد تنظيم نفسها من جديد . وهكذا يرى أن اللغة التركيبية أبسط من الأيسلسدية ، والإنجليزية أبسط من الأنكلوسكسوية ، وكذا الحال بالنسبة للعلاقة بين اليونانية الحديثة واليونانية الكلاسيكية وبين الإيطالية واللاتينية وبين الألمانية والفوطية وهكذا بالنسبة لجميع الحالات المعروفة لدينا»

ويبدو أن ادعاء راسك هذا بيان يتضمن تعميما تحرييا صرفا بشأن الحقائق الملحوظة . فمن المؤكد أنه صحيح بالنسبة للحالات التي يوردها (باستثناء أن الألمانية اليوم لا تعتبر أنها انحدرت مباشرة من لغة مقرصة اسمها الفوطية Gothe ) ، وليس من الواضح ما إذا أراد راسك لادعائه ذلك أن يكون فرضية قوية حول ما هو ممكن في لتعير اللغوي - فالعارة التي تقول «تتطور وتعيد تنظيم نفسها من جديد» تبدو وكأنها تمسح المجال أمام بعض الحالات التي تتحرك اللغات فيها نحو المزيد من التعقيد . ومع ردياد قوة الحجة التي قدمها القياس على علم الأحياء ، اردادات أهمية الاعتقاد بوجود جهة لتعير اللغوي هي وضع النظريات اللغوية . فمن هروع النظرية التي تقول بوجود جهة للتطور اللغوي فرع يصح على إمكانية تصنيف اللغات في عدد صغير من الأنوع ، هي في العادة ثلاثة : اللغات العارلة isolating وفيها تألف الكلمة من جذر حمد (وكثيرا ما بصرب المثل على هذا النوع من اللغات بالصينية والعيبسامية) ، وسمعات اللاصمة agglutinating وفيها تحوي الكلمات على لواحق بالإضافة إلى الجذر مع وصوح تقسيم الكلمة إلى جذر ولواحق . هي التركيب مجد أن كلمة sevırdırınmek ، وتعني «يحبون في بعضهم البعض» ، تقسم إلى sev يحب و ır للمشاركة و air للنسبة و ın لإنشاء صعه المني للمجهول و mek وتدل على المصدر . وهلك اللغات

المتصرفة inflecting) كالسنسكريتية واليونانية الكلاسيكية واللاتينية وبقية اللغات التي وصفها راسك بأنها معقدة نسبيًا). وفي هذه اللغات تشتمل الكلمة الواحدة على عدد من (وحدات المعاني) إلا أننا لا نستطيع أن نسب لوحدات المعاني هذه أجراء مميزة في الكلمة ككل. وهكذا نجد أن كلمة «سُحِبَ» تدل على جمع مؤنث في العربية بالرغم من تعدد فصل الجزء الذي يدل على الجمع عن الجذر المفرد (هذا المثال الأخير هو حالة بالغة التطرف - لكننا نستطيع غالباً أن نفصل الجذر على الأقل عن السهبات الصرفية دون لبس في اللاتينية، لكن الهدف من الأوصاف الثلاثة هو استعمالها «كمادح مثالية» للغات، مع الاعتراف بأن اللغات الحقيقية تتوزع ضمن حدود هذا التقسيم). ويشير أوتو يسبرسن Otto Jespersen إلى أن أوغست August، شقيق فريدريك فون شليغل، هو الذي أدخل التصنيف الثلاثي، وهو يعتبر أن اللغات التصريفية هي الأسمى<sup>(١)</sup>. وقد صنف «أوغست شليغل» اللغات المتصرفة إلى نوعين: تركيبي وتحليلية. فالنوع الأول يمثل اللغات المتصرفة بكل معنى الكلمة، بينما يشمل النوع الثاني بعض خصائص النوع العارل (كحروف الجر بدلاً من روائد الإعراب، وضمائر الماعل مع نصريفات الأفعال)، واعتبر تاريخ اللغات الرومانسية عملية تحليل من اللاتينية التركيبية إلى اللغات التحليلية الحديثة كالفرنسية.

ولم يشعر أوغست شليغل على ما يبدو بأن سلسلة اللغات العارلة واللاصفة والمتصرفة إنما تمثل تقدماً تاريخياً (والسبب في اختراعه فكرة «التحليلية» بدلاً من قوله بـ «اللغات الرومانسية تتحد من التصريف وتفترب من العرل يعود في أغلب الظن إلى اعتقده أن من البدهي أن تكون العنوية هي إحدى هذه المجموعات الثلاث الرئيسة جراً من الجوهر الثابت لمحتوى اللغة، بحيث لا يمكن أن تكون أية لغة عارلة إذا كانت مستمدة من اللاتينية). ولا يوافق كل من ناقش تصنيف اللغات على أن اللغات المتصرفة كانت في الواقع «أفضل» أو «أسمى» من اللغات العارلة. ويشير «فيلهلم فون همبولدت» (١٨٣٦ م، القسم ٢٤) إلى أن لكل من النوعين مزاياه الخاصة ومحدول منتصف القرن التاسع عشر ادعى شلايخر Schleicher (١٨٤٨ م) أن تاريخ اللغات القديم يشمل على تطور منتظم من العرل إلى اللصق ومن ثم إلى التصريف، وأن هذا هو تطور من النقص نحو الكمال

والمشكلة هنا هي ادعاء راسك أن التعبير يشجع نحو البساطة، أي من التصريف إلى العزل. بينما نجد أن التطور بالنسبة لشلابخر يتجه من العزل نحو التصريف. لكن شلابخر توصل إلى حل التناقض الظاهر بتعليم حجة اقتنساها من فلسفة هيجل Hegel كان لها قرين شديد الشبه في نظريات علم الأحياء التي ظهرت فيما بعد وينبغي علينا، نعا للمحجة التي أوردها «شلابخر»، أن غير تطور الإنسان في عصر ما قبل التاريخ عندما كان خاضعا للقوانين نفسها التي تحكم بقية الطبيعة الحية والخامدة، عن عصر التاريخ حين وصل الإنسان إلى درجة مكنته من تطوير إرادته والارتقاء إلى ما فوق قوانين الطبيعة العمياء. وهذا يقول شلابخر (وهو يسير على خطى هيجل Hegel ١٨٣٧ م، ص ٦٢ - ٦٣) إن تطور اللغة واكسب في أغلب الظن تطور الفكر بحيث وصلت اللغة مع الفكر حد الكمال في الوقت نفسه؛ فالأدب لا يبدأ إلا عندما يكون فكر الإنسان قد تطور بشكل كامل، ولهذا فإن أشكال اللغات الكلاسيكية الأولى كانت متصرفة إلى حد بعيد، ولا يمكن أن تتكهن بأنها مرت بمراحل كانت فيها لاصقة وعازلة إلا باستنتاج ذلك سلفا وبفافتها ملغات القبائل التي لا تراا أمة حتى الآن. وبمجرد الوصول إلى مرحلة التاريخ يستقل الفكر ويتخلص من اعتماده على شكل اللغة السطحي. ولهذا السبب لا يمكن للغة أن تنحدر إلى أشكال «أدنى»، ومن هنا كانت ملاحظة «راسك».

رثمة اعتراضات واضحة ومهمة على هذا علو أن شمامثل ذكاء الشعب الصيني يمكنه أن يتدبر أمره بلفة كانت، على الأقل في مرحلة التاريخ، معروفة في العزل تقريبا، فمن أين لنا أن نعلم بحاجة الإنسان إلى تطوير لغات متصرفة لكي يحقق قدراته الفكرية؟ وإلى أي مدى نستطيع أن ندمج اللسانيات بعلم الأحياء إذا كان تاريخ اللغات المكتوب لا يبين سوى التراجع بدلا من التقدم<sup>(١٠)</sup>؟ لكن فكرة أن العمل الشري هو تطور لا يمكن تفسيره ضمن إطار التطور الطبيعي، وهو الذي يحرر الإنسان من قود القوانين الطبيعية هي من نقايا اعتراضات الفرد رسل والاس Alfred Russel Wallace لبي وجهها في وقت لاحق من القرن صد تطبيق نظرية «داروين» على الإنسان (والاس ١٨٧٠ م. انظر أنرلي Eiseley ١٩٥٨ م، الفصل ١١) كما أن قول العص إن اللغة بأحد في الاصمحلل بمجرد تحررها من قوانين التطور بتحقيقها حرية الإرادة يسحم

مع الفكرة الشائعة، والممكنة جدا بالتأكيد، بأن نتاج الدكاء الشرقي كالمعرفة الطسه مثلا، لا بد من أن يؤدي الى الانحدار في مستوى كمال الجسم الشرقي لأنه يعطى قانون البقاء للأصلح

وبالإضافة إلى ما تقدم، هاجم فيلهلم شيرر Wilhelm Scherer رأي «شلابجر» اندي يقول إن التطور كمال يتبعه تراجع لأن «شيرر» يتجه بشكل واضح نحو علم الأحياء المعاصر باعتباره حجة تؤيد وجهة نظره عن التبدل اللعوي. وقبل أن يشير لايل Lyell كتابه «مبادئ الجيولوجيا» Principles of Geology عام ١٨٣٠ - ١٨٣٣ م، كان معظم علماء الجيولوجيا يفسرون وجود الطبقات المتتابعة والتي تحتوي على مستحاثات من مختلف درجات التعقيد العضوي في ضوء نظرية الكوارث catastrophist التي اقترنت بالعالم «جورج كوفيه» Georges Cuvier وهي التي تؤكد انقسام تاريخ لتقديم إلى عدد من العصور المنميرة تمصلها عن بعضها البعض أحداث مدمرة، وبعد كل عصر من تلك العصور كانت العناية الإلهية تخلق أشكالا جديدة من العدم. وقد استبدل لايل وجهة نظره هذه بمبدأ الانتظام uniformitarian الذي يقول إن التبدلات التي تثبت بالبراهين الجيولوجية هي نتيجة للعمليات نفسها التي تحدث في يومنا هذا. وهكذا يؤيد شيرر (١٨٦٨ م، ص ١٠) فكرة الانتظام في اللسانيات أيضا قائلا:

«ليس بوسعنا أن نحضي في تجاهل أن التغير بين الارتفاع أو الانخفاض،  
أو كما قبل أيضا - بين طبيعة اللغة وتاريخها، يقوم على خرافة. فأننا من جهتي لم  
ألاحظ سوى تطور، ولم ألاحظ سوى تاريخ»

وعلى الرغم من أن الجدل حول التطور اللعوي تركز أساسا على بنية الكلمة، إلا أن أنصار فكرة أن التعبير اللغوي يسلك اتجاهًا معينًا حاولوا تطبيقها على النظام الصوتي أيضا. وفي عام ١٨٩٣ م قال يان بودوان دو كورتني Jan Baudouin de Courtnay (وهو لغوي بولندي من أصل فرنسي استقر في كوزن آراءه في جامعة «قازان» Kazan في روسيا) إن اللغات تميل نحو استبدال الأصوات التي تنطق من الحنجرة وموارة لهم بأخرى أقرب إلى اللسان والشفيتين. لاحظ مثلا أن الأصوات الخلفية والدهوية كانت شائعة في اللغات السامية (التي هي من أقدم اللغات المدونة)، لكنها نادرة في اللغات التي ظهرت في وقت أقرب، وقارن قواعد التقديم المختلفة التي حصص لها

نصوات اللهوية uvular في اللغات السلافية. ويمثل هذا بالنسبة «الدوان» ميلا نحو تأييس humanization تفقد بفضل بعض اللغات الأصوات الشبيهة بأصوات الحيوانات والتي كانت غير أصولها الأولية («بودوان دو كورتني» ١٨٩٣ م). ولقد لفت فكرة خصوص التبدل اللعوي لقوانين تطور ثالثة قولاً عاماً (رغم الخلاف بشأن الجهة التي يسلكها تطور اللغة). وفي هذا المجال كان النموذج المشترك في علم الأحياء ملائماً للمسايط. ومع ذلك تصاعداً الاعتقاد بوجود معنى معين لتطور اللغة في أواخر القرن. وفي الكتاب نفسه الذي يؤيد فيه بودوان دو كورتني اتجاهية التطور في النظام الصوتي لجده يعارض سابقه مشيراً إلى أن التبدلات الصرفية لا تنم سوى عن «تأرجح» عشوائي (بودوان دو كورتني، ص ٢٤). وهناك أمثلة مضادة بالتأكيد لمكرة أن اللغات في العصر التاريخي تصبح بصفة عامة أقل صرفاً وأكثر عرلاً. فمن المتعارف عليه أن لفرنسية الحديثة أقرب إلى اللغات التصريفية من الفرنسية الوسيطة. خذ مثلاً كيفية اشتقاق صيغة الجمع بواسطة تغير الصوائت المتدرج ablaut vowel كما في *le gars* (الولد، الأولاد) بالمقارنة مع الصيغ الأكثر لصفاً في الفرنسية القديمة *[le garson]* مقاب *les garçons* وقد حدثت تطورات مماثلة في الصينية الحديثة بالمقارنة مع الصينية الوسيطة، وكذلك على ما يبدو في اللغة القطبية بالمقارنة مع المصرية المتأخرة (هوج Hodge، ١٩٧٠ م). وبالإضافة إلى ما تقدم فإن من السهل أن نفند ادعاء بودوان نفسه عن الاتجاهية في النظام الصوتي، ولأخذ مثلاً إبدال الراء الدلقية *apical* بالراء الدهوية *uvular* في الفرنسية الرسمية، أو إبدال *[k ɒ]* بـ *[k ɔ]* بعد معظم الصوائت في اللغة الفينشامية الجيوبية. ومن الصعوبة بمكان هذه الأيام أن نرى أي تبدل لعوي مهما كان مستواه أكثر من كونه سلسلة من الحركات العشوائية دون اتجاه معين مما يؤدي إلى انهيار مبدأ القياس على علم الأحياء. ولقد حافظ بعض العلماء على إيمانهم باتجاهية التبدل اللعوي حتى بعد حلول القرن الثامن عشر حيث أيد هولغر بيدرسن Holger Pedersen نظرية بودوان حول تأييس الأصوات الوظيفية في عام ١٩٢٤ م (بيدرسن ١٩٢٤ م، ص ٢٨ - ٢٨٢). وقد ظل أوتو بيسر من يعتقد أن الانتخاب الطبيعي يسير بالعلم نحو الساطة حتى عام ١٩٤١ م. أما اليوم فلا يحمل مثل هذه الآراء سوى قلة من العلماء<sup>(١)</sup>

وإذا نحلى المرء عن فكرة أن التغير اللغوي يسير في منحى معين، نعتبر عليه أن يواكب «شلايخر» في تطبيق مفاهيم داروين عن الانتقاء الطبيعي و«الصراع من أجل البقاء»، فما هو المقابل في اللغة لفكره أهلية البقاء في علم الأحياء؟ بوسعنا فعلاً أن نسر انتشار بعض اللغات على حساب غيرها تفسيراً ملائماً حداً في ضوء العوامل الاجتماعية مما لا يدع مجالاً لأي تفسير يقوم على الميزات المتأصلة في تصميم اللغة ذاتها. وربما كانت اللغة الإنجليزية أكثر بساطة أو «أكثر تقدماً» ربما ما من الويلزية، لكن انتشار الإنجليزية وتراجع الويلزية يعود بلا ريب إلى كون إنجلترا مركز قوة وثروة على العكس من ويلز. وعندما يتنافس معيار البساطة المتأصلة مع معيار لرقى الاجتماعي على تحديد انتشار لغة دون أخرى فإن المعيار الثاني يبدو بشكل ثابت تقريباً أنه المعيار الفاصل. حد مثلاً إخماق لغة الاسيراتو المستمر على مدى تسعين عاماً بأن تصبح لغة ثابتة واسعة الانتشار رغم بساطتها المتناهية والمعبرات الملموسة الكبيرة التي تتحقق من تبنيتها عالمياً.

وبما كان افتراض وجود معنى محدد للتغير اللغوي بضمحل شيئاً فشيئاً، قوي لاعتقاد بأن التغيرات اللغوية تنشأ من التكلم العردي. وبالعقل فعلى الرغم من أنني كتبت كما لو كان التنفيذ العقلاني لوجود معنى محدد لتغير اللغة هو الذي يضعف الاعتقاد بأن اللسانيات هي فرع من فروع علم الأحياء، إلا أن هذا لا يبرر التطورات النظرية التي حدثت في أواخر القرن التاسع عشر، ولا يصحها وصفاً دقيقاً. وربما كان من الأصح أن نقول إن اللسانيين آنذاك نبوا في بادئ الأمر الأسلوب المهني العام الذي ينص على وجوب معالجة اللغة في إطار نفسية التكلم الفرد بدلاً من معالجتها ضمن إطار روح لغة sprachgeist التي ترتفع في مستوى أعلى وأبعد من تناول العردي. ولم يتبسه اللسانيون لمحنة التي تدحض اعتقادهم المتراجع إلا فيما بعد. (من المؤلف لدى فلاسفة العلوم أن المعلومات المتعلقة بالموضوع لا تلاحظ إلا بعد تبني النظرية التي تكون المعلومات حاسمة فيها. انظر مثلاً لكانتوس Lakatos ١٩٧٠م، ص ١٥٨ - ١٥٩) رد على ذلك أنه على الرغم من إصرار المعسكين بنفسية الفرد على أن منهجهم يختلف عن فكره أن اللسانيات هي علم الأحياء، فإنهم كانوا مخطئين في هذا، كما سأنس فيما بعد. إن تأكيد النفسية الفردية جاء بمثابة رد فعل على إراء اللسانيين السابقين الذين



نُثروا بالرمانسية مثل غريم الذي كان يؤمن بأن روح اللغة *sprachgeist* أو عقل الأمة *volksseele* محدد طبيعة أية أمة من الأمم (أما التعبيرات مثل «عبقريّة اللغة» و«روح العرق» وما شابهها فكانت تستعمل بالتبادل إلى حد ما للدلالة على نوع من الوحدة الروحية التي تجسد قيم الأمة الجمالية والأخلاقية والفكرية). ولقد كان إيمان بوب بروح اللغة هو الذي دعاه ليكتب بأن اللغات «تفقد قدرها على فهم ذاتها» انظر ص ١٥ (بوب Bopp ، ١٨٢٨ م؛ وفي عام ١٨٥٨ م تعرض هذا الرأي المبهم والشائع في الوقت نفسه لهجوم رودولف فون راومر Rudolf von Raumer (١٨٥٨ م، ص ٣٧٤):

«عندما يناقش التغير اللغوي، لا سيما التعبير الصوتي، فإن من المتوقع أن ينتجه الناس إلى روح اللغة وعمايتها. إلا أن روح اللغة لا تؤدي أي عمل من تلقاء نفسها في معزل عن الناس، إذ إن جميع التبدلات اللغوية التي تحدث في لغة ما تنشأ عن الناس أنفسهم»

ولقد كانت هذه النقطة بالذات مرارا وتكرارا محط اهتمام المجموعة المعروفة باسم نحويين الجدد Neogrammarians الذين هبمنوا على الفكر اللساني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وهكذا كان كل من أوستوف Osthoff وكارل برعمان Karl Brugman (١٨٧٨ م، ص ١٢) يؤمن بأن اللغة ليست شيئا خارج نطاق الشر وفوق مستواهم ويعيش حياته المستقلة، بل إن وجودها الحقيقي يكمن في العرد نفسه. دلت فون جميع التبدلات في حياة اللغة لا تنشأ إلا بوجود المتكلمين الأفراد. كما كتب هرمان بول Hermann Paul في كتابه «المبادئ القياسية في تاريخ اللغة Standard Prinzipien der Sprachgeschichte» (١٨٨٠ م، ص ١١) يقول:

«إن جميع العمليات النفسية تتم في عقول الأفراد وليس في أي مكان آخر. وليس لعقل العرق *volksgeist* ولا لعاصر عقل العرق كائنات والمعتقدات... إلخ، وجود ملموس، وهكذا لا يمكن أن يحدث شيء فيها أو بينها، لذا كان من الضروري التخلص من هذه الأفكار المجردة».

ويوضح لنا الشاهد الأخير بجلاء أننا لسنا أمام تعديل للنظرية اللسانية دعت إليه ملاحظته معلومات مربكة، بل إنا أمام تغير شامل في مفاهيم طبيعة العود هو لاجتماعية. على أية حال مستح من الآراء التي أوردناها أننا لا نستطيع أن ندمج

اللسانيات بعلم الأحياء كعلم يعالج مجموعة من الأحسام الطبيعية . وهكذا يجد بول Paul (١٨٩١م، ص ١١٨) بهاجم «شلايخر» الذي أحقق في تكوين آراء صحيحة حول طبيعة تطور اللغة لأنه كان من المتمسكين بأن اللسانيات هي علم طبيعي . وعلى حد قول كورت يانكوفسكي Kurt Jankowsky (١٩٧٢م، ص ١٤٧) فإن اللسانيات كانت بالنسبة لبول هرمان علما تاريخيا لا علما طبيعيا<sup>(١٢)</sup>.

ومن الخطأ الفادح بالتأكيد أن نفترض أنه من الواجب التحلي عن مساواة شلايخر بين اللسانيات وعلم الأحياء لمجرد اعترافنا بأن فكرة روح اللغة فكرة حرة . فدعوة بالنسبة إلى شلايخر تقابل الفصيلة في علم الأحياء . ونحن لا نتهم عالم الأحياء بالعموم لأننا نعترف بوجود فصيلة «الحرر» ككيان نظري مع أن كل ما يدركه بالحواس هو حررات منفصلة . فالمدأ الذي يردّ شوا التبدلات اللغوية إلى نفسية الفرد يقبله الادعاء بأن الظفرات التلقائية في الأفراد هي المسؤولة عن شوا المفائل الحديثة في علم الأحياء (بدلا من القول إن الظفرات المردية تنتج عن الصراع بين المفائل من أجل تحقيق هدف معين) وهذا مدأ أساسي في النظرية الداروينية<sup>(١٣)</sup>.

وبصرف النظر عن الافتقار إلى انجاء ثابت في التبدل اللغوي، ثمة عفة أخرى تواجه المذهب النشوي بالنسبة للغة وهي التي تتعلق بمسبات النغير . ولا تكمن الصعوبة هنا في تفسير المستجدات في الحوائط الصربية التي ربما كانت تطورات بحو نظام أبسط، أو أنها تستعيد وصوحها من خلال حذف الهائيات الصربية وما شابه ذلك في الكلام تسريع، لكنها تتعلق بالتبدلات الصوتية (مثل قانون عريم) . وهي إذ تسبب تباعد في لفظ بين شتى مجموعات المتكلمين فإنها بذلك تبدو عفات عشوائية تماما تقف أمام تتواصل دون أي مرر . ولقد كانت التبدلات الصوتية بمثابة القوائيم، بمعنى أنها كانت تنطق على جميع الكلمات التي تحتوي على الأصوات المعنية في لغة معينة وفي زمن معين . لكنا إذا نظرنا إليها من زاوية أوسع فإنها لم تكن سوى أحداث معرولة وفردية قد دون عريم بطلق على اللغات الجرمانية فقط من اللغة الهندوأوروبية في قرن معين . لا بطلق على كل اللغات في كل زمان ومكان . ولا أراني أعجب بغيريائي وضع قانون سعادته لإيطاليا في القرن السابع عشر وقانونا آخر لإيطاليا الحديثة، وهكذا دوالث

ولقد رأى بعض العلماء (ولا سيما هوغو شوشاردت Hugo Schuchardt) الذي بحث في اللغات الرومانسية بدلا من الجرمانية) ضرورة عدم تفسير التبدلات الصوتية في ضوء القوانين العلمية، ولكن تبعا لتقلبات الذوق والري السائد في الكلام. وكنت المتبعة أن هذا النوع من التبدلات يتشتر عشوائيا من متكلم إلى آخر ومن كلمة إلى أخرى بدلا من أن يحدث فجأة وبشكل شامل (أيوردان أور Jordan Orr ١٩٣٧ م) ومع أن هذا الرأي يبدو معقولا مبدئيا حيث تبنته مدرسة اللسانيات الجديدة Neolinguists الإيطالية (انظر مثلا بونافانتي، ١٩٤٧ م)، لكنه لم يحظ بالاهتمام في تيار اللسانيات التاريخية الألمانية ومن ثم الأمريكية. ففي عام ١٩٤٦ م رفض ر. أ. هول R. A. Hall هذا الرأي واعتبره غير جدير بالاهتمام (ر. أ. هول ١٩٤٦ م، ص ٢٨٠ رقم ٢٤). (١٤)

ولقد وضعت نظريات متعددة تتعلق بأسباب التبدل الصوتي الوظيفي (نظر المتخصصة في أورتييل Ortel ١٩٠٢ م، ص ١٨٩؛ ويسرس، ١٩٢٢ م الفصلين ١٤ و ١٥). وكان من جملة الآراء ما يمكن أن يسميه اليوم بنظرية الطبقة التحتية substratum theory. فعندما تتبنى مجموعة من الناس لغة جديدة (مثل لغة الغاتشين)، فأغلب الظن أن هؤلاء الناس سيحملون عاداتهم اللغوية من اللغة القديمة إلى الجديدة. وهذه النظرية صحيحة بالتأكيد في كثير من الحالات. فحين ينطق الويلزي باللغة الإنجليزية يجدد يتأثر بنظام الصوتي للغة الويلزية إلى حد بعيد، مع أن غالبية الويلزيين اليوم لا يتكلمون تلك اللغة إلا أن كثيرا من التبدلات الصوتية تحدث بوصف صمن اللغة الواحدة وفي معزل عن اللغات الأخرى. فالتبدل الكبير في الصوائت الذي حدث في اللغة الإنجليزية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر على سبيل المثال (أي سلسلة التبدلات الصوتية المسؤولة عن حقيقة التمايز بين اللفظ الإنجليزي للصوائت وبين ما يقاسي في لغات القارة الأوروبية) لا يمكن تفسيره في ضوء نظرية الطبقة التحتية وثمة احتمال آخر وهو أن توسع نظرية توحه اللغات نحو البساطة بحيث تشمل النظام الصوتي أيضا فقد تنشأ التبدلات الصوتية عن الميل نحو سهولة النطق. ومنه أخرى نجد أن مثل هذا التفسير ينطبق تمام الانطباق على بعض الحالات (كحذف الصوائت بصعوبة أو حذف الصوائت للحففة في عماقيد الصوائت)، إلا أن هناك عددا من

الأمتد المعاكسة . وهكذا يرى أن من المتفق عليه عموماً أن الصوائت الأمامية اندثرية أصعب نطاقاً من الصوائت الخلفية الدائرية (وبالتعبير الدارج في علم الأصوات الوصفي فهي موسومة أكثر) ومع ذلك فإن الفرنسيين طوروا بنظام الصائتين الأماميين  $[y \ ø]$  من  $[ū \ ö]$  وهما صائتان خلفيان دائريان في اللغة اللاتينية (كما في *kanam > lune nōdum > naud* ولما كان الكثير من التبدلات الصوتية قد طرأ على أمثالات اللغوية التي بحثت بالتفصيل، فقد أشارت نظرية السهولة إلى أن السهلات الأولى كانت مليئة بالصعوب من الأصوات، سواء أكانت تلك الأصوات بسيطة أو مركبة، وهذا افتراض غير معقول بالتأكيد.<sup>(١٥)</sup> فنظرية السهولة لا تفصح بالطبع عن سبب حدوث أية تعيرات معينة تزيد من السهولة عندما تحدث وحيثما تحدث. لذلك نجد أن الكلمات التي تبدأ في الإنجليزية بالحروف  $kn-$  و  $gn-$  كما هي *knee* و *gnaw* كانت تنطق بالصوتين  $k$  و  $g$  قبل أن يحدث هذان الصوتان في الألمانية على سبيل المثال لا تزال *\*kne* تلفظ  $[kn]$  وفيما يلي ما يقوله بلومفيلد (Bloomfield ١٩٣٣ م، ص ٣٨٥):

«إن تبدل  $[kn-]$  إلى  $[n-]$  في اللغة الإنجليزية يبدو طبيعياً بعد أن وقع، لكنه لماذا لم يحدث قبل القرن الثامن عشر؟ ولماذا لم يحدث في بقية اللغات الجرمانية؟»

أما غريم فقد فسر القانون الذي يحمل اسمه في ضوء نفسية العرق الجرمني<sup>١</sup> يبدو لي أن التبدل الصوتي شكل من التورية ورفض للحصانة تحجبه الشعوب المسالمة الأخرى، لكنه مرتبط بتقدم الألمان الهائل والكماح من أجل الحرية الذي بدأت به القرون الوسطى وقدر له أن يؤدي إلى تغيير أوروبا (Grimm ١٨٤٨ م، ص ٤١٧)

ولقد تلاشت قوة الامبراطورية الرومانية تماماً في نهاية القرن الأول، وكان العرق الجرمني قوياً ميماً وورداً وعياً يوماً بعد يوم بعدم القدرة على إيقاف تقدمه في جميع أنحاء أوروبا. وكيف يمكن لمثل هذا التجمع العرقي القوي أن يُحجز في محرك لعمه في الوقت نفسه وفي إحراجها من قوتها التعللته ونسجلها؟ أليس هناك نوع من التسجاعة والافتحار في تقوية الصوامت للجهورة حتى تصبح مهموسة والصوامت المهموسة حتى تصبح احتكاكية؟ (Grimm ١٨٤٨ م، ص ٤٣٧) ١

ولقد قل كثير من معاصري عريم هذا النوع من التصير، وما زلنا نواجه أقوالا عديمة حتى يومنا هذا (انظر لين Lane ١٩٥٩م، ص ٣٢١). إلا أن رأي الأعلية في عالم الفكر قد تنكر لها منذ أمد بعيد. فكارل مولينهوف Karl Mullenhoff (١٩٨٢م، ص ١٩٧) عالج التبدلات نصفيها التي وصفها عريم بأنها من دلائل الشجاعة والخيوبة على أنها دلائل على الكسل والتراخي، كما أن البحوث التي تلت لم تست و حود أي ارتباط عقلائي بين التبدلات الصوتية وخصائص نصية معينة.

وفتر آخرون التبدل الصوتي في إطار تشريحي، ففي أواخر القرن ادعى النحوي الحديد هرمان أوستوف Osthoff (١٨٧٩م، ص ١٦) أن تعديل الجهر لصوتي هو بصفة عامة السب الحقيقي في التبدلات الصوتية التاريخية في اللغات. ولكن بالرغم من تعدد الادعاءات عبر الموثقة، فإنه ليس ثمة برهان على وجود فوارق بين الحروق ترتبط بأنظمة صوتية مختلفة، كما أن احتمال أن تكون الطواهر المتكررة نسبية كتبدلات الصوتية قد نتجت عن وقوع طفرات بيولوجية يبدو صعبا تماما (انظر مع ذلك برونزاهان Bronsahan، ١٩٦١م).

أما اقتراح هاينريك ماير Heinrich Meyer (١٩٠١م) فيبدو معقولا أكثر، إذ يشير إلى أن التبدلات الصوتية من النوع الذي يمثله قانون غريم يمكن أن ترتبط مع النفس الشط نسيًا، وهذا بدوره قد يعود إلى العيش في منطقة جبلية وقد تبني لفكرة هرمان كوليتز Hermann Collitz (١٩١٨م) مستشهدا بحالات أخرى من تبدلات انصوتية في أجزاء مختلفة من العالم التي تميل نحو إثانتها. وهنا أيضا يخفق اقتراح ماير في التوصل إلى نظرية دقيقة ومفصلة حول التأثيرات الجغرافية في النظام بصوتي.

وليس من العدل أن نقول إن النظرية الجغرافية للتبدل الصوتي، أو النظريات المبنية على الفسفة الخومية كنظرية «غريم»، قد ولت إلى غير رجعة، وكل ما في الأمر أن العلماء أهملوا العمل في تلك النظريات، وربما كانوا محطتين في ذلك (نظر كنورد ١٩٧٤م، ص ٢٥) (ورعا كانت عدم شعبية التفاسير التي تعتمد على مفهوم انفسه القومية مربطة بالذكريات المؤلة التي رافقت آخر التحولات في أوروبا تحت سم العروق والدم الجرماني أكثر من ارناطها باعنيارات البحث العقلائي). ومن ناحية

أخرى، قد يشعر المرء أن «الحقيقة لا بد من أن تظهر»، حيث ناقش المفكرون محسب العلاقات الممكنة بين تبدلات النظام الصوتي وبين عوامل خارجية خلال عشرات اسنين، وإذا لم يحرجوا نظرية مقنعة بشأن هذه العلاقات، فإن من المحتمل أن هذه علاقات لم تكن موجودة أصلاً، وأن التبدلات الصوتية هي عشوائية في واقع الأمر. وقد شعر ليوبارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (١٩٢٣م، ص ص ٣٨٥ - ٣٨٦) أن له الحق في التوصل إلى هذه النتيجة من دراسته الشاملة في هذا المجال، كما أن المفكرين الذين جاؤوا بعده لم يتخلوا عن هذا المبدأ. أما النحويون المحددون الذين ظهروا في أواخر القرن الثامن عشر فقد شعروا أن من الضروري أن تكون «قوانين» الأصوات من حيث المبدأ مستقلة عن الرمان والمكان لكي تستحق هذا الاسم (انظر ياكوفسكي Junkowsky ١٩٧٢م، ص ص ١٥٥ - ١٥٦) فإذا طفت مجموعة من المتكلمين قلوب غريم بينما لم تطبق مجموعة أخرى، فلا بد في تلك الحال من وجود ظرف خاص يمكن التثبت منه بصورة مستقلة وينطبق على تلك المجموعة وهو يؤدي حين وقوعه بانتظام إلى تبدلات صوتية مشابهة ومن جهة أخرى، لا يرى اللسانيون المحدثون من أتباع تشومسكي أن من الضروري وضع نظرية حول التبدلات الصوتية - رغم رفضهم بصفة عامة أفكار معظم من سبقوهم (عس فيهم اللسانيون في القرن التاسع عشر) بحجة أنهم لم يكونوا سوى جامعي معلومات ولم يبدوا اهتماماً بتقديم تفسيرات عامة حول ما جمعوها منها وهكذا يجد بول بوسنال Paul Postal (١٩٦٨م، ص ٢٨٣) أن من الواضح:

«أن سبب التغير في المعاني يشبه سبب تركيب وعانف للمعارف في سنة ومرارها في السنة التالية، أو تركيب ثلاثة أررار على السرة في سنة ودرين فقط في السنة التالية».

إن بوسنال يميل مبدأ اللسانيات الجديدة الذي يقول إن التبدلات الصوتية ليست سوى قصة تتعلق بالري السائد أكثر من كونها قانوناً طبيعياً (انظر Postal، ١٩٦٨م، ص ٣٢) دون أن يقلل نتائجها التي تشير إلى أن تلك التبدلات هي في العادة عشوائية وبافضة



ومن الواجب أن نشير إلى أن الإحفاق في تطوير نظريه حول أسباب التبدلات الصوتية لا يضعف القياس على مبدأ التطور في علم الأحياء. وكان على داروين أيضاً أن يعتبر ظهور تعديلات في نسل أبوين معينين من المعلومات التي لا يمكن تفسيرها. ولم يبدأ الناس في فهم الآليات الكيميائية الحيوية المسؤولة عن نقل المعلومات لوراثية من جيل إلى آخر أو الظواهر الأخرى (كالنشاط الإشعاعي) التي قد تؤدي إلى تعديلات في تلك المعلومات الوراثية إلا مؤخراً.

على أية حال فإن نظرية داروين قدمت تفسيراً مرضياً للعديد من الحقائق في علم الأحياء حتى بات الناس على استعداد لقبول هذه المحجة في المناقشة لنفقتهم بها. أما في اللسانيات، فإن الإحفاق في العثور على أسباب التبدل في عياب محض وواضح يتبدل اللغوي أو نظير جلي مفهوم أهلية البقاء، كان من العوامل التي جعلت نظرية التطور في اللغة غير مرغوبة. ومن الصحيح أيضاً أنه بين الستينيات من القرن الثامن عشر وبين نهاية القرن نفسه، كانت المناقشات المعاكسة على اختلافها (والتي بنيت على ما ثبت في نهاية المطاف أنه اعتراضات خاطئة حول آليات الخواص الوراثية) قد أفقدت نظرية داروين قدرتها على الإقناع حتى بالنسبة لصاحبها (انظر إيرلي Daseky، ١٩٥٨ م، ص ٢٠٩، ٢٣٣). ولا شك في أن هذا سبب آخر للتخلي عن مساواة اللسانيات بعلم الأحياء. فبحلول نهاية القرن التاسع عشر تغلب الناس عن اعتقاد عدم لأحياء أنموذجاً رفيع المستوى كما كان قبل أربعين عاماً.

وفي عام ١٨٨٠ م أكد هرمان بول Herman Paul أن المنهج التاريخي في دراسة لغة هو الأسلوب العلمي الوحيد لدراسة اللسانيات (بول ١٨٨٠ م، ص ٢٠) ولكنه، رغم خلافه مع شلايخر، تمسك باعتقاده بإمكانية تطبيق مفهوم الانتحاب الطبيعي على اللغة<sup>(١)</sup> وبحلول نهاية القرن، أصبحت المعلومات المتعلقة باللسانيات التاريخية مجرد مجموع لتحويلات الصوتية sound shifts التي حدثت دون سبب واضح، والتي لم يكن تسلك أي اتجاه معين، كما أن العلم نفسه الذي كان محط أنظار علماء اللسانيات كأغودح يشعونه في محاولاتهم الانتحال بهذه الموصى إلى عدم واجه أوقاتاً عصيبة وقد استمر بعض المفكرين في البحث في اللغة وفق الخطوط تفيدية أما الآن فسدوا أن لنا الحق في أن ننظر إلى هؤلاء المفكرين الذين يدرسون

محب لآب لعانت معينة كغايه في حدوداتها كما تنظر إلى نحر التحف القديمه لا أن يحسهم علماء جاديين . ولقد موهت انها بأن التحلي عن المسهج الدارويني هي اللسانيات ثم نكر له دافع في الواقع أكثر مما بدا في ذلك الوقت، ولكن مع مبادئ القرن، أصبح من الواضح على الأقل أنه إن كان هناك أسلوب علمي لدراسة اللغة، فانه بالتأكيد ليس المسهج الناري يحي،<sup>(١٧)</sup> فقد حان الوقت ليزوغ فخر اللسانيات الترامية .

## الفصل الثاني

### سوسير واللغة بوصفها حقيقة اجتماعية

عندما أشرف القرن التاسع عشر على نهايته كان الناس قد تحلوا غمما عن مبدأ مساواة اللغة بال مخلوقات الحية لأسباب مدت كلها وجبهة حينذاك، بل إن بعضها لا يزال مفعلا حتى يومنا هذا. وقد أدى ذلك إلى صعوبة اعتبار اللسانيات أحد العلوم الأكاديمية. فوالد لم تكن اللغات من المخلوقات الحية، فكيف تعتبرها «أشياء» يمكن دراستها أصلا؟ فرجل الشارع يصف «الفرنسية» بكل ثقة بأنها «شيء» يمكن دراسته، ودو صفت معينة، ويشبه «الإنجليزية» في بعض النواحي ويختلف عنها في نواح أخرى. وإذا سلمنا جدلا بأن «الفرنسية» «شيء»، فهي نوع غريب جدا من الأشياء. فمن الواضح أنها ليست جسما ملموسا كالطاولة، أو قطعة الأرض التي تدعى «فرنسا»، إذ ليس باستطاعتك - بالمعنى الحرفي - أن ترى أو تسمع كتلة اسمها «الفرنسية» وهي تتكلم. صحيح أن باستطاعتك أن تسمع الخادم وهو يقول merci أي «شكرا»، وأن ترى كتابة مطبوعة في الصحف اليومية. ولكن كيف لنا أن نعرض وجود كيان يدعى «الفرنسية» بكس وراء هذه الظاهرة وألوف من الظواهر المرئية الملموسة الأخرى؟ وما نوع ذلك نكبر؟ لقد عالج أنموذج علم الأحياء biological paradigm العلاقة بين كلام «الخادم» ولغة كما لو كانت مماثلة للعلاقة بين «جررة» معينة و«فصيلة الحرور». وقد مدت تلك العلاقة مرصية حتى دعت الحاجة إلى التحلي عن نمط علم الأحياء. وبالعزم من قدرة المرء على رؤية جزرات منفصلة وأكلها، فإنه يفهم معنى الحديث عن «فصيلة الحرور» وعلاقتها الوراثة مع فصيلة الجزر الأض. ولكننا نرى فل كل شيء أن أنموذج علم الأحياء قد سقط وثت إخفاقه. ثانيا، وفي هذا السياق يتبين المرء أن ذلك الأنموذج لم يقدم في الواقع إجابة كاملة عن المسألة موضع المناقشة. صحيح أن «الأنواع» أشياء

محددة في علم الأحياء ، إلا أن الأفراد على الأقل هي تلك الأنواع هم من الأشياء المادية . وهل هناك شيء أكثر مادة من الحزرة؟ إلا أن النظير اللعوي للكائن الحي هو «لهجة» المنكلم ، وهي مفهوم مجرد يقرب في مجرده من المفهوم الأوسع وهو «اللسان» ونحن لا ندر أن نسمع «لهجة الخادم» ككان . فكل ما استطع سماعه هو أمثلة من سبب اللهجة كالصارة التي قالها عندما لاحظ المشيش الذي تركاه - مثلاً - ولا يوجد في علم الأحياء ما يقابل هذه العلاقة بين لغة الفرد ، أو اللهجة وبين عمادح منها . وعلى الرغم من أن اللسانيين في القرن التاسع عشر لم يشعروا بوجود مشكلة معينة في هذا الشأن ، إلا أن السؤال عن معنى افتراض وجود كيانات تدعى اللغات أو اللهجات وراء الحقيقة الملموسة التي تجسدها عبارات معينة بقي دون إجابة خلال تلك الفترة . ويعود الفصل في الإجابة عنه إلى العالم السويسري فرديناند دو سوسير الذي صاغ الإجابة بطريقة أرصت معاصريه آنذاك وكثيرين غيرهم في يومنا هذا .

ولد مونغان فرديناند دو سوسير Mongin Ferdinand de Saussure وهذا هو اسمه الكامل - في جيف عام ١٨٥٧ م من عائلة هيغونو Huguenot التي هاجرت من اللورين Lorraine إلى الحروب الفرنسية الدية في أواخر القرن التاسع عشر . ومع أننا اليوم نعتبر دو سوسير أولاً وقبل كل شيء العالم الذي عرف مفهوم اللسانيات التزامنية synchronic linguistics وهي دراسة اللغات كعلم موجودة في نقطة معينة من الزمن ، على انقيض من اللسانيات التاريخية (أو التعاقبية diachronic linguistics كما دعها سوسير لإيضاح التناقض) والتي بدأ معاصريه أنها الأسلوب الوحيد الممكن لدراسة الموضوع - إلا أن هذا لم يكن خلال حياته السبب الرئيس في شهرته فقد تلقى سوسير تدريبه كعالم لسانيات في المرع التاريخي التقليدي ، وحقق نجاحاً متميزاً في هذا المجال في بداية حياته . فمقالته التي تحمل عنوان «ملاحظات حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندو أوروبية Memoire sur le system primitif des voyelles dans les langues indo-europeennes» (١٨٧٨ م) ، والتي نشرت بعد أسابيع فلا تزل من ذكرى ميلاده الحادية والعشرين عندما كان طالباً في ألمانيا ، لا تزال إحدى العلامات البارزة في إعداد تركيب اللغة الهندو أوروبية الأولى . وقد ألقى سوسير محاضرات في المدرسة العملية للدراسات العليا École Pratique des Hautes Études في مارس بين

عامي ١٨٨١م و ١٨٩١م قبل أن يعود إلى جيف ليشغل مركز الأستاذية كما كانت كن مشوراته وكل بعالمه تقريبا خلال حياته تتعلق باللسانيات التاريخية وليس الترميمية. بما في ذلك تحليل مفصل للعب الهندي وأوروييه المتعلقة بدلا من الكلام، نظري العام الذي يشتهر به حاليا.

ومع أن سوسير كون أفكاره العامة في اللسانيات في التسعينيات من القرن التاسع عشر (كورنر Koerner ١٩٧٣م، ص ٢٩)، إلا أن افتقاره إلى الثقة الكافية منه من عطاها إلى الآخرين كما أن قصة خروج هذه الأفكار إلى الملأ لا نخلو من غرابة ففي نهاية عام ١٩٠٦م أقع أحد العلماء تولي تدريس مقرر اللسانيات العامة وتوزيع سمات الهندي وأوروييه ومقارباتها بعد أن اضطر ذلك العالم إلى التحلي عنه بعد ثلاثين عاما من تدريسه (بسبب المرض حسبما يعتقد). وقد قام سوسير بتدريس ذلك المقرر في الفترة المتبقية من ذلك العام الدراسي، وذلك في الأعوام الدراسية ١٩٠٨ - ١٩٠٩م و ١٩١٠ - ١٩١١م وهي السنة الأولى انتم سوسير بمعالجة القضايا التاريخية انثرا ما تم، لكنه عندما عهد إليه بتدريس المقرر للمرة الثانية أدخل مقدمة عالجت باقتضاب لسانيات الترميمية. وأخيرا، وفي المرة الثالثة كرس سوسير فصلا دراسيا كاملا للسانيات الترميمية النظرية. ولم يمتد به الأجل طويلا بعد ذلك، إذ وافته المنية عام ١٩١٣م دون أن ينشر أي من ماداته النظرية وقد طلب إليه الكثيرون أن يفعل، لكنه كان بحيب دوما بأن إعداد أفكاره المبحثرة للنشر يحتاج إلى الكثير من الوقت. غير أن اثنين من زملائه وهم تشارلز بائي Charles Bally وألبير سيشيهيه Albert Sechehaye - اللذان معتهما أعضاؤهما تدريسية من سماح محاضرات سوسير في اللسانيات العامة، قررا إعادة تنظيم تلك المحاضرات بالاستعانة بالمذكرات التي كتبها الطلاب، بالإضافة إلى ما تركه سوسير من ملاحظات عن المحاضرات وأصبح الكتاب الذي أصدره بعنوان «دراسة في اللسانيات العامة» Cours de Linguistique Générale (سوسير، ١٩١٦م) الوسيلة التي انتشرت بفضلها آراء سوسير في عالم الفكر. وبفضل هذه الوثيقة الوحيدة يعترف العلماء بأن سوسير هو أبو اللسانيات في القرن العشرين.

وقبل أن نناقش ما يمكن أن يسمى ماهية اللغة، أي قبل أن نسأل ما نوع «الأنباء» التي اعتقد سوسير بأنها تشكل اللغات، وما إذا كانت اللغة من الكائنات الحية كما

أشد شلايخر وأخرون - دعونا نناقش مع التمييز بين ما هو تزامني وبين ما هو تعاقبي ومعرفة الأسباب التي دعت سوسير للاعتقاد بأن التمييز الذي يتحدث عنه مهم في هذه المرحلة .

لقد كانت المنشورات اللغوية المألوفة لدى مستمعي سوسير عبارة عن أعمال تحمل شكلا من أشكال لغة معينة أو سلسلة من هذه الأشكال من خلال متابعة مرحلتي التي مرت بها تلك اللغة خلال تطورها حتى وصلت إلى وضعها الحالي ويقول سوسير إنه بصرف النظر عن المزايا التي تتمتع بها مثل هذه التحليلات، إلا أنها بالتأكيد لا تسهم في إثراء معرفتنا بكمية عمل اللغة من وجهة نظر الناطقين بها فتاريخ لغة - بالنسبة للمتكلم - ليس له وجود (سوسير de Saussure، ١٩١٦م، ص ٨١) "خذ مثلا القصيدة الحدلية الشائعة في وصف اللغة الإنجليزية والتي تتعلق بالصوت المركب affricate الذي يرمز إليه بالحرفين ch (تش) والسؤال الذي يطرح هو هل يعتبر هذا الصوت وحدة مستقلة أم صوتين يتألفان من / ت / و / ش / ، فهناك حجج تدعم كلا الطرفين . ويبدو أن الحل الثاني أقرب إلى العقل إلى حد ما ، حيث إنه يقتصرون عدد الأصوات المختلفة التي ينبغي أن يتعلمها الناطق بالإنجليزية . ولكن من ناحية أخرى فإن ذلك يعني ضمنا وجود عقود من الأصوات يختلف عن العناقيد الأخرى في اللغة الإنجليزية (حيث لا توجد عناقيد مثل / ب ش / و / ك ش / ) وإذا كان تحليل الصوتي الوظيفي يمثل فعلا إحدى الخفائض عن اللغة الإنجليزية كوسيلة للتواصل بين المتحدثين المعاصرين بالإنجليزية ، فإن «ch» من الناحية التاريخية انحدرت من صوت وحيد هو / k / ، ولم تكن لها أية علاقة لا بالتاء / ت / ولا بالشين ش لكن هذا لا يمت إلى الموضوع بصفة ، فحتى الإنجليزي المثقف ، ما لم يكن قد درس لغة اللغة الإنجليزية ، فإنه لا يعرف أن كلمة church «كنيسة» كانت تلفظ أصلا كما سقطت كلمة kirk الاسكتلندية . وفي إحدى عمليات القياس التي وردت مرارا في كتاب «دراسة في اللسانيات العامة» ، يقارن سوسير اللغة بلعبة الشطرنج (de Saussure، ١٩١٦م، ص ٨٩) ، فما حدث من قبل لا علاقة له بوضع اللعبة الحالي في أنه مرحلة من مراحلها . (قارن الشطرنج بلعبة التنس مثلا ، حيث يؤثر الجرم الذي انمضى من إشارته ممثلا في عدد النقاط تأثيرا كبيرا في ما إذا كانت تلك النقطة التي مستحل في

سك اندحطه بمطه حاسمة بحيث يجب على كل لاعب أن يدل جهده لإحرازها، أم أنها غير مهمة بحيث تتسع للاعبين قدرا من الارتياح).

و يمنع من وصف اللعبة وصفا خارجيا، أي من وجهة نظر المراقب من لا من لمشارك، بحرية الاختار بين الأسلوب التاريخي أو التزامني. أما من يصفها و يصف د حيا، أي كما هي عليه بالنسبة للمباشرين بها، فإن من واجبه أن يصف «أحدى حالاتها *état de langue*» دون أحد البعد الزمني في الاعتبار. وبالإضافة إلى ما تقدم، يعتقد سوسير بأن للحقائق التزامنية لأية لغة من اللغات سمة منتظمة جوهرية لا تتوفر في «شبح التعاقبي» (de Saussure، ١٩١٦م، ص ٩٥). فاللغائيات التاريخية هي عملية بسيطة نسبيا، بل ومصلة في وصف أحداث متصلة متتابعة، بينما يجد أن اللغائيات الترميزية في المقابل أكثر جدية وصعوبة. فهما لا يتعلق الأمر بسرد حكايات متعصبة بل أن يصف المرء حالة كاملة من حالات اللغة، أو لا يصف شيئا أبدا (وقد كانت هذه الصعوبة النسبية في اللغائيات الترميزية كما نصورها سوسير السبب الرئيس في إخماده عن نشر أفكاره بهذا الشأن).

ومن السهولة بمكان أن يفسر ما يعنيه سوسير حين يصف حالة اللغة الترميزية بأنها منتظمة. ولبعد إلى عمئية انقياس على لغة الشطرنج، ولنعكر في مشكلة وضع معين في اللعبة. فإذا لم نكتف بمجرد استعراض مواقع القطع المختلفة على الرقعة، ومصيب إلى شيء من التحليل يناول وضع كل لاعب على حدة، وجدنا أن من العبث أن ندرس وضع كل قطعة في معزل عن القطع الأخرى. فوجود الملكة السوداء في أحد مربعات الوسطى قد يعطي الأسود ميزة كبيرة، بشرط ألا يكون الأبيض في وضع يفضله عليها. وخلاصة القول فإن القيمة الخالية لأية قطعة هي الشطرنج تعتمد على وضع الأخرى إلى حد ما. كما أن تحريك قطعة واحدة لا يعبر مصيرها وحدها وحسب، بل بعد تقويم شبكة العلاقات المائمة بين القطع بكاملها. وهذا التشبيه ينطبق على اللغة إلى حد كبير.

حد مثلا الطريقة التي تكسب بها الكلمات في اللغة أبعادا جديدة لمعانيها. لقد صرنا سوسير مثلا كلمة *sheep* (حروف) في اللغة الإنجليزية. حيث جرت العادة أن يقرن إن كلمة *sheep* الإنجليزية تقابل *mouton* الفرنسية. لكن اللغة الإنجليزية تميز بين *sheep* و *mutton*، بينما لا يحتوي الفرنسية على مثل هذا التعبير. وهكذا فإن قيمة *sheep*

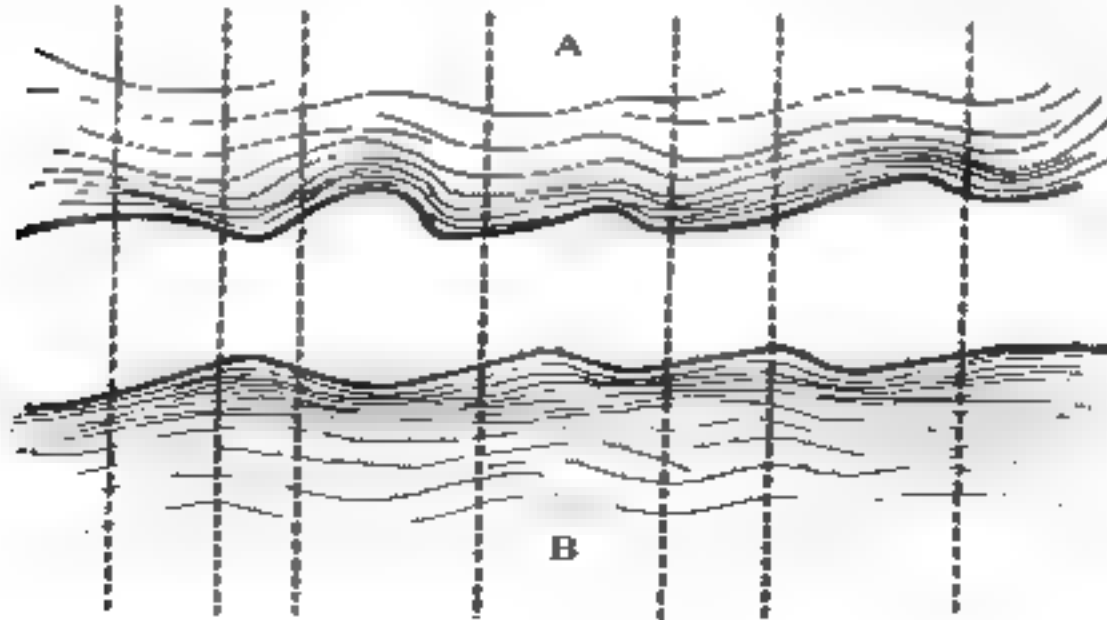
الإنجليزية محملة نوعاً ما عن قيمة *moulon* الفرنسية، مثلما تختلف قيمة الميل في الشطرنج تبعاً للقطع الأخرى التي تشاركه الرقعة في تلك الآونة بالذات. وورداً يمكن تفسير هذه اللفظة بشكل أوضح باستعمال مفردات ذات معانٍ أكثر نجرداً. فممدلوب كلمة «الكسر» يعتمد إلى حد بعيد على الكلمات المضادة لها. وكان من الممكن أن يستعمل الكاتب كلمة «التعالي»، ولكنه لم يفعل، وكان من الممكن كذلك أن يكتب «عجهية»، لكنه لم يفعل ذلك أيضاً، وهكذا. وعلى افتراض أن الكاتب هو شخص يختار كلماته بعناية، فإن الفكرة التي يعبر عنها بكلمة «التكبر» تشبه الأفكار التي تحملها كلمتا «العجهية» و«التعالي» إلخ، ولكن دون أن تكون مطابقة لأي منهما ولو بدلت أية كلمة من هذه الكلمات معناها تبديلاً جذرياً، أو سقطت من اللغة نهائياً (كما يحدث أحياناً)، لأعادت الكلمات عدتد ترتيب معانيها ألياً بدلاً من أن تترك فراغاً مكنها بدون كلمة تمثلها، وهكذا تسد اللغة الفراغ البشري. (للاطلاع على دراسة أحد الأمثلة، انظر أولمان Ullmann ١٩٦٢م، صص ٢٤٨-٢٤٩)

وبوسع المرء أن يورد أمثلة عن الفكرة نفسها من عناصر أكثر تقنية في عناصر تركيب اللغوي. خذ مثلاً كيف يؤدي صوت واحد أدواراً مختلفة في اللغات المختلفة. فالإنجليزية الأنموذجية RP<sup>(١)</sup> والروسية كلتاهما تحتويان على لام مفحمة [l̥] لكن هذه الصوت هي الإنجليزية الأنموذجية بعد مجرد «معايير موضوعي position variant» للآم مرفقة [l] هي الروسية بشكل هذان الصوتان هوييميين مستقلين. فكلمة «أ» [a] «أ» [a] (روية)، وكلمة [lʊgal] (محم) متميزتان لفظياً لدى الناطقين بالروسية ولذلك فإنهم يكتبون هاتين الكلمتين بطريقتين مختلفتين. وبالرغم من أن تفحيم اللام [l̥] realization هي لغة الإنجليزية لا بطوري على تعبير دلالي أو نحوي (إد لا يؤثر في شخصية الكلمة لمطوقة) ترى أن دقة المنطقة التي تلمس فيها مقدمة اللسان الفك الأعلى وزمن التلامس في كثير من اللهجات الإنجليزية على جانب كبير من الأهمية في نطق اللام. فإذا كان زمن التلامس قصيراً، وحدث فوق منطقة صغيرة لا تتجاوز حداً معيناً، كانت النتيجة (ر = r) بدلاً من (لام) [l]، وهذه هي المعايير التي غير مثلاً كلمتي *fearing* و *feeling* نسبة للتكبير من الناطقين بالإنجليزية لا سيما الأسكتلنديين. وعلى العكس من ذلك، يرى أن السانسه لا تعبر أية أهمية لمنطقة التلامس وزمنه. فالسائني يسمع كلمة



«feeling» مثلما يسمع «fearing» غاماً لأن في البابانية فونيماً واحداً بدلاً من اثنين في معظمه الراء /r/ واللام /l/ في اللغة الإنجليزية. <sup>(١١)</sup> نجد أيضاً كيف أن الفعل في الصيغة الإخبارية indicative في الفرنسية غالباً ما يحمل مصغروها يختلف عما يحمله فعل محث subjunctive التي تقصر على الفرنسية دون الإنجليزية. فعبارة *il attrape le ballon avant qu'il bondisse* تعني «بعد أن أمسكت بالكرة، تركتها مع ذلك تسقط وترتد». (وهكذا كن يوسفي أن أكتب *avant qu'il bondisse* أي قبل ارتدادها)، بينما نجد أن عبارة «I catch the ball before it bounces» تعني أنني أمسك الكرة من السقوط والارتداد، أي أنني أمسكها أولاً.

إن كل هذا مجرد أمثلة محدودة، لكنه قد يساعدنا في تفسير ما يعنيه سوسير «بوحية اللغة» باعتبارها شبكة من العلاقات، حيث تعتمد قيمة كل عنصر في نهاية الأمر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على قيمة العناصر الأخرى. ويدعو سوسير (de Saussure، ص ١١٢) إلى تشبيه اللغة بالشكل التالي الذي يمثلها بسلسلة من الأقسام الهرمية المتجاورة معلّمة على المستوى غير المحدد، أي كسلسلة من حلقات الأفكار (A) وعلى المستوى الذي لا يقل عنه عموصاً وهو المستوى الصوتي (B) (الشكل ١).



الشكل رقم (١)

مصدر: ج. د. سوسير، دراسة في اللسانيات العامة (١٩١٦م)

ويصم اللغة مجموعه من الرموز signs (مثلة بالأقسام المعلمة بالخط المقطع) حيث يكون كل منها من اتحاد «الدال» a signifier, signifiant (وهو جزء من أصوات الكلام) «بالمندلول» a signified, signifié (وهو جزء من المعنى). غير أنه من غير الممكن أن يدرس الرموز كل على حدة في معزل عن غيرها نظراً لأن لفظ كل منها ومعناه يتوقفان على التصاد بينه وبين الرموز الأخرى في النظام - فبدون النظام الذي تقدمه كل لغة من اللغات، لن نجد الأساس للأصوات المستقلة أو المفاهيم ولكن لماذا يقول سوسير إن اللسانيات التعاقبية تفتقر إلى هذه السمة، المسظمة؟

مبدئياً، دي بده، يقدم سوسير تعليقا واقعياً بسيطاً على الأسلوب الوصفي للسانيات التاريخية كما عرفها هو. فتنة مثال واضح على مقولة أعمودية في اللسانيات التاريخية تنص على أن الصوت لا يتحول إلى [e] في هذه اللغة أو تلك وفي زمن معين. كما أن عدم اللسانيات التاريخية لا يعنيه سواء أكانت [e] موجودة في اللغة قبل أن يحدث تغيير أم لا. ولكن هذا السؤال كان في غاية الأهمية بالنسبة إلى سوسير. فإن سم تكرر [e] موجودة من قبل، فإن الأمر لا يعدو كونه مجرد تعديل في لفظ أحد الفونيمات في اللغة. ولا يعتبر هذا تغيراً أبداً في رأي سوسير. فواقع لعبة الشطرنج لا يتأثر بتاتا إذا بدل فيلا من العاج بأخر من الخشب. وهذا ينطبق على اللغة أيضاً. فالمهم هو شكل النظام وليس المادة، (وهي في هذه الحال الأصوات الكلامية) التي تتحقق من خلالها عناصر النظام. (ومع كل هذا فإن الإنجليزية هي الإنجليزية سواء أكانت أصوات مطوقة أو كلمات مكتوبة). ومن جهة أخرى، إن كان في اللغة [e] مثل الصوت [e] الحديد المنسب عن [a]، دل ذلك على حدوث تغيير في النظام. ويرى في هذه الحال أن فويسيم، مدعجاً في فويسيم واحد. وهذا يعني زوال التقابل اللفظي بين الكلمات التي كانت متفردة لفظاً من قبل. وسوف يؤثر هذا التبدل الذي حدث في جزء من النظام في النظام ككل إلا أن سوسير لم يقصد أن معاصريه أهملوا الجانب المنتظم من الظواهر التي كانوا يصورها بحسب. فقد شعر أن التبدلات الصوتية التاريخية هي نظم مستعملة نوعاً ما في حد ذاتها. ودعونا نشرح هذه المفكرة بمقاربة نوعين من التبدلات الصوتية الأخرى التي ربما تحدث مستقلاً في اللغة الإنجليزية. إن حذف الصوامت في نهايات الكلمة هو نوع شائع من التبدلات الصوتية. وقد حدث هذا على نطاق واسع في

حصة مرسنة على سبيل المثال، حيث لا تلفظ سوى قلة قليلة من الصوامت التي تكسب في نهاية الكلمات في الفرنسية الحديثة (مع أنها كانت تلفظ جميعها في وقت سابق) وبوسعنا أن نتجمل نوعين من التبدلات الأدمى شأنها في الإنجليزية وهما حذف لأصوات الاحتكاكية الأسانية الشفوية /v و f/ من أواخر الكلمات من جهة، و حذف الأصوات الاحتكاكية اللثوية /z و s/ من أواخر الكلمات من جهة أخرى ومن الراوية الصوتية، يضيق مجال الاختيار بين هذين النوعين من التعبير فهم عميتان متشابهتان إلى حد كبير، ويمكن وصف كليهما بنفس البساطة، ولهما احتمال نفسه أما فيما يتعلق بتأثيرهما في اللغة الإنجليزية كنظام تزامني، فهما عمليتان مختلفتان تماما، إذ يبدو أن حذف الصوتين /v و f/ من أواخر الكلمات ليس سوى تعبير ثانوي، فهناك مجموعة صغيرة من الكلمات تصبح متماثلة لمعظم مثل lee و eave و leaf<sup>(١)</sup>، إلا أن السواد الأعظم من اللمس الناجم يمكن تفسيره من خلال تسبق ويبدو أن من غير المحتمل أن يستلزم الأمر كثيرا من «التبدلات المعوضة» في أماكن أخرى من النظام. وعلى النقيض من ذلك، فإن حذف الصوتين /s و z/ يشكل تعيرا هائلا فهو لا يعني أن الكلمات bay, barze, base ستصبح متماثلة لمعظم فحسب، بل يعني أيضا أن التقابل بين المرد والجمع سيختفي بالنسبة للغالبية العظمى من الأسماء والأفعال وأن [he) walks, (they) walk, cat, cats) ستصبح متماثلة لمعظم، كما أن s الإضافة ستحتفي كلية، أي أن (John's ستلفظ مثل John) رد على ذلك أن نسبة عالية من النهايات الصرفية في اللغة الإنجليزية ستتحى بسبب هذا التبدل لصوتي. ومن المتوقع أيضا أن تدعو الحاجة إلى إدخال «تبديلات تعويضية» هائلة نتيجة لذلك إذا أردنا أن تستمر اللغة بأداء وظيفتها كوسيلة تواصل فعالة. ومع ذلك يعود سوسير إن التغيرات التي تحدث فعلا في تاريخ لغة من اللغات لا تعتمد إطلاقا على التأثير الذي يمارسه على النظام. فحذف /s, z/ من أواخر الكلمات الإنجليزية لا يريد ولا ينقص من احتمال حذف /v و f/. أما في الشطرنج فإن التحركات تتم وفق حصر بحد في الاعتبار ما ستؤول إليه اللعبة بعد الوضعية المحددة. ولكن هذا بالنسبة لسوسير يشكل نقطة نهار عندها عملية القياس على لعبة الشطرنج. ويجب علينا بدلا

من ذلك أن تفارق اللعبة بمباراة شطرنج يلعبها رجل أعمى بحيث يقوم بالحركات بعص  
الطر عن نتائجها

وتحدث موسير عن الطبيعة العشوائية للعمليات الترامسية كما لو كانت حفيضة  
يدهه يميلها الناس بحرد سماعها. لكن هذا يخالف الواقع فمن الممكر أن يحدث  
أن التبدلات التاريخية ربما تنجم، ولو جزئياً على الأقل، عن التأثيرات التي تتركها  
على النظام الترامسي - بحيث لا تحدث مثلاً تبدلات قد تؤدي إلى قدر كبير من التمس.  
كما أن استعمالنا لعبارة (تبدلات معوضة) يتصور أن من الدهي أن تكون هناك آلية  
ما تتحكم في ذلك وحسب معرفتي فإن موسير لا يأتي على ذكر هذه الظاهرة.  
وكرر لا شك في أن السبب في ظهور بعض التبدلات التاريخية هو تعويض التبدلات  
غير المرغوب فيها كالتنس الناشئ عن فقدان الهياكل الصربية في اللغات الأوروبية  
الكلاسيكية، حيث تبنت اللغات الأوروبية الحديثة التي انتشرت من تلك اللغات  
نظاماً أساسياً للجملة إذ يجب على الأقل أن تخيل أن لعبة الشطرنج تجري بين  
لاعبين أحدهما يتحرك وهو بعض العبيد، بينما يستعمل الثاني عبيده ليرد على  
تحركات اللاعب الأول. "وقد يذهب البعض إلى حد إنكار هذا الدور الضخم لذي  
يعبه الجانب العشوائي في تبدل اللغة ويدعي هؤلاء أن الأمر لا يقتصر على حدوث  
تبدلات معينة تعويضاً عن تبدلات سابقة، بل من الممكن أيضاً التنبؤ بتلك التبدلات  
السابقة إلى حد ما من خلال الوصف الترامسي الذي كان سائداً قبل وقوعها، أو من  
خلال الوصف الذي استحدث بعد وقوعها، أو من كليهما معاً. ونأخذ عوداً إلى هذه القضية  
في الفصل اللاحق. أما في هذه المرحلة فسأكتفي بالقول إنه على الرغم من أن تبدل  
سعة تبدلات عشوائية ليس أمراً مسلماً به على العكس مما كان موسير يعتقد، إلا أن من  
الممكن أن يكون صحيحاً تماماً كتفسير للحقائق المذكورة.

هذه إذن هي الأسباب التي تدعونا إلى حوب الفصل بين الوصف الترامسي  
والوصف التعاقبي في دراسة لغة ما، فكلما للمجالين يتضمن حقائق من أنواع مختلفة  
عما، ولا يصطدم أحدهما بالآخر إلا بمحض الصدفة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى  
فإن أي وصف يهدف إلى تحليل اللغة من وجهه نظر أصحابها يجب أن يتجاهل بعده

تنا يحيى<sup>(٧)</sup> وبعد أن أوضحنا هذه النقطة، دعونا نعود الآن إلى السؤال الذي بدأ به بمصطلح وهو ما نوع الكائنات entities التي كان سوسير يعتقد أنها تؤلف اللغة؟ لقد أحاط سوسير عن هذا السؤال من خلال علم الاجتماع المحدد - فكر لغة من لغات بالنسبة لسوسير هي مثل على نوع من الكيان الذي يدعوه بعض علماء الاجتماع «بالخفاقات الاجتماعية».

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ غير المتمرس بالكتابات النظرية في علم الاجتماع أن ما يعنيه سوسير هو أن اللغات ظواهر اجتماعية، وهذا تحصيل حاصل غير جدير بالاهتمام إطلاقاً إلا أن عبارة «حقيقة اجتماعية» تطوي على قوة أكبر من هذا بكثير. دلالة الاجتماعى أميل دركهايم Emile Durkheim، وهو معاصر فرنسي لسوسير، ومؤسس علم الاجتماع كعلم تجريبي معترف به، جعل من العبارة مصطلحاً فنياً. وبكى يفهم ما يعنيه سوسير بتسميته اللغات «خفاقات اجتماعية» يجب أن نعلم النظر في استخدام دركهايم لهذه العبارة

لقد طرح دركهايم فكرة الحقيقة الاجتماعية في كتابه «قواعد الأسس للاجتماعى Rules of Sociological Method» (١٨٩٥ م) وقال دركهايم إن من واجب علم الاجتماع في رأيه أن يدرس ويصف مجموعة من الظواهر التي تتميز في نوعها عن ظواهر العالم المادي physical world وعن الظواهر التي يعاينها علم النفس، مع أنها حقيقتية أيضاً شأن الظواهر المادية والعسية الأخرى، ودعوى أصرب لكم مثلاً (من عندي وليس من عند دركهايم)، لنترض جدلاً أنني اكتشفت، وأن أرندي ملابسي ذات صاحب. إن سطلونائي لا تزال في المعسلة، أو أنها غير صاحبة نلس - وحتى السطال الذي كنت ألسه يوم أمس مزقه الكلب إربا إربا وهو يلعب مثلاً وإذا كنت داهما لإلقاء محاضراتي في الجامعة فلا بد لي من أن ألس شيئا. وقد سمع الحل بالنسبة لرائر من مكان المريح بعدها - فأسقط حل بالنسبة له أن أستشير فستانا من فستان روخني وأذهب لإلقاء محاضرتي - ولا أضل أن القارئ سيعجب إذا رفضت أن أقبل هذا الحل رفضاً قاطعاً. فإنا حاصص إلى نوع من الضغط بخبري كحل على نلس السطال بدلا من التوردة أمام الناس - وهذا الضغط لا يمثل بقوة فيزيائية (مدد) - فالتوردة والسطال من وجهه النظر [التمييزاته - المادة] المنحصه بؤديان العاص

نفسه، وهو حمائي من تيارات الهواء داخل قاعة المحاضرات أو من العواصف في سدهاب والإياب، ولا علاقة للأمر بنفسه كهرد، وربما كب أشعر في قراره بنسي أن من العناء أن تربط بين كل جس وبين نوع الملابس التي يرتديها ولكن مع دست أنراجع رعماعي فالضغط الذي يمعي من ارتداء الثوب هو ظاهره متأصنة في أي مجتمع من المجتمعات باعتباره كياناً مستقلاً فالحقائق الاجتماعية في رأي دركهايم أفكار (representation) موجودة في العقل الجماعي collective mind أو (one collective conscience collective للمجتمع. وما أقرب فكرة دركهايم عن «العقل الجماعي» من فكرة «روح الشعب» volksgeist الرومانسية التي رأبها في الفصل الأول، (مع أن جماعية دركهايم تعرف بأنها الاشتراك في غط الحياة بدلا من الاشتراك في الأصل). فلعقل الجماعي في مجتمع ما هو شيء موجود فوق مستوى أفراد. كما لا تنعكس أفكاره في عقول الناس الذين يشكلون ذلك المجتمع إلا بصورة غير مباشرة وممتدة. ولعل بعض قليلي التأمل في مجتمعا لا يدركون وجود قواعد تحدد ملابس متميزة كالأحسين، لكنهم مع ذلك يتبعون هذه القواعد بصورة آلية

[وقد يعترض أحدهم في هذه الحال بأن ذات ويقول إن معظم أعضاء مجتمع هم في الواقع على وعي تام بالقاعدة التي تمنع الرجال من ارتداء الثوب وأنا أشك في أن كل فرد يعي هذه القواعد بحذافيرها - فارتداء الرجال ثياباً نسائية متميزة، وليسب ما، مرفوض أكثر بكثير من العكس. ولكي أرد على هذا الاعتراض دعوني أضرب مثالا محتملا: عندما يتحدث شخصان وجها لوجه فإنهما يقفان على مسافة معينة من بعضهما البعض، وهذه المسافة ثابتة في كل مجتمع من المجتمعات، إلا أنها تختلف من مجتمع إلى آخر (ي. ت. هول F.T. Hall ١٩٥٩م، الفصل العاشر) والمسافة في الشرق الأوسط أقصر منها في أمريكا الشمالية مثلاً. ومن نتائج هذه الملاحظة، أن الحديث بين عربي وأمريكي يرافقه في العالب سير بطيء حول التعرف. وعربي يقدم إلى الأمام بأسرع ليقصر المسافة، بينما يتعد الأمريكي لوسعها ومن المحتمل جداً أن هذه الحقائق الاجتماعية كانت مجهولة لدى الجمع حتى عهد قريب، لكنها مع ذلك كانت تتحكم بسلوك الناس]

لاحظ أن عباب الأساس النفسي أو المادي الذي يجمع الرجال من ارتداء النورة لا سمي كونه قوة حقيقية كبيرة. ففي أسوأ الاحتمالات، وإذا لم أستطع العثور على مصدر لها أو هناك، فسأصل بالخامعة هاتفا وأدعي المرص، بدلا من ظهوري أمام الناس بالنورة. وأعقد مع هذا أنني رجل ذو قدر لا بأس به من الصبر بوسعه أن يتعب على الكثير من العصابات المادية (كتعطل السيارة، أو تراكم الثلوج في الطريق أو ما شابه ذلك لكيلا يتعب عن محاصرته).

ولقد تعتمد اختيار مثال النورة باعتباره مثالا بسيطا عن حقيقة اجتماعية. وتتلخص فكرة دركهايم في أن أي مجتمع من المجتمعات بشتمل على شبكة من هذه البواهر، وكثير منها ذو تراكيب أعقد من ذلك بكثير. فالنظام القضائي في مجتمع من المجتمعات مثال واضح على حقيقة اجتماعية ذات مكانة عالية في الترتيب البيروني، وتؤثر عالما في حياة جميع أعضاء ذلك المجتمع. تحليل شخصا يدعى جون سميت يقع شيكا باسم شخص آخر، ونتيجة لعمله هذا يقوم أمام آخرون بحسه في غرفة ذات قضبان على البافذة. هذا المثال يبين بالتأكيد العلاقة بين السبب والنتيجة هنا. ولا يستطيع لعيزيائي تسليط الضوء على السلسلة السببية، كما أنها لا تعتمد على نفسية ذوي العلاقة (إذ يختلف كل شخص عن غيره اختلافا كبيرا في درجة الاطلاع على الإصدار لقنومي الذي يعيش فيه أفراد المجتمع لكن ذلك الإطار لا علاقة له بمدى معرفة كل شخص أو جهله به. والأكثر من هذا فإن القانون في نظام تشريعي جيد يصق بشكل مستقل عن رأي الأفراد به وتقويمهم إياه. سواء أكان القاضي يوافق أو يعارض القانون الذي يدين جون سميت بموجه، فإن هذا يجب ألا يؤثر في الحكمه (لدي بصدره). وبما أن «المخفاق الاجتماعية»، سواء أكانت قوانين أو أعرافا حول ملابس أو آداب الحديث، أثرا ملموسا، يعني علينا، في رأي دركهايم، أن نعترف بأنها أشياء حقيقية شأنها شأن الأحجار أو القوى الميزبائه - مع أنها تسمى بالطبع إلى نوع مختلف من المطلق.

ويعطي هذا السوسير الإحاطة عن فضه وجود اللغة المذكورة انفا فاللغة العرسية ليست «شئا» كالكرسي والطاولة. ولكن إن كان هناك نوع من «الأشياء» يتألف من نظم تشريعية وبراكيب متعارف عليها، فإن اللغات بالتأكيد تدرج تحت ذلك النوع

من الأشياء أيضا. فالمعلومات التي بلا حطها عالم اللغويات هي ظواهر مادة نحتة  
بها سلسلة من الأصوات ومن النصوص المطبوعة وما شابهها. ولكن بسعي عبد أن  
يميز بين الحقائق المادية التي تدرك بالحواس - وهذا ما يدعوه سوسير بالكلام parole،  
وبين النظام العام أو المقدرة langue التي تمثلها تلك الظواهر المادية، مع أنها ليست  
ماهرة مادية في حد ذاتها. فالمعلومات الملموسة في الكلام تصدر عن كل متكلم على  
حدة، لكن المقدرة لا تكتمل لدى أي متكلم بعينه، بل تتجدد كاملة ضمن الجماعة  
(de Saussure، ١٩١٦م، ص ١٤). وهذا يعني أنه ما من فرنسي واحد يمتلك معرفة  
كاملة بالنظام التشريعي الفرنسي، ومع ذلك فالنظام التشريعي موجود كحقيقة عينية  
بصورة مستقلة عن نقص انعكاسه في عقول الفرنسيين، وبالتالي فليس هناك فرنسي  
واحد يمتلك معرفة كاملة باللغة الفرنسية التي لا علاقة لوجودها بانعكاسها الناقص في  
عقول الناطقين بالفرنسية وفي سلوكهم.

إن صحة أفكار دركهايم عن العقل الجماعي والأفكار الجماعية ليست أمر  
بديا للعيان فقد حقق دركهايم بعض الاكتشافات الاجتماعية المهمة، لا سيما في  
كتبه الانتحار Suicide (١٨٩٧م) الذي أظهر وجود بعض الثوابت الثلاثة للنظر في  
نسبة حوادث الانتحار في مختلف الدول الأوروبية، رغم الاختلاف الكبير في  
معدلات الانتحار بين سنة وأخرى ومع أن من الممكن قبول هذه الاكتشافات  
تجريبية، إلا أناسا يستطيع أن نرفض البنية النظرية التي يعتمد عليها دركهايم في تفسير  
تلك الاكتشافات، وهي أن المجتمعات المختلفة تمتلك ساسا متباينة من قوة يدعوه  
«أنوميا anomia»، حيث تتفاعل تلك القوة مع ظروف الفرد وتؤدي به إلى الانتحار  
ورمى كان المنهج البديل الذي يشاغل انتميمات حول المجتمعات والذي يدعى «بالمردية  
الأسلوبية methodological individualism» أقرب إلى المنطق من منهج دركهايم الذي  
مدعى بالجماعية الأسلوبية methodological collectivism (انظر مثلا أو نيل O Neil،  
١٩٧٣م) ويصر ذلك المنهج على أن أي تعميم اجتماعي ليس سوى ملخص لعدد  
كبير من الآراء التي تتعلق بأحاسيس الأفراد في المجتمعات ويعتمدانهم وعاداتهم  
وبناء على ذلك بشكل المجتمعات في هذا المعنى كيانات وهمية مهيبة نس لها وجود  
حققي أو خصائص حقيقية غير خصائص الأفراد الذين يتبعون إليها. وبما يتعدى



بحكامي عن ارتداء التتورة، رغم اعتمادي بأن الأعراف التي تحكم باللسان هي أعراف عشوائيه وسخيفة، أقول إن أحاسيسي تقف عاجزة أمام قوة الحقيقة الاجتماعية غير أنه فمن يؤمن بالفردية الأسلوبية يقول إن عدم احترامى للعرف ضعف أمام عدم رعني (الشخصية أيضا) بأن أكون محظ محرية الناس. إن الأعراف التي يطعها من عن غير وعي - مثل العرف الذي يتحكم بالمسافة التي يفصل بين اثنين يتحدثان مع بعضهما البعض، لم تعد مستعصية على التفسير على أساس فردي بعد أن أدرك فكرة النشاط المكري اللاواعي.

لقد كان هذا الصراع بين الموقفين المتعارضين بشأن مادة علم الاجتماع قضية شطلة في الأوساط المكريية التي تمت فيها آراء سوسير عن اللغة فعندما بدأ دركهايم في عرض آرائه، كان غابريل تارد Gabriel Tardie رائد علم الاجتماع في فرنسا، وهو أكبر من دركهايم بحمسة عشرة سنة وقد أكد تارد أن التعميمات الاجتماعية تعمل معمولها مجرد أن لدى سي البشر ميلا نحو تقليد بعضهم البعض كما شجب تارد نظرية دركهايم عن العقول الجماعية ووصفها بالعموص (انظر مثلا تارد Tardie، ١٨٩٤م) وقد نشر الحوار بين تارد ودركهايم في الصحف طيلة سنوات عديدة، ولاقى حماسة كبيرة من مؤيديهما. وقد انتهى بهما الأمر في شهر كانون الأول / ديسمبر من عام ١٩٠٣م، أي قبل وفاة تارد بعام واحد، إلى التدخل في مناظرة علنية في مدرسة العملية للدراسات العليا في باريس (حيث عمل سوسير بالتدريس لمدة عشر سنوات) <sup>(٨)</sup> ومع أن تارد جمع في حيازة انطلق السليم، إلا أن النصر النهائي كان حليف دركهايم من حيث القبول لدى أوساط الفكر الفرنسي العام (كلارك Clark، ١٩٦٩م) وبالمثل، فمع أن دركهايم نفسه عدل موقفه المتطرف في السنوات نلاحفة، إلا أن أساعه طلبوا مخلصين لدركهايم الذي عرفوه إبان الحدل بينه وبين تارد وقد كانت فكره العمل الجماعي المستعمل عن العهول الفردية فكرة ثامة لا تنس حتى عندما نشر كتاب سوسير الدراسة، كما أن اللساني الفرنسي أنتوان ميليه Antoine Meillet الذي درس تحت إشراف سوسير في باريس ثم عمل مع دركهايم، أشار بوصوح في علاقته اللسانيات بمفهوم دركهايم عن الحقيقة الاجتماعية (ميليه Meillet، ١٩٠٥م، ص ٢٣٠) ورغم أن سوسير وحد فكرة شلائجر التي تقول إن اللغات مخلوقات

حية مدعاة للسخرية (de Saussure ، ١٩١٦ م ، ص ٤) ، إلا أنه لم يجد عصاه في قول فكرة العقل الجماعي .

ولعل من واثقي أن أوضح هنا أنني لا أدعي أن سوسير توفف عند تطبيق نظريته دركهايم الاجتماعية على اللغة بل على العكس ، فكتاب الدراسة لا يدكر سم دركهايم مطلقا . صحيح أن معظم الكتاب المذكور يقصر برأي دركهايم حول الخلق الاجتماعي ، إلا أن هناك مقطعا واحدا على الأقل (de Saussure ، ١٩١٦ م ، ص ٥) يشير إلى أن سوسير يتخذ موقفا وسطا بعد أن وصف اللغة بأنها نتاج العقل الجماعي spirit collectif للجماعات اللغوية ، حيث يقول : إن من غير المعنى الاستعانة عن بعض الاستعارات المحارية . ومع أن العلاقة بين أفكار سوسير وأفكار دركهايم كانت معروفة منذ مدة طويلة ، إلا أن (كورنر Koerner ، ١٩٧٣ م) أنكر تأثير سوسير بالعالم دركهايم ، وقال إن عليا أن نبحث عن أصناف سوسير في عالم الفكر بين علماء لسانيات من أمثال و . د . ويتي W D Whitney وهذا هو رأي خروج عن الموضوع ، ولا يعطي سوى فكرة مشوهة عن تاريخ الفكر . فهاصح أن عالما على مستوى سوسير لا بد أنه من ممارسة التفكير ، ولو لم يفعل لما قرأ أحد أعماله اليوم . وقد تابع سوسير على حد علما مناهرات دركهايم وتراد بحماسة باللغة (دورجيوسكي Doroszewski ، ١٩٣٣ م ، ص ص ٩٠-٩١ ، ١٩٥٨ م ، ص ٥٤٤ رقم ٣) دون أن يدعي أحد أن سوسير نسي نظريات دركهايم بحدايرها . ويقول البعض إن مناقشة سوسير للغة أخذت منهج عام في فلسفة المجتمع كان شائعا حينئذ واعتبرته من المسلمات ، ذلك المنهج الذي كان دركهايم قد أسهم أكثر من غيره في إيجاده والتعبير عنه . فإنكار هذا يعني حياة الأمة فيما يتعلق بالمقاطع التي نوهت عنها في كتاب الدراسة ، أو (إذا شئت أن نضرب مثالا حرا) فيما يتعلق بالمقطع الموجود في صمحتي ٩٩-١٠٠ والذي يميز اللسانيات الرسمية عن غيرها تهتم بالعلاقات المنطقية والفنية التي . . . تشكل نظاما في العقل الجماعي conscience collective عند الساطمين باللغة ، عن اللسانيات التعاقبة التي بهم بدراسة عبارات متتالية successive terms لا يدركها العقل الجماعي . ولعل سوسير لم يستطيع سوفس من الموقفين الجماعي والفردي وبين الحاجة للاختيار بينهما ، حتى إنه لم يجد حرجا في إبداء ملاحظات أحيانا غميلة إلى الأسلوب الفردي فيما يعشق الأسلوب

اجتماعية في السواد الأعظم من تفكيره. ولست أرى مسوعاً قوياً يحملني على التشكيك في كون سوسير أساساً من أتباع الجماعة الأسنوية<sup>(١)</sup>.

إن عنوان كتابي مدارس اللسانيات لا يلائم هذا الفصل مثلما يلائم المصطلح الأخرى. فسوسير ليس في الواقع أبداً لآية مدرسة من مدارس اللسانيات. ولو أخذنا في اعتبارنا فكرة أن حائلا اللغة الترامنية نظام يعرف عناصره عن طريق معرفتنا بأعضائه، فحينئذ الصواب إذا قلنا إننا جميعاً سوسيريون الآن<sup>(٢)</sup> ويمكن القول إن تأثير سوسير كان أقوى في أوروبا منه في أمريكا. ولعل هذا هو السبب في أن اللسانيات الأمريكية تختلف عن اللسانيات الأوروبية. فالأمريكيون يركزون اهتمامهم على العلاقات نحوية لأفقية syntagmatic relations (أي الطريقة التي ترتبط العناصر اللغوية ببعضها البعض في التراكيب)، بينما يركز الأوروبيون على العلاقات الرأسية paradigmatic relations (أي العلاقات القائمة بين العناصر التي يمكن أن تحل محل بعضها البعض في نفس موقع من التركيب اللغوي). إن اعتقاد سوسير بأن قيمة أي عنصر لغوي تعتمد على العناصر التي يتقابل معها يحمل المرء على النظر في العلاقات الرأسية فكلمة «عطرسة» تتميز عن «عسجبية» فقط لأن إحداهما يمكن أن تحل محل الأخرى في سياق مثل «لا أحب الـ...» بينما لا يمكن لكلمتي «عطرسة» و«مطلقاً» - من الناحية الأخرى، أن تحل إحداهما محل الأخرى في أي سياق فعلي (وبالمقابل فإنه ليس ثمة وسيلة يمكن فيها المعنى «عطرسة» أن يعتمد على معنى «مطلقاً» والعكس بالعكس). وكما سري، فإن سوسير كانت لديه أسباب مبدئية جعلته يقلل من اهتمامه بالعلاقات النحوية الأفقية. وسري نقاطاً متعددة تبرز فيها أمثلة عن هذا الفرق في التركيب بين اللسانيات الأمريكية واللسانيات الأوروبية. ولكن من المؤكد أن معظم اللسانيين الأمريكيين، ولعشرات السنين، كانوا يقرأون سوسير، وكانوا معاً مع السواد الأعظم من آرائه بصيغة عامة، حتى أن كثيراً مما يقوله، رغم أنه كان يبدو غريباً حينذاك، لا يقل الحدل اليوم تقريباً. فوجود نظام ميبير emk تطفئه اللغة على حقيقة فوق لغوية غير عمرة etc لا يشبه لها في حد ذاتها فكرة تطورت في أمريكا الشمالية بصورة مستقلة (كما سري) وأصبحت أمراً معروفاً في كلا القارتين منذ أمد بعيد، بالرغم من بعض معارضيها. (هذان التعبيران اشتقا من phonetic ولكنهما يطلقان على سمة المعنى والصوت في الوقت نفسه).

إن رؤية سوسير اللغة على أنها حقيقة اجتماعية، والمميز الناتج عن تلك الرؤية بين المقدرة *langue* والكلام *parole* هي أكثر ما يثير الجدل في بيئة أفكاره. وما دعت على الدهشة أن تلك الأفكار، ولعشرات السنين، مرت دون تحد من جانب أساتذتين غير المتعاطفين على العكس مما كان متوقعا. (وأقصد هنا المدرسة الوصفية الأمريكية، التي سأتى على مناقشتها في الفصل القادم).<sup>(١١)</sup> على أية حال فهي العقد لأحير تقريبا عاد منهج سوسير للظهور كقضية حية من جديد بسبب رأي جديد معارض من طرحه نوم تشومسكي Noam chomsky.<sup>(١٢)</sup>

ومن أكثر سمات منهج تشومسكي في دراسة اللغة تأثيرا هو التمييز الذي يقيمه بين المقدرة اللغوية *competence* والأداء اللغوي أو الممارسة *performance* وهو استرجاع للتمييز بين المقدرة *langue* والكلام *parole* عند سوسير. وتشومسكي نفسه (Chomsky، ١٩٦٤م، ص ١٠) لا يفرق بين المقدرة عنده والمقدرة التي تحدث عنها سوسير. إلا أن تشومسكي أعفل فرقا مهما. فالمقدرة التي يتحدث عنها، كما يتبين من المصطلح *competence*، إنما هي صفة للفرد، أي أنها قضية نفسية. فهو غالبا (مثلا تشومسكي Chomsky، ١٩٦٥م، ص ٤) ما يعرف المقدرة بأنها معرفة المتكلم - المستمع بعينه وبأسسه إلى تشومسكي، وكذلك بالنسبة لأسلافه الأمريكيين، فإن لهيئة الفرد تحت مقام الأول. أما لغة المجتمع أو الأمة الأوسع فتأتي في المحل الثاني، وليست سوى طريقة عملية للحديث عن عدد ضخم من المقدرات اللغوية اللسانية التي تشبه فيما بينها عدا بعض التفاصيل الفرعية. أما سوسير فيرى أن العكس هو الصحيح حيث يقول إن اللغة بشكلها الكامل لا توجد إلا ضمن الجماعة فقط. وما يحمله كل فرسي في رأسه لا يمثل البناء الكامل الحاسم للهيئته الخاصة، بل هو تمكس حيد *command* ولكن غير كامل - من اللغة الفرنسية.

(ومن الشيق النظر في احتمال أن يكون تلك الموافقة المناسبة قد عرفت لأمر، محدثة السائد في المجتمعات الباطنة بالإختيريه والفرنسية فهي فرنسا مجمع علمي سوسى مهمه بوحيد اللغة الفرنسية والمحافظة على بقائها، إذ تحوي الصحف الفرنسية على زوايا ثابته للإجابة عن تساؤلات القراء حول الاستعمال الصحيح وهكذا أما بريطانيا فليس فيها مؤسسات مماثلة. ويجل الإنجليز نحو ثبي المبدأ الذي يقولون

نسي أقول هذا، إذن هو جزء من اللغة الإنجليزية» كما أن لهجة فاوولر Fowler في استعمال الإنجليزية الأمريكية الحديثة Modern American Usage محتله جدا إزاء أوامر مجمع اللغوي الفرنسي Academie Francaise صحيح أن تشومسكي هو أمريكي، وأن نشأة بالنفس من الناحية اللغوية في المجتمع الأمريكي تبدو أصعب منها في المجتمع الأمريكي، ربما لأن المعرفة باللغة الإنجليزية لدى معظم الأمريكيين لا ترجع إلى أكثر من جيلين، لكن الولايات المتحدة مع ذلك لم تشيء حتى الآن المؤسسات التي تتولى صياغة القوانين اللغوية كما فعلت فرنسا).

وقد يشعر المرء أن الاختيار بين وصف اللغة باعتبارها خاصية اجتماعية لا يكتمل إتقانها لدى الفرد، وبين وصفها باعتبارها القاسم المشترك الأعلى للهيئات الفردية مسألة تتعلق بالدوق الشخصي ليس إلا. أما سوسر فيجادل (de Saussure، ١٩١٦م، ص ٧٢) مؤيدا منهجه وموها بأن المتكلمين على وعي بقوانين اللغة إلى حد بعيد. إن سؤال حول ضرورة كون المرء واعيا وهيا تاما بوجود معيار سلوكي يتبعه (والإجابة عنه هي بالنفي، كما رأينا من خلال مناقشنا للمعايير الأمريكية والشرق أوسطية بشأن المسافة الفاصلة بين اثنين يتحدثان وجها لوجه) لسؤال مستقل بالتأكيد عن سؤالنا عما إذا كانت المعايير التي تحكم سلوك الناس تنأصل فيهم كأفراد أو كمجموع. (ومن اثبت أن تشومسكي يرتكب خطأ مائلا - كما سنرى في الفصل السادس حين يستنتج أن الأفراد يعرفون بنية لغتهم إلى حد ما من افتراضه أن القدرة اللغوية هي ميزة فردية. وربما يعترف تشومسكي وسوسر معا من خلال دفاعهما أن من الصعوبة بمكان رؤية كيف يتسنى لمعيار سلوكي أن يأتي للوجود وأن يحافظ على تأثيره في سلوك الفرد إن لم يكن موجودا خارج الفرد في بيئته الاجتماعية، أو إن لم يكن يوما محل تفكير واع من قبل الفرد فأنا رجل هويي المزاج، أرتاب في أي ميل نحو الموافقة على إعطاء جماعة الأسقية على الفرد، وأميل بطبعي نحو الرأي الذي يقول إن اللهجات تحتل مكانة جوهرية باعتبارها كيانات نفسية، وأنعامل مع شتى أنواع التعميمات الاجتماعية على أنها مجرد خلاصات دقيقة نوعا ما وفي متناول اليد لعدد من الأحوال حول معتقدات الأفراد وأمالهم وطبائع سلوكهم وما شابه ذلك

وقد طرح الفيلسوف هيلاري بوتنام Hilary Putnam مؤجرا ما افشه بوتنام (Putnam، ١٩٧٣م و ١٩٧٥م) توضح أن الأمر أكثر من مجرد مسألة ذوق، وأن عنصرا مهما واحدا على الأقل من عناصر اللغة، وهو السبب الدلالية على وجه التحديد، يجب اعتباره حقيقة اجتماعية لا نفسه. ورغم أنني أخذت بالمطرفة مبهج تشومسكي في هذه القضية، إلا أنني أعترف بأن بوتنام يؤيد سوسير تأييدا مطلقا ضد تشومسكي إن حجة بوتنام دقيقة ومحبوكة جيدا، ويتعذر علينا أن نوفيها حقها من خلال صفحات هذا الكتاب فهو يبدأ بإحدى الفرضيات البعيدة كل البعد عن الواقعية «ماذا نقول إذا...» التي شغف بها العلامة والتي تقبل البقية ما إلى الارتياح بها (بكن لارتياح في هذه الحالة ليس في محله. فعلم الدلالة موضوع يتطلب منا أن نوسع أذقنا إن أردنا أن نقول شيئا ذا نال). ويدعونا بوتنام إلى افتراض وجود كوكب في مكان آخر من الكون، ولنقل «الأرض التوأم». وهذا الكوكب شبيه جدا بأرضنا (حتى أن السكان يتكلمون الإنجليزية) باستثناء شيء واحد، وهو أن السائل الذي يجري في الأنهار والبحار والذي يهطل كأمطار ويشربه ويغسل به الناس في الأرض التوأم ليس  $H_2O$ ، ولكنه مركب كيميائي مختلف تماما. ولنقل إنه مركب  $XYZ$  الذي يشبه الماء في مظهره وله السلوك نفسه. كما أن سكان كوكب الأرض التوأم يدهونه «ماء» بنفس، مع أن أي كيميائي يستطيع أن يميز مباشرة بين  $H_2O$  و  $XYZ$  فالماء في اللغة الإنجليزية يعني  $H_2O$  وليس  $XYZ$ . أما الماء في الأرض التوأم فيعني  $XYZ$  وليس  $H_2O$  <sup>٦١</sup> أو يقول بوتنام إنه إذا افترضنا الآن أن المعاني موجودة في رؤوس الناس، وبما أن كلمة ماء في لغة الأرض التوأم تعني شيئا مختلفا عما تعنيه كلمتنا، وجب علينا أن نقول إن مفهوم الماء في عقولنا مختلف عنه في عقول سكان الأرض التوأم لكن هذا غير معقول. بصورة الماء نعتمد لدى أكثرنا على مظهره الخارجي (فبعصا لا يعرف تركيبه، كيميائي)، وليس هناك ما يدعونا لافتراض العكس بالنسبة إلى سكان الأرض التوأم. ففي هذه الحال تكون المفاهيم في رؤوس الأفراد متماثلة بين الكوكبين، ومع ذلك فإن المعنى مختلف. كما اتفقنا. ومن هنا نستنتج أن المعاني لا يمكن أن تكون أشياء في رؤوس الناس.

ويتابع بوتنام حديثه قائلاً إن بوضع المرء أن يشير النقطة نفسها باستخدام أمثلة أكثر واقعية وبدعي، بوصفه أحد أساء المدن، أن مفهومه عن شجرة «الران» لا يختلف عن شجرة «الدردار»، فكلاهما بالنسبة له من الأشجار النضوية لا أكثر. ومع ذلك فمن الخطأ، لقول إن «الران» و «الدردار» كلمتان مرادفتان بالنسبة إلى بوتنام لأنه يدرك تماماً أي شخص آخر أنهما إسمان تفصيليين مختلفين (ومع ذلك يمكن أن يحادل هذا صدق بوتنام بأن نقول إن جزءاً من مفهومه عن «الران» يتمثل في أنه ليس دردار و يعكس بالعكس، وهكذا فإن كلا المفهومين لديه ليسا متماثلين في نهاية الأمر، بالرغم من أنه لا يعرف الفوارق بين الشجرتين على وجه التحديد).

إن مثالي الأرض المتوأم يعتمد على اختيارنا أفراداً من غير الكيميائيين ليمثلوا متكلمي من كلا الكوكبين. ومن الواضح أن مفهوم الماء لدى أي كيميائي من كوكب لأرض يختلف عن مفهوم الماء عند كيميائي من الأرض المتوأم. وقد كان هذا الاختيار مشروعاً، بما أنه من السخف أن ندعي بأن الماء تعبير متحصر يقتصر على لغة كيميائيين، فهو كلمة يستعملها كل الناس. فإذا كانت المعاني أشياء في رؤوس الناس وجب عندئذ أن يكون معنى ماء في رأس كل فرد. لكن أهمية الاختيار بين الكيميائيين و بين العاديين يفسر نقطة بوتنام الأخرى وهي أن المجتمعات تحتوي على توزيع في عمل اللغوي *division of linguistic labour* على نحو مشابه لتوزيع العمل الحقيقي. ولأحد مثالا آخر من الأمثلة التي يسوقها بوتنام حيث يقول إن من الأهمية بمكان نسبة لباس أن يكون حاتم رواجهم مصوغاً من الذهب وليس من حليظة رحيصة لكن هذا لا يعني أنهم قادرون على معرفة الفرق. ففي مجتمعاً نجد أن عمل فئة من الناس هو ليس حواتم الزواج الذهبية، بينما تعمل فئة أخرى بشراء الحواتم الذهبية وبيعها. كما أن عمل فئة ثالثة هو التمييز بين الذهب وغيره من المواد. ولكن ليس من الحكمة أن نقول إن كلمة ذهب تنتمي إلى لغة الجماعة الأخيرة فقط. إن علمنا الاعتراف بأن تركيب الدلالي لأنة لغة من اللغات هو شيء يتأصل في المجتمع اللغوي ككل. ونيس في عصر واحد من المجتمع. ويلخص بوتنام المباحث (Putnam، ١٩٧٥ م، ص ١٤٦) قائلاً.

«إن هلك نوعين من الأدوات في العالم أدوات مثل المطرقة والسكين يستعملها شخص واحد، وأدوات مثل السمينة المحارية التي يطلب استعمالها شأها نعاوناً يشترك فيه عدد من الأشخاص ولقد كانت معارضة الكلمات بالأعمودح 'أول من الأدوات أكثر مما ينبغي»

وبما أن جدال بوتنام موجه في معظمه إلى اللسانيات من مدرسته تشومسكي المعاصرة، فإن من المفيد أن نتطرق إلى نقطة أخرى في هذا الصدد. فأنما قادر على تصور عدد من الأساليب تساعدنا في الدفاع عن المذهب الفردي *individualist approach* ضد بوتنام. إلا أن تشومسكي وأتباعه في حرج من أمرهم مما يجعلهم عاجزين عن بدفع عن آرائهم. فمن الخطوط الرئيسة في تفكيرهم ادعاؤهم أن علم النفس لا يمكن أن يرد إلى الفيزياء - وأن العقل هو عالم مستقل له قوانينه الخاصة، وأن لمقولات عن الحالات والعمليات الفكرية ليست مجرد ملحصات عن سلاسل معقدة من لمقولات تتعلق بخلايا الدماغ والكيانات المادية الأخرى (انظر فودور *Fodor*، ١٩٧٤م مثلاً). وبوتنام (شأنه في ذلك دركهائيم وسوسير من قبله) يصر من جهة أخرى على أن علم الاجتماع لا يمكن أن يرد إلى علم النفس كما يدعي الفرديون *individualists*. فالتناقض ضد عملية الرد هو نفسه في كلا الحالتين. ومن الضروري العثور على حجة دقيقة جداً تدعم الموقف الذي يقول بأن الحقائق الاجتماعية ترد إلى حقائق نفسية، بينما لا ترد الحقائق النفسية من جهة ثابتة إلى الفيزياء. وليست هناك أية أدلة على أن تشومسكي أو أتباعه مستعدون لتقديم مثل هذه الحجة. وقد يجتهد موقف تشومسكي إنساناً صريحاً سليم المظرة، لأن فكرة وجود عقل جماعي إنجليزي أو فرنسي تبدو مهمة تماماً. إلا أن صاحب المظرة السليمة يهمل لغزاً في غاية الأهمية يرتبط بفكرة العقل الفردي المتميز عن الكتلة المادية التي ندعوها الدماغ، رغم أنه وثيق الصلة بها. فإدراكنا قادرين على ابتلاع تلك الفكرة، فأولى بالأمم مكررة دركهائيم عن «العقول الجماعية».

وثمة مشكلة أخرى تتعلق بالتمييز بين المفردة والأداء. وهنا نرداد الصعوبة في لدفاع عن موقف سوسير. فحصوله الوحدات الدلالية أي المورفيمات كما ندعوها اليوم (مع أن سوسير لم يستعمل هذا التعبير) <sup>(١٢)</sup> بالإصاغة إلى القيم التي نعرف من



حلال انهم الأخرى التي تقابلها في الحمل الواحد paradigmatic contrasts بشكل في مجموعها النظام الذي يدعوه سوسير بالمقدرة اللغوية. فحين يربط المورفيمات في سلاسل مثل الكلمات والتعابير والحمل عندما نكلم. وبما يوفر التفكير بمجتمع لغوي لأعضائه مجموعة من المورفيمات المتماثلة أمرا منطقيا، نرى في المقابل أن من المتعذر أن يفكر بمجتمع يوفر لأعضائه نظاما من الحمل المتماثلة فالحمل في اللغة لا يشكل مجموعة محدودة (على العكس من المفردات والمورفيمات)، بل إن هناك إمكانيات لا حصر لها. بالإضافة إلى أن المتكلم الفرد يؤلف عادة سلسلة جديدة من الخصية المحدودة من المورفيمات كلما تكلم بدلا من اختيار جملة من مجموعة محدودة جاهزة سلفا. وهكذا بدا لسوسير أن عملية بناء الجملة أي النحو موضوع يتعمق بالكلام لا بالمقدرة اللغوية. وعلى هذا الأساس فإن النحو عنده لا يشكل جزءا حقيقيا من صلب اللسانيات.

والمشكلة في هذا هي أن النحو في أية لغة من اللغات هو قضية حرف يجب أن يتعلمها الطفل قبل أن يصح أحد الباطنين باللغة، كما هي الحال بالنسبة لبنيّة النظام لصوتي أو المفردات. فجميع (أو معظم) الحمل المستعملة التي نطقها جديدة، لكنها مع ذلك تتبع أنماطا نحوية منتظمة ومتعارفا عليها. فالصفات في اللغة الإنجليزية تسبق لأسماء، أما في الفرنسية فإنها تتبع الأسماء. ومن الواجب بالتأكيد أن نعتبر هذه الأنماط جزءا من المقدرة اللغوية. وربما حارب سوسير الصواب هنا لأنه لم ير أبدا كيف يمكن حسابيا لمجموعة متنوعة وغير محدودة من الجمل أن تعرف من خلال مجال محدود من الأنماط النحوية. وبوصفها القول في معرض الدفاع عن سوسير إن حل المشكلة ثم يفسر تماما لعلماء اللسانيات إلا بعد عشرات السنين من وفاته. ومن مساهمات تشومسكي الإيجابية الرئيسة في علم اللسانيات عرصة لهذه المسألة عرصة وضعها. وسوف يرى أن معالجة النحو لم تحقق نصيبا كبيرا من المعاح حتى بدأ تشومسكي بشر أعماله في بهايه الخمسينيات. على أية حال فإن الفكرة التي حلها سوسير أظهرت كما رأينا أن المدارس اللسانية الأوروبية كانت تميل إلى تجاهل النحو أو لتهميل من شأنه. وهذا لا يطق على النحو وحسب، بل يطق أيضا على العلاقات النحوية الألفية بصورة عامة. (١٢)

ومن الشيق أن نبحث عما إذا كانت مواقف مجتمع سوسير من اللسانيات قد عرّدت شعوره بأن لا مكان للنحو في الوصف اللغوي . فالاعتقاد السائد بين الهرميسر هو أن لغتهم «مطّمية» إلى أبعد الحدود . وهذا الرأي يشير إلى أن ما ينبغي تعلمه (لأنه عشوائي) يستحصر في المفردات ، فما أن يتمنها المرء حتى يصح الكلمات معا بآلة طريقة تؤدي معنى ما . لكن هذا الاعتقاد في الواقع لا أساس له من الصحة (وهي بعض اللغات كاليابانية مثلا ، نجد مبادئ منطقية بسيطة جدا تتحكم بالنحو ، لكن السعة النسبية ليست من هذا النوع بتاتا) . وعلى أية حال ، كان من الممكن أن يتبن سوسير عرقية النحو من خلال معرفته بلغات أخرى . إلا أن غلط تفكير العالم يتأثر غالب بعرضيات مسبقة بجدها سائدة في الوسط المعكري الذي يعيش فيه ، مع أنها تحتوي على معتقدات ما كان ليقل بها لو أنه واجهها صراحة . ولعل هذا ما حدث فعلا .

إن تصنيف سوسير للنحو ضمن نطاق الأداء اللغوي وليس المقدرة اللغوية مرتبط من جهة أخرى بفهمه السية اللغوية كحقيقة اجتماعية لا كحقيقة نفسية . وكما رأينا ، فإن سوسير يقول إن المقدرة اللغوية لا بد من أن تكون حقيقة اجتماعية على أساس أنه ليس من فرد واحد يعرف لغته الأم معرفة كاملة . فقد موّهت إلى أن هذا الخبط بين مسألتين : فهناك أنماط عديدة من السلوك التي يعرف الإنسان كيف يقوم بها دون أن يعرف بالضرورة الكثير عنها ، أي أنه لا يملك المعرفة الراجعة التي يمكنه التعبير عنها كأن يقول إن الأمر كذا وكذا . فاما مثلا أعرف كيف أركب الدراجة بمعنى أنني أستطيع ذلك عمليا ، ولكنني لا أستطيع أن أقول شيئا عن كيفية تحقيق عملية التوازن المعقدة

و المتكلمون لا يعرفون بالتأكيد بنية لغتهم بمعنى معرفة أنها تتألف من كذا وكذا ، فهم غير قادرين على وصفها وصفا كاملا ودقيقا . لكن إنكار أن اللغة حقيقة نفسية هو تأكيد إنكار المعرفة المتكلمين بها معرفة كاملة ، بمعنى المعرفة الكيفية . وهذا القول مختلف ومعد عن الواقع .<sup>(١١)</sup> لاحظ أنه في ميدان النحو بالتحديد هناك اختلاف من يعرف الناس فعله وبين ما يعرفون ماهيته . فبوسع أي تحليلي أن يطق تأملته مسمه من الحمل الموصولة الإنجليزية أو الأرمته المركبة ، ولكن ليس هناك واحد بالألف يستطيع أن يفسر كيف تتشكل هذه التراكيب . وإذا أردنا بالمقابل أن نتحدث عن مفردات وحلدا أن باستطاعة المتكلمين تحديد الكلمات في لغتهم تحديدا حذوا ، وأن

يقولوا ما نحمله تلك الكلمات من معانٍ. ويدل أن التعبير بين معرفة الكيفية ومعرفة  
 كونه يحتمل أو يتصل بالهنا. وهكذا فإن سوسير من وجهة نظره لم يكن في الواقع  
 يحيط بين مسألتين منفصلتين. وقد استعرضنا فيما سبق مناقشة بوتنام بأن المعجم في  
 نفسه يحب أن يعالج بوصفه حقيقة اجتماعية بدلا من حقيقة نفسية. فالمصباح الاجتماعي  
 يدي نساء سوسير في دراسته اللغة من جهة، وتركيزه على المبررات من جهة أخرى،  
 مبدا أن يعزى كل منهما الآخر. وبما أن سوسير يعتبر أن اللغة متأصلة في المجتمع فقد  
 عرّفها بوصفها نظاما من الرموز لا نظاما من الجمل - حيث بدت الحمل على أنها  
 قضية متعلقة باستعمال التكلم الفرد للغة، أي أنها قضية مرتبطة بالأداء اللغوي لا  
 بقدرة اللغوية. وبالمقابل، بما أن سوسير كان يعتبر اللغة نظاما من الرموز فإنه كان  
 مضطرا للتفكير بها ضمن الإطار الاجتماعي. ومن المعلوم أن نصف النحو الخاص  
 بهيئة معينة، ولكن ليس ثمة فرد واحد يتقن معرفة مجال العلاقات الدلالية التي  
 تحدد معاني الكلمات التي يستعملها.

ونترك سوسير عند هذا الحد فقد كان هذا هو تأثيره على العلم. وعلى أية  
 حال، سنعود مرارا في الفصول اللاحقة إلى المسائل التي أثارت في هذا الفصل.  
 وستقل الآن إلى أحد الذين عاصروا سوسير بشكل دقيق تقريبا وهو فرانز بواس Franz  
 Boas الذي قام بتطوير اللسانيات في أمريكا بصورة مستقلة، وكانت لسانياته شديدة  
 الشبه بلسانيات سوسير في كثير من جوانبها. مع أنها كانت بصمة عامة ذات مكنة  
 مختلفة جدا.



## الوصفيون

في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين ، وبينما كان سويسر مهمكا بصياغة أفكاره في أوروبا ، كانت اللسانيات الترامية تنمو في أمريكا بصورة مستقلة . وبأسلوب مختلف تمام الاختلاف تحت رعاية أحد علماء الإنسان ( لأشروبولوجيا ) anthropology ويدعى فرانز بواس Franz Boas . ولقد فتح بواس أمام علماء اللسانيات الأمريكيين انبهاها أثبت فيما بعد فائدة كبرى . وبقي هذا الاتجاه دون مزرع حتى ظهر تشومسكي على مسرح الأحداث في أواخر الخمسينيات وسوف أستعمل هنا عبارة « اللسانيات الوصفية descriptive linguistics » للدلالة على المدرسة التي أسسها بواس ، لأسباب سأناقشها فيما بعد . ولما كان معظم اللسانيين المهتمين باللسانيات الترامية خلال القرن العشرين من الأمريكيين ، فقد بدا أن اللسانيات الوصفية هي ذاتها اللسانيات بشكل عام .

ولد فرانز بواس ( ١٨٥٨م - ١٩٤٢م ) في ويستفاليا Westphalia وبدأ حياته العلمية بدراسة الفيزياء والجغرافيا ، ومن الجغرافيا انتقل إلى دراسة علم الإنسان . ويمكن أن يهتدي إلى مفتاح فكر بواس في ذلك الاكتشاف الذي حققه في أولى رحلاته الميدانية إلى بافين لاند Ballin Land ( في ١٨٨٣ - ١٨٨٤م ) ، وأعني به أن علم الإنسان ليس فرعاً من فروع الجغرافيا ( على عكس ما كان يفترض هو ومعاصروه ) ، بمعنى أن ثقافته المجتمع ليست وليدة ظروفه المادية محسب ، وأن العلوم الإنسانية متميزة تماماً مصمونا وأصولها عن العلوم الفيزيائية . وما إن استوعب بواس هذه الحقيقة حتى استحوذت العلوم الإنسانية على تفكيره ، ووجد للغة أهمية خاصة من بين شتى عناصر ثقافته . لني يحاول علماء الإنسان فهمها ووصفها . ولا نعري هذه القضية فقط إلى

كون اللغة مفتاحاً للعناصر الثقافية الأخرى، بل تعزى أيضاً إلى عدم وعي الناس عادةً بالباديء التي تحكم لغتهم. أما عندما يتعلق الأمر بعناصر الثقافة الأخرى، فيهم عادةً بمنسكون باعتقاداتهم الخاطئة والراسخة، وهي الاعتقادات التي تعيق سعي علماء الإنسان إلى فهم الكيفية التي يتماثل بها النظام بدلاً من أن تمد لهم يد المساعدة (ولهذا الأمر الأخير دلالة في ضوء الخلافات اللاحقة التي نشأت بين الوصفين وأنواع تشومسكي). (انظر بواس ١٩١١م - القسم الرابع خاصة ص ٦٣).

تخصص بواس في علم الإنسان الخاص في أمريكا الشمالية، وأقصى فترة وجيزة في التدريس في برلين قبل أن يحط الرحال في الولايات المتحدة في أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر. وكان لعمله في المعهد السميثوني Smithsonian Institute حيث كان منسقاً للدراسة شاملة ضمت عدداً كبيراً من اللغات المحلية في أمريكا شمالي مكسيكو، أثر كبير في تحوله من مجرد عالم معمر يهتم باللغة إلى مؤسس مدرسة ضخمة وغنية في البحث اللغوي. وفي عام ١٩١١م نشر بواس كتابه «دليل اللغات الهندية الأمريكية Handbook of American Indian Languages» الذي تعتبر مقدمته حتى اليوم خلاصة جيدة للمنهج الوصفي في دراسة اللغة. كما كتب أيضاً عدداً من الفصول عن لغات بعينها، وعني بتدريب دارسي اللغات الأخرى. وما يذكر أن جميع مشاهير اللسانيين الأمريكيين أخذوا الموضوع عن بواس بشكل مباشر أو غير مباشر خلال عشرات السنين اللاحقة.

لقد كان من الفوارق الرئيسة بين مذهبي بواس وسوسير، طبيعة اللغات التي عالجها كل منهما. فقد استأثر سوسير باهتمام الأوساط العلمية باحتراعه طريقة جديدة لرؤية ظواهر ظلت مألوفة مدة طويلة من الزمن، بحيث كان من المستحيل النظر إليها على أنها تنطوي على أية مفاجآت. وقد استعان سوسير في تفسير آرائه النظرية بضرب أمثلة من لغة الفرنسية بالإضافة إلى اللغات الأوروبية الأخرى الواسعة الانتشار، وهي اللغات التي حملت لواء الحركات الغربية العظيمة، والتي أشبعها فقهاء اللغة philologists وعلماء اللسانيات التاريخية بحثاً ودراسة طيلة قرون عديدة حتى التي أصبحت أمراً مسلماً به لدى كل من أصاب حظاً من الثقافة يكفيه للتعرف على أفكار سوسير. وهكذا فإن ما يهمنا في آراء سوسير هو تحليله التصوري المعنوي conceptual

abstract وليس الوقائع التي طق عليها هذا التحليل . ف رؤية الأصوات اللغوية كمجموعة من السمات التي يمكن أن تتعارض هو ناتج وعلاقاتها المتبادلة الخالصة مع تلك التي استحدثت منها في الأصل . كانت فكرة جديدة . ولكن ما إن يستوعب المرء هذه الفكرة حتى تتلاشى الحاجة إلى بدل الكثير من الوقت لتحديد فونيمات اللغة المرصبة لأنها واضحة عما فيه الكفاية . أما بواس وزملاؤه فقد واجهوا مشكلة عملية في منهي الصعوبة ، وهي تحديد البنية الحالية لمجموعة من اللغات المختلفة التي كانت عربية قديما لكنهم كانوا في مأس من الوقوع صحنه تفصيل التاريخ ، إذ لم يكونوا ، لاهم ولا من يتحدثون هذه اللغات . يعلمون شيئا عن المسار الذي سلكته تلك اللغات حتى وصلت إلى ما هي عليه . ومن ناحية أخرى كان التثبت من الخفايق الأساسية لتلك اللغات العربية من الصعوبة بحيث لم يجد معه الوصفيون متسعاً من الوقت لرسم فروق منطقية ودقيقة بين اللغة والكلام أو ما شابه ذلك . وهذا هو سبب تسمية هذه المدرسة بالمدرسة الوصفية . فقد كان وصف اللغة المفردة بالسنة لهذه المدرسة غاية في حد ذاتها على نحو لا نلمسه في أية مجموعة أخرى يتناولها هذا الكتاب ، أو كان ذلك الوصف هو الخطوة لضرورة الأولى نحو فهم أوسع لشفاقة مجتمع ما . (وناء على العرف الذي أدحه بواس انبثقت أقسام اللسانيات في الجامعات الأمريكية عن أقسام لاثروبولوجيا . وليس عن أقسام اللغات الحديثة كما هي الحال في أوروبا) .

ويميل الوصفيون إلى اعتبار النظر المجرد في اللسانيات وسيلة للتوصل إلى وصف عملي للغات معينة بدلا من اعتبار اللغات المفردة - وهذا ما يفعله تشومسكي - مجرد مصادر للمعلومات ترمي إلى بناء نظرية عامة حول اللغة . صحيح طبعاً أن نرر بوصفيين اشتهروا بعصل قيامهم موضع نظريات تعالج اللغة بصفة عامة . لكن مصربانهم العامة في جمع الحالات كانت مدعمة ببحوث مكثمة في السبب التفصيلية لنبغات عربية متنوعة . (اكتسب التوجه العملي للسانيات الأمريكية مرئداً من الدفع من الحرب العالمية الثانية بعد أن دعب الحكومات علماء اللسانا لديها لتنظيم برامج معبمية في لغات البلاد البعيدة التي أصبحت الولايات المتحدة فجأة معب بها . فكثير من لتحليل اللغوي التحقيقي ناجم عن هذا الجهد الحربي) . كما أن الكثيرين من زملائهم

وأنشأهم عن هم دونهم شهرة فصلوا أن يأخذوا النظريات على أنها مسلمات، وأن يركزوا على المعلومات.

إن كون بواس عالماً لغوياً علماً نفسه نفسه لم يكن عقده أمام تعامله مع اللغات الهندية الأمريكية، بل يعتبر ميزة مفيدة بالنسبة إليه، حيث كان من الضروري لدى دراسة تلك اللغات التحلي عن كل الافتراضات المسبقة والموروثة عن خلفه أوروبية حول طبيعة اللغة (وقد كانت هذه مشكلة حقيقية). فخلال الفترة الأولى من أعمال بواس، رفض المتشددون من علماء اللسانيات أحياناً تصديق النتائج التي كان ينشرها رفضاً قطعاً. كذلك كانت السية من سمات المدرسة التي أسسها بواس، إذ ليس ثمة لغة مثالية تتماوت اللغات الحقيقية في درجة القرب منها. فأنواع اللغات الإنسانية غير محدودة العدد، وبالرغم من أن سية لغة قبيلة من القبائل البدائية قد تبدو لنا عشوائية وغير عقلانية إلى أبعد الحدود، إلا أن حكماً كهذا لا يستند إلى أساس من الواقع، لأن لغاتنا الأوروبية في المقابل تبدو لأبناء تلك القبيلة غير عقلانية أيضاً. ولقد ناصر بواس فضلاً مريراً وهو يجادل ضد الرومانسيين في القرن التاسع عشر الذين رأوا أن اللغة تجسيد لروح العرق، وقال إن العرق - بالمعنى الوراثي - واللغة وعناصر ثقافته الأخرى هي ثلاث مسائل مفصلة، وأن اجتماعها معاً ليس ضرورياً على الإطلاق (انظر مثلاً بواس 1897، ص 189). ففي العديد من الحالات المعروفة، وبسبب تقلبات التاريخ، نرى أن بعض المجموعات البشرية التي تنتمي إلى عرق مشترك تتحدث بلغات لا تربطها ببعضها البعض أية روابط. وقد يرى في المقابل أناساً يتحدثون بلغة واحدة بالرغم من انتمائهم إلى عروق شتى. وبالمثل فإن الناطقين بلغات تتحدث من عائلة واحدة قد ينتمون أحياناً إلى مجموعات ثقافية مختلفة، وبالعكس بالعكس. لهذا، وبالرغم من اعترافنا بأن شعوب الغرب التي تتمتع بالتقدم التكنولوجي تتفوق نوعاً ما على سكان الكثير من أجزاء العالم الأخرى (سواء أكان ذلك التفوق ثقافياً بحتاً، حسب الاعتماد الشائع أيام بواس، أو كان بعضه وراثياً أيضاً)، إلا أننا لا نملك الحق في استنتاج أن لغات الشعوب المختلفة يمكن أن تصنف على أنها متقدمة أو بدنية ولغات في الواقع لا يمكن أن تصنف بهذا الأسلوب.



رأيا سوسير وهو يقول إن اللغة تعرض بنيانا عشوائيا arbitrary structuring على محاولات لامية لها unstructured في حد ذاتها من الصوت والمعنى . كما بين بواس كيف نعطي هذه الظاهرة مظهرا كاذبا من البدائية للغات هي في الأصل شديدة الشبه بدمت . وكان الشعور السائد في القرن التاسع عشر أن اللغات الأوروبية تستعمل مجموعة محددة من الأصوات تقابل بشكل ثابت تعريبا حروفها الهجائية، بينما يجد في الوقت نفسه أن أصوات اللغات البدائية من الناحية الأخرى عامضة ومتغيرة بحيث تلفظ كلمة ما تارة بهذا الصوت وتارة بذلك . وقد فسر بواس السبب في تلك العكسة في أولى مقالاته في اللسانيات عام ١٨٨٩ م . فباديء ذي بدء، يجد أن باستطاعة العم البشري أن يصدر أصواتا تعوق في عددها حروف الهجاء الرومانية . فإذا ما احتوت إحدى اللغات العربية على صوت يقع بين صوتين مألوفين لدى الأوروبي، سماع أصوات الغريب وكأنه يتأرجح بين هذين الصوتين . ثانيا، إن في اللغات الغربية، شأنها شأن اللغات الأوروبية، مجموعات من الألوفونات ذات التوزيع التكاملي (مثل اللام المنخمة [٣] واللام المرفقة [١])، وهما متكاملتا التوزيع في اللغة الإنجليزية الأنموذجية (RP) . وببما تعلم كل منا أن يتجاهل الفوارق بين الألوفونات لغته الأم، فإن هذه الفوارق تبدو واضحة في اللغات العربية لأنها تقابل في الغالب فوارق فونيمية بالنسبة لنا . لذلك سماع اللغة العربية وكأنها تخلط بين أصوات مستقلة بشكل غير عقلاني . لكن هذين التفسيرين في سوء التفاهم بين الساطقين باللغات الأوروبية واللغات الغربية متضاران تماما، إذ تبدو الإنجليزية للساطقين بإحدى اللغات الهندية الأمريكية وكان بها أصواتا متأرجحة بالشكل نفسه .

وما ينطبق على نظم الأصوات في اللغة يطبق بالمثل على العناصر النحوية والدلالية أيضا . وثمة نقطتان يدعي البعض أنهما غير أن اللغات البدائية . الأولى تقول بها عامضة بحيث لا يميز كثير منها بين المفرد والجمع، بينما تدعي الثانية أن تلك السمات لا تشاغل إلا ما تدركه الحواس، وأنها لا تستوعب صياغة المفاهيم المعقدة . ففي لغة الكواكيونل Kwakiutl وهي إحدى اللغات في كولومبيا البريطانية التي درسها بواس لا يأتي اسم بدون نهاية صرقة صمير ملكية، بحيث لا يستطيع المرء التحدث إلا عن «حتي» أو «حتة» لكنه لا يستطيع التحدث عن الحب كظاهرة عامة . ويعجز كل من

مدين القديين أحدهما الآخر . فالمعالجة في التخصص عكس العموم تماماً . وكما جاء في شرح بواس ، فإن لكل لغة في حقيقة الأمر عناصر منطقية معينة يسعى التعبير عنها ، سواء أكانت متعلقة برسالة معينة أم لا . فالتمييز في اللغة الإنجليزية بين الممرد والجمع يعد من العناصر الإجبارية ، بحيث إنه إذا شئت عدم الالتزام بالعدد حاشاً إلى عبارات وكيكة مثل الشخص أو الأشخاص المجهولين . إلا أن هوية العناصر الإجبارية تختلف من لغة إلى أخرى . فالناطق باللغة (أ) يجد اللغة (ب) عامصة إذا كان أحد العناصر إجبارياً في (أ) واختيارياً في (ب) ، كما يجدها معرفة في التفصيل إذا كان العكس صحيحاً . ومرة أخرى يرى أن الوضع متناظر تمام التناظر . ومن العسير أن يحدد المرء حديثاً بأن مجموعة العناصر الإجبارية في اللغات الأوروبية المألوفة أهم في حد ذاتها من العناصر الاختيارية في اللغات الأخرى . ويقول بواس حديثاً لو استعادت صفحات تبني نظام الفعل في لغة الكواكيوتل حيث يترك زمن الفعل دون علامة مميزة - فمن وقوع الفعل يتصحح من السياق - فإذا كان الراوي قد شهد الحدث الذي يروي به بأم عينه وجب عليه استعمال نهاية صرفية معينة لبيان ذلك ، وإلا استعمل النهاية الصرفية بـين ما إذا كانت معرفته بالحدث قد أتت عن دليل ، أم عن مجرد السماع ، أو إن كان الحدث الذي يروي به مجرد حلم رآه في نومه .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، يشير بواس نقطة ملائمة تماماً مما حدا بها أن التعبير المحددة تبرز عندما يطرح الفلاسفة اللغة لأغراضهم . وبما أن الفلسفة لا تغطي إلا باهتمام الأقلية ، فإسأرى أن هذا الإجراء مصطنعاً إلى حد ما . أما في اللغات التي لم يتفلسف فيها أحد بعد أكثر مما يلزمه في لغات الفلسفة الكلاسيكية ، فليس ثمة داع كي يكون هذا الإجراء مصطنعاً . فتعابير المطلق مثل النوعية quality والجوهر essence ، وهما الآن من التعبيرات المألوفة في اللغات الأوروبية ، كانت مصطنعة تماماً عندما دخلت تلك اللغات للمرة الأولى (فكان يشار إلى التعبير الأول بالكيفية how-ness ، ولثاني بالكينونة be-hood) . وهذا ما حدث عندما حاول بواس على سبيل التجربة أن يتحدث حول فكرة الحب العامة بدون أية نهاية صرفية تدل على الملكية في لغة الكواكيوتل ، إذ وهو معلوم الكواكيوتليون على أن المناقشة كانت ذات معنى ، رغم كونها غير اصطلاحية على الإطلاق (بواس Boas ، ١٩١١ م ، ص ص ٦٥ - ٦٦) .

ولا ريب في أن بواس يبوأ مكان الصدارة في أي حديث عن المدرسة الوصفية، فهو الذي أسس المذهب الذي طغت به أعمال جميع أعضاء المدرسة الآخرين غير أن الممثل الرئيس للمدرسة الوصفية، والذي يقل اللسانيون اليوم على قراءته كونه أكثر من كتب بواس هو ليونارد بلومفيلد (١٨٨٧م - ١٩٤٩م) <sup>(١)</sup> وهو ابن أخ موريس بلومفيلد Mauns الذي كان من أبرز علماء اللسانيات التاريخية الأمريكيين. أما ليونارد بلومفيلد نفسه فقد درس اللسانيات في أسلوبها التقليدي، حيث أمضى سنة في لايبزيغ Leipzig وعوتنغن Göttingen وهو لا يزال في العشرينات من عمره يعمل مع أعلام حركة النحويين الخدد. كما كانت أعضاؤه التدريسية في عدد من جامعات العرب الأوسط معنية بعفه اللغة الحرماي (حتى عام ١٩٤٠م حين أصبح أستاذ اللسانيات في جامعة ييل Yale). ودأب بلومفيلد منذ بداية حياته العملية على دراسة اللغات الهندية الأمريكية من العائلة الألغونكيانية Algonquian بالإضافة إلى بعض اللغات المستعملة في جزر الفيليبين، كما كتب بإسهاب عن نظرية اللسانيات الترامية. أما كتابه «لغة Language» الذي كان سبب شهرته فقد نشر عام ١٩٣٣م. ومن الإنصاف أن نقول إن أعماله النظرية لم تأت بالكثير مما هو جديد، رغم أنه سعى إلى دعم المذهب الوصفي وتصيفه في التحليل اللعوي (كما يدل الكثير من أحل تنظيم اللسانيات كمهنة، وبذلك كان المحرك الأول وراء تأسيس جمعية اللسانيات الأمريكية عام ١٩٢٤م). ويمكن العثور على النقاط الرئيسة في نظريات بلومفيلد حول وصف اللغة في كتاب بواس مع أن بلومفيلد عاجلها بصورة أوضح وبمزيد من التفصيل.

ويمثل إسهام بلومفيلد الجديد في تأكيد مكانة اللسانيات كعلم بأسلوب دسمي دقيق إذ بلغ نضوجه العلمي في زمن كان فيه العلاسفة يحصون العلم بمكة ربعة «مقارنة مع المحزات الفكرية الأخرى، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه شديدي حساسية حول ما هو جدير بأن يعتر علما. ولقد شهدت العشرينيات والثلاثينات ازدهار اليقينية المطلية logical positivism، وهي الفلسفة التي ارتطبت برودولف كارناپ Rudolf Carnap و«دائرة فيينا» Vienna Circle. فبالنسبة إلى أتباع اليقينية، «لعممة كان هناك نوعان أساسيان من الأقوال ذات المدلول: القضايا المطلية مثل «إما (أ) أو لا (ب)»، والمقولات التي تتناول معلومات حسية بسيطة كما في قولنا «أرى بقعة حمراء»

ي كما لو يعتقدون أنها مثبتة بالتحجيرة المباشرة بشكل لا يقبل الجدل . ويمكن في رأي هؤلاء تقلص جميع العلوم ، بما فيها أكثر المبادئ النظرية تجرداً ، إلى عدد من المقولات حول معلومات حسية بسيطة ترتبط ببعضها ارتباطاً منطقيًا . وكان الحكم يصدر عن أسطرلاب العلمنة بأنها صادقة أو كاذبة تبعاً لما إذا كانت المقولات عن المعلومات الحسية التي تلخصها تقابل الخبرة العملية أم لا .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، كانت النظريات العلمية بالنسبة لاتباع اليقينية اسطقية انحصار الوحيد الذي يطوي على مضمون في الكلام . فالحقائق الرياضية يمكن تقطيعها إلى حقائق مطلقة مثل «أ» أو «لا أ» وبالرغم من كونها ذات مدلول إلا أنها كانت مضممة بالخشوع أما المقولة التي لا يمكن تقطيعها إلى معلومات حسية أو منطقية أو كليهما معاً فهي مقولة خوفاً . والكلام في الجمال والأخلاق لا معنى له ، وهو من المخلفات الرجعية لماضي الذي سبق عصر العلم ، ولا يستحق سوى أن يكون طعام للسيران .

وقد خفت اليوم حدة الترميت لدى فلاسفة العلوم ، إذ أيقنوا أنه حتى أشد أنواع العلوم صلابة تحتوي - بل ويجب أن تحتوي - على الكثير مما هو ليس منطقياً ولا مقولات تتناول معلومات حسية حالية - إن كانت هذه الأشياء حقيقية فعلاً - كما أيقنوا أيضاً أن ما ليس علماً ليس بالضرورة أخوف ، وغالباً ما يتخذ نوعاً مختلفاً من المعنى . وموسع المرء أن يدرك بسهولة أن اليقينية المنطقية بقيت مسيطرة دون مسازع ، في الوقت الذي مارست فيه ضغطاً قوياً على علماء المجتمع لكي يشتوا انشباب موضوعهم إلى العلوم الأصلية وحلوه من جميع العناصر التي قد تعرض مكانته العلمية لخطر .

أما بلومفيلد فلم يتأثر باليقينية المنطقية تأثراً سلبياً محسباً ، بل أصبح (بعد أن جرت اعتناق كثير من الآراء وهو في العقد الثاني من عمره) مؤيداً شيطانياً للأفكار اليقينية كما تنطو على السلوك الإنساني بما في ذلك اللعبة . وقد قدم رساله عن «العناصر اللسانية للعلوم» (١٩٣٩م) نشرت في الجزء الأول من الموسوعة الدولية للعلوم الموحدّة International Encyclopedia of Unified Science . وكان المشروع الذي تولى رعايته أوتو نيوراث Otto Neurath يهدف إلى تشكيل بناء جديد منظم لأسس جميع المعرفة

الإبسانه حسب الموانئ البقية . ومن الواضح أن اليمينية لم تكن على وفاق مطلقا مع أفكار مثل « العمل الجماعي » التي تعتمد عليها على ما يبدو رؤية اللسانيات كمرع من علم الاجتماع . وكانت اللسانيات بالنسبة إلى بلومفيلد فرعاً من فروع علم النفس ، وبانحديد من النوع البقيني من علم النفس الذي يعرف « بالسلوكية behaviourism » . فقد كانت نظريات بلومفيلد في اللغة سلوكية إلى أبعاد الحدود ، حيث طلب من عالم النفس السلوكي البرت فايس Albert Weiss - وهو من زملائه - أن يسهم بمقانة عن « لسانيات وعلم النفس » نشرت في العدد الأول من دورية « اللغة Language » التي تصدرها جمعية اللسانيات الأمريكية ( ١٩٢٥ م )

إن للسلوكية جانبين ، سيء وجيد . ويتمثل الجانب الجيد من السلوكية في كونها أحد مباديء المنهج العلمي . إنها قاعدة تبين أن الأدلة الوحيدة التي يمكن أن تستخدم لإثبات نظرية علمية أو دحضها هي الطواهر البادية للجميع ، وليس الاستبطان introspection والحدس intuition مما يعتبره الناس غير قابل للتحدي ، مع أن الحدس في حد ذاته يقتصر على الفرد ولا يمكن أن يكون مشتركاً بين الجميع . ومن المفري بالنسبة إلى العلماء ولا سيما علماء النفس اتباع الاستبطان مثلما كان شائعاً بين علماء النفس في لسوات الأولى من القرن العشرين . ولكن عما أن الاستبطان شيء خاص ، كانت النظرية المسية على الاستبطان عند شخص ما تصطدم مع نظرية شخص آخر ، وليس ثمة وسيلة مبدئية تعيد في حل هذه المسألة . وبالطبع كانت الصدامات من هذا النوع تبرز بصورة متكررة ( انظر مثلاً برودبنت Broadbent ، ١٩٦١ م ، ص ١٨ وما بعدها ) . وهكذا بدأ علماء النفس إبان الحرب العالمية الأولى يعترفون بالمنهج السلوكي كطريقة وحيدة لإعطاء علمهم قاعدة صلبة وعلمية . فالتخلي عن الاستبطان كان يعني التخلي عن إمكانية تشكيل أية نظرية مهما كانت حول العديد من جوانب حياتنا الفكرية . لا أن علماء النفس قبلوا أن يدفعوا ذلك الثمن لقاء قوة الاعتماد على النظريات المسمة وعندما دخل المنهج السلوكي اللسانيات فيما بعد من خلال كتابات بلومفيلد ، ظهر على شكل شعارات مثل « إقبل كل شيء يقوله المنكلم الأصلي بلعنه ، ولا تقل أي شيء يقوله عنها » وبعبارة أخرى ، فإن من الممكن الاعتماد على الوصف اللساني ،

دم وثما على ملاحظة الكلام غير المدروس، ولا يمكن الاعتماد عليه إن كان المحلل قد حأ إلى طرح أسئلة على المتكلم مثل «هل تستطيع أن تقول كذا وكذا في لعنتك؟» وهي الواقع كان قول المنهج السلوكي في بعض النواحي أسهل عند اللسانيين من علماء النفس فبادىء ذي بدء، لم يكن من الواضح مباشرة في اللغة إن هناك أسئلة يعجز الدليل القائم على الملاحظة وحده عن الإجابة عنها، مثلما كان ذلك واضحا في تفصايا النفسية كالعاطفة والإدراك. ولعل الأهم من هذا أنه كان توسع عالم النفس يدي يعتمد على الاستبطان على الأقل أن يعتبر نفسه متجا لطريات جديدة، ولو كانت قائمة على أسس مزعومة. لكن المجتمعات البشرية بأجمعها نهتم بلعانها، لأم، وتطور لهذا العرص مجموعة من المعتقدات المتأصلة تتوارثها الأجيال فاللساني الذي يبيع لنفسه أن يعتبر أن معتقدات المتكلم الأصلي ذات سنطة، سرعان ما يجد نفسه مقتصرًا على نقل وصف كان معروفا بكل أساسياته قبل ظهوره على المسرح، ولكن بعد أن يصني على الوصف قشرة براققة من المصطلحات الحديثة ويضعه في قالب أكثر تنظاما إلى حد ما. (ورعا كانت معتقدات الناس الصريحة حول لغتهم كما يرى بواس، أقل من معتقداتهم حول عاصر ثقافتهم الأخرى. لكنهم مع هذا يمتدكون بالتأكيد الكثير من المعتقدات حول لغتهم) فعندما يبحث اللساني في لغة عربية، يسهل عليه تجاهل نظريات المتكلم الأصلي حولها، على اعتبار أن نعلم نظريات كهذه يتطلب جهدا إيجابيا إلا أن الوصفين الذين بحثوا في لغات مألوفة لجأوا أحيانا إلى إجراءات متطرفة معا لتأثر أوصافهم بأفكار موروثية من عصر ما قبل العلم وهكذا نجد أن النحو<sup>(١)</sup> الذي كتبه تشارلز فرايز Charles Fries للغة الإنجليزية (١٩٥٢م) يتجيب تماما استعمال عبارات أقسام الكلام التقليدية مثل «الاسم» و«المفعول»، ويستعمل عندها «كلمات الفته ١»، «كلمات الفته ٢» وهكذا وليس هذا مجرد تحديد كم يبدو لدوله الأولى، حيث يشير «فرايز» إلى أنه بالرغم من الشبه بين التصريف الذي طوره لمعالجه مجموعة الأمثلة التي جمعها من الإنجليزية الأمريكية المطوقة المعاصرة والتصريف الذي تنطوي عليه العبارات التقليدية الأخرى، فإن الاثنين يختلفان في عدد من النقاط

والسلوكية بهذا المعنى المنهجي مرغوبة تماماً، ومع أنني أشرت آنفاً إلى أن اليقينية المنهجية لم تعد تحكم فلسفة العلم، فإن الحجج المنطقية المؤيدة للمنهج السلوكي لم تتأثر بسقوط اليقينية. ونعترف الآن بأن القوانين العلمية الشاملة لا يمكن تطبيقها إلا على عمليات لجميع مقولات عن ملاحظات منفردة: والنظرية ليست اختصاراً لمجموعه من المقولات عن الملاحظة، لكنها مجرد تخمين لا يمكن إثباته مطلقاً في نهاية الأمر بواسطة أية سلسلة محدودة من الملاحظات مهما امتدت. لكن هذا لا يعني أن أي شيء بخلاف الملاحظة يلعب دوراً في إثبات نظرية ما أو دحضها. فما أن يسمع امرء بصرياً بأن تكون حاصلة لتأثير الرأي بدلاً من الملاحظة حتى يفتح الباب على مصراعيه أمام الخذل الذي لا يمكن أن يحسم إلا بالمهاترات من كلا الجانبين. ولعمري إن هذه لمشكلة حقيقية سواء في اللسانيات أو في علم النفس. (إن يحمل البعض أحياناً معتقدات حاصلة إلى حد كبير حتى حول الخصائص البسيطة في لغتهم مثلما نلتمس من السؤال عن جوار استعمال تركيب بسيط فيها) (من أجل مثال واضح انظر لايوف Labov، ١٩٧٥ م، القسم ٢ - ٣). وقد يبدي علماء التراث الشعبي اهتماماً بمعتقدات الإنجليز حول اللغة الإنجليزية. أما اللساني فمما واحداً أن يركز على الاهتمام على الكيفية التي يتكلم بها الإنجليز عندما لا يفكرون بأمر لغتهم. وبالرغم من اعتراف فلاسفة العلوم المحدثين بأن ما ليس علماً (ولا منطقاً أو رياضيات) ليس أخوف بالضرورة، فإن هذا لا يعني أن الموضوعات التي يمكن معالجتها بأسلوب علمي ينبغي أن تكون أخوف. فقد يكون الخدب في علم الأخلاق صحيحاً مع أنه غير علمي، إلا أن المبادئ الأخلاقية عندئذ لا تدعي أنها تفاريز عن مسائل مرتبطة بالحقيقة المطورة. إذ ليس ثمة ما يبرر الاعتماد على رأي المتكلمين في معرض الدفاع عن التحليل الحوي بما أن هذا التحليل يتعلق بطواهر ملحوظة على أية حال فإن الكثير من علماء النفس السلوكيين حصوا بين الموضوع المنهجي ومسألة اعتماد مادي. فامنعوا خطأ الاستيطان للتلميح إلى أنه ما من شيء يمكن أن يُستنتج ومن الواضح أن هذا استنتاج خاطئ، فخطوة ملائمة التي ينبغي أن تتخذ تمثل في الاعتراف بأن الاستيطان يجعل كلاماً قادراً على الوصول إلى برنامج دقيق وعي من النشاط الذهني، وأن تقبل في الوقت نفسه أن هذا النوع من الظواهر لا يمكن أن يدرس دراسة علمية، ولذلك يجب أن يترك

لنفلاسه والشعراء . إلا أن معظم كتابات السلوكيين كانت تعبر أن الإيمان بوجود العقل والنشاط الذهني مثل الإيمان بوجود الثور الذي يحمل الأرض على غريبه إن هذا الموقف الذي يتخذه بعض السلوكيين وليس كلهم يحالف المطلق ويشير السحرية ، لا سيما حين يؤدي ما أحيانا إلى تخيل عالم النفس وهو يحاول جده إقناع نفسه بأنه في الواقع ذلك المخلوق الذي لا عمل له ، كما يظن أن من واجبه أن يكون . ولهذا الموقف نتائج أكثر خطورة ، خاصة عندما يحمل علماء النفس على الادعاء بأنهم قادرون على تفسير الظواهر التي لا يستطيعون تفسيرها . فما نلاحظه في بني البشر هو المدخلات inputs (كالمناظر التي يرونها بحكم مقدرتهم ، والأصوات التي يسمعونها والصربات أو اللمسات التي يتلقونها) ، والمخرجات outputs ويثمل ما يفعلونه سواء عن وعي أو بلا وعي (بما في ذلك طبعاً ما يقولون) . والرأي المتقبول منطقياً الآن هو أن المدخلات عالما ما تؤثر في تنظيم عقولنا الداخلية ، وأن مشطحات نظامنا العقلي تحدد بدورها الكثير من المخرجات . ولكن بما أن العقول تتحمل الظواهر هائلة التعقيد ، فإن وجود علاقة كبيرة مباشرة بين المدخلات الفردية والمخرجات الفردية أمر بعيد الاحتمال في معظم الحالات . فقد يكون ما فعله نتيجة لأمر تعرضت له . ولكن ، إن كان الأمر كذلك ، فإنه ليس نتيجة لما تعرضت له في الدقائق الخمس الأخيرة فحسب ، بل لعدد لا نهاية له من الأمور التي مرت بها طوال حياتي كلها (٣) فإن لم تكن معلوماتنا بأجمعها سوى ملاحظات للمدخلات والمخرجات ، فإنه من غير المحتمل عملياً أن نكون قادرين على إنتاج نظرية تبين ارتباط المدخلات بالمخرجات ويحجم السلوكيون الذين يرتكبون مثل هذا الخطأ الذي وصماه عن الاعتراف بهذا . ولما كانوا يكرون وجود العقل ، فإنهم يشعرون بأن المدخلات والمخرجات عند الإنسان يجب أن تكون على علاقة مباشرة فيما بينهم . وهم على صواب في عدد من الحالات فالمدخل المتمثل بطريقة على أسفل الركة تسعه مباشرة رجعة في الساق . وبالتشديد على أمثله من هذا النوع على حساب أنماط السلوك التي يعتبرها الناس العاديون أكثر تميزاً للإنسان ، نجح بعض السلوكيين في إقناع أنفسهم بأنه قد تم بالفعل إصاح العلاقة بين المدخل والمخرج عند الإنسان ، ما خلا بعض الثغرات في المضاييا النمطية ونشجلى هذا الرأي في أعمال مكير B. F. Skinner وهو الأخير في مجموعة علماء



النفس الذين انقذهم ومن أكثرهم جرأة - وقد عرض سكينر إلى انتقاد عادل من جانب تشومسكي بناء على هذا الأساس

ولا شأن للسانيات - إلى حد معين - إذا كان سلوكي جيد يركب خطأ يحوله إلى سلوكي «سيء» فما الكلام إلا فئة عنه من القوالب تتكون من محررات ملحوظة - مصدر عن المتكلم - ومن مدخلات - يتلقاها المستمع - ولما كانت اللسانيات نصب حراً كبيراً من اهتمامها على التوصل إلى طبيعة هذه القوالب، فإنه ليس ثمة داع لاستعانتها بنشاط عقلي افتراضي. ومن ناحية أخرى، يميل علماء النفس عبر المعين باللمعة نحو التعامل مع عناصر المدخلات والمخرجات التي هي في حد ذاتها بسيطة تمام ولا تثير الاهتمام، مما يجعل الهدف من العمل بأكمله إقامة العلاقة بينها. ونهزم جميع فروع الوصف اللساني التي تسمى بعلم الأصوات الوظيفي وعلم الصرف وعدم النحر بعملية القولبة على اختلاف أنواعها والتي يمكن أن نلاحظ في المعلومات الكلامية.

ويصح الخطأ من صلب الموضوع عندما يمس علم الدلالة. فالحديث عن معني الكلام المطوق لا يعني أن نتحدث عما تبديه التعابير المطوقة من قوالب، بل عما تتركه من تأثيرات في عقول سامعيها. وعندما كتب ليونارد بلومفيلد عن المعنى ارتكب الخطأ لسلوكي علانية وبكل وضوح. فبالنسبة إلى بلومفيلد، يرى أن تحليل المعنى في لغة ما يتمثل في إظهار الخوازم التي تستدعي - تعابير أو أقوالاً معينة لتكون بمثابة استجابات من جهة، وإظهار الاستجابات السلوكية التي تستدعيها خوازم كلامية معينة من جهة أخرى. والقصة الأنودجية في مناقشة بلومفيلد لعلم الدلالة تنسأل قصة تقول إن مطر نعاخة في حديقة مسورة (بلومفيلد Bloomfield، ١٩٣٣ م، ص ٢٢ وما بعدها)، وما يصاحب هذا المنظر من إفرازات معدية، يحمل فتاة اسمها حيل على محطة رفيقها حاك، وهو أكثر منها رشاقة، وتقول له أرحوك أن تحصر لي تلك النعاخة. والخاص الذي يتبع عن سماع هذا القول بدوره يجعل حاك يسبق السور ويحصر لها النعاخة. والمشكلة واضحة في هذه القصة. فالباس يطقون كلمه مشر نعاخة دون أن يكون التفاح موجوداً أمامهم (بلومفيلد، ١٩٣٣ م، ص ١٤١) ويدعو

بلومفيلد الحالة الأخيرة بالكلام المعزول displaced speech ، ويحاول أن يوفق بين تفسيره وتفسير قضية جاك وجيل يقول :

إن نطق المتكلم بكلمة تعالجه دون حافز من رؤية بحاجة في تلك اللحظة هو بالنسبة إلى المتكلم استجابة لحوافر داخلية عامصة من النوع الذي أربط في وقت ما خلال حياته الماضية بحافز تعالجه (بلومفيلد، ١٩٣٣م، ص ١٤٣).

غير أن معارضي الجانب الخطأ من السلوكية يرون أن الكلام المعزول هو القاعدة وأن القصايا مثل قضية جاك وجيل هي الاستثناء فقد يتناول حديث حول الدفأة في غرفة جلوس إنجليزية موضوعات شتى من الهندسة المعمارية الصببية التقليدية إلى اقتصاد صناعة السيارات . وإذا اقتصر الحديث على محتويات غرفة الجلوس فمن المتوقع أن يكون هذا الحديث مملاً إلى أبعد الحدود . إن خوف بلومفيلد إلى الحوافر لداخلية العامصة يشير بصورة مبطنة إلى النشاط العقلي ولكن تحت اسم آخر ، أو ربما كن مجرد محاولة فاشلة للدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه . فافتراضاته النظرية تجعله مقتنعاً بضرورة وجود حوافر ملحوظة كأمينة تسبق نطق الكلام المعزول ، إلا أنه لم يلاحظ أية حوافر من هذا النوع ، وليس لدينا سبب حقيقي بحملنا على الاعتقاد بوجود حوافر قابلة للملاحظة .

وبالرغم من الخطأ الذي ارتكبه بلومفيلد في هذه الساحة ، إلا أن خطأه لم يكن مصدر ضرر لللسانيات . ففي علم الأصوات الوظيفي وعلم الصرف وعلم النحو كان جانب الجيد من السلوكية هو المطلوب . ففي كل هذه المجالات كان لسلوكية بلومفيلد تأثير حميد جعل اللسانيين يطهرون تحليلاتهم من الاعتماد على الحدس أو الحكم الشعبية المتوارثة ، وبدلك أصبحت التحليلات - الصحيحة منها والخطأ - علمية أصدية بعد أن كانت خليطاً غير مشروع من أقوال خاضعة لاحتبار الملاحظة مقابل الأقوال التي كانت تؤخذ على الثقة . أما في علم الدلالة فإن تمكيد بلومفيلد جمعه يستتبع أن وصف المعنى كان عملياً ضرورياً من المستحيل ، وأنه سيهوى كذلك حتى تحقق المعرفة الإنسانية مستوى يفوق بكثير مسواها الحالي (بلومفيلد، ١٩٣٣م، ص ١٤٠) . فالعلم ، على ميل المثال ، يجب أن يكشف الحوافر الداخلية العامصة التي تعترى المرء قبل أن يقوه بجملة مثل : سمعت أن أسعار التفاح مستهبط في السنة

بعدمه . لقد أخطأ بلومفيلد في افتراضه أن مثل هذه الحواجز موجودة بالفعل . فحتى من يؤمن بأخانتب الجسد من السلوكية لا بد له من الاعتراف بأن المعلومات الملاحظة غير كافية عملياً لبناء نماذج من التفاعل بين الكلام والملاحظ والعقل غير الملاحظ . وتشير الاعتبارات الفلسفية التي ستعرض لها في الفصل السادس بالفعل إلى أن وصف المعنى وصفاً علمياً يعد صعباً من المستحيل ، لا من الناحية العملية فحسب ، بل ومن حيث مبدأ أيضاً . فالنتيجة التي توصل إليها بلومفيلد والتي تقول إن التحليل الدلالي مستحيل كانت نتيجة سليمة رغم اعوجاج تفكيره .

وثمة جانب من نظريات الوصفيين عن اللغة يجعل الحديث عنها بإسهاب متعذراً . فالفطرية - بالتعريف - هي شيء يرتكز على العوامل الثابتة نسبياً في مجموعة الظواهر التي تتناولها ، ويتجاهل في الوقت نفسه السمات الكثيرة التي تميز الأمثلة الفردية المفصلة . فعلم الأرصاء الحيوية يخبرنا أن العيوم الركامية تتشكل من تيارات الوصل ، لكنه يهمل أن لهذه السحابة الركامية شكل مطه وأن لتلك شكلاً يشبه السمينة . أما بواس وأتباعه فقد شددوا على تنوع اللغات الإنسانية . ولقد كان افتراض الشروع للامحدود هذا في بادئ الأمر استراتيجياً منطقياً للبحث عند الوصفيين ، إذ إن من غير المحتمل أن يتوصل الباحث إلى أية نتيجة في تحليل إحدى اللغات الأجنبية إن هو بدأ بافتراض أن بيتها شبيهة بالإنجليزية أو اللاتينية . وكان الوصفيون بحاجة لتغلب على افتراضاتهم المسقة التي ورثوها حول ماهية اللغة ، ولم يكونوا بحاجة لافتراضات جديدة . غير أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، إذ لم يكن الشروع عبر المحدود بالنسبة للكثيرين منهم مجرد مبدأ مساعد فحسب ، بل كان معتقداً مادياً أيضاً . وكتب بلومفيلد يقول ( Bloomfield ، ١٩٣٣ م ، ص ٢٠ ) . « إن السمات التي معتقد أنها كلية بالضرورة قد تكون مفهومة في أول لغة نكتشفها بعد ذلك » . وبينما ينحصر معنى هذا في كون كليات اللغوية ( إن وجدت ) مختلفة في العالم عما نعبر عنه بمواقف المحاربة ، كتب مارتن جوس Martin Joos معبراً عن الموقف دون موارد ، وبمواجهة التماثل الأمريكيه اوسيه : « ربما تختلف اللغات عن بعضها البعض دون حدود ويواحد لا يمكن التكهن بها » ( جوس ، ١٩٥٧ م ، ص ٩٦ ) . وبعبارة أخرى ، فإن النظرية الصحيحة عند

الوصفيين نكسر في عدم وجود نظريه للغة، وهذا ما يجعل الكتابة بإسهاب حول نظريتهم أمرا بالغ الصعوبة

وكان مبدأ التنوع غير المحدود هذا أكثر من مجرد خلط بين الاستراتيجيه السوجيه والاعتقاد النظري. وتتمثل المسألة بالنسبة لسواس في أن اللغات هي من نتائج العقل البشري المبدع وليست وليدة الظرف الطبيعي، وبالتالي فإن الفيود على تنوع اللغات لا تريد على الفيود على تنوع مخيلة الناس. ولقد حرّم بلومفيلد استعمال عبارات العقل والخيال، ولعله، بالرغم من ذلك، كان سيوافق على شيء من هذا القبيل بمجرد ترجمته إلى مصطلحات سلوكية. على أية حال، ومع وجود أساس متين للاعتقاد بمبدأ التنوع اللامحدود، فإن هذا المبدأ أدى في الوقت نفسه إلى حالات معينة من الاضطراب الذي ميز الفكر السلوكي. ولما كان الوصفيون يعتقدون هذا المبدأ، فقد افترضوا أنهم يكتبونهم عن اللسانيات العامة إنما يناقشون أساليب التحليل التي لم تطرح أية افتراضات مسبقة أو مادية حول طبيعة النظم التي يراد تحليلها. لكن هذه الفكرة لا تحلو من الناقص فكل أسلوب تحليلي في أي مجال من المجالات يجب أن يعتمد على بعض الافتراضات حول طبيعة الأشياء محللة. وكانت النتيجة أن لاقى الوصفيون صعوبة بالغة في معرفة الخطأ الذي حدث عندما تمخضت ممارستهم التحليلية عن دحض افتراضاتهم الذاتية.

خذ مثلاً مسألة من علم الأصوات الوظيفي في اللغة الصينية وهي التي ناقشها تشاو Y. R. Chao في مقالة قيمة تناول «عدم وحدانية الحلول الفونيمية للنظم الصوتية» The Non-uniqueness of Phonemic Solution of Phonetic Systems (١٩٣٤م) فصي الصينية المدربة صوت احتكاكي لثوي طبقي alveolopalatal ذو توزيع محدود جداً. فهو لا يقع إلا قبل الصوتيات الأمامية العالية <sup>(٤)</sup> [i, I, y, Y] أما الصوتيات المدربة الأخرى مثل [p] أو [l] فتقع قبل عدد أكبر من الصوتيات. وعندما يواجه الوصفية هذه الحقائق فإنه يظن فوراً أن [p] قد تكون ألوفونا لقوبم بشه توزيعه بصفة عامة توزيع الصوتيات الأكثر تعيراً (كما هي الحال في الإنجليزية، حيث يكون الاتحاد بين توزيع الصوتين [i] و [i<sup>h</sup>] طبيعياً أكثر من توزيع أي من هذين الألوفونين كل على حدة) ولذلك

يبحث الوصفي عن ألقون صامت آخر من المدرنية متكامل التوزيع مع [ء] وتتمشك،  
 تشكك في عدم احتواء المدرنية على فون واحد فحسب، واحتوائها على ثلاثة  
 فونات: اللثوي والارتدادي واللهوي الاحتكاكي [s ʃ x] ويأتي كل منها قبل جميع  
 بصوائت تقريباً باستثناء الصوائت الأمامية العالية. وهكذا نجد على سبيل المثال أن  
 [ʃ] «سوفيتي» تتميز عن [su] «كتاب» وعن [xu] «يزمر الهواء»، ولكننا لا نجد [ʃu]:  
 ونجد مثلاً [ʃ] «عرب» ولكننا لا نجد [ʃu] ولا [ʃa]. إذن ما هو العنصر الآخر  
 في الفونيم الذي يضم حركات من بين أعضائه؟ إننا لا نستطيع أن نربط [ء] فونيمياً بأكثر  
 من صوت واحد من الأصوات الاحتكاكية الثلاثة الأخرى، لأن هذه الأخيرة تتقابل  
 فيما بينها، بحيث إذا أردنا أن نقول مثلاً أن [s ʃ x] تنتمي جميعها إلى فونيم واحد  
 رمز إليه بالرمز /s/ صار لدينا عندئذ كتابة فونيمية واحدة ولنكن /sʃ/ ترمز إلى  
 الكلمتين المختلفتين لفظاً واللتين تعيان سوفيتي وكتاب. وبشكل هذا خرقاً للمبدأ  
 الأساسي للكتابة الفونيمية، وهو الذي ينص على أن وظيفتها تسجيل أية فوارق صوتية  
 مميزة في اللغة. ومن جهة أخرى، لا يسعنا أن نعتبر الفونيمات الاحتكاكية الأربعة  
 فونيمات مستقلة، على أساس أن الهدف الرئيس من الكتابة الفونيمية هو تقليص  
 عدد وحدات الصوت التي يمكن التعرف عليها من خلال تجاهل كل الفوارق الصوتية  
 غير المميزة، وأن الاختلاف بين [ء] والأصوات الاحتكاكية الثلاثة الأخرى ليس مميزاً  
 بالتأكيد. ويمكننا تقليص المحال نوعاً ما باللجوء إلى مقياس التشابه الصوتي بين أعضاء  
 الفونيم الواحد على افتراض أن هذا يلعب اختيار الربط بين [x] و [ء] ولكنه لا يمكن أن  
 يكون قاطعاً بين [s] و [ʃ] اللتين يعد مخرج كل منهما في العم بالمسافة نفسها عن  
 مخرج [ء] ولكي نزيد المسألة تعقيداً، نرى أننا إذا أقحمنا البرهان التاريخي في الصورة  
 وجدنا أن [ء] مشتقة من اندماج [s] و [x] قبل الصوائت الأمامية العالية (إن كلمة [ʃa]  
 «عرب» تأتي من كلمة أقدم هي [sa]، لكن نظيرتها الحديثة [ʃa] «مادر» مشتقة من [sa].  
 وبهذه «تشاو» الدليل على أن المتكلمين الأصليين يسمعون [ء] شكلاً من أشكال [x].  
 وهو الصوت الاحتكاكي الأقل شبهاً بصوتياً

و يميل اللسانيون الوصفون نحو التعامل مع هذه المشكلات التي يواجهونها  
 بإحدى طريقتين: فقد اتحد فريق منهم منحي معاده أن التحليل اللغوي ليس مسألة

كشف السية التي وجدت بصورة مستقلة عن أبحاث اللسانيين - بل هو مسألة حجاج النسبة التي يرضها اللغوي على اللغة التي يدرسها - ويرى ذلك المريق أن اللسانيات معيه بالشعوبة بدلا من الحقيقة الأبدية على حد تعير هاوس هولدر Householder وكان الاختيار بين صوف التحليل البديلة بالنسبة للمشعورين مسألة مراح شخصي لا مسألة صح أو خطأ بكل تأكيد - ولما لم يكن هناك إجابة صحيحة، كان من العيث أن يهتم المرء بقضايا كالتى ذكرتها آنفا - وتكمن المشكلة في هذا الموقف في استحالة المضي في التثت به والاشتغال باللسانيات في الوقت نفسه. فإذا لم يكن وصف اللغة في الواقع سوى وهم لا أساس له يخترعه اللسانيون من أحلام شخصيا، فمماذا إذن نكبد أنفسنا هذا العناء؟ وبالإضافة إلى ما تقدم، يتضمن موقف الشعوبة أن التصيعة الحقيقية للغة أسمى من يتحدث عنها الناس، ولعمري أن هذا الموقف عريب - فمما كانت الفكرة وراء هذا تشير إلى ميل اللسانيين إلى وصف اللغات كما لو كانت ذات بنية أكثر انتظاما وترتيباً مما هي عليه فعلا - وهذا صحيح دون شك - فإن هذا لا يعني وجود ما يسمى «بصحة الوصف اللغوي»، بل يعني أن كل الأوصاف التي يعتمد اللسانيون هي في الواقع خاطئة، ويجب أن تستبدل بأوصاف أخرى أكثر إحلاصا للحقيقة الأبدية. ومثل هذا القول مختلف إلى أبعد الحدود. وقد يخطر بالمرء أن من دواهي سرور المشعورين أن يعتبروا الأوصاف اللغوية صحيحة ما دامت أساليب الوصف تسير دون عثرات، وأن الشعوبة لم تكن سوى موقف احتياطي يلجأون إليه في حال وصولهم إلى طريق مسدود، مثلما رأينا في قضية اللغة الصينية التي أشرون إليها آنفا. ويشبه هذا الوضع وضع لاعب الشطرنج الذي يوقن أنه أصبح في موقف باتس فيقول، بعد أن يكون قد كافح كفاحا مريرا ليحقق الفوز: «ومن الذي يهتم بلعبة نافهة أصلا؟»

وكان رد الفعل البديل على مثل هذا الطريق المسدود هو البحث عن حل من خلال اقتراح بعض التعديلات على أساليب التحليل. وقد يتساءل الوصفي عن ضرورة إفحام حلس المتكلم الأصلي من أجل التوصل إلى حل للقضايا المستعصية كلسي سبق ذكرها. وإذا كان الأمر كذلك، ما هي إذن أساليب الاستساط المسموح بها؟ وما هي الظروف المحددة التي نبيح لنا اللجوء إلى مثل هذه المعلومات؟ وما هي

أهمية الأدليل التاريخي إن وجد؟ وربما استلزم الأمر الاستعانة بالإحصاءات التي تدل على نسبة وفوح الأصوات المختلفة، فإذا كانت [q] مثلاً أقل وقوعاً في المدرسية بصورة واضحة، ولقل من [d] أو [x] وجدنا عدتد أن من المعقول ربط [q] مع [g] لكي نعطي الفونيم ككل نسبة وفوح طبيعية أكثر (لا أتذكر في الواقع أنني صادفت الاقتراح الأخير في الكتب، لكنه موجود في الروح العامة للمترجمات من النوع الذي طرحه نخل القصص المستعصية).

أما في قضية المدرسية فإن أياً من هذين الاقتراحين لا يعني بالغرض. فالمسوغات التي أتينا على ذكرها أنفاً صد إعطاء أي ثقل للتاريخ أو نخدس المتكلم الأصلي في تحليل العلمي المتراس هي مسوغات سليمة تماماً. كما أن استعمال مقاييس مثل مقياس التشابه الصوتي أو الإحصاءات أو نسبة الوقوع لا يحل هذه المشكلة بشكل خاص. والخطوة التي تبدو سليمة في هذه الحال هي خطوة لم يكن لأي وصفي أن يتخذها، وتتمثل في الاعتراف بأن قضية المدرسية تقوض دعائم نظرية الفونيم. إن فكرة اجتماع الأصوات في فونيمات تطوي على افتراض عقلائي يشمل اللعبة الإنسانية بصفة عامة، وينص على أنه في حال وجود خلاف بين مجموعات الأصوات المتقاربة التي تقع في سياقين صوتيين في لغة معينة فإن عدد الأعضاء في كل من المجموعتين و حد على الأقل، بحيث يمكن أن تشكل تلك الأعضاء أرواجاً من أصوات المجموعة الأولى مع ما يقابلها من المجموعة الثانية. ونسب ثمة سبب منطقي يوجب هذا، ولكن لندع على ما يبدو تميل نحو الموضوع لهذا المبدأ ميلاً شديداً، مما يفسر في أغلب نظر كيف نشأت فكرة التحليل الفونيمي في بادئ الأمر. ولا بصنادق المرء غاب لغات تحتوي على ثمانية عشر صامتا متقابلاً قبل [d] وأربعة قبل [e] وأحد عشر قبل [a] وهكذا. فالتمسك بأن التحليل الفونيمي هو الأسلوب الملائم للوصف الصوتي أو طبقي لأية لغة معني التمسك بأن المبدأ هو أكثر من مجرد ميل، إنه أحد الكميات الدائمة للغة الإنسانية. وهذا عكس الواقع. كما تبين لنا من مثال المدرسية وعدد كبير من القضايا الأخرى. لذلك إذا أصر المرء على تبني التحليل الفونيمي، وحب عليه حيناً أن يقوم بعمليات اختبار عشوائية مثل ربط [q] في المدرسية مع [g] لا شيء إلا لأنهما يشبهان [k] إلى حد ما بالنسبة للإنجليزي. وينبغي على المرء بدلاً من هذا أن

بحث عن صغره أدق من أجل وصف النظام الصوتي، صيغة تحترم المدأ الذي وصف بأنه ميل احصائي دون أن يحاول تغييرها إلى قانون مطلق.<sup>(٩)</sup>

ولم يكن الوصفيون ليعلموا على رفض نظرية الفونيم لأنهم لم يروا في اللسانيات تجسيدا لمجموعة من النظريات حول اللغة الإنسانية بصفة عامة قد تحظى، وقد نصيب. لذا كان من العسير بالنسبة إليهم أن يتبينوا ما حدث عندما واجهوا مثلا لا يرفض أحد معتقداتهم التي كانت من ضمن ممارستهم التحليلية وكما سرى في الفصل السادس، فإن اللسانيين اليوم يكافحون عن وعي من أجل التوصل إلى نظريات حول الكليات اللغوية، ويبدلون قصارى جهدهم لإبصار الافتراضات التي تكمن وراء أساليبهم الوصفية الشكلية، ويشيرون إلى أن هذه الافتراضات ليست بأية حال من الأحوال حقائق لا بد منها. ولم يكن هذا بالنسبة إلى الوصفيين يمت إلى عمل لسانيات بصفة، إذ انحصر اهتمامهم في وضع نظريات صحيحة عن اللغات المفردة، وما كانوا يواجهوا سوى الإحراج إذا وجدوا أن التنظير اللغوي العام قد سبقهم إلى بعض الخيارات المتاحة عند وصف لغة ما، وذلك بتقديم افتراضات لا طائل منها معدها أن كل اللغات متماثلة في جوانب معينة.

ولقد اعتبر الوصفيون اللسانيات العامة أقرب إلى مجموعة من أساليب الوصف منها إلى مجموعة من المعتقدات المتعلقة بطبيعة اللغة (من الملاحظ أنني أتكلم الآن عن النموذجي العام الذي كان يجمع بين الكثير من اللسانيين الأمريكيين الممارسين خلال الثلاثينات والأربعينات والخمسينات، وليس عن التصريحات المعلنة لكل المفكرين) وكما هي الحال في التحليل الوصفي، فقد تفاوض الوصفيون أحيانا عن الحقيقة التي نفروا به لا بد من وجود خاصية عامة ما تجمع بين الأشياء الموصوفة لكي يكون الأسلوب الوصفي ملائما. وقد اتخذ الوصفيون في الغالب مع ذلك أساليب مبدئية نظريته أكثر مرونة، معتبرين تلك الأساليب أدوات بديلة يمكنهم إخراجها من صندوق الأدوات عند الضرورة. فقد تحتاج إحدى اللغات، أو أحد العناصر من لغة ما، إلى أسلوب معين، بينما تحتاج لغة أخرى إلى أسلوب آخر، مثلما تحتاج بعض الأعمال إلى معك وأخرى إلى مثعب.



خذ مثلاً المهجين البديلين في الوصف النحوي والصرفي واللذين أطلق عليهما تشارلز هوكيت Charles Hockett (١٩٥٤م) مصطلحي العنصر والترتيب item and arrangement، والعنصر والعملية item and process. ويستطيع أن يبين الفرق بين النموذجين بأن يستعرض كيف يعالج كل منهما التناوب بين أشكال المذكر والمؤنث في الصفات في اللغة الفرنسية كما نرى في ما يلي (اقتصر على الأمثلة التي تشير مشكلة واحدة فقط من المشكلات الكثيرة التي تبرز فيما لو استعرضنا جميع أنواع الصفات في اللغة الفرنسية):

المعنى	مؤنث	مذكر
أخضر / خضراء	vert	ver
أبيض / بيضاء	blâf	blâ
رمادي / رمادية	gris	gri
أزرق / زرقاء	ble	ble

وينص النموذج العنصر والترتيب بصورة عامة على ما يلي: «تألف الصفة في الفرنسية في حالة المفرد من مورفيم جذر معني مثل /blâ, gri, ble, ver/ إلخ، يتبعه في بعض الحالات - لا داعي لذكرها هنا بالتفصيل - مورفيم لاحق يمكن أن يسميه «المؤنث». وبهذا المورفيم العديد من المورفات التي يحددها السياق. فهو /l/ بعد /ver/ - وجذور كثيرة أخرى مثل /pla/ «مسطح» مما لن أتى على ذكرها - و /l/ بعد /blâ/ (إلخ) و /z/ بعد /gri/ (إلخ) و صغر بعد /blâ/ (إلخ)، - وينبغي إدراج جميع مورفات التأنيث الأخرى مع سياقاتها في أي تقرير شامل - . ومن ناحية أخرى، يعتبر الوصف الذي يعطيه النموذج «العنصر والعملية» أن الصفات المؤنثة هي الأساس، وينص على أن «الصفة في اللغة الفرنسية تتألف في حالة الأفراد من صيغة تحية مثل /blâ, gri, ble, ver/ . وفي حالات معينة (وهي عكس تلك الموجودة في وصف النموذج العنصر والترتيب) تطبق عليها التعليمات التالية: «احذف المورفيم الأخير إن كان صوتاً صامتاً» وفي هذه الحال بالدات، نرى أن النموذج العنصر والعملية ملائم أكثر. كما صرحت

هو كبت أمثلة أخرى لبيان أن الفائدة التي يحققها الوصف بأنموذج العصر والعميد  
 يجب ألا تعيب عن أبطارنا، ونحن في غمرة حماسنا لأنموذج العصر والترتيب الذي  
 كان شائعاً بين أوساط اللسانيين في ذلك الوقت. لكن هو كبت لم يقصد من مافشته  
 أن أنموذج العصر والعملة هو الأفضل، وأن من الضروري التحلي عن أنموذج العصر  
 و ترتيب، بل بادي صراحة بوجود تطوير كلا الأنموذجين. ولقد أشار فعلاً و بفتصب  
 إلى أنموذج ثالث وهو أنموذج «المعردة والسمط word-and-paradigm» الذي يستحق في  
 اعتقده القدر نفسه من الاهتمام، شأنه شأن الأنموذجين الآخرين. ومن السهل أن يعكر  
 أمر بلعات (كالصينية) حيث لا يطبق أنموذج العصر والعملة فعلاً في أي مستوى من  
 مستويات الوصف. أما بالنسبة للسنسكريتية، فيبدو أنه لا يمكن الاستعانة به تقريباً.  
 إن رؤية اللسانيات العامة كأسلوب بدلاً من رؤيتها كنظرية أمر يستحق أشياء  
 إلى الحد الذي يعكس رغبة اللسانيين تحرير أنفسهم من المواقف المتشددة بشأن  
 خصائص الضرورية للغة، سواء التي نتج عن الشعارات التقليدية أو عن طبيعة بعينهم  
 الأم. لكنها ظهرت بشكل أقل حادية في أعمال العلماء الذين كتبوا في السنوات  
 الأخيرة من العصر الوصفي. واعتمد هؤلاء أن غاية التصريح في اللسانيات هي التعبير  
 عن الإجراءات التي يمكن أن نطوق من أجل اشتقاق النحو الصحيح للغة ما من مادة  
 لغوية ذات معلومات ملاحظة وبطريقة آلية بحثية. ومع ازدياد المعرفة بالحاسبات  
 الإلكترونية في الخمسينيات، شعر بعض هؤلاء اللسانيين أن من أهداف اللسانيات  
 العامة - إن لم نقل هدفها بالتحديد - استنباط إجراءات الاكتشاف الصريحة التي (د  
 ما ترجمت إلى لغة الحاسب الآلي أمكنها أن تجعل الآلة قادرة على معالجة المعلومات  
 الختام الملاحظة حول أية لغة وسكها في نحو كامل لتلك اللغة دون تدخل من حد  
 لعوي كإسار. ويعد كتاب (أساليب اللسانيات البسيوية ١٩٥١ م Methods of  
 Structural Linguistics) لمؤلفه ريلع هاريس Zellig Harris من جامعة سلفانيا - أكثر  
 الكتب تعبيراً عن منهج إجراءات الاكتشاف وأحدها بالاهتمام، فهو يطرح قواعد  
 منضلة وصريحة حول الانتقال خطوة خطوة من مجموعة عبارات كلامية مدونة بترمو  
 صونية إلى التحليل القويومي الصوتي الوظيفي والتحليل الصرفي وأخيراً إلى  
 تحليل القوالب النحوية. ويستحق كتاب هاريس الاهتمام أيضاً لكونه من أكثر

سحولات حذبه لمعالجة النحو قبل نشومسكي . فكثير من الوصفيين ذكروا اهتمامهم على علم الأصوات الوظيفي وعلى علم الصرف ولم يعبروا النحو سوى أوصاف متفرقة<sup>(١)</sup>.

وعبر نشومسكي عن اعتراضه على منهج إجراءات الاكتشاف في نص شهير (Chomsky ، ١٩٥٧ م ، القسم السادس) فكتابة نحو للغة ما تعني صياغة مجموعة من اتعاميم ، أي نظرية ، تصف ملاحظات المرء حول اللغة . ولم يسبق لأي نوع من أنواع العلوم القائمة أن افترض أن هدفه هو تقديم قواعد تجريبية بغية التوصل إلى نظريات صحيحة حول المادة التي يعالجها . فعندما عارض أينشتاين نيوتن مثلاً حين وضع نظريته النسبية الخاصة ، كان ذلك نتيجة إلهام مدع . وببدو أن من العسير أن يفترض وجود أسلوب ميكانيكي يستطيع أن يحل محل الإلهام في مثل تلك القضايا صحيح أن التوصل إلى قاعدة حول ترتيب الصفات في لغة التشوكتو (Chukotian) ، نجار لا يرقى في أهميتها إلى نظرية أينشتاين ، إلا أن المبدأ واحد في كلا الحالتين ، ولا بد من فقرة مبدعة من فقرات الخيال تكمل لنا الانتقال من مجموعة من الأمثلة الملاحظة إلى قاعدة عامة تفسر تلك الأمثلة . ولا تكمن أهمية الصياغة في أنها تحل محل الخيال في اكتشاف النظرية ، بل تكمن في جعل النظرية ، وبمجرد اكتشافها ، واضحة ودقيقة بحيث يمكن اختبارها في ضوء المعلومات ومقارنتها بالنظريات البديلة .

لقد كان تاريخ الجدل حول إجراءات الاكتشاف تاريخاً حافلاً ونسج المفكرة لغاتية إن اللسانيات تدور حول إجراءات الاكتشاف من أن اللسانيات تتألف من «أساليب» بدلا من «نظريات» عن اللغة . وهذا الاعتقاد مستمد بدوره من الرأي الذي يقول إنه لا أحد لنوع اللغات الإنسانية - وبالتالي لا مجال لوجود نظريات عن اللغة بصفة عامة - . ولكن بالرغم من هذا ، هناك ثوتر داخل المدرسة الوصفية بين مبدأ شوع اللعوي غير المحدود والرأي الذي ينادي بضرورة احتواء اللسانيات على قواعد ميكانيكية لمعالجة المعلومات وامتنباط أوصاف النحو منها . ولا يحس المحركه الأخيرة إلا إذا تأكد المرء من معرفه الشكل انعام لنحو أية لغة من اللغات فمن يعتقد محضاً أن «السمات التي نظر أنها من الكلمات اللغوية ربما تكون مفقودة في أول لغة حديثة يصل إليها» لن تنق بقدرة برنامج حاسبه الآلي على تحليل لغات غير معروفة

حتى الآن دون الحاجة إلى بعض التعديلات. أما بالنسبة إلى تشومسكي، فلا وجود مثل هذا التوتر. فهو يعتقد، كما سنرى، أن الأطفال يتقنون لغتهم الأم لا لشي إلا لأهم وللدوايحهار عقلي موروثة ومعقد ومصمم خصصا لمهمة اكتساب لغة من نوع محدد. إن المهمة الرئيسية للنظرية اللغوية كما يعتقد تشومسكي (Chomsky، ١٩٦٥م، ص ٢٤ و ٣٠). تتمثل في العثور على نمط عمل ذلك الجهاز وبعبارة أخرى، فإن بهج تشومسكي في اللسانيات يعتمد في الواقع على إجراءات الاكتشاف، وبعد خمسة عشر عاما من برور تشومسكي إلى عالم الشهرة بفضل كتاب كانت فيه مناقشته صد إجراءات الاكتشاف من أكثر الأجراء التي اعتمد عليها الآخرون، نشر تشومسكي حاشية مختصرة وعامضة وفظة إلى حد ما (Chomsky، ١٩٧٢م ب، ص ١٢٠ حاشية رقم ٧) اعتبرت تراجعا عما قاله في الأصل، ويقول فيها إن الرصفيين كانوا على حق في الواقع في سعيهم نحو إجراءات الاكتشاف. وحسبما أعلم، فإن أفكار تشومسكي الأولى في هذا الشأن كانت هي الأفضل، فما ينطبق على أينشتاين ينطبق على الطفل أيضا. فإذا قبل المرء بأن اتساع أفاق المعرفة الإنسانية يعود إلى قدرة البعض على تفسير ملاحظاتهم أكثر من غيرهم وذلك بتحقيق قمرات مبدعة لا يحدها قانون معين، فمن المؤكد أن التفسير السليم لقدرة الإنسان على تعلم اللغة الأولى سيعتبرها ببعة من مقدرتنا البسيطة على التخيل التي نملكها نحن الذين لا نستطيع التوصل إلى مرتبة أينشتاين. وهذا على ما يبدو أسط من افتراض أما نتعلم اللغة ماتساع مجموعة من الخطوط العقلية المبرمجة في أدمغتنا منذ الولادة والتي هي أشبه بالقصان التي تسير عليها الحافلات. فمثل هذه المكرة تطوي على نتيجة معيرة مفادها أن قدرتنا على تعلم لغتنا الأم لا بد من أن تكون منفصلة تماما عن قدرتنا على إتقان المهارات والأفكار الأخرى التي تسو عن الحصر والتي يكتسبها بنو البشر - إذ ينبغي أن يكون لكل واحدة منها بالمثل مجموعتها الخاصة من القضايا التي تسير عليها الحافلات الكامنة. ولم يكن تشومسكي مستعدا للاعتراف باحتمال كون الخيال - وليس إجراءات الاكتشاف الكامنة وراء قدرة الطفل على اكتساب اللغة - على أية حال فإن لديه مسوعات قوة تدعم موقفه من هذه القضية، ويجب أن نرجى استعراضها إلى الفصل السادس. (٣)

قامت في هذا الفصل عددا من الانتقادات لأراء الوصفين . ولكن لابد لكتاب من هذا النوع من الانصراف إلى معالجة الكتابات التي يطرح فيها اللسانيون مبادئهم نظرية أكثر من انصرافه إلى معالجة الكتابات حيث توضع هذه المبادئ موضع التطبيق في نحل المعلومات . وهذا ما يشكل السواد الأعظم من نتاج الوصفين . ولم يكن هذا الإجراء بالتحديد في مصلحة الوصفين . سيما براهم يؤمنون بالمبدأ الذي يقول إنه ما من نظرية عامة عن اللغة الإنسانية يمكنها أن تكون صحيحة وغير متدلة في وقت واحد ، نجد أن لمستهم كانت أبعد ما تكون عن الثقة حين وصحوا نظرياتهم بالفعل ، حيث بلغوا أوج محذهم في ميدان الممارسة التحليلية العملية . إن ولاء المؤلف الحالي هو للمدرسة الوصفية ، أو عبارة أدق ، لجناس التنوع عبر المحدود بدلا من جناح إجراءات الاكتشاف . ويبدو لي أن ممارسة الوصفين كانت بصفة أساسية ما يجب أن تكون عليه اللسانيات . صحيح أنهم كانوا مصطربين حول بعض القضايا ومخطئين حول بعضها الآخر ، لكن أخطاءهم لم تكن بدات بال إذا ما قورنت بأخطاء من جاء بعدهم .

ومن سوء الحظ أن التقاليد الوصفية فقدت سيطرتها بصورة حاسمة على مجتمع اللسانيات الأمريكية خلال الستينيات .<sup>(٤)</sup> وما زال هناك الكثيرون من يهتمون بالوصف أكثر من التفكير ، ويرون اللسانيات العامة كجمعة أدوات بدلا من رؤيتها غاية في حد ذاتها . إلا أن روح العلم قد تعيرت . ففي يوم ما هذا ما إن يصبح ذوي الاتجاه المعلوماتي من النوع الذي وضعته أنما على اتصال مع اللسانيات الأكاديمية ، حتى تنضح لهم ضرورة البدء بإتقان مجموعة معينة ومحددة ومعقدة من الصيغ النحوية ، ومن ثم تنظيم المعلومات التي تستحوذ على اهتمامهم في ضوء الصيغ هذه بكل ما في وسعهم إذا أرادوا لعملهم الوصفي أن يؤخذ على محمل الجد . وإن نعثر تفسير بعض النقاط في المعلومات التي لديهم ضمن إطار صيغ معينة ، فإن من الأفضل عندئذ إسقاط هذه النقاط من الوصف بدلا من أن يصنع كل واحد إطارا وصفيا خاصا به . صحيح أنه لا بأس من إجراء بعض التعديلات في الصيغ القياسية ، بل ربما كان ذلك أمرا مرغوبا بالفعل أحيانا ، إلا أن أية تغييرات تتطلب موافقة مجمع لغوي يصعب نفسه بنفسه ، ولا يملك معظم الخالدين من أعضائه سوى قدر ضئيل من الاطلاع أو الاهتمام بأنة لغات

تقف في عرانتها المرنسية أو الروسية . ولست أنفي وجود هذا الموقف في المعسكر الوصفي لأنه كان موجودا بالفعل . غير أن أفكار أفضل الوصفين كانت تباصل صده ، ثم أفكار النخبة من الرجال الجدد فكانت تشجع هذا الموقف عن غير قصد ، رغم الأسباب الوجهية التي تدعو الناس إلى اعتناق تلك الأفكار .

إن الوصية لم تمت ، مع أنها أقيمت عن موضع الصلابة . فقبل كل شيء ، يعكف بعض الناس على دراسة عناصر من اللغة لم يتطرق إليها المذهب الجديد بعد ، متبعين الأسلوب القديم كما فعل دوايت بولينجر Dwight Bolinger حين بحث في التعيم على سبيل المثال . وبعض الطر عن هذه الحالات الخاصة ، فقد قاوم بعض العلماء طغيان المؤضة ، أو أمملوها فحسب . وهكذا نجد أن تشارلز هوكيت من جامعة كورنيل Cornell (١٩١٦م - ب) ، وهو الذي دخل اللسانيات من خلال علم الإنسان كما فعل بواس ، لم ير داعيا لقبول هيمنة اللسانيات التشومسكية . ومن واجب كل من يوافق على أن الافتراضات التشومسكية عرصة للتساؤل أن يقرأ كتاب هوكيت «اللسانيات اليوم State of the Art» فهو يثير اعتراضات لم تحط قط بإجابات «التشومسكيين» - إن كانوا قد فهموا تلك الاعتراضات بالفعل

ولعل أكثر أقسام المذهب الوصفي دلالة واستمرارية هو القسم الذي يمثل عمه معهد اللسانيات الصيفي بإدارة كيبث بايك Kenneth Pike الأكاديمية . وقد يقول بعضهم إن بايك وأتباعه يستحقون فصلا خاصا بهم ، لا شيء ، إلا لأنهم أطلقوا اسما خاصا على أسلوبهم في التحليل اللغوي وهو أسلوب «القوالب» Pragmatics صحيح أن نظرية القوالب صيغة رمزية غامضة في كتابة النحو ، ولكن حسبما أعلم - ولست وحدي في هذا (انظر هوكيت Hockett ، ١٩٦٨م ، ص ٣٣) فإن الجديد في صيغ القوالب يكمن في مظهرها السطحي أكثر من أية تجدييدات نظرية تمثلها . كما أن المكتامات النظرية المحددة لبايك وجماعته تبدو العنصر الأقل قيمة في إسهامهم . وإنهم في الأمر أنهم يعتقدون المهج الوصفي في إخصاع النظرية إلى مهمة تحليل اللغات غير المدروسة ، كما أن لأعمالهم التحليلية هدها علميا ملموسا ، ألا وهو دعم الشط انشيري عن طريق إيصال ما سمي بالكيب المقدسة إلى كل إنسان وبلعته الخاصة . ويقدم معهد اللسانيات الصيفي تدريبات للمشرين من «مؤسسة مترحمي» المحس

وكلغة المتحدة» والتي تأسست عام ١٩٤٢م والذي تتعاملون مع عدد كبير من اللغات محولة في أحراء كبيرة من أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى ومنطقة غرب المحيط الهندي . وتقرر جميع هذه اللغات بلون امتشاء إلى نظام للكتابة ، مما مالت بالتقاليد النرويجية . لذا كان من الضروري إجراء الكثير من التحاليل اللغوية قبل الشروع في ترجمة . وقد تهاى إلى معنى أنه على الرغم من أن اللسانيات النشومسكية توصفها موضوع أكاديميا أوسع انتشارا عما كانت عليه الوصفية أيام ازدهارها ، فإن معظم العمل الذي يعنى بوصف اللغات فعلا والذي يجري حاليا في العالم ، يتم تحت إشراف المعهد لصيفي . ومن حسن حظ اللسانيات أن احتمال انتهاء هذا العمل في المستقبل القريب يبدو صئلا إذا ما اعتمدنا في حكمنا على عنوان كتاب حول مترجمي ويكليف (والس وبييت Wallis and Bennett ١٩٥٩م) وهو «ألسان حتى النهاية Two Thousand Tongues to Go» .





## الفصل الرابع

### فرضية سابير و ورف

يتجيب هذا الفصل الحديث عن أية مدرسة فكرية سواء أكانت متميزة جغرافيا أو زمنيا، لكنه يعالج فكرة حطيت بشعف موسمي في أوساط اللسانيين من شتى المدارس، كما حطيت فعلا باهتمام الكثيرين ممن لم يكونوا طلابا يدرسون اللغة بمعنى الكلمة. وعلى الرغم من كون هذه الفكرة التي تقول إن لغة المرء تحدد إدراكه للواقع، أو أن لعالم الذي نساكنه هو بناء لعوي، هي فكرة قديمة جدا في أحد جوانبها، إلا أنها ارتبطت بالأمريكيين إدوارد سابير (Edward Sapir ١٨٨٤ - ١٩٣٩ م) وبنجامين لي ورف (Benjamin Lee Whorf ١٨٩٧ - ١٩٤١ م) ولا سيما الثاني

وكان من الممكن جدا معالجة أعمال هذين المؤلفين في الفصل السابق، على اعتدائها تقع بأكملها ضمن المذهب الذي استحدثته بواس، ولكي أثرت أن أناقش سابير و ورف في فصل مستقل لأن الجانب الذي سنبحثه من أعمالهما يمثل تطورا خاصا نوه ما ضمن المدرسة الوصفية، كما أنه يصطدم بأفكار بعض أعضاء تلك المدرسة. وقد شارك سابير و ورف بواس وأتباعه الوصفيين تمسكهم بالنسبية relativism مع تركيزها على اختلاف اللغات الحرة، في الوقت الذي لم يتأثرا فيه بسلوكية بلومفيلد (سواء جمعها الحيد أو السيء)، (كانت السلوكية عنصرا أدخله بلومفيلد إلى المذهب الوصفي وسميكن موجودا فيها من قبل. وقد كان بواس وبلومفيلد نفسه في أولى كتاباته - على استعداد تام لمناقشة المعاني، ولم يصيحا الكثير من الوقت في الاهتمام بالوصف المنطقي لمعومات اللسانيين. إلا أن بلومفيلد تمكن من كسب معظم زملائه إلى صمعه عندما تحول إلى السلوكية، ولهذا السبب أقول إنه كان هناك صراع بين الأفكار التي نحتصر عما يعرف بفرضية سابير و ورف وبين أفكار الوصفيين الآخرين).

درس سايبير لغات الساحل الباسيفيكي في أمريكا الشمالية وبدأ حياته العملية مسؤولاً عن بحث في علم الإنسان في المتحف الوطني الكندي، وانتقل إلى جامعة شيكاغو عام ١٩٢٥م ومن ثم إلى جامعة ييل عام ١٩٣١م. وهناك شهّد كثير من كثير من أعماله وأعمال الوصفيين الآخرين، مع أنه كان يختلف عن السلوكيين بأكبره. لم يمدح التي يتمحور عنها التحليل اللغوي كانت غمادح في عقول المبكرين (وحي يلمت النظر أن مجموعة أبحاثه التي نشرت عام ١٩٤٩م تحمل عنوان كتابات محدثة في اللغة والثقافة والشخصية). وكان يذهب بالنسبة لسايبر أنه إذا أراد المرء أن يعرف كيف تبنى اللغة بالنسبة للمناطقين بها، فإن من المناسب أن يسألهم 'ويتصع بشكل خاص استغلال سايبر عن اختراصات رملائه الأمريكيين في فكرته عن المساعد الدعوي linguistic drift فقد كان سايبر يعتقد أن وراء التذبذبات العشوائية إلى حد ما والتي تشكل التاريخ المستقل لأية لغة، نزوعاً بعيد المدى في تلك اللغة لكي تعدل نفسها في اتجاه معين مثلما تحجب الأمواج في حركتها ذهاباً وإياباً حركة المد والجزر ذات العدة الثابتة والطويلة الأجل (سايبر Sapir، ١٩٢١م، الفصل ٧). وتكاد هذه الفكرة أن تتضمن أن للغة حياة خاصة بها أكثر من المعنى المحاري، وكان من الممكن أن تكون هذه لغة لم يؤمن بالفرديّة المهجبة مثل بلومفيلد.

ولم ينفرد سايبر مطلقاً بالقضية موضوع هذا الفصل. فورد اسمه في العبارة فرضية سايبر وورد ربما يعود إلى أن ورد أخذ منهجه العام في اللسانيات من سايبر وليس لأن سايبر كان واحداً من أشط مؤيدي تلك الفرضية (كان جي - بي كارول، B. Carroll أول من أدخل العبارة (ورد Wort، ١٩٥٦م، ص ٢٧) ويشير سايبر في كتابه الشهير «اللغة Language» إلى أن الفوارق بين اللغات ماهي إلا فوارق في طرق التعبير عن مجال مشترك من الخبرات، وليس فوارق في الخبرات نفسها (سايبر Sapir، ١٩٢١م، ص ٢١٨، لكنه مال إلى أن غير رأيه فيما بعد. حذ مثلاً النصفين التاليين:

لا يعيش الناس وحيداً في العالم المادي، كما أنهم لا ينفردون في الشاط  
الاجتماعي كما يفهم عادة، لكنهم يحرمون تلك اللغة الخاصة التي أصبحت  
واسطة التعبير في مجتمعهم. ومن ثم فهم أن نحمل أن المرء يتأقلم مع أنواع بشكر  
أساسي دور استخدام اللغة، وأن اللغة ليست سوى واسطة طارئة هدفها حل  
مشكلات معينة في التواصل والتعكير. فالحقيقة تقول «إن العالم الحقيقي قائم إلى

حد معد وبصوره لاشعورية على العادات اللغوية لدى الجماعة، وليس ثمة لعتان هما من الشبه إلى حد يجعلنا نقول إنهما تحتلان الحفظة الاجتماعية نفسها والعوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة هي عوالم متباينة، وليست عالما واحدا بأسماء مختلفة [ساير Sapir، ١٩٢٩م، ص ٢٠٩ الحروف المائلة]

اللغة... لا تربط بالخبرة التي تكتسب إلى حد كبير بدون مساعدتها بحسب، بل تعرف لنا الخبرة أيضا من خلال كمالها الشكلي، ولأننا وبصورة لاشعورية سقط توقعاتها الصمعية على حقل الخبرة. فالعناصر مثل العدد والجس وحالة الإعراب والرمز لا تكتشف في الخبرة بقدر ما هي مفروضة عليها بسبب السيطرة الطاعية التي يفرصها الشكل اللغوي على توجهاتنا في العالم [ساير Sapir، ١٩٣١م، الحروف المائلة].

وربما يعتبر البعض هذه الملاحظات بدهيات ليس إلا، لكنا إذا أمعنا النظر فيها وجدنا أنها تحوي مقولات قوية. ويتمثل إسهام ورف الخاص، ومن خلال تحليل مفصل لبعض اللغات الهندية الأمريكية، في حبك قصة مقنعة على أكمل وجه من أجل الاعتراف بصحة الرأي الذي عبر عنه ساير.

ويعد بنجامين لي ورف Benjamin Lee Worf، وهو سليل عائلة إنجليزية هاجرت إلى ماساتشوستس في القرن السابع عشر، مثلاً بارداً للهاوي البارع في عمله العلمي. فبعد أن حصل على شهادته في الهندسة الكيميائية بدأ حياة عملية ناجحة كمهندس لدوقاية من الحرائق مع إحدى شركات التأمين في هارتفورد بولاية كونكتيكت. وبالرغم من العديد من العروض التي تلقاها كي يشغل منصبا أكاديميا، استمر ورف في عمله في الشركة داتها حتى وافته المنية عن عمر يناهز الرابعة والأربعين. (تعلم ورف دروسا من اشتعاله بحرفته، وهذا ما دعم اعتقاده بأن اللغة تحدد رؤية العالم) وكما يحبر ما ورف (١٩٤١أ، ص ١٣٥) أنه من خلال تحليله عددا كبيرا من التقارير حول كيفية اندلاع الحرائق، افترض نادى الأمر أن العوامل الميراثية فقط كانت ذات صلة بالموضوع، لكنه اكتشف فيما بعد أن اللغة كثيرا ما كانت تلعب دورا مهما فعلى سبيل المثال، كان الناس شوخون الحذر بالقرب مما يعرفون أنه يراميل مليئة بالسربس، وتنصرفون بلا مبالاة بالقرب من يراميل التزين الفارغة (بالرغم من أن اليراميل الفارغة مشعة ببحار البتزين القابل للانفجار مما يجعلها أشد خطرا من اليراميل الملبنة). لقد كنت اهتمامات ورف في اللسانيات متنوعة في الأصل فعندما انتقل ساير إلى جامعة

يبل عام ١٩٣١م، وهي لاتعد أكثر من ثلاثين ميلا عن هارنغورد، أصبح ورف من معاوسه المثابرين، وبدأ في تركيز انتباهه بصفة أساسية على اللغة الهوميه Hopi وهي إحدى لغات ولاية أريزونا. وناقش ورف في كثير من كتاباته رؤية العالم الخاصة انعده كل البعد عن الرؤية الأوروبية والتي كان يعتقد أنها ضمن السمات، محبلة للنحو الهومي.

ويذكر ورف أن العناصر الموسومة صراحة في أية لغة من اللغات هي عناصر معينة، مثل التمييز بين صيغتي المضارع والماضي لكل فعل تام في اللغة الإنجليزية وهناك أيضا العديد مما يدعوه ورف بالعناصر المسترة cryptotype ففي الإنجليزية مثلا، تؤلف أسماء البلدان والمدن عنصرا مسترا لأنها رعم شبهها الخارجي بعبرها من الأسماء لا يمكن احتصارها في هيئة صمائر بعد حروف الجر «في» «عد» «إلى» «من» (ورف Wort، ١٩٤٥م، ص ٩٢). فاستطاعة المرء أن يقول «إنني أعيش فيها» عندما يعود الصمير «ها» على كلمة مثل «العمارة» أو «العرفة»، ولكن ليس عندما تعود «ها» على «كعدال» أو «بلعاريا»، مع أن قولنا «إسي أعيش في كعدا» و«إسي أعيش في بلعاري» كلاهما صحيح. وشعر ورف أن قيمة المعلومات التي تحملها مثل هذه العناصر المسترة تفوق تلك التي تحملها العناصر الصريحة في اللغة فيما يتعلق بتحديد رؤية العالم عند الناطقين بها، على أساس أن تعلم استعمال السمات الصريحة يتم عن طريق التكرار فقط، إلا أنه لا يمكن التعامل مع العناصر المسترة بشكل مستمر إلا إذا كان التصنيف الذي تنصمه حقيقيا بالنسبة للمتكلم. (إذا كانت جميع أسماء الدول والمدن تنتهي بالاحقة معينة- ولنقل «-يا» - يستطيع الإنجليزي عدئد وبساطة أن يتذكر أنه لا يمكن تحويل الأسماء التي تنتهي بـ «-يا» إلى صمائر بعد حروف الجر. وبما أن تلك الأسماء ليس لها في الواقع شكل معين، علينا إذن أن نعتبرها فئة دلالية). ففي صوات الاستسقاء في اللغة الهوميية، يبدو أن الكلام عن السحب يوصي بأنها من الكائنات الحية. ويشير ورف إلى أننا لا نستطيع أن نعرف من هذا وحده ما إذا كان الاستعمال محريا، أو أنه مجرد مصطلح كلامي دبي أو طقسي، أو أن الناطقين باللغة الهوميية يؤمنون فعلا بأن السحب كائنات حية. على كل حال فإن التمييز بين ما هو حي وغير حي موجود كعنصر مستر في اللغة الهوميية. فكل اسم لكائن حي يجمع بطريقة خاصة

حتى ولو لم يكن الاسم حيا في الأصل، [وهكذا نجد أن كلمة stones (أحجار) في «الروليغ ستونز Rolling Stones» تجمع في الهوية جمع الأحياء]، كما أن الكلمة التي تعني «سحابة» تأخذ على الدوام صيغة الجمع الحي مما يدل على أن الناطقين باللغة يهودية ويؤمنون بأن السحب حية فعلا (ورف Whorf، ١٩٥٦م، ص ٧٩) <sup>(١)</sup>

وبالرغم من أن هذا المثال يفسر النقطة التي عالجها ورف حول أهمية العناصر المستترة، إلا أنه لا يعد مثالا جيدا يبين الفوارق التي يدعى وجودها بين رؤية العالم يهودية والأوروبية، حيث نجد في هذه الحال أن العنصرين «حي» و«جامد» طيعين ندما بالنسبة للأوروبي. وأن المشكلة الوحيدة تتعلق بوضع السحب بالنسبة لهذين عنصرين. (معرض إلى مثال أفصل عن أطروحة ورف حول التباين اللغوي عم قريب). ومع ذلك فإن من الممكن هنا أن نتخذ موقف التشكك ولنعرض أننا قبلت فبينة أخرى يكون الجس فيهما عنصرًا مستترًا بحيث نرى أن كل الأسماء التي تدل على المؤث توجب استعمال لواحق خاصة في الصمات التي تتبعها، ولنفترض أيضا أن لكثير من الكلمات التي تدل على الجوامد مثل «الحجر» و«الماء» و«القمر» تنتمي إلى العنصر المستتر المؤث، بينما تسلك كلمات أخرى مثل «الحديد» و«النار» و«الشمس» سلوك لكلمات نفسها التي تدل على المذكور. من الواضح أن ورف في مثل هذه الحال سيستنتج أن لهذه القبيلة تصورًا روحيا يرى أن كل ما هو موجود حي ويستنسب إلى أحد الجنسين. لكن هذه القبيلة موجودة فعلا، وهي تعيش في الجهة الأخرى من القنال الإنجليزية مقابل دوفر Dover، والفرنسيون هم أبعد الناس عن الروحية. وهي الواقع فإن ورف لم يطق أفكاره على الفوارق بين اللغات الأوروبية المألوفة، فقد شعر بأن تلك اللغات افترضت مبقارؤية مشتركة للعالم بسبب الفترة الزمنية الطويلة التي كانت خلالها أوروبا تشترك بالثقافة نفسها، وأطلق ورف على تلك اللغات اسمًا جماعيا وهو الأوروبي المتوسطية القياسية European Standard Average ومن الملائم أن سوحي المرء جانب الخذر في هذا الشأن وعلى الأقل في قول نظرية تقول إن محتومات معينة ترى العالم بطرق تختلف اختلافا شاسعا عن الطرق التي نراها فيها نحن، ونعتمد في تفسيرها اعتمادا شبة كامل على أمثلة من قبائل بدائية لا تعرف عن معتقداتها سوى البرر البير. فاللغة الصينية هي اللغة غير الأوروبية التي يعرفها الكاتب أكثر من أية

لغة أخرى، ومع أن الأفكار الصينية التقليدية عن العالم تختلف عن الأفكار الأوروبية اختلافًا شاسعًا، إلا أن في كلا النظامين الفكريين على ما يبدو خاصية عدم التناسب المتبادلة معها التي يدعي ورف أنها موجودة في الهوية بالمقارنة مع الأوروبية المتوسطة القياس. ولا غللك إلا أن تتساءل عما إذا كان السبب في هذا يرجع إلى أن الحضارة الصينية، رغم استقلالها عن أوروبا، شأنها شأن الحضارة الهوبية، كانت من الحضارات بحيث ابتعدت عن التحديق في آفاق الخيال الذي قد يعيل شخص مثل ورف للتورط فيه على أساس الخواص الشكلية للسحر الصيني.

وفي الواقع فإن أوجه التناقض المتنوعة في رؤية العالم والتي بدعمها ورف في مناقشته تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا في مدى إثارتها للجدل أو للدهشة. ولقد ذكر بواس أن في اللغة الإنجليزية مثلاً كلمة واحدة للتعبير عن الثلج، بينما تحتوي لغة الاسكيمو على جدر أساسية منفصلة للتعبير عن الثلج المتساقط، الثلج على الأرض، والثلج الذي تجرفه الرياح وهكذا. وفي هذا المستوى المادي المحسوس نسبي تمدد لفوارق بين استراتيجيات الإدراك في اللغات المختلفة مألوفة تمامًا، ومما لا ريب فيه أنها تؤثر في عملية الإدراك. ويمكن أن ينب أن مفاهيم الناس عن محيطهم تتعدل وفق عناصر الإدراك التي تقدمها لعائهم (ليسيرغ ورومرنس Lenneberg and Roberts، ١٩٥٦م، ص ٣١، انظر هرمان وغيره، ١٩٥٧م، هانسون Hanson، ١٩٥٨م).

ويافش ورف - وهو على صواب - قصايا من هذا النوع، بالرغم من أنها تقع خارج نطاق اهتمامه بالدرجة الأولى. ويقول ورف «إن أكثر ما يشير الدهشة هو أن شتى العموميات الكبيرة في العالم الغربي مثل الزمن والسرعة والمادة، ليست أساسية في بناء صورة ثابتة عن الكون» (Worf، ١٩٤٠م، ص ٢١٦). ويمكن أن ندعو الهوبية بشكل خاص «لغة بدون زمن» إذ لا تعترف تلك اللغة بالزمن كمعد خطي قابل للقياس واستجدة إلى وحدات مثل الأبعاد المكانية. وهكذا فإن الهوية لا تستعير تعبيرات مكينة من أجل التعبير عن الظواهر الزمانية، وهي طريقة شائعة جدًا في اللغات الأوروبية (قبل الباب - قبل الظهر، بين لندن وبرايون بين التاسعة والعاشر صباحًا، في العدة، في الصباح) كما أن الهوية لا تغير تعبيرات مثل «حمسه أيام» بما أن السهار ليس كتصاح الذي يمكن للمرء أن يأخذ منه تفاحه واحدة أو عدة تفاحات. والأكثر من هذا

في الأفعال في اللغة الهويية لا تأخذ أزمه *senses* مشابهة لأزمة الأفعال في اللغات الأوروبية. وما أن مفهوم الزمن معدوم، فمن غير الممكن إيجاد مفهوم للسرعة وهي لعلاقة بين المسافة والزمن. فاللغة الهويية لا تحتوي على كلمة «سريع»، وأقرب شيء لقول «إنه يركض بسرعة» يمكن أن يترجم حرفاً بقول يشبه «إنه يركض جداً». فلو كن الهوييون، وليس الأوروبيون - كما يقول وورف - هم الذين طوروا النظريات العلمية الدقيقة لكانت المبرياء الحديثة مختلفة جداً عما هي عليه، ومع ذلك ربما كانت ثابتة وكافية في ذاتها.

ولقد كان اعتراض ماكس بلاك (Max Black، ١٥٩ م) مثلاً من جملة الاعتراضات التي وجهت إلى هذا التفسير للفكر الهويي ومفاده أن ادعاء وورف لا يمكن احتباره وبالتالي فهو ادعاء أخوف. فمن الممكن أن يكون لدى الهوييين المفهوم نفسه عن الزمن الذي نحمله نحن، لكنهم ساطة يستعملون مصطلحات غريبة عند الحديث عن قصايا الزمن - فقولهم «إنه يركض جداً» إنما هو طريقتهم في قول «إنه يركض سريعاً» وهم يعمون في جملتهم تلك ما يعنيه نحن بجملتنا تماماً. فقبل كل شيء نرى أن لا يجبر يصفون ستره الصياد بأنها «وردية اللون» لكن هذا لا يعني أنهم يرونها بلون يختلف عن الأحمر. ويعترف وورف بأن اللغة الهويية قادرة على التعبير عن جميع الظواهر في الكون ووصفها وصفاً صحيحاً بالمعنى العملي والواقعي (Worf، ١٩٥٦ م، ص ٥٨)، فهل يستطيع أي دليل أن يجبرنا على استنتاج أن الخلاف بين طرق الهويية والابجدية في الحديث عن الزمن هو أكثر من مجرد خلاف في وسيلة التعبير عن مجموعة نفسها من الأفكار؟ [ويعترف الفلاسفة بأن ويلارد كواين Willard Quine في كتابه «كلمة ومدلولها Word and Object» (١٩٦٠ م) وفي كتاباته اللاحقة قد أيد بشكل أساسي الإجابة بالنفي عن أسئلة من هذا النوع].

وقد يكون هناك رد على هذا الاعتراض (بالسبة إلى ادعاءات «ورف» - وليس دلالة إلى النقطة الأكثر شمولاً التي أثارها كواين). فباديء ذي بدء قد نجد فعلاً عناصر ملحوظة في سلوك الهوييين تقابل نظرتهم التي نحلو من مفهوم الزمن عن الحياة (نظر وورف ١٩٤١ م، ص ١٤٨، ١٥٣). وقد قرأنا مرة أن اليهود الدس يعيشون في محميات في الجنوب العربي الأمريكي (ولسوء الحظ لا أعرف إن كن

الهيويون هم المعنيين بهذا الكلام على وجه الخصوص (أم لا) يجدون صعوبة في تولي أعمال في اقتصاد الرجل الأبيض لأنهم لا يستطيعون تعلم عادة ركوب الخرافات والتفكير بمرامح زمني بصفة عامة، وربما كان هذا يرهنا على أفكار ورف. صحيح أن المشككين يشيرون إلى معاناته بعض الإنجليز من مشكلات مشابهة دون أن يعرفوا هذه أسباب سامية مثل فلسفة زمنية غير قياسية. أما لو قال المشككون إن السبب في عدم لحاق اليهود بالخرافات يعود إلى كسلهم أو إهمالهم بدلا من رؤيتهم الخاصة عن الزمن تبدأ من عريب الصدوف أن يجد أن المجتمعات التي تنهض فيها هذا الكسل بصورة غير عادية هي أيضا مجتمعات تنطق بلغات تتعامل مع الزمن بطريقة غريبة.

وحتى لو عجز الدليل المستقل عن إثبات ادعاءات ورف فأراني أشك في أن اعتراض بلاك قائل بالضرورة ولعل من الخطأ الافتراض، لأن كلمة فرضية هي الاسم المتداول لفكرة ورف، بأن من الواجب تفسيرها على أنها نظرية علمية تطرح سوءات قابلة للاختبار حول معلومات ملحوظة. وحرى بنا أن نفسر أفكار ورف على أنها تعبير فلسفي عن أطر ذهنية بديلة لا يمكن إثباتها أو دحضها بالحقائق الملاحظة من داخل أي إطار منها. (واليكم حالة مشابهة: نستطيع مقابلة نظام الحدل من موقع البسطة خلال العصور الوسطى مع الأسلوب العلمي الحديث لطرح واختبار الفرضيات القابلة للدحض. لكننا لا نقدر على تقديم الدليل المفيد الذي يثبت أن الطريقة الثابتة لاكتشاف الحقيقة هي أفضل من الأولى، بما أن السؤال عما إذا كان من المناسب تقديم الدليل على معتقدات المرء هو الذي يتعرض للمحطرت بالتحديد) ونحدث لودفيغ فينغشتاين Ludwig Wittgenstein في كتاباته الأخيرة عن فكرة مشابهة لفكرة ورف حول العلاقة المتبادلة بين رؤية العالم واللغة (مع عدم معرفة ورف باللغات العربية)، وكان فينغشتاين واصحا حين قال إن كل ما يوسعه أن يفعل هو الطلب إلى القراء أن يروا تفسيره صحيحا بالرغم من عجزه عن إثبات ذلك عمليا. ومن المقارقات أن يرى بلاك بها حمة فرضية ورف بسبب عدم قابليتها للاختبار مع أنه يؤكد صراحة فلسفة فينغشتاين وهي غير قابلة للاختبار أيضا.

إن النقطة التي يتعثر عندها ورف (ولس فينغشتاين) هي عجزه الواضح عن إصاح المجال أمام التغيرات الحدرية في رؤية العالم التي تحدث ضمن مجتمع لعوي



معين. واما ساقش الرمن والفضاء فإن أقرب مثال لما هو ألبرت أينشتاين Albert Einstein فتفسير أينشتاين الجديد للنعميمات العظيمة grand generalizations في لغبرياء لا يقل عراية من وجهة نظر المواقف المكتسبة، عن موقف اللغة الهويية. ومع ذلك فقد كان أينشتاين أحد الناطقين باللغة الأوروبية المتوسطة القياسية. ولقد كان تاريخ العلوم طيلة قرون عديدة حاقلا بالتغيرات الجذرية المتكررة في رؤيه العالم، والتي حدثت جميعها تقريبا ضمن إطار اللغة الأوروبية المتوسطة القياسية. ويفترض ورف (١٩٤١م، ص ١٥٣) أن فيزياء نيوتن Newton جاءت إليه جاهرة عن طريق اللغة، لكن المكرة القائلة إن فيزياء نيوتن ليست سوى أشياء مطبقة انصح أنها وهم يعود إلى افترة الطويلة التي كانت فيها فيزياء نيوتن مقبولة على انها صحيحة. وكما يشير بلاك (١٩٥٩م، ص ٢٥٤) فإن ديكارت باعتباره، أحد الساطقين بالأوروبية المتوسطة القياسية، توصل إلى بناء للمفاهيم المكانية يختلف كثيرا عن المفاهيم التي طورها نيوتن فيما بعد. ولم يحظ تفسير نيوتن بالتمصيل لأنه كان أكثر ملاءمة لمنطق الإنسان فحسب، بل لأنه كان أقرب إلى الواقع. فبدلا من أن نقول لو أن الهوييين طوروا الفيزياء لاختلفت الفيزياء اختلافا كبيرا، فإن من الأجدر بنا أن نقول إنه لو طور الهوييون الفيزياء لتغيرت رؤيتهم للعالم (وبالمثل فإن اللغة الهويية في أغلب الظن لا تناسب مناقشة مواعيد الحافلات لأن الهويين لم يتعاملوا مع الحافلات، وليس انعكس)

صحيح طبعا أننا نقبل جميعا بافتراضات مسفة موروثه، وأن هذه الافتراضات قد انعكس على لغتنا، ولكن ليس ثمة حكم واحد من أحكاما الموروثه له صفة اقدسية. فالفكر الإنساني سلسلة مستمرة من التساؤلات التي يشير لها الساس حول لافتراضات المسفة المكتسبة والتي تُستبدل بأفكار جديدة أفضل تصح بدورها بالنسبة لأحبال المقله أشياء عادية إلى أن يأتي إنسان آخر بفكرة أفضل منها. وكما كتب الفيلسوف الألماني هامان Hamann عام ١٧٦٠م، فإن «العقل الذي يفكر على معنه الخاصة يتدخل دوما باللغة» (شاهد استعمله كوين J.G. Cohen، ١٩٦٢م، ص ١٠). دعه المجتمع وفكر أعضائه دون شك يؤثر كل منهما في الآخر، لكن المهم في النهاية هو تأثير الفرد على اللغة. فتأثير اللغة على الفرد مسألة سلبية بحثه تتعلق بإحراق

المرء في فحص وانتقاد جميع أفكار من سبقوه. ويكتب سايبر وورف كما لو أن سعة تأثير، إيجابيا وأقوى بكثير من التأثير المعاكس. ويكتب سايبر عن الأفراد يقول: «بهم تحت رحمة لعنهم» التي تمارس «سيطرة طاعية» على عقولهم (انظر Sapir، ص ص ١٠٦ - ١٠٧).<sup>(٣٧)</sup> ويكتب وورف عن المتكلمين ووصفهم بأنهم أطراف في اتفاقية «إجبارية تماما» لتصور العالم بطريقة معينة (Whorf، ١٩٤٠ م. ص ص ٢١٣ - ٢١٤) ويبدو لي أن هذا الطغيان هو من النوع نفسه الذي يمارسه سريري ضد جسمي في الصباح الباكر من يوم الاثنين. وقد لا تكون رواية سايبر وورف عن الوصف بعيدة عن الدقة عمليا، لكن السبب في هذا هو أن العديد من الناس يعانون من كسل ذهني مستحكم. ودعوني أقدم شاهدا من اميري لاكاتوس (Imre Lakatos، ١٩٧٦ م، الحاشية، ص ٩٣) حيث يقول: «بعلما العلم ألا نحترم أي إطار لعوي، مفاهيمي معين لثلا يتحول إلى سجن مفاهيمي - فلدى المحللين اللغويين مصلحة ثابتة في الإبطاء من هذه العملية (أي تبديل المفاهيم) على الأقل».

وإذا ما أخذنا التفسير المتطرف لفرصية وورف برزت مشكلة أخرى قد تنطوي على تناقض ذاتي في واقع الأمر. فمن أهم المكونات في أية بنية دلالية أعمق حتى من (التعميمات الكبرى) في الفيزياء، هو جهازها المنطقي - كاستعمال كلمات مثل «لا»، «إذا»، «كل»، إلخ» في اللغة الإنجليزية. ويمكن للمرء أن يفهم من فرصة وورف أنها تنص على تنحية المنطق للغة، بحيث لو كان أرسطو من الهويين لتطور المنطق الحديث والفيزياء الحديثة أيضا بصورة مختلفة جدا. وهناك إشارات في كتابات وورف (مثلا ١٩٤١ م ب، ص ٢٤١) تدل على أنه أراد الذهاب إلى ذلك الحد. وقد عبر بعض اللسانيين عن هذه النقطة بصراحة، انظر مثلا زومرفيلت (Sommerfelt، ١٩٣٨ م، ص ٩) وميسيت (Benveniste، ١٩٥٨ م) وهيلمسليف (Hjelmslev، ١٩٦٣ م، ص ١٢١). علو كان كل م. قال هؤلاء الكتاب يعني فقط أن الخصائص الشكلية للغة قد أثرت في نظم المنطق الصريح التي وضعها الملامعة في محاولاتهم المخطئة لوصف العوالم التي تحكم تفكيرنا (ومعظمها في اللاوعي) فهم على صواب دون شك. ولو أنهم قصدوا أن عمداً التفكير تلك في جوانبها المنطقية هي في حد ذاتها من نتائج لعسا، لوحب عندئذ أن نرفض فكرتهم على هذا الأساس.

ولكني نرى ذلك، لنعد إلى أحد أصلاف ساير وورف الذي أيد الفكرة التي أرى أنا أكثر من غيري أنها باطلة، وهو لوسيان ليفي برول Lucien Levy-Bruhl وهو من عمدة الإنسان العرسيين (١٨٥٧ - ١٩٣٩ م) الذي كان موقفه من العلاقة بين اللغة والمكر شيها عوفف وورف بصفة عامة (ليفى برول Levy-Bruhl، ١٩١٠ م الفصل ٤)، إلا أنه لم يشارك وورف إيمانه بالنسبية - فدلّا من النظر إلى الأوروبية المتوسطة بقياسية كأحد الأطر المفاهيمية البديلة المتعددة، كان ليفي برول يعتمد تشابه القواب الفكرية لدى جميع الشعوب البدائية بالمقارنة مع القواب الفكرية لدى الشعوب المتحضرة. ولم يقصد ليفي برول أن الفرق بين البدائيين والمتحضرين كان كبيراً، بل كن يعتقد أن عقول الناس المختلفة كانت تحتل نقاطاً مختلفة على مقياس واحد. وكانت مسألة تُنطق من أهم عناصر الاختلاف في النوع العقلي. فالعقل البدائي في اعتقاد ليفي برول لا يعترف بقانون عدم التناقض، وبعبارة أخرى، بينما يرى الإنسان المتحضر أن أية جملة من النوع «أ ولا أ» كاذبة في حد ذاتها، فإن الإنسان البدائي يعتبر كثيراً من مثل هذه الحمل صحيحة، ولا يرى فيها أية صعوبة. (صحيح أنا جميعاً مؤلف جملاً مثل «أريد أن أذهب ولا أريد أن أذهب»، لكنا نقصد أن نفهم بطرق تجعلها غير متناقضة، كأن نقول «هناك أسباب أخرى تجعلني لا أريد الذهاب». ونجح في تفسير هذه حمل تفسيراً صحيحاً لمجرد أننا نعترف بقانون عدم التناقض، ولذلك نعرف أنها لا يمكن أن تعني ما تعنيه في ظاهرها. ويقول ليفي برول إن البدائيين من جهة أخرى يؤمنون بالتناقضات التي يفهم كل طرف فيها فهماً حريفاً لا ليس فيه) وإليكم أحد السرايين التي يقدمها ليفي برول ليثبت ادعاءه: إن رجال قبائل البورور Bororo التي تقطن شمالي البرازيل، على حد زعم كارل فون دن شتاين Karl von den Steinen، يعتقدون بأنهم سعاوات حمر اللون (مع أن من واجب المرء أن يصيغ أن بإمكانهم أن يروا بوضوح أنهم ليسوا سعاوات حتى يحصل على الطرف الذي يقول «لا أ» من اساقص):

هنا لا يعني فقط أنهم يتحولون إلى سعاوات بعد موتهم، كما لا يعني أن السعاوات هي مخلوقات مشحونة من البورور ويجب أن تُعامل على هذا الأساس فالأمر مختلف تماماً أحياناً. فالبورور، كما يقول فون دن شتاين الذي كان متردداً

هي تصديق ذلك، لكنه وجد نفسه مضطراً أخيراً للاسسلام لأكيداتهم الواضحة  
 «يجبرون المرء بكل عادة على فهم أنهم يبعثون في الوقت الحاضر» (إلمي  
 برول Levy-Bruhl، ١٩١٠م، ص ٧٧ مستشهداً بقول فون دن شتاين، بشي، ص  
 التصرف، ١٨٩٤م، ص ٣٥٢).

إسبي أجد أن تفسير ليبي برول لما اكتشفه فون دن شتاين غير مقنع أبداً، لسبب  
 واضح وهو أنه يمكن أن يقلب وبسهولة ضد العملية المتحضرة فمن الممكن أن نتصور  
 أحد البورورو الذين راروا أوروبا وهو يعلن في اجتماع لجمعية علم الإنسان في  
 البورورو، وعلى شفثيه ابتسامة متعالية، «أن حكماء ذلك الإقليم يدعون، وبكل  
 مظاهر الصدق، أن اللحم والماس هما المادة نفسها. وهذا لا يعني أن لديهم طريقة  
 لصنع الماس من اللحم أو أي شيء من هذا القبيل، فالرجل الأبيض يريدنا أن نفهم أن  
 كتلة من اللحم تتألف من المادة نفسها التي يتألف منها الماس في الوقت الحاضر.  
 لكسي أجد محاولاتهم لتفسير طبيعة هذه الخاصة مستعصية على قدراتي العقلية،  
 (ضحكات في المدرج)، ومن الواضح أن البيض لا يعترفون بقانون عدم التناقض».   
 إن ما يميز البورورو، كما وصفهم فون دن شتاين، عن الأوروبيين ليس مسألة منطق،  
 بل مسألة معتقدات حول حقائق مجردة تماماً. فكل مجتمع يؤمن بنظريات دقيقة لا  
 ترتبط بالواقع الملحوظ إلا بطريقة غير مباشرة. ولا يمكن الاكتفاء بترجمة هذه  
 النظريات، بل يجب أن تُدرس بإسهاب لأعضاء المجتمع الأخر، مثلما تدرس لنصعد  
 من أعضاء المجتمع الذي طورها. وليس لنا الحق في وصف عقلية قائل البورورو  
 بأنها قبل منطقية pre-logical سبب نظريتهم عن البعائات أكثر مما لديهم من الحق في  
 وصفنا بأنها قبل منطقيين سبب الكيمياء الخيرية أو بسبب الإيمان بالثالوث المقدس  
 (ولعل معتقداتنا أقرب إلى الصواب من معتقداتهم، لكن المعتقد الكاذب ليس  
 بالضرورة غير منطقي). وإذا سلمنا بعدم وجود الإنسان الذي يدعوه برتراند راسل  
 Bertrand Russell «بالقدس المنطقي» فما من أحد ما يستطيع أن يفهم المضامين غير  
 المحدودة لمعتقداته ويجتث جميع مصادر التناقض التي تحويها المعتقدات. ومع ذلك  
 فإن ليبي برول لا يحدد لنا مسوعاً لكي نعتبر أن البدائيين أكثر منا ارتكاباً للأخطاء  
 منطقية.

ومن الصعب أن نعرف بالتحديد ما يعنيه ليفي برول عندما يصف البدائين بأنهم (مثل منطقيين)، فهو يتخذ موقفا محايدا إلى حد ما، كما أنه تحلى كلية عن فكرة «عقلية ما قبل المطلق» في كتاباته الأخيرة استجابة لانتقادات مشابهة لما أكتنه. ولكن لفترض أنني مصيب في تفسيري إياه على أنه يقول إن البدائيين يصدفون بصفة خاصة حملا معينة يمكن أن تترجم إلى الإنجليزية على شكل «أ ولا أ» (العبارة ما وليقل أ) وقد يستأن نوع الدليل الذي يقدمه ليفي برول لا «يتطلب» ما قبل هذا، ولكن دعوني أبين لكم عدم وجود أي دليل معقول يستطيع حتى أن يسمح لنا بقبوله.

ولنقل الآن إن الإنسان البدائي يظهر دلائل الموافقة على الجملة التي تأخذ شكل «أ كما برأ» في لغته، وأن أحد علماء الإنسان يدعي أن «أ» تترجم إلى جملة بسيطة معينة في اللغة الإنجليزية وأن «كا» تعني «و» و«بو» تعني «لا» فمن أين لذلك العالم أن يعرف كيف يقوم بالترجمة؟ فبعض الكلمات يمكن أن تترجم بملاحظة العالم الخارجي، فإن أشار البدائي إلى البيضا وقال «أرارا» فمن المحتمل (وليس من المؤكد أبدا) أن يكون معنى «أرارا» هو «سفاه». أما في حال الكلمات المجردة فإن الدليل يستمد من الملاحظة لا يساعدها كثيرا. فإن استعمل البدائي كلمة «فيكتي» ليشرح لماذا سلم حروا من بضاعته إلى رجل جاء إلى الباب، فقد نفترض بادية الأمر أن «فيكتي» تعني ضريبة، ولكن عندما يجبرنا هذا الافتراض على ترجمة ملاحظة سمعت هبما بعد عبارة مثل «لا يتوجب على أحد أن يدفع ضريبة»، أو «إن دفع الضريبة يمسح المرء شعورا طيبا» فأغلب الظن أننا سنفسر رأينا ونترجم «فيكتي» بكلمة «صدقة» وبعبارة أخرى، فإن من الأمور المهمة التي تجعل نظام الترجمة صحيحا هو ترجمة الحمل التي يعتبرها الناطقون باللغة الأصل صادقة إلى جمل صادقة في اللغة الهدف (أي التي تترجم إليها) وترجمة الجمل الكاذبة بأخرى كاذبة، والجمل الجوفاء بأخرى جوفاء والخشوع بخشوع مماثل وهكذا دواليك. كما أننا لا نتوقع تحقيق النطاق التام، فبعض المرسميون أن عبارة *La Concorde, c'est l'avion de l'avenir* (الكونكورد، إنها طائرة المستقبل) يرى الإنجليز أن عبارة *Concorde is the aeroplane of the future* عبارة كاذبة ومن الواضح أن هذا لا يكفي لبيان أن الجملتين تعنيان شيئين مختلفين. ولكن إذا سألنا معظم الترجمات الناتجة عن النظام الذي نعلمه في المدرسة من أجل نقل الفرنسية

إلى التحليزية قيم صدق تتعارض مع ما تحتويه الجمل الأصلية، علينا عندئذ أن نستنتج أن نظام الترجمية التقليدي يتطوي على كثير من سوء الفهم للغة المرتسية ومن الواضح أن هذا مخالف للواقع، والفصايا (من نوع «الكونكورديا»، بالرغم من أهميتها، لا تشكل سوى جزء يسير من أنواع الترجمة المقبولة بين اللغتين).

إن المبررات المنطقية مثل أدوات النفي وحروف العطف تستمد كامل معناها من برهان داخلي من هذا النوع، وليس من ملاحظة العالم الخارجي (ويوسع المرء أن يرى بعبء لشخص ما، لكنه لا يستطيع أن يري «الواو»). وبالإضافة إلى ذلك، يرى أن الدليل الداخلي المطلوب بسيط ومباشر إلى حد كبير بالنسبة إلى أدوات النفي وحروف العطف على العكس من قضية «الصدق» المتعلقة بأداة النفي «لا» وبحرف العطف «و». فقولنا إن كلمة ما تعني «لا» كقولنا إن الكلمة تغير عبارة صادقة إلى عبارة كاذبة، والعكس بالعكس، فإذا قلنا إن كلمة ما تعني «و» عينا أن الجملة المعقدة التي تشكل من إقحامها بين جملتين بسيطتين تكون صادقة إذا كانت كلتا الجملتين البسيطتين صادقتين فقط (ويمكسا إهمال الحالات التي تربط فيها «الواو» بين عناصر غير الجمل مثل «جون وماري»). ونستنتج من هذا أن قولنا إن جملة ما تعني «أولا» يعني أن الجملة ككل لا يمكن أن تكون صادقة في معزل عن معنى «أ» (بما أنه إذا كانت «أ» صادقة فإن «لا أ» يجب أن تكون كاذبة، وبالتالي فإن الجملة ككل يجب أن تكون كاذبة، أما إذا لم تكن «أ» صادقة، فإن الجملة بكاملها لن تكون صادقة أيضا) وبعبارة أخرى فإن الدليل على اعتقاد الإنسان البدائي بأن «أ كما هو» صادقة يحتر في حد ذاته أفصل دليل يمكن على أن تلك الجملة لا تعني «أولا».

ومن الهراء أن ندعي أن أحد البدائيين (أو أي شخص آخر) يؤمن بتناقض صريح، لأن الاعتقاد بأية قضية يتضمن فهمها، وفهم أي تناقض هو معرفة أنه كاذب بالضرورة. وقد نحمل جميعا معتقدات تؤدي إلى تناقضات في مهارة سلاسل من الاستنتاجات لم نوصول إلى حلها بعد. لكن هذه مسألة مختلفة، ومن المحتمل أن يراجه المرء مجتمعاً يتكلم لغة شتتصني على الرحمة، معني أنه لم يستطع أنه سرائيجية منتظمة لترجمة جملها إلى إحدى اللغات الأوروبية أن، تولد عددا من الجمل الصادقة والكاذبة وجمل الحشو متماثلة في اللغتين أكبر مما نخله فيما لو تم

اختيار الترجمات بصورة عشوائية . (ومما يلفت الانتباه أنه لم يعثر على مثل هذه اللغة حتى الآن، إذ ما من سبب منطقي واضح يجمع وجود مثل تلك اللغة). ونستنتج أن من المستبعد وجود لغة تمتلك نظام ترجمة صحيحا بينما يختلف الناطقون بها معن ليس حول حقائق معينة فحسب، ولكن حول مبادئ منطقية أساسية أيضا

ولست أفترض أن فون دين شتاين أو ليفي برول ارتكبا خطأ في ترجمة كلمة من لغة «البورورو» على أنها «لا» أو «و». لكن الاحتمال الأكبر هو أنهما ترجما تأكيد قياسيا من البورورو، ولنقل «نحن بيعاوات حمراء» ترجمة صحيحة ثم افترضنا خطأ أن ملاحظة أجسامهم ستحمل قوم البورورو (كما تحملنا نحن) على الاعتقاد «بأننا لسنا بيعاوات حمراء». لكن نظريات البورورو لا تسمح بهذا الاستنتاج تماما كما يحدث في نظرياتنا التي لا تجعل منظر الماسة يحملنا على استنتاج «أن هذه ليست من مادة الفحم نفسها». ومهما كان قصد ليفي برول من وصفه العقل البدائي بأنه «قبل منطقي» فإن هذه هي الفكرة العامة. وكلما زاد عمق وتجرد رؤية العالم التي يقال إنها نتيجة اللغة، اردادت قوة الحجة التي تقول إن العوارق في رؤيه العالم تنتج عن سوء تفسير اللغة. فالمفاهيم عن الفضاء والزمن أصبحت بعيدة عن ملاحظتنا المباشرة بعدا كافيا، مما يريد من صعوبة إثبات ادعاء ورف. أما في حال المفاهيم المنطقية، فمن المؤكد أن المناقشة المسية على سوء الترجمة ستحقق الجاح. إن موقف ورف أقوى فيما يتعلق بقضايا مثل قضية الكلمات المتعددة لأصراع «الثلج» في لغة الأسكيمو، لأن كلمات من هذا النوع ترتبط ارتباطا وثيقا نسبيا بالواقع المحسوس، مما يستبعد احتمال سوء الترجمة. لكن هذا يعني أن فرضية ساير وورف ممكنة أكثر ما تكون عندما تكون سطحية سببا وأقول إن الفرضية سطحية بالنسبة إلى العوارق التي تقوم عليها في التصنيف الذي يمرضه اللغاب المختلفة على الظواهر المحسوسة والملاحظة، فالأمثلة على ذلك العوارق مألوفة لدى الكثيرين، كما كان هذا الجانب من الفرضية وحتى عهد قريب أمرا لا يقل الجدل. فهي مسألة الألوان على سبيل المثال، نجد أنه من المعروف تماما أن لدغات المحلقة تجرى الطيف المرئي بطرق مختلفة. فالويلدية تصنف الأزرق والأحمر تحت كلمة واحدة هي «glas» بينما تستعمل الروسية كلمتين منفصلين (goluboj

(sini) للتعبير عن الأزرق الفاتح والأزرق الغامق في لغتنا. ويعطي غليسون H A Gleason في كتابه المعروف عن اللسانيات الشكل التالي كأول الأمثلة على انحراف بين السني (غليسون Gleason، ١٩٦٩م، ص ٤).

لإعباريه

الأرجواني	الأزرق	الأخضر	الأصفر	البرتقالي	الأحمر
-----------	--------	--------	--------	-----------	--------

لشوية (من لغات روديسيا)

cips* uka	cicena	citema	cips* uka
-----------	--------	--------	-----------

لباسية (من لغات لايبيريا)

ziza	huu
------	-----

#### الشكل رقم (٧)

المصدر غليسون المدخل إلى اللسانيات الوصفية (نيويورك هولت، رابهارت وويستون، ١٩٦٩م)

(لاحظ أن في النظام الشوني ثلاثة معايير لا أربع - فالمعايير الإنجليزية «البرتقالي والأحمر والأرجواني» تدرج جميعها تحت cips\*uka، ولاحظ أيضا أن citema يشمل «الأسود والأزرق والأزرق المخضر»، وأن cicena يشمل «الأبيض والأصفر وبعض هلال الأخضر»).

وتشكل الألوان في الواقع ميلانا مفضلا في فرضية «ورف»، وربما كانت الميدان المفصل بين جميع المبادئ الأخرى. فهي خاصة مباشرة لمعلومات تدرك بالحواس، فلكني نعرف ما إذا كانت «فيكتي» تعني «صريه» أو «صدفة» لم يكن علينا أن نلاحظ فقط، بل ومستطى أيضا معتقدات المتكلم حول «فيكتي». لكن البهجة الحمراء تسمى بهجة حمراء بعض النظر عن معتقدات الناظر. ومن المتغيرات المفاهيمية في عمليه



الإدراك المفهوم الذي يتعلق بالألوان ويجعلنا قادرين فيزيائياً على التمييز بين عدد كبير جداً منها (ويقدر عدد الظلال المختلفة للألوان بنحو ٧,٥٠٠,٠٠٠) وهكذا فإن كنهه يجمع هذه الألوان ضمن فئات في أية لغة من اللغات ليس مسألة سطحية أبداً، وبالإضافة إلى ذلك، تقدم لنا الفيزياء معياراً محايداً وموضوعياً يمكننا استخدامه في معارضة مفردات اللغات المختلفة. والشيء الأهم هو أن عالم الألوان يبدو بلا حدود طبيعية، فهو أشبه بأرض منبسطة تختم على المستعمرين أن يرسموا حدودهم الخاصة حيث شاقوا بدلاً من كونه قارة حددتها الطبيعة مسبقاً بواسطة سلاسل جبلية وأنهار عريضة. فإن كان لفرصية وورف أن تطبق في أي مجال من المجالات، فمن المؤكد أنها تطبق على الألوان. وقد اعتبر اللسانيون ذلك من المسلمات منذ مدة طويلة.

وفي ضوء تلك المعطيات، أثار عالمان من علماء الإنسان، وهما برنت برلين Brent Berlin وبول كاي Paul Kay من جامعة كاليفورنيا، صجة كبرى عام ١٩٦٩م عندما نشرَا كتاباً بعنوان «أسماء الألوان الأساسية» هاجما فيه النسبية اللسانية في الحقل الذي بدت فيه أنها في مأمن من الهجوم وذلك اعتماداً على براهين واضحة. وينتسب برلين وكاي إلى حركة لسانية جديدة تقول إن اللغات الإنسانية تشترك جميعها في قالب يتحدد بتركيب نفسي ضمن النوع البشري (سعود إلى هذه الفكرة في الفصول اللاحقة). ولا يعترض هذان العالمان على فكرة وورف التي تقول إن طبيعة اللغة وثيقة لصلة برؤية العالم عند الناطقين بها، لكنهما يعترضان على الصف الآخر من فرصية وورف والذي يقول إن نى اللغات - ورؤية العالم التي تشترك معها - تختلف اختلافاً شاسعاً عن بعضها البعض. ومن الواضح أن برلين وكاي يعترفان بوجود فوارق بين عبارات الألوان في اللغات المختلفة، لكنهما يقولان إن هذه الفوارق ليست سوى قصداً سطحية تحمي وراءها مبادئ عميقة كامة تشترك فيها أسماء الألوان في جميع اللغات. ويبدأ برلين وكاي بالبحث في أسماء الألوان في عشرين لغة من مناطق متباعدة من العالم، مستعملين أحكام المتكلمين الأصليين حول كيفية تسميه الأحرار المحللة من جدول صخيم للألوان القياسية. ويبدأ الاثنان بإعداد لائحة بأهم مفردات الألوان الأساسية في كل لغة من تلك اللغات باستثناء المفردات المعبرة عن ظلال الألوان (الأحمر في اللغة الإنجليزية يدخل في قائمة المفردات، بينما يستبعد القرمزي لأنه يعتبر فرعاً من

الأحمر)، واستعملا عددا من القرائن الشكلية لتساعلهما في هذا. وهكذا فإن انكلمه المعبرة عن لون ما قد لا تكون أساسية إن كان تركيبها الصرقي معهدا (كما في مُصفر، أو أررق سماوي)، أو إن كانت مستعارة من لغة أخرى (مثل maroon أحمر داكن من الفرنسية) أو إذا كانت تدل على مادة من اللون نفسه المقصود مثل (الفضة والشيكلولانة) رعم أنهما اصطرالا استعمال بعض المستثنيات (كالبرتقالي orange في الإنجليزية). وبعد تحليل نتائج هذه المرحلة من البحث أكمل برلين وكاي معلوماتهما باستعمال النمادح التي تبرر من التحليل لتفسير الأوصاف المنشورة لمعدرات الألوان في ثمان وسبعين لغة أخرى لم يستطعا العثور على معلمين أصليين ناظفين بها.

ويبدى برلين وكاي في البداية ملاحظة ذكية جدا عند تحليل النتائج معادها أن الكتاب السابقين ارتكبوا خطأ في تركيبهم على حدود مجالات معدرات الألوان المختلفة مع أن المهم هو «النقاط البؤرية focal points» أو «أفضل الأمثلة». (كان منهج سوسير البيوي في علم الدلالة يشجع التركيز على الحدود بشكل واضح). (انظر الشكل رقم ١) لكن هذا لا يشكل مبدءا أساسيا في الواقع في السببية الدلالية عند كل من سوسير ويواس والتي كان برلين وكاي يسعيان لتقوبص دعائهما). ولكي نستمر في مقارنة تعابير الألوان في لغة ما مستعمرات تشافس على اقتسام قارة، يجب ألا نمكر بالمستعمرات كأراض ذات حدود شكلية، بل كدول ومدن تتضاءل سيطرتها على الأراضي المحيطة بها تدريجيا كلما بعدت المسافة بحيث تتشكل مناطق حدودية ذات ولاء متذبذب بين هذه وتلك. ويعرف المرء كم من الصعب أن يقرر ما إذا كانت بعض الطلال «حضراء» أو «ررقاء» فكثير من الناس يقولون إن علم جامعة كامبريدج الرسمي أحضر فاتح، كما أن حلة النزاع تخفف فيما يتعلق بأكثر ظلال الأخضر خضرة أو أكثر ظلال الأزرق زرقة

ويبحث برلين وكاي في توزيع الألوان البؤرية focal colours كما يتعرف عليها المعلمون في جدول الألوان القياسية الذي يضم مجموعة ثمانية الأبعاد تحوي ٣٢٠ نموذجا بمعدل أربعين درجة على بعد صبغة اللون hue dimension وثمانين درجات على بعد تدرج اللون (الصبغة هي المتغير الحسي الذي يعادل طول الموجة، أي الموقع من طيف قوس قزح، بينما يعبر بتدرج اللون tone عن كونه فاتحا أم غامقا، وهكذا فإن

جميع الصعقات تنتشر على البعد الذي يمثل تدرج اللون الواقع بين الأبيض ثم السهت ثم المتوسط أما الطلال الغامقة لتلك الصبغة فتمثل تدرج اللون إلى الأسود . ولتمييز في الإنجليزية بين الوردى pink والأحمر red يعتمد بشكل أساسي على درجة اللون ويكمل برلين وكاي الجدول الرئيس الذي يحوي  $8 \times 40$  درجة بسلسلة من تسعة طلال رمادية محايدة من مختلف الدرجات) .

وعندما تتوزع النقاط البؤرية لتعابير الألوان المختلفة في شتى اللغات ثوريس حيدا على نسخة واحدة من الجدول فإنها تدو وكأنها تتجمع في مناطق محددة ثم ما بدلا من أن تكون - مثلما يتبا وورف - متناثرة عشوائيا فوق الجدول بأكمله . فعلى سبيل المثال أخذ أنموذج معين من المنطقة الصفراء كنقطة بؤرية لفردة لونية في ثماني لغات ، فتبين أن السامح للجاورة له حققت أيضا درجة عالية رغم أن الأنموذج المتوسط ما كان ليسجل أكثر من ٤ , ٠ نقطة لأن هناك ١٢٧ مفردة لونية أساسية بين اللغات العشرين التي بحثت بشكل مباشر (مع إهمال المفردات التي تدل على الأسود والأبيض و لرمادي) ولأن جدول الألوان يضم ٣٢٠ أنموذجا لذا حدد برلين وكاي إحدى عشرة منطقة صغيرة على الجدول على أنها ألوان كلية (والعبارة هي عبارتي وليست عبارتهما) وهي التي تقابل في الإنجليزية الأحمر red والوردى pink والبرتقالي orange ولأصفر yellow والسي brown والأخضر green والأزرق blue والأرجواني purple والأسود black والأبيض white الرمادي grey .

ولا تحصى كل لغة من اللغات التي بحثت كل لون من الألوان الكلية الأحاد عشر برمز معين ، إذ تمثل اللغات التي تحتوي على مفردات لجميع هذه الألوان نحو كوربا لغات حصارات متطورة تقريبا سيما نجد أن مفردات الألوان أقل عددا لدى انقبائل ابتدائية .<sup>(١)</sup> لكن برلين وكاي يشيران إلى وجود عملية قولبة patterning كبيرة يشم فيها إعطاء أسماء للألوان الكلية في النظم السليطة . فالنظام الأدنى (المرحلة ١) فيه عبارتان فقط وهذا طسعي يمثلهما بؤريا الأسود والأبيض (مع أنه في مثل تلك اللغات يرى أن الأبيض يعطي الطلال الكاشمة والأسود الطلال الغامقة لكل الألوان) . ولم يكن أي من النظم العشرين التي درسها برلين وكاي بهذه البساطة ، لكنهما يذكران علا عن زملائهما وبعض الآخرين أن هناك عددا من تلك اللغات يستعمل معظمها في عيسا

أخديدة. وإذا كان في اللغة ثلاث عبارات للألوان فإن النقطة البؤرية للون الثالث هي «الأحمر» [تمثل اللغة الشونية Shona كما وصفها غليسون المرحلة ٢ لأنها تحتوي على ثلاث عبارات لونية، (انظر الشكل رقم ٢). ومن المستحيل أن يدرك من وصف غليسون ما إذا كانت لغته الأخرى «الباسية Bassa» تتفق مع تحليل برلين وكاي، حيث لا يفسر غليسون كيف تعامل الباسية الأسود والأبيض. وفي النظام دي العبارات الأربع نجد الأسود والأبيض والأحمر ثم الأخضر أو الأصفر أما في النظام إيدي يضم عبارات خمس نجد الألوان الثلاثة الأولى بالإضافة إلى الأخضر والأصفر. لكننا لا نرى الأزرق إلا في النظم التي تضم ستة ألوان أما النظام ذو الألوان السبعة فيصنف اللون البني وأخيرا نجد أن الأرجواني والوردي والبرتقالي والرمادي يمكن أن تأتي في أية تركيبة في اللغات التي تحتوي أيضا على جميع الألوان السبعة العالمية سابقة الذكر، إذ لا وجود للغات تحتوي مثلا على أربع عبارات لونية كالأسود والأبيض والأحمر والأزرق.

ومجمل القول فإن برلين وكاي قد وحها على ما يبدو ضربة موجعة لفكرة النسبية اللغوية، فإذا كان هذا الحقل من علم الدلالة يبين ثوابت مثل هذه بين الثقافات المتباينة فهل من المحتمل أن نجد مجالات كثيرة تتمتع فيها (رؤية العالم) بحرية الاختلاف؟

ويكشف لنا البحث المعمق في أعمال برلين وكاي عددا من المشكلات التي إذا ما أُحدثت مجموعها أثارت لدينا الشكوك حول الموضوعات التي بحثنا فيها. فإحدى دي مده يكتب برلين وكاي كما لو أن الدليل غير المباشر الذي جاء به من التقارير المشورة حول ثمان وسبعين لغة يدعم النتائج التي توصلنا إليها من معلومات المباشرة المستمدة من عشرين لغة. لكن هذا الادعاء لا يمكن أن يؤخذ على محمل الجد. وكما يشير ان بنفسيهما فإن التقارير المشورة لا تحدد مطلقا النقطة البؤرية لأنة عبارة لويه عريه، بل تعطي قائمة بالمفردات الإنجليزية التي نصف كامل المحل الذي شمله تلك المفرد. وهكذا نجد أن نظاما يضم عبارات أربع ربما نصف كدحه على أنها أزرق وأخضر ونظرا لاعتماد برلين وكاي أن الأزرق يأتي «كلون بؤري» فقط في النظم التي تحتوي على ست عبارات فما فوق، فإنهما يعبران أن الكلمة المعينه

تعني أحصر بصفة أساسية، ويدعيان أن اللغة هي مثال آخر عن المرحلة ٣ من تطور العبارات اللونية (الأسود والأبيض والأحمر والأزرق أو الأصفر) وبذلك تدعم ما سعى الإنسان إلى إثباته منذ البداية. وهناك مثال واضح في تحليلهما للعبارات اللونية لصيقة جدا في اليونانية القديمة حيث كانت كلمة *glaukos* تدل، كما يعتقد عدة، على لمح أو قصي في عصر هوميروس ومن ثم على أزرق و أنتضر ورمادي فيما بعد، حيث يقول برلين وكاي إنها تعني أسود لا شيء، إلا لأن نظريتهما تحتاج إلى كلمة للأسود، وليس ما تجاهل برلين وكاي وجود الكلمة اليونانية المعروفة للأسود وهي *melas* (رغم أن هذه الكلمة هي في الحقيقة أكثر الكلمات اللونية المعروفة وقوع في المصوحي «الهومرية»<sup>١٠٠</sup>). ومن الواضح أن علينا تجاهل البرهان المستمد من اللغات الثمان والتسعين غير المباشر وأن نعتبر نظرية برلين وكاي قائمة حصرا على أساس لفظات العشرين التي بحثا فيها شخصيا.

ولكن حتى تحليل برلين وكاي لتلك اللغات يشير التساؤل حول العديد من النقاط. فمثلا فيما يتعلق بالقرارات - وهي غالبا قرارات حيوية بالنسبة لنظريتهما - هناك تساؤلات عما إذا كانت كلمة ما «أساسية» في لغة معينة أم لا. ويبدو أن الجهل قد أوقعهما في الخطأ. فعلى سبيل المثال يستبعد برلين وكاي عبارات على أنها (غير أساسية) إذا تبين أن تلك العبارات مستعارة من لغات أخرى. صحيح أنهما كانا قادرين على اكتشاف العبارات المستعارة من الإنجليزية والإسبانية إلى اللغات الأخرى إلا أنهما أغفلا أن الكثير من العبارات التي يصنفانها ضمن العبارات الأساسية في اللغة الميتنامية هي مستعارة من اللغة الصينية. ولو استبعدت العبارات المستعارة من الصينية لفُتت الميتنامية بعبارات للأسود والأبيض والأحمر والني والأرجواني والرمادي، الأمر الذي يعد كارثة بالنسبة لنظريتهما. [وبالمثل، استبعد برلين وكاي...لدى مناقشتها مدعة «جريدة مري Murray Island» غينيا الجديدة - وهي من بين اللغات الثمان والتسعين بعض التعابير اللونية على أساس أنها تشكل ازدواجية لأسماء أشياء تتميز باللون موصل البحث. فكلمة «بام» مثلا، وهي التي تعني «برتقالي» أو «أصفر» مشتقة من كلمة «بام» التي تعني «نبات الكر كم». أما عندما يتعلق الموضوع بكلمة «غوله غوله»، ونعني «أسود»، والتي هما بحاجة إليها كتعبير أساسي، فنراهما يستبعدان ما جاء في

انصدور المشهور بشأنها على «أنه مشكوك فيه» حيث يقول المصدر إن هذه العبارة مشتقة من «gole» (ونعني الحبار البحري) تنفس الطريقة، وربما لم يكن برلين وكاي يعرفون شيئاً عن الحبر الأسود الذي يفرزه الحبار].

وتبدو قرارات برلين وكاي في أماكن أخرى وكأنها مجرد نرواب هيماء يصف أحد الألوان الخمسة التقليدية في الفكر الصيني ch'ing بصمة عامة على أنه «أحضر أو أزرق أو لون الطبيعة»، ترى برلين وكاي بصفتان كعبارة أساسية في الصينية الكاتوبية وهي «فيتامية والكورية» (وكلتا اللغتين استعارتا العبارة من الصينية) وهي كل من الحالات الثلاث كان المثال البؤري في المنطقة نفسها الصغيرة من الجدول (أزرق عامق)، لكنهما اعتبرا أنه أزرق في الكورية وأحضر في الكاتوبية والفيتامية، وأهملاه تماماً في المادريسية الصينية بالرغم من أنهما أدخلتا كلمة «الان» (أزرق) وهي كلمة كانت قديماً تدل على شجرة البيلة indigo وتعتبر عادة فرعاً من ch'ing (وهما يحذفانها شكل واضح لهذه الأسباب في مناقشتها للكاتوبية).

إن مدى تأثير السمات العامة في العبارات اللونية الحديثة بانتشار التقنية العامة ومختلف الأصباغ والمواد الملونة والأسلاك الكهربائية التي تميزها الألوان وأصواء مرور وما شابه ذلك لا يروق لبرلين وكاي على ما يبدو. وكان من الممكن لهذا التأثير أن يلعب دوراً مهماً جداً في أحاثهما حيث درساً جميع اللغات العشر، باستثناء واحدة فقط، من خلال معلمين عاشوا في مدينة سان فرانسيسكو أو بالقرب منها. وتشير نوريكو مك نيل (Noriko McNeil، ١٩٧٢م) نقطة على صلة بالموضوع هنا حيث تقول إن النظام الذي يصمم العبارات الإحدى عشرة «القياسية» والذي يقول برلين وكاي أنه موجود في اليابانية يعود تاريخه إلى اتصال اليابان بالغرب في بدايات الستينات من القرن التاسع عشر، وأن في نظام الألوان التقليدي في اليابانية خمس عبارات تشكل فيها الألوان الأسود والأبيض والبرتقالي والفيروزي والأصفر النقاط المؤدية ويسبب هذا النظام إحراجاً كبيراً لنظرية برلين وكاي، ولكنه يفسر بأن الألوان غير الأسود والأبيض تعادل أصبغاً طبيعية موجودة في اليابان.

ونعني الاعتبارات المماثلة إلى تفسير برينب «الألوان الكلية» التي وضعها برين وكاي فنجد أن من السمات المحيرة في ترتيبها هو «تقهقر» الأزرق إذ يعال إنه يحسن

مرئيه السادسة بعد الأحمر والأخضر والأصفر . ويدل لنا لأول وهلة أن هذه حقيقة تشير لدهشه ، ولا يمكن السكهن بها . فإن كانت صادقة فإنها تشكل برهاناً قوياً ضد فرضيه وورف . فالأزرق قبل كل شيء لون رئيس ومن المفترض أنه يستحق اسماً على عرر الأحمر والأصفر والأخضر . ولكن كم عدد الأشياء الزرقاء في بيئتنا ثقافة بدائية؟ السماء والبحر . ولما كنا جميعاً نعرف لونهما ، لذا فإن من العبث أن نتحدث عنه صحيح أن بعض الزهور قد تكون زرقاء اللون ، لكن الزهور عديمة الأهمية من ناحية العملية ، بالإضافة إلى أن الأجراء التي تؤكل من البسات ، والتي تمس الحاجة للحدث عنها ، ليست زرقاء أبداً . وحتى في جيلنا نحن ، ومع كل التقنية الكيميائية المتقدمة التي نملكها ، يعترف أصحاب مصانع الأصباغ التجارية بأن الأزرق لون صعب الصنع . لذا فإنه ليس من المدهش أن نجد الكثير من الخصائص اللدائية لم تكن بحاجة بكلمة خاصة باللون الأزرق .

ولم آت حتى الآن على ذكر أهم الحقائق التي قدمها برلين وكاي وهي أن البؤر لدوية هي اللغات المختلفة تتجمع في مناطق محدودة من الجدول اللوني . ويعد التفسير الذي قدمه جورج كولير (George Collier ، ١٩٧٢م) أشد صنوف النقد مرارة على الإطلاق .

إن المتغيرات المتعلقة بصعده اللون blue ودرجته tone ليست المتغيرات الوحيدة في عالم الألوان . فهناك أيضاً المتغير المتعلق بالتشبع saturation الذي يقيس مدى ابتعاد ظل من صبغة ودرجة معينتين عن الدرجة نفسها من اللون الرمادي . فعندما نصف لون أحمر مثل لون صناديق البريد بأنه «فاتح» أو «غمر» فإننا لا نقصد عادة أنه خفيف ، الدرجة اللوية ، بل نقصد أنه شديد الإشباع . ويمكن أن يؤخذ اللون «الوردي القديم» مثلاً على الأحمر قليل الإشباع . (في الواقع هناك متغير آخر على الأقل له علاقة بها ، بالإضافة إلى الصبغة والدرجة والإشباع ولكن بإمكاننا أن نتجاهل ذلك الآن) . والعين البشرية قادرة على درجة فيزيائية على إدراك درجة إشباع أكبر بالنسبة لبعض أنواع التراكيبات والدرجات اللونية أكثر من غيرها . فدرجة متوسطة من الأحمر يمكن أن تكون شديدة الإشباع بالفعل ، ولكن أكثر درجات الأزرق الفاتح إشراقاً لا نختلف كثيراً عن الرمادي الكاشف . وعلى اعتبار أن الأشياء الأخرى متساوية ، فإن اللعبة

سنصم أسماء لأشد الألوان بضارة وحلها للانتباه بدلا من الألوان التي تكون فيها الشئ العالي مستحلا . وبعبارة أخرى ، فإن الفارة التي تناسمها المستعمرات فيما بينها ليست بيضاء قاحلة ، لكنها تحتوي على مناطق صغيرة من الوديان الخضر تحللها مرتفعات حرداء واسعة . ومن الطبيعي أن تقوم المستعمرات الأولى في أفضل المناطق شريطة عدم اقتراب مستعمرة من الأخرى أكثر مما يلزم (وليس من الكفاءة في شيء أن تكون هناك أسماء منفصلة لظلال شديدة الشبه فيما بينها في لغة لا تحتوي سوى عدد ضئيل من العبارات اللونية) . ولن يتم احتلال المرتفعات الوسطى إلا في حال وجود العديد من المستعمرات . أما الأراضي المرتفعة فتبقى مناطق راحة على الدوام . واد ما قرأنا جدول التثني الذي يمكن الحصول عليه من تركيبات مختلفة من الصيغة والدرجة مع جدول برلين وكاي لتوزيع الألوان النورية وجدنا أن الجدولين متطابقان تماما .<sup>١١</sup>

ويبدو أن هذه المناقشات محتمة تقلل من شأن نظرية برلين وكاي إلى حد بعيد ، ولا يخامرني أدنى شك في سلامة الموقف الوصفي المسي على الفطرة السليمة والذي يقول إن الاختلاف الدلالي صحيح . فعندما لا يحتوي أي ميدان محسوس من مبادئ المعنى على حدود طبيعية أو على سمات ظاهرة بشكل خاص ، فليس ثمة شيء في عقولنا يدفعنا لتحليلها بطريقة دون أخرى . فاللغات تختلف بطريقة تصنيفها لهذه المبادئ اختلافا عشوائيا . ففصايا هيرياتية المكان والزمان وما شابه ذلك واسعة الاختلاف . وقبل كل شيء يدرك الناس أن السؤال : كم عدد الألوان الموجودة ؟ لا معنى له ما لم يطرح في سياق مبدأ معين لتمييز الألوان ، في الوقت الذي لا يعتبر فيه أن البحث عن أفكار سليمة حول المكان والزمان نشاط لا معنى له مع أننا قد ندرك أن البشرية لم تكمل ذلك البحث (وربما لن تكمله أبدا) .

وطالما اقتصر ادعاء ساير وورف على أن لغتنا الأم تقدم لنا مجموعة عشوائية ومميّدة من فئات تصنيف الخبرات التي نعتمد عليها حين نرأى لنا أن محطّط التصنيف ندي سنعمله غير ذي بال ، فإنهما على صواب بالتأكيد . وهما على صواب دون شك في قولهما إن القرارات التي تسمح للعتا بالتوصل إليها تتخذ أهمية أحيانا أكبر من يدرك . ولكن عندما يشير ساير وورف إلى أننا سحناء حطة التصنيف الموجوده في



بعد ديهما بعللان من شأن قدرة الأفراد على تخطيم الأصفاد التي صنعها الآخرون  
 سيعيدوا بها الإدراك



## اللسانيات الوظيفية: مدرسة براغ

رأينا أن لإقبال على اللسانيات الترامسية كتنقيض لفقه اللغة التقليدي philology بدأ بصورة مستقلة مع سوسير في سويسرا ومع بواس في الولايات المتحدة وجاء ويليم ماثيسوس Vilem Mathesius (١٨٨٢ - ١٩٤٥ م) بدفع ثالث في الاتجاه نفسه وماثيسوس عالم أجليكاني تشيكي درس في جامعة كارولين في براغ ثم درس فيها وحدث أن ألقى سوسير محاضراته في اللسانيات الترامسية في عام ١٩١١ م، وهو ذات العام الذي نشر فيه بواس كتابه «الدليل Handbook»، ونشر فيه ماثيسوس دعوته الأولى لمتهج جديد غير ترميحي في دراسة اللغة (ماثيسوس Mathesius، ١٩١١ م).

وقد اجتمعت حول ماثيسوس بحبة من العلماء ممن كانوا يشاركونه أفكاره، حيث بدأ هؤلاء في عقد اجتماعات دورية منذ عام ١٩٢٦ م، ومن ثم أطلق عليهم اسم «مدرسة براغ» (إلى أن شتت شملهم الحرب العالمية الثانية) ولقد مارست مدرسة براغ أسلوبا خاصا من اللسانيات الترامسية. وعلى الرغم من أن معظم العلماء الذين يعتبرهم أعضاء في تلك المدرسة كانوا يعملون في براغ أو على الأقل في تشيكوسلوفاكيا، إلا أن الاسم استعمل أيضا ليشمل بعض العلماء في أماكن أخرى ممن تمسكوا عن وعي بأسلوب مدرسة براغ.

تتميز اللسانيات في براغ بنظرتها إلى اللغة من خلال الوظيفة ولا أقصد في هذا أن أعضاء مدرسة براغ كانوا يرون أن اللغة ككل تؤدي وظيفة ما فحسب، فهذه بداهة لم تكن لتمرهم عن غيرهم. لكنني أقصد أنهم حللوا اللغة بهدف إبراز الوظيفة التي كانت مكوناتها البنوية المختلفة تؤديها في استعمال اللغة بأحدها وهذا ما يمر مدرسة براغ تميزا حادا عن معاصريها، وهم الوصفيون الأمر مكيون (كما يمرهم أيضا

وبالحدة نفسها عن المدرسة التشومسكية التي نلت الوصفين) واللساني الذي يعمر في إطار الأعراف الأمريكية يرى التحو كمجموعة من العناصر للحردة (أي مجموعة من الإيمات enes) من أنواع مختلفة عند بلو مفلد، وكمجموعة من قواعد مختلفة بالنسبة لأنواع تشومسكي. فالحلل يتخذ الموقف ذاته من النية اللسانية مثلما يأخذ المرء موقفا من عمل فني ما، بمعنى أنه لا يخطر بباله عادة أن يشير إلى عنصر معين ويسأل «ما العاية منه؟» بل يكتمى بالوصف والتأمل. أما علماء مدرسة براغ فكسوا يطورون إلى اللغة كما ينظر المرء إلى محرك محمول أن يفهم الوظائف التي تؤديها أجزائه المختلفة وكيف تحدد طبيعة جزء معين طبيعة الأجزاء الأخرى وما دام الأمر متعلقا بوصف بنية اللغة فإن ممارسة مدرسة براغ لم تكن مختلفة كثيرا عن المدارس التي عاصرتها - حيث استخدم أعضاء تلك المدرسة تعابير مثل «العوييم» و «المورفيم» على سبيل المثال، لكنهم حاولوا تجاوز الوصف إلى التفسير، أي أنهم لم يكتفوا بالحديث عن ماهية اللغة بل تحدثوا عن السبب وراء اتخاذ اللغات أشكالها التي نجدها عليها، بينما اقتصر الأمريكيون (وما زالوا يقتصرون) على الوصف فقط.

ومن الأمثلة المباشرة عن التعبير الوظيفي في عمل ماثيسوس مثال يتعلق في استعماله للعبارةتين اللتين تترجمان عادة إلى مستد إليه theme و مستد rheme بالإضافة إلى الفكرة التي أطلق عليها الكتاب المحدثون الذين عملوا وفق تقاليد مدرسة براغ اسم «المطور الوظيفي للجملة functional sentence perspective» فمعظم الجمل (أو كثير منها على الأقل) تقال لكي تعطي السامع بعض المعلومات، لكن من الواضح أننا لا نصدر أجراء منفصلة من المعلومات العشوائية، بل مصوغ عباراتنا ليس تبعا لما نريد السامع أن يعلمه فحسب - ولكن تبعا لما يعرفه مبقا، وتبعا لسياق الحديث الذي يساء حتى تلك اللحظة. وفي اعتقاد ماثيسوس أن الحاجة للاستمرار تدعو إلى تقسيم الجملة إلى قسمين (ليس من الضروري أن يكونا متساويين في الطول) الأول ويدعى المسند إليه - وهو القسم الذي يشير إلى شيء معروف مسبقا لدى السامع (وغالبا ما يكون قد ورد له في الجملة السابقة) والثاني ويدعى المسند وهو ما ينص على حقيقة جديدة تتناول ذلك المصوغ المحدد. والمسند إليه يسبق المسند ما لم يهدف التكلم إلى إعطاء مؤثرات خاصة بحيث يتشكل المشجب في ذهن السامع قبل أن يعلق عليه أي شيء جديد.

وعائلا ما يقابل تقسيم الجملة إلى مسند إليه ومسند التمييز الحوي بين المتدا  
والخبر أو بين الفاعل والفعل المتعدي والمفعول به. ويمكن أن نقول «جون قبّل ايف»  
لأن ك سكرم عن «جون» ونريد أن نقول ما فعله بعدئذ، أو لأن السامع يعرف أن  
«جون قتل فتاة» ونريد أن نخبره من كانت تلك الفتاة. ولكن ربما كان السامع يعرف أن  
شخصا قتل «ايف» ونريد أن نخبره من قبلها. أي أننا نريد أن نجعل «جون» المسند  
و«قبّل ايف» المسند إليه لكن المسند إليه يسبق المسند عادة. ولا يشكل هذا الأمر عقبة  
في اللغات المتصرفة inflecting مثل التشيكية حيث نصنع الفاعل الحوي في نهاية الجملة  
ونقول *Evo posibl Jan* فاللاحقة «-u» وغياب علامة التأنيث من نهاية الفعل يدلان على  
أن *Evo* هي التي قبّلت ولم تُقبّل. وكذلك تستخدم الإنجليزية ترتيب المفردات من أجل  
تحديد العلاقات الحوية مثل الفاعل والمفعول به وبهذا فهي ليست حرة في تبديل أماكن  
المفردات هي «جون قبّل ايف» وبدلا من ذلك فإننا نحل المعضلة باستعمال صيغة «المتكلم»  
للمجهول *Eve was kissed by John* فهي توفق بين المطلب النحوي الذي ينص على  
وجوب تقديم الفاعل، وبين المطلب الوظيفي الذي يوجب تأخير «المقبّل» - باعتباره  
لمسند - إلى نهاية الجملة بواسطة شكل خاص من أشكال الفعل يشير إلى أن الفاعل  
النحوي ليس هو الذي «قام» بالفعل. وصيغة المبني للمجهول نادرة الوقوع في التشيكية  
خاصة عندما يذكر الفاعل بالفعل بما يعادل عبارة (من قبل by). وحتى في الإنجليزية  
فإن لصيغة المبني للمجهول وظيفة ثانية تمكننا من التوفيق بين الرغبة أحيانا في عدم  
التصريح عن شخصية الفاعل بالفعل وبين المطلب النحوي الذي يوجب أن يأخذ كل  
فعل تام فاعلا، بحيث نستطيع أن نقول «قبّلت ايف» إذا لم نكن قادرين على التصريح  
بمن قبلها أو إذا لم نكن مرعبين في قول ذلك (إن صيغة المجهول المستعملة في جمل  
مثل «لقد رُئي أن تبني المشروع عمل غير حكيم *Adoption of the proposal is felt*  
*unadvisable*» محبة لدى القراءطين الذين يهدفون إلى التخلص من مسؤولية قرارهم)  
لا أن اللغة الإنجليزية حالة شاذة فيما يتعلق بسبب استخدام صيغ المبني للمجهول الكاملة  
مع عبارة (by) «مفكرة» المظنور الوظيفي للجملة» بين لاء عملا تؤدبه مثل هذه التراكيب  
في لغة الإنجليزية والذي تقوم به وسائل أخرى في اللغات المختلفة. (ولا يعني هذا  
أن العمل يؤدي حصرا وبصفة دائمة من خلال صيغة المبني للمجهول في الإنجليزية

فعلى سبيل المثال من الممكن أن نجعل جون مستندا بدلا من مستند إليه في قولنا «جون قتل إيف» وذلك بوصف النبرة على «جون»، إلا أن هذه الطريقة تستعمل بوجه خاص عندما نريد أن ناقض توقع السامع أن شخصا آخر قتل إيف).

ولا يحق لنا أن نقول إن فكرة «المنظور الوظيفي للجملة» كانت مجهولة تماما في اللسانيات الأمريكية. فقد استعمل بعض الوصفين عبارة المتبدأ topic والخبر comment بالطريقة نفسها التي استعمل بها ماثيسوس المسند إليه theme والمسند theme ولكن، وبعض النظر عن أن علماء براع طوروا هذه الأفكار أكثر من أي عالم أمريكي، فإني أعتقد أن من العدل أن نقول إن الأمريكيين لم يحلموا قط باستعمال هذه الأفكار لتفسير الفوارق السبوية بين اللغات مثل سبة وقوع المبني للمجهول في الإنجليزية بالمقارنة مع لغات كثيرة أخرى. وقد كان هذا مفهوما بالنسبة للوصفيين نظرا لأن هذه التفسيرات تستفيد من المفاهيم التي لا تتوافق مع الأشياء الملحوظة (مثل «عدم الرغبة في التصريح عن الفاعل») مما يجعلها غير شرعية بالمعايير السلوكية. وبالعقل فقد أبدى الوصفيون ارتياهم حيال الأمثلة التي تبدأ بكلمة «ماذا»، واعتبروها بقية من مرحلة الطفولة التي ينبغي على الناضجين من العلماء أن يكونوا قد تجاوزوها ومراحل (انظر جور، ١٩٥٧م، ص ٩٦). إلا أن مدرسة تشومسكي الحديثة ركزت جل اهتمامها على ضرورة تفسير مقولات اللسانيين دون الاكتفاء بوصفها، ولم تعترض على فرضية الأشياء غير الملحوظة unobservable ومع هذا فإن نحو تشومسكي يكتمل بأن يدرج «التحويلات نحوية» مثل «المبني للمجهول» التي تضمها لغة ما دون أن يشير إلى أي سبب يكمن وراء حاجة اللغة إليها، أو لماذا تحتوي لغة ما على بعض التراكيب المعينة بينما لا توجد هذه التراكيب في لغة أخرى أو أنها لا تُستخدم إلا فيما ندر.

وهي هذا المجال ترى أيضا أن كثيرا من اللسانيين في مدرسة براغ أبدوا اهتماما كبيرا بقضية توحيد الاستعمال اللغوي. انظر مثلا هافرانيك Havranek (١٩٣٦م) ورعا كان هذا الاهتمام طبيعيا بالنسبة للشيكين الذين تتسم لغتهم بوجود دهوة عمقه، وبصورة غير طبيعية، بين الاستعمال الأدبي والاستعمال العامي، فهي لم تصح اللغة الرسمية للدولة المستقلة إلا في فترة ما بين الحربين، ولكن من المؤكد أنها لا تشجع أيضا من مدرسة براع. أما الوصفيون الأمريكيون فلم يكتفوا بوضع تمييز منطقي بين

وصف اللغوي description والمعياري اللغوي prescription، بل لم يدعوا مجالاً للشك لدى أتباعهم في أن المعيارية نشاط غير ملائم ولا يليق بالمحترفين ولذلك يجب على جميع اللسانيين احتسابها (انظر إلى عنوان كتاب هول «دع لغتك وشأنها Leave Your Language Alone» ١٩٥٠م). فهذا الموقف الأخير يرمته غير عقلاني، لأن الشك في العالم بحاجة إلى معايير من أجل الاستعمال اللغوي (رغم أنه من المفصل أن تستقي مثل هذه المعايير من خلال نقاش علمي مطلع بدلاً من أن يعرضها مجمع لغوي) ومن المفترض أن يكون التدريب في حقل اللسانيات من العوامل المساعدة لا أن يقف حجر عثرة أمام صياغة المعايير الملائمة ومن المؤكد أن من الصعب على المرء أن يتحدث بشكل سطحي عن الاستعمالات الجديدة بالقبول وتلك التي يجب أن تستبعد ما لم ير أن اللغة أداة أو مجموعة من الأدوات تستعمل في أداء عدد من الأعمال بكفاءة قد تقل أو تكثر.

ولا يقتصر اهتمام ماثيسوس في السحو الوظيفي على نظريته حول المسند إليه والمسند فحسب، ولو كان لدي متسع أكبر لناقشت فكرته عن سبك المهرجات الجديدة على اعتبار أن ذلك عمل تختلف اللغات بطريقة إعازه بشكل خاص. (انظر مثلاً ماثيسوس Matheson، ١٩٦١م)، ولنتجه بدلاً من ذلك إلى المنهج الوظيفي في علم الأصوات كما يتمثل في أعمال ترويتسكوي Trubetzkoy.

كان الأمير بيكولايف سير جيفتش ترويتسكوي Nikolai Sergeevich Trubetzkoy (١٨٩٠ - ١٩٣٨م) أحد أعضاء مدرسة براغ خارج تشيكوسلوفاكيا وسليل عائلة من العلماء من سلاء الروس إذ كان أبوه أستاذاً للفلسفة ومديراً لجامعة موسكو. وبدأ ترويتسكوي حياته بدراسة الفلسفة والتراث الشعبي القوقازي والعيسوأو غري Finnougri. درس ترويتسكوي اللسانيات الهندوأوروبية في جامعة والده، ثم أصبح عضو في هيئة التدريس عام ١٩١٦م. ومعهما اندلعت الثورة، واضطر الأمير ترويتسكوي إلى الهرب، فالتجأ أولاً إلى روستوف Rostov على نهر الدون حيث منح كرسياً في الجامعة المحلية (بعد أن حسبته الخدم أحد المشردين وحاولوا طرده خارج منزل مدير الجامعة) وعندما حُسر المحافظون روستوف عام ١٩١٩م لحاً ترويتسكوي إلى القسطنطينية وفي عام ١٩٢٢م عين رئيساً لقسم تاريخ اللغات السلافية في قسماً، ومن ثم أصبح عضواً في الحلقة اللغوية بمدينة براغ لدى إنشائها تحت إشراف ماثيسوس.

بعد ذلك عدة سنوات (ولا تعد براغ عن قسنا سوى ١٥٠ ميلا ويفصلها عنها حدود سياسية كانت لا تزال جديدة وقتئذ). وبقي ترويتسكوي في فيينا حتى وافاه الأحرار بعد نصح مشهور من قيام ألمانيا بضم النمسا Anschluss عام ١٩٣٨ م متأثرا بأزمه قلبية أصابته إثر استحوائه من قبل رجال الاستخبارات السارية (وكان معارضا صريحا للسارية). وبحن اليوم نتعرف على أفكار ترويتسكوي بشكل أساسي بمصطل كتبه «مبادئ علم الأصوات الوظيفي» Principles of Phonology الذي كافح من أجل إلهائه - وقد أنهاه فعلا - في الأسابيع الأخيرة من حياته.

وعلم الأصوات الوظيفي عند ترويتسكوي، شأنه شأن الوصفيين الأمريكيين، يستند دورا رئيسا للمويم. غير أن ترويتسكوي - ومدرسة براغ بصغة عامة - كان مهتما بالدرجة الأولى بالعلاقات الرأسية بين الفونيمات (وكما أشرت سابقا، فإن هذا من سمات اللسانيات الأوروبية) أي بطبيعة التقابل بين الفونيمات التي يمكن أن تكون متميزة عن بعضها البعض في بنية صوتية معينة، بدلا من العلاقات الأفقية التي تحدد تنظيم الفونيمات في سلاسل في اللغة. وقد طور ترويتسكوي مفردات لتصنيف الأنواع المختلفة من التقابل الفونيمي، حيث ميز على سبيل المثال بين: (١) التقابل الخاص private opposition حين يكون فويمان متماثلين باستثناء سمة صوتية واحدة موجودة في واحد دون الآخر (كما في /t/ و /v/، والسمة في هذه الحال هي سمة الجهر) (٢) لتصاد المتدرج gradual opposition حيث يختلف الأعضاء في إظهارهم درجات مختلفة من خاصية التدرج gradient property (كما هي الحال في الصوائت الإيجلية /i, e, æ/) انسية لانساع فتحة الصائت). (٣) التقابل المكافئ equipollent opposition حيث يحدث كل عضو سمة مميزة لا توجد في بقية الأعضاء (كما هي الحال في /k, t, p/) وفي بعض الحالات لا يكون فيها التقابل الفونيمي فعلا إلا في بعض السياقات، وقد يكون عدم الأثر أو معدوما كلية في سياقات أخرى. فعلى سبيل المثال، نجد أن التقابل بين /d/ و /t/ في اللغة الألمانية ينعدم في أواخر الكلمات (حيث تستعمل /t/ فقط في أواخر الكلمات، أما الحذور التي تنتهي بـ /d/ مبنوعة بلا حقة فإن /d/ تتغير فيها إلى /t/ عندما سمع تلك اللاحقة كما في /ba:da:ri/ «يستحم» مقابل /ba:t/ «حمام»). ففي هذه الحالات يمكننا أن نحدث عن وقوع ما يعرف بالمونيم الأصل archiphoneme، وهو العامل المشترك



لأعلى لفونيمات التي بعدم فيها التفاعل . وفكرة ترويتسكوي عن الفونيم الأصل ممثلة في حل المشكلات الوهمية . ففي اللغة الإنجليزية على سبيل المثال ، نجد أن التضاد بين /d/ و /t/ بعدم بعد /s/ (ليس هناك تضاد بين \*sdill و still) ولكن ، وعلى العكس مما وجدناه في الألمانية ، فإن الصوت الذي يقع في السياق الذي يتعدم فيه التفاعل لا يوصف على أي من الصوتين المتقابلين (إن الصوت الذي يكتب /t/ في كلمة still هو صوت غير عسي مثل /d/ مع أنه مهموس مثل /t/). واللساني الوصفي يفسر الصوت عشوائيا إما إلى الفونيم /t/ أو الفونيم /d/ ، لكن مفهوم الفونيم الأصل يجنبنا هذا الاحتيار العشوائي. <sup>(١)</sup> ويرسي ترويتسكوي في كتابه «المبادئ» دعائم نظام دقيق لتصنيف الأصوات الوظيفية phonological typology وبعبارة أخرى ، فإنه يقدم لنا نظاما يمكننا من معرفة نوع النظام الصوتي في لغة ما بدلا من أن نعالج تركيب نظامها الصوتي بالأسلوب الأمريكي المتمثل بعبارة (حذف أو دعه) على أساس أنه مجموعة من الحقائق منفصلة [كان تصنيف الأنواع محط اهتمام متبير في مدرسة براغ ، وقد بحث ماثيسوس Mathesius ١٩٢٨م و ١٩٦١م فيما ترجم ترجمة غير دقيقة بعبارة علم الشخصية اللغوية linguistic characterology والذي كان يهدف إلى تمكين المرء من مناقشة نوع النحو الذي تمتلكه لغة ما أما الأمريكيون من الناحية الأخرى ، وباستثناء عدد قليل منهم مثل سابير و هو كيت (A Manual of Phonology ١٩٥٥م) ، فقد كانوا يميلون لمعالجة التنى التزامية في اللغات المختلفة على أنها أمثلة مختلفة عالميا على نوع و حد من الأشياء وربما كان هذا حرا بما ورثوه عن النحويين الجدد الألمان الذين اعتبروا أن لطريقة الوحيدة الجديرة بالاهتمام في تصنيف اللغات تكمن في تصنيفها حسب علاقاتها انتشارية]

ومن الحذير بالذكر في هذا المقام أن ترويتسكوي ميز الوظائف المختلفة التي يمكن أن تعبد من التفاعل الوظيفي . والوظيفة الواضحة وهي التفريق بين الكلمات والسلاسل محتتمه الأطوال أسمائها وظيفة التمييز distinctive function ، إلا أنها ليست الوظيفة الوحيدة التي يمكن أن يخدمها التفاعل الصوتي الوظيفي . ولنا حد التفاعل بين وحد stress وعدمه على سبيل المثال ، وربما كانت هناك قلة من اللغات الجديدة يؤدي فيها سر دورا محيزا . فهو غير غير في اللغة التشيكية (حيث يقع على المقطع الأول من

كل كلمة) أو البولندية (التي يقع فيها النبر عادة في المقطع قبل الأخير من الكلمة) إذ أن له وظيفة التحديد حيث يساعد السامع على تعيين حدود الكلمات في إشارة كلاميه وهذا ما يحتاجه إن أراد فهم ما يسمع . وفي اللغات حيث النبر متغير كما في الإنجليزية والروسية ، نجد أن وظيفة التحديد للنبر أقل أثرا ، كما أن النبر نادرا ما يؤدي دورا عميرا (إن الكلمات مثل (v.) *subject* (n.) *subject* المتماثلة تقريبا في اللفظ - باستثناء موقع النبر - نادرة في اللغة الإنجليزية) . لكن للنبر وظيفة تكميلية ، وبصورة عامة ، ومع إهمال قليل من الأدوات مثل أداة التكبير (a) وأداة التعريف (the) فإن هناك نبرا رئيسا واحدا فقط لا غير في الكلمة الإنجليزية ، وبالرغم من أنه لا يدل السامع على مكان التقطيع إلا أن إدراك النبر يدل على عدد الكلمات التي ينبغي عليه أن يلاحظها في الإشارة الكلامية . كما أن السمات فوق القطعية *suprasegmental* ("مثل النبر ليست هي الوحيدة التي تؤدي هذه الوظائف الحثائية . وهكذا يشير تروبتسكوي إلى أن للتقابل بين ر و فريجات الصوت الأخرى في الألمانية وظيفة التمييز (كما في *verjagen* «يطرد» مقابل *venagen* «ينكر» على سبيل المثال) بينما يؤدي الصوت /r/ وظيفة التحديد أيضا حيث لا يقع هذا الصامت إلا في بداية المورفيم (بتألف التركيب المورفيمي لكلمة *verjagen* من *ver+ jag + en* . وبالمقابل فإن للصامت /ɐ/ في الإنكليزية «وظيفة تحديد سلبية» ، فعندما نسمع هذا الصوت نعرف أن ليس هناك حدود مورفيم قبله ، لأن /ɐ/ لا تأتي في بداية المورفيم الإنجليزي مطلقا . ونشير عاقيد الصوامت مثل /st/ و /ps/ في اللغة الإنجليزية إلى حدود مورفيم يبي (وهذا ينطبق على جميع الحالات باستثناء بعض الحالات الشاذة مثل *lapse* و *setse*) . ومن ناحية أخرى يرى أن اللغة السويدية لا تسمح بوجود عاقيد من الصوامت في بداية الكلمة أو نهايتها ، ولا نسمع سوى للصوامت /sm/ بأن تأتي في أواخر الكلمات ، وهكذا فإن العاقيد في «yks» واحد أو «sita» جسر» تشير إلى غياب حدود المورفيم .

أما في الأعراف الأمريكية فلا مكان لمثل هذه الأقوال . فقد كان الوصفيون يعتبرون أن جميع وجوه التعادل الصوتية الوظيفية «مميزة» في مفهوم تروبتسكوي فهي حال النبر الثابت في التشيكية مثلا ، ربما بقول الوصفية إن هذا النبر لا يمكن أن يفصل بين الكلمات المختلفة ، وبناء عليه يجب أن يهمل نظرا لأنه غير فويعي ، أو بقول إن

هناك تقديلا فونيميايين و حدود السبر و غيابه، وهذا يكافيء متطابقا التقابل بين /p/ و /b/ أو بين /m/ و /n/ (إن كانت هلك أزواج من سلاسل كلامية تختلف فقط في موضع حدود الكلمات وبالتالي في موضع الثبراب كما في عبارة *ma'meloux Ma melouch* «الديه عمل على الخانب» معابل *'mame 'louch Mame louch* «الدينا محلول صودا كاوية») وهذا يبدو منهج ترويتسكوي أكثر عمقا من أي من هذين البديلين

إن لكل من الوظائف الصوتية التي نوقشت حتى الآن دورا في احراز الأمر في تمكين السمع من معرفة سلسلة الكلمات التي نطقها المتكلم. إلا أن ترويتسكوي، شأنه شأن بقية أعضاء مدرسة براغ، كان على دراية تامة بأن وظائف الكلام لا تقتصر على التعبير عن رسائل صريحة. ففي تحليله لوظائف الكلام سار ترويتسكوي على خطى رميده الفيلسوف المييسي كارل بوهلر (Karl Bühler، ١٩٣٤م) الذي كان يميز بين «وظيفة التمثيل representative function» (أي وظيفة تقرير الحقائق) و«وظيفة التعبير expressive function» (التي تتعلق بالتعبير عن الخصائص المؤقتة أو الدائمة للمتكلم)، و«وظيفة الإفعال conative function» (وهي التي تؤثر في السامع). وإني لأجد تمثيل بوهلر الثلاثي معرقا في الدقة كما أجده استنتاجيا ومحكما إلى حد يزيد عن اللزوم بحيث لا يستحق هذا المبلغ من الاحترام الذي لقيه من الكثيرين، لكنه مفيد في الإشارة إلى وجود أكثر من مجرد «الوظيفة التمثيلية للغة». ويبين ترويتسكوي أن تحليل بوهلر يمكن أن يعبق في علم الأصوات الوظيفي. فالتقابل الصوتي الذي يحقق الوظيفة التمثيلية هو عادة تقابل فونيمي. لكن التمييز بين شتى أنواع الألفوفونات لمؤيم معين، حيث لا يتحدد الاختيار وفق السياق المويمي، غالبا ما يلعب دورا تعيريا أو انمعاليا. فالصائت الثاني au، في نداء على سبيل المثال له مجموعة من الألفوفونات تحتلف بدرجة فتحها لأوسنة، بحيث يجد مثلا أنواعا من اللفظ تتراوح بين [au] و [œu] و [œv] (بالإضافة إلى ورق في الإملاق أهملتها هنا). ويقابل هذا الانحدار الألفوفوني أو «يعتر» عن مكانه اجتماعه متعيرة وبصورة عامة، كلما ضافت فتحة بداية الثنائي الصائت كلما تددت مكانة المتكلم الاجتماعية (ومن جهة أخرى يجد أن التعابل بالنسبة للثنائي الصائت ai معكوس، فالتكلم الخشن الذي يستخدم [œv] في الحالة الأولى يستعمل صائتا ثانيا فريبا من [œi] في الحالة الثانية، بينما نجد أن من يحسن الكلام يستعمل [œv] في

الحالة الأولى و [a] هي الثانية). وهي إحدى اللهجات المنغولية (تروفسكوي ١٩٣٩م، ص ١٧) يعبر تقديم الصوائت إلى الأمام عن الجنس. فالصوائت الخلفية في كلام الرجل تفقد صوائت مركزيه في كلام النساء، والصوائت المركزيه عند الذكور تقابل الصوائت الأمامية عند الإناث. وبذكر الزمن في الإنجليزية الأمريكية كمثال على الوطعية الاجتماعية في علم الأصوات الوظيفي. فزمن الصوائت يمثل مجالا واسعا للاختلاف بين الإنجليزية الأنموذجية RP واللهجة الأمريكية القياسية فيما يتعلق بسية النظام الصوتي لكل منهما. ففي الإنجليزية الأنموذجية يتحدد زمن الصوائت تبعا للنظام الصوتي، فالصوائت المغلقة checked أو الرخوة lax قصيرة كما في /ɪ/، أما الصوائت الأخرى فطويلة أو قصيرة بحسب سياقها الفونيمي. أما في الإنجليزية الأمريكية فليس لزمن الصائت أية وظيفة مميزة، كما يتنوع بحرية التغير، فالطول يستعمل للتأثير في عواطف السامع. وهكذا نجد أن أمريكيا يدعو للإسهام في عمل حيري قد ينهي كلامه بعبارة مثل «أريدكم أن تضعوا أيديكم في جيوبكم وأن تعطوا» بأن يستعمل صائتا طويلة جدا، في كلمة «give يعطي» [gɪv] بينما يرى أن الإنجليزي ملزم باستعمال صائت قصير. مرة أخرى تبين لنا أمثلة من هذا النوع طريقة عمل اللغة أكثر من التحاليل الصوتية الوظيفية من الطراز الأمريكي. فبالنسبة للوصفي، إما أن يكون التناوب بين الألفوفونات فونيمي معين محددا بالنظام الصوتي (كما هي الحال في اللام المصنعة واللام العادية في الإنجليزية الأنموذجية) أو يقال إنه من البدائل الحرة. إلا أن هذه العبارة الأخيرة تنهرب من الموضوع. فالحالات الحقيقية من التبادل الألفووني العشوائي الذي لا يقابل أية عوامل أخرى سواء داخل اللغة أو خارجها إنما هي حالات قليلة جدا ومتباعدة وأحدة هي الروال.

ومن معالم موقف مدرسة براغ الذي يمتزج اللغة أداة تؤدي عملا معينا (أو مجموعة واسعة من الأعمال) هو أن أعضاء تلك المدرسة كانوا مهتمين بدراسة الجوانب الجمالية والأدبية من الاستعمال اللغوي (يعدم غرافين Gravin ١٩٦٤م محاربات من هذه الأعمال). وقد استمر كثير من اللغويين الأمريكيين من الوصفيين أو من مدرسة تشومسكي الحديث، في حصر تركيزهم تقريبا على الجوانب الشكلية والمنطقية من اللغة على حساب اعتبارات أكثر إنسانية. ويقع هذا الخاط من فكر مدرسة

براع إلى حد ما خارج النطاق الأساسي لهذا الكتاب . وحيناً أن نقول إن مجموعته براغ شكلت إحدى حلقات الاتصال الحقيقية القليلة بين اللسانيات والنبوية بالمعنى الأوردوبي (أو هي هذه الأيام بالمعنى الفرنسي بصورة أساسية) وهي علم غالباً ما يتوجه ممارسوه المعاصرون إلى اللسانيات كمثال يحتذى في المنهج الذي يتبعونه في النقد الأدبي دون أن يعمهوا في كثير من الحالات المفاهيم اللغوية التي يتخذونها أمثلة لهم .

ويرجع إهمال اللسانيين الأمريكيين الجوانب الجمالية من اللغة إلى حرصهم على برال اللسانيات منزلة العلم . ويختلف البلومفيلديون والتشومسكيون اختلافاً جذرياً حول طبيعة العلم ، لكنهم يتفقون حول رغبتهم الثابتة في تصنيف اللسانيات من بين العلوم عند التقسيم بين الآداب والعلوم . أما مدرسة براغ فلم تشاطرهم هذا الانحياز ، كما لم يول أعضاءها مسألة المنهجية أي اهتمام ولو ستل مانيسيوس هي معرض مناقشته لشخصية اللغة الإنجليزية لأجاب أن عمله أقرب إلى عمل المؤرخ منه إلى عمل الفيزيائي .

ولقد حدثت تطورات معينة تعود في جذورها إلى مدرسة براغ رغم أنها كانت ذات طبيعة علمية واضحة ، ولكن شاءت الظروف أن يحدث التحول إلى نظرية تحريرية كاملة في كل مرة بعيداً عن براغ .

ولعل أول هذه التطورات ما يسمى «نظرية العلاج» في التبدل الصوتي therapeutic theory . ويعتقد مانيسيوس ، ويشاركه في ذلك عدد من أعضاء مدرسة براغ ، أن بالإمكان تفسير التبدلات الصوتية على أنها نتيجة للصراع من أجل تحقيق توازن مثالي ، أو حل لصعوبات مختلفة متصارعة . فحاجة اللغة مثلاً لأنواع كثيرة من الأشكال الصوتية للمحافظة على تمييز مفرداتها بعضها عن بعض تصطدم مع حاجة الكلام لكونه مفهوماً بالرغم من حتمية عدم الدقة في اللفظ وإدراكنا الشحيد ، فإن الميل في الإنجليزية لطق العويسم /e/ كصائت قريب نسبياً لكي يبقى متميزاً عن /æ/ بصورة واضحة يتعارض مع الميل لجعله مفتوحاً نسبياً من أجل تمييزه عن /a/ شكل واضح كما نجد أن توارن النظام الصوتي في أية لغة من اللغات يبقى ناقصاً على الدوام ، ولما أن متوقع حدوث التبدلات عند نقاط التباين . فمثلاً فل القرن السابع عشر لم يكن عويسم /ɜ/ موجوداً في الإنجليزية ، لكنه لم يكن يحوي على أية سمات غريبة عنها إذ

كانت معظم الأصوات غير الرئيسية obstruents موجودة في الأزواج المهموسة/المجهورة، وكان الصوت /ʃ/ هو الوحيد المفرد، وهكذا كان الصوت /ʒ/ يشكل فجوة تستعير أن يملأها فوسم ما دون أن تتكد اللغة كلفة إضافية، وهذا ما كان بالفعل، حيث دخل القوينم /ʒ/ الإنجليزية من خلال اندماج السلسلة (/ʒ/ كما في كلمة leisure) ومن خلال بقاءه كما هو في الكلمات الدخيلة من اللغات الأجسة (مثل rouge). وبما كانت /ʒ/ «حيزاً فارغاً» نجد أن وضع الصوت /h/ من الناحية الأخرى كان محيراً. فهو صوت معزول لا ينسجم مع الترتيب العام لبقية القوينيمات الإنجليزية، كما أن العديد من اللهجات الإنجليزية (ولكن ليس الإنجليزية الأغوجية) قد استعنت عن هذا القوينم (فليست لهجة الكوكتي Cockney هي اللهجة الوحيدة في الإنجليزية التي يسقط فيها المتكلم هاءاته). وبما أن اللغات هي تراكيب بالغة التعقيد، وبما أن هناك عوامل جديدة تؤثر في اللغة باستمرار مع تطور الحياة، فإن العملية العلاجية لن تنتهي أبداً. فببما يشهد تحول معين حللاً ما، بجده يخلق توترات في أماكن أخرى من النظام (مثلما تدرأ حركة ما في الشطرنج خطراً معيناً ونسب في الوقت نفسه خطراً آخر) وهكذا فإن التبدل اللغوي سوف يستمر دون توقف.

ومن الحدير بالملاحظة أن هذا الرأي حول التبدل الصوتي يتعارض نوعاً ما مع منهج سوسير في اللسانيات. تذكروا أن سوسير كان يقابل اللسانيات الترامنية (باعتبارها الدراسة التي تستمد فيها العاصر المختلفة قيمها من علاقتها المتبادلة) مع اللسانيات التاريخية باعتبارها وصفاً لسلسلة أحداث معزولة وغير منتظمة<sup>(١١)</sup> ويعتبر وصف الشخصية هذا characterization متصفاً كوصف ينتمي إلى اللسانيات التاريخية التي كانت شائعة أيام سوسير، إلا أن مدرسة براغ هي حقيقة الأمر كانت تحتج بأن الشخصية الذرية atomicity التي ينسبها سوسير إلى اللسانيات التعاقبية ليست من الخواص الأساسية فيها كنقيض للسانيات الترامية، لكنها تنطبق على مدرسة معينة من اللسانيين الذين كانوا مهتمين باللسانيات التاريخية بدلاً من الترامنية لأسباب مستقلة عن منهجهم الذي atomicity. ويؤيد مدرسة براغ وجود نظام في التسلسل التاريخي أيضاً، ويدّعي بالفعل أن أي نوع لغوي يحدد الوصف الترامني للغة état de langue كما يحدده في الوقت نفسه وإن شئت المصي قدما بالمقاربه مع لغة الشطرنج وحدنا أنه ليس ثمة لاعب أعمى

بالمسئولية لمدرسة براغ، مع أن بوسعنا أن نقول أن اللاعبين لا يتأون بجميع نتائج حركاتهم (أكثر مما يفعل اللاعبون الحقيقيون). وسوف نرى في هذا الفصل أن الأعمال الحديثة ومن مسيح مدرسة براغ كانت تميل إلى التقليل من شأن التمييز التعاقبي / الترامبي بطرق أخرى أيضا.

كان أندريه مارتينييه André martinet (وهو من مواليد عام ١٩٠٨ م) العالم الذي قدم أكبر الجهود في سبيل تحويل فكرة العلاج في التبدلات الصوتية إلى نظرية واضحة ودقيقة. ولم يعش مارتينييه في براغ أبدا، لكنه عين في «المدرسة العملية العليا للدراسات العليا» في باريس عام ١٩٢٨ م École Pratique des Hautes Études، وأمضى سني الحرب الأولى وهو رهن الاعتقال كصابط في الجيش، ثم أصبح رئيسا لقسم اللسانيات في جامعة كولومبيا في نيويورك عام ١٩٤٧ م ومن ثم عاد إلى مدرسة الدراسات العليا عام ١٩٥٥ م. ومارتينييه (الذي كان غريبا ويستحق الإعجاب في تعهده لشئى الاتهامات في لفكر اللغوي) تأثر إلى حد كبير بفكر مدرسة براغ منذ مراحل حياته الأولى. ويبدو أن من الإصاف اليوم أن نصفه بأنه المؤيد الرئيس المعاصر للأفكار الأساسية في مدرسة براغ. وكتاب الذي ضمنه مارتينييه نظرياته عن علم الأصوات التعاقبي يحمل عنوان ملائما جدا ألا وهو «اقتصاد التبدلات الصوتية» *Économie des Changements Phonétiques* (١٩٥٥ م). فالفكرة العلاجية للتبدلات الصوتية هي بالعمل من بقايا شعار الاقتصاديين عن اليد الخفية التي تجعل قوى التوازن المختلفة (هي غياب تدخل الحكومة) تميل نحو تحقيق توازن مثالي.<sup>(٥)</sup>

ويعتبر مفهوم «النتاج الوظيفي» *functional yield* للتقابل الصوتي من المفاهيم الأساسية التي اعتمد عليها مارتينييه في تفسير التبدلات الصوتية (وقد استعاره من ماثيسوس). والنتاج الوظيفي لتقابل ما هو ببساطة كمية العمل الذي يؤديه في تغيير عبارات التي تصبح متشابهة بدونه. وهكذا فإن للتقابل بين القويمين / ث / و / د / في ندمه لا بخليرة ساحا وظفنا محضنا للدرجة غير عادية لفضاله عدد الأرواح الصغرى من نوع reathe reath (وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الزوج بالذات يمكن تغييره عادة في نساق من خلال النحوء حتى لو لفظت الكلمتان بالطريقة نفسها). أما الصوتان / ٧ / و / فهما أعلى نتاجا سبب و حود عدد أكبر من الأرواح الصغرى مثل vole 'foal حيث

يمكن أن يشأ ليس حقيقي نتيجة للخلط بينهما . وبما أننا لا نستطيع أن نقلد لفظ بعض الأعص إلا بصورة تقريبية ، ولأننا لا نملك نظيرا لعويا بمائل الشوكة الرنانه التي تستعمل في صسط أو نار الياغو يجعلنا قادرين على المحافظة على شخصية الصوت بالرحوع ، به مع مرور الزمن ، يرى مارتنيه أن ألفاظ القوانين المختلفة تتداخل فيما بينها وتميل نحو الاندماج . وهذا الميل تقابله الحاجة إلى المحافظة على التميز من أجل التواصل . لا أن مدى قوة التوارن تلك تعتمد على النتائج الوظيفية للتقابل المعني ، ولهذا فإن التطورات في الأصوات الوظيفية يجب أن تعرف من خلال إحصاءات النتائج الوظيفية .

إن هذه الصكرة هي بالطبع أشد تعقيدا مما يبدو ، كما أن مارتنيه يدرك تماما أنه يترك أسئلة عديدة دون إجابة . فمثلا ما هو الوزن الذي يجب أن يعطى إلى كون /fna/ vole اسمي حيوان لا مجرد اسمين فقط ، لدى تقويم التقابل بين /v/ و /f/ عما يزيد من احتمال وقوعهما ضمن سياقات متشابهة ؟ وليس من الواضح ما هي العناصر ذات العلاقة في التصاد الصوتي الوظيفي وليس من ميل ملحوظ للاندماج بين /θ/ و /ð/ في اللغة الإنجليزية ، لكننا نستطيع أن نفسر هذا بقولنا إن ما يميز reathe عن renth مثلا هو وجود عامل الجهر أو غيابه (في الحرف الأخير) وإن النتائج من التمييز بين المجهور و المهوس في اللغة ككل هو نتائج ضخم مع أننا نراه في الحالة الخاصة للأصوات الاحتكاكية بين الأسنان منخفضة بمحصى الصدفة . ويورد مارتنيه عددا من الأمثلة المقنعة التي يفسرها مداه تفسيراً جيداً . وهكذا نجد أن الأسلوب المحافظ في اللغة الفرنسية يميز بين زمي metre [mɛtr] «متر» مثلا و maître [me:tr] «معلم» ولكن هناك القليل من الأرواح الصغرى المتميزة بهذه الطريقة ، زد على ذلك أن الرمز ليس مثير في الصوائت الأخرى (إلا إذا استثنينا أن بعض المتكلمين يميزون بين /a/ طويلة وأخرى قصيرة ، إلا أن لهذا التقابل نتائجاً منخفضة أيضاً . وكما هو متوقع فإن المتكلمين الشباب يطمطون كلمات مثل maître و mètre بالطريقة نفسها . وبالمثل فإن للتقابل بين الصوائت الفرنسية الأنفية /ɛ̃/ و /ɛ/ مثلا (كما في brun «سني» و brin «عص» ) نتائجاً أحقر كثيرا من نتائج التقابل بين /ɔ̃/ و /ɔ/ (كما في long «طويل» و lent «بطيء» و don «عطء» و dent «سن» ) وإن ثمة أسلوبا مجددا في الكلام قد تحلى عن التمييز السابق بإحلال /ɛ̃/ محل /ɛ/ .



ولسوء الحظ فإنه بالرغم من حداييه هذه الفرصة وجدواها بالسمة لتسندل انصوني فإنها لا تغطي على ما يبدو بتأييد الاختارات الأخرى. فحسب الأمثلة التي ذكرناها من مارتية نفسه تنوع غير ثابتة. فالصوتان / 5 / و / 5 / في الإيحلييه يتقان متميزين لأن ما يهما هو التقابل بين السمات الصوتية وليس التقابل بين الفونيمات ومن ناحية أخرى (بما أن صممه اللاتيرية التي تمير / 5 / عن / 5 / هي نفسها التي تمير / 5 / عن / 5 /، وهما لا يبديان أية بوادر على الاندماج) فإننا نرى أن مثال الصائت الأني لا يعمل على ما يبدو إلا إذا كنا نمكر صم إطار الفونيمات وليس السمات الصوتية وقد قام كل من كنع (King، ١٩٦٧م) ووانغ (Wang، ١٩٦٧، أ، ١٩٦٩م، ص ١٠، ملاحظة ٣) باختبار الفرصة وذلك بتطوير مقاييس رقمية للنتاج الوظيفي ومقارنة تواريج المعروفة للمعات معينة مع التوقعات التي تتبع من هذه الإحصاءات، وجاءت نتائجهما سلبية بصورة واضحة.

ومن الممكن بالطبع الدفاع عن فرضية التاج الوظيفي بأن نقول إن كنع ووانغ لم يوفقا في صياغة الفكرة. وقد رأينا أن هناك طرقا شتى نستطيع من خلالها قياس النتاج الوظيفي (لكن كل المقاييس التي يمكن أن تطبق عمليا لن تكون في الحقيقة سوى اقتراب أولي على أكثر تقدير من المتغير موضع المافسة). وربما تمحص مقياس أدق عن نتائج أفضل في القضايا التي ناقشها كنع ووانغ. (انظر فابرياج Wenrich وآخرين ١٩٦٨م، ص ١٣٤، وكوتشيرا Kucera، ١٩٧٤م). لكن العبء في إظهار ذلك يقع على عاتق مؤيدي الفرصة على أية حال هناك ظواهر في تاريخ لغات العالم لا تنسجم منطقيا مع فرضية مارتية مهما أجريت عليها من تعديلات فمثل هذه التعديلات لن تكون محدية أمام تلك الظواهر. فتاريخ اللغة الصينية المدرسية مثلا راخر بالتخلي عن المميزات الصوتية، فقد سقطت الأصوات الانفجارية من أواخر الكلمات مثلما سقط التمييز بين الحهر والهمس في الصوامت الواقعة في بداية الكلمات، كما اندمجت المسم في أواخر الكلمات مع التون، وأصبح نظام الصوائت أبسط بكثير وهكذا. ونحن في نصه كذلك أن للمورفيمات ومقاطع الكلمات نهايات مشتركة. أما «المندريسه» احدثه فلا تحتوي إلا على القليل من المقاطع المميزة في النظام الصوتي بحيث أصبح كل مقطع مصدر لس بين ثلاثة أو أربعة مورفيمات من أصول مختلفة والتي هي قد

لا استعمال حالياً. (وتبدي معظم المورفيمات، كما هو متوقع في لغة ثقافة قديمة، مجموعة واسعة من المعاني إلى حد ما). فقضية مثل /faul/ في اللغة الإنجليزية (fowl أو foul حيث يحتوي المورفيم الثاني على لبس بين المعنى الأخلاقي وبين المصطلح الرياضي) قضية غير عادية في المنهجية لا لأنها تسمح بتفسيرات بديلة، بل لأن عدد البدائل صئيل جداً. وقد عوضت اللغة بالطبع فقدان المميزات الصوتية الوظيفية هذا، ولا كانت المنهجية المعاصرة مليئة باللبس لدرجة يتعذر معها استعمالها. والذي حدث هو أن المفردات الصرفية الصوتية استبدلت إلى حد كبير بتركييب هي هي كثير من الحالات غير مألوفة في اللغات الأوروبية، فهي تتألف من كلمتين مترادفتين أو قريبتين من بعضهما في المعنى [قارن funny - peculiar (غريب) مقابل funny ha-ha (مضحك)] رغم أن المقارنة هريئة. أولاً لأن اللبس في funny يرجع إلى تعدد معاني الكلمة نفسها polysemy وليس إلى اشتراك لفظي بين كلمات مختلفة homonymy - أي أن المعنيين لكلمة funny هما تطوران بديلان لما كان في وقت ما كلمة واحدة لا لبس فيها، ولم تتشكلا نتيجة اتحاد كلمتين في اللفظ. ثانياً لأن اللبس يقع في النصف الأول من التعبيرات الإنجليزية. أما هي الصيغة فجد أن كل نصف من التركيب المترادف يقضي على اللبس في النصف الآخر. ولكن ما لم يفسر ما يقصده مارتيسيه على أن اللغة تحفظ بطريقة ما على قابليتها للاستعمال كوسيلة للتواصل فإن المنهجية تفقد قوله بالتأكيد. فقد كان للمميزات التي فقدتها نتاج وظيفي كبير (بما بقي الصوت [n] الذي كان [m] هي الصيغة الوسطى من جهة ثانية متميزاً رغم كونه محيراً ضمن إطار النظام الصوتي الشامل ورغم النتاج الوظيفي المتلني للتعاقب بين هذا الصوت وبين الأصوات المشابهة [l] و [n]). وبعبارة أخرى (ولكي نحصى في شد المقارنة مع لغة الشطرنج إلى أقصى درجة) فإن اللاعب الذي يحرك الأحجار على الرفعة الصيحية لا يبدو أنه أعمى فحسب، بل يبدو عاجزاً حتى عن التمييز باللمس بين البيادق والمدكة أيضاً إن المنهجية تبرر موقف مومير من الفرق بين اللسانيات التعاقبية واللسانيات الشراعية. (١٧)

والعل هذا التأين لنظرية مارتيسيه حول التبدل الصوتي سابق لأوانه حيث يمكن للمرء أن يفكر بوسيلة ما قد تسمح بمحاولة أخيره للدفاع عنها (فمثلاً، ورغم اعتقادي

أن هذا بعيد الاحتمال ، قد يستطيع المرء أن يبين أن إحلال مورفيمات مركبة محل الكلمات أحادية المورفيم في اللغة الصينية حدث قبل فقدان التقابلات الرئيسة في النظام الصوتي وليس نتيجة له ، الأمر الذي يحدد الصبغة من قدر كبير من قوتها كدليل صد نظرية مارتسيه . ولكن حتى لو كان من الضروري مثلا أن تتحلى عن نظرية العلاج في التبدل الصوتي ، فإننا نستطيع أن نقول دفاعا عنها إن مارتسيه قدمها كمرضية تجريبية قديمة للاختبار بشكل صريح جدا (مارتسيه Martnei ، ١٩٥٥ م ص ٣٤) وقد علما سير كارل بوبر Sir Karl Popper أن من أول واجبات العالم التأكد من أن ادعاءاته قديمة للتعنيد صمغيا ، فالمقولات عن الحقائق الملحوظة التي يستطيع أي دليل ممكن أن يقدها رأسا على عقب إنما هي مقولات فارغة . لذلك فإن هزيمة مارتسيه هزيمة مشرفة .

لكن الوضع مختلف بالنسبة إلى نظرية أخرى تطورت من شعارات مدرسة براغ وهي نظرية ياكوبسون Jakobson حول الكليات في النظام الصوتي ورومان أوسيبوفيتش ياكوبسون Roman Osipovich Jakobson (وهو من مواليد عام ١٨٩٦ م) عالم روسي الأصل حصل على شهادته الأولى في اللغات الشرقية من جامعة موسكو . ومنذ أوائل العشرينات بدأ دراسته في براغ ثم درس فيها ، ثم شغل منصب رئيس قسم في جامعة برنو Brno (عاصمة إقليم مورافيا في تشيكوسلوفاكيا) عام ١٩٣٣ م حيث بقي إلى أن اضطره الاحتلال النازي إلى الرحيل . وكان ياكوبسون أحد مؤسسي الحلقة لدغرية في براغ Prague Linguistic Circle ، وقد أمضى معظم سنوات الحرب العالمية الثانية في المعهد الحر للدراسات العليا Ecole Libre des Hautes Etudes الذي تأسس في مدينة نيويورك كموطن للعلماء اللاجئين من أوروبا . وفي عام ١٩٤٩ م انتقل ياكوبسون إلى هارفرد ، ومنذ عام ١٩٥٧ م اقترن اسمه بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT المحور الذي أصبح معقل الثورة الحديثة في اللسانيات . ويمثل ياكوبسون في الحقيقة إحدى حلقات الاتصال الشخصية القليلة بين التقاليد الأمريكية والأوروبية في اللسانيات . وكما ستضح لنا من خلال الفصول القادمة فإن أفكاره كانت وثيقة الصلة بسبعر الحداثي في اتجاه اللسانيات الأمريكية خلال السنوات العشرين الأخيرة .

إن اهتمامات ياكوبسون الفكرية واسعة وهي تعكس اهتمامات مدرسة براغ ككل . فقد كتب كثيرا مثلا عن المنهج السوي في الأدب وعلى أبع حال ، وبالنسبة

لأثره في اللسانيات، فإن أهم إنتاج قدمه ياكوبسون هو نظريته في الصوتيات الوظيفية. وهنا يظهر ياكوبسون كعضو في مدرسة براغ بشكل واضح. فعلى غرار ترويتسكوي، يصرف ياكوبسون إلى الاهتمام بتحليل القوييمات إلى سماتها المكونة بدلا من اهتمامه بنوربعها. إلا أن أفكاره تمثل تطورا خاصا بحيث يحمل إلى طرفها المطلق أفكار اسم تشر إليها أعمال ترويتسكوي وأعمال أعضاء مدرسة براغ الآخرين إلا بشكل مفتصب ومتسر. ويتمثل جوهر منهج ياكوبسون في علم الأصوات الوظيفي في فكرته التي تقول إن هناك نظاما نفسيا بسيطا سببيا ومنتظما وكلها من الأصوات تحت الخصم الموصوي الذي يصمم شتى أنواع الأصوات التي يلاحظها عالم الأصوات.

ولبدأ بتعريف بعض المصطلحات حيث يمكن وصف أصوات الكلام في طار عدد من المقاييس المميزة والمستقلة أو شبه المستقلة، كما سنعدها. وهكذا فإن ارتفاع أقصى نقطة يصل إليها اللسان في التجويف العموي يمثل مقياسا نطقيا واحدا (حيث يمكن للصائت أن يكون قريبا أو مفتوحا) كما أن موقع هذه النقطة على سلم الأمام والخلف مقياس آخر (يمكن للصوائت أن تكون أمامية وخلفية). ويمثل هذان المقياسان خيارين مستقلين عن بعضهما البعض إلى حد ما، ولكن ليس بشكل كامل. فكلما كان الصائت أقرب إلى وضعية المنح. أي كان اللسان مضغوطة في أسهل الفم على شكل كتلة مسطحة، كلما فقد الحديث عن أعلى نقطة معينة مدلوله، مما يؤدي بالتالي إلى تقلص الفرق بين الصوائت الأمامية والخلفية. ويعتبر وضع الطبق اللين *soft palate* مقياسا نطقيا ثالثا وهو مستقل عن المقاييس السابقتين أكثر من استقلالهما عن بعضهما البعض. فمن الممكن لأي صائت (وللكثير من الصوائت) أن يكون «أنفيا» أو «عموي» مع أن الاستقلال ليس مطلقا، فهناك ميل لدى الصوائت الأنفية لكي تكون مفتوحة نسبيا أكثر من كونها قريبة نسبيا وذلك بفضل الآلية التي تتفاعل بها العضلات المشتركة للطبق. ونوسعا أن نطلق مصطلح «الفهم» على الخيارات البديلة التي يقدمها أي مقياس فنجد أن [e] يختلف عن [ɛ] في أن لها قيمة مختلفة لمقياس الفتحة، كما أن [e] تختلف عن [ē] في أن لها قيمة مختلفة لمقياس «الأنفية» (أي وضع الطبق اللين) وسنعمل مختلف المؤلفين كلمة «سمة» *feature* بشيء من اللبس فهي تعني «مقياسا» أو «صفة مقياس» حتى أن بلومفيلد (Bloomfield، ١٩٣٣ م ص ٧٩) استعملها بمعنى ثالث عند

عرف الفونيم على أنه «الوحدة الصغرى من السمة الصوتية المميزة» وهذا يعني أن كلمة «سمة» عدده كانت مجموعة من قيم المقاييس المتوافقة). وسوف نتصح المناقشة أكثر إذا نجينا استعمال كلمة «سمة» في الأجزاء التالية.

ومن حملة الدروس في علم الصوتيات الطقي articulatory phonetics أن تركيب الجهاز الصوتي البشري يسمح لنا مجالا واسعا من المقاييس الصوتية ربما يفوق ما نستعمله أية لغة بشكل مميز. ففي الإنجليزية مثلا، لا تؤدي آليات جريان الهواء البديلة المختلفة أي دور على الإطلاق في النظام الصوتي، فكل أصواتنا تصدر أثناء خروج الهواء من الرئتين بواسطة العضلات التنفسية. كما أننا لا نستغل المجال الواسع لعمل الحبال الصوتية الممكنة إلا بصورة حرة للتمييز بين المجهور والمهموس، ولا استعمال طبقة الصوت في السبر والتنعيم حيث تعتبر الحالة الثانية قصبة هامشية في النظام الصوتي للغة الإنجليزية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المقاييس تختلف اختلافا شاسعا في عدد القيم البديلة التي تأخذها. «فالأنفية» قيمة ذات خيار مزدوج بسيط، إما أن يكون الطبق اللين مرتفعا أو منخفضا، وبذلك يكون الصوت إما همويا أو أنفيا. أما مقياس «القرب» و «الفتح» و «الأمم» و «الخلف» لوضع اللسان فتمثل مجالات مستمرة من قيم. وتقع «أعلى نقطة» يمكن أن يصلها اللسان بين أعلى وأخفض نقطة من المواقع لأمامية وبين أقرب وأبعد نقطة من المواقع الخلفية الممكنة من الناحية التشريحية. ويقسم نظام الصوائت المعيارية هذا الاستمرار تقسيما متقطعا بحيث نحدد أربع درجات من الفتح تبعد عن بعضها أبعادا متساوية، لكن هذا مجرد مصطلح واحد من أجل تسهيل عملية الوصف. فمقياس «نصف قريب» المعياري لا يحمل شيئا خاصا من الناحية لصوتية إذا ما قورن بالقيم غير المعيارية للجاورة أكثر من كون خط العرض ٥٤ شمالا يمثل شيئا خاصا في الجغرافيا إذا ما قورن بالمنطقة للجاورة شماله وجنوبه. ولعل عالم الصوتيات يميل نحو القول إن المقاييس التي تبدو متقطعة في الظاهر هي منصلة في الواقع وليس العكس. فمن الناحية الفسيولوجية يمكن خفض الطق اللين إلى مستويات منخفضة بدلا من أن يكون مرتفعا أو منخفضا، ومع أن الفوارق التي يدركها من الأصوات الناشئة عن انخفاض الطق اللين بدرجات متفاوتة هي فوارق صئيلة جدا إلا أن هناك لغة واحدة على الأقل يقال إنها تميز بين ثلاثة قيم لمقياس «الأنفية» (لادموعد Ladefoged، ١٩٧١م، ص ص ٣٤-٣٥).

ويؤكد الوصفيون أن اللغات تختلف اختلافا لا يمكن التكهن به في المقاييس الصوتية الخاصة التي تستعملها بشكل غير ، وكذلك في عدد القيم التي تميزها نطق اللغات في المقاييس المتصلة فيزيائيا . فكثير من اللغات تستغل التقابلات بين ليات حرياك الهواء وبين عمل الحبال الصوتية والتي تحملها اللغة الإنجليزية ، سيما لا تستفيد تلك السمات من التقابلات المهمة في الإنجليزية . فالتمييز بين المحهور والمهموس على سبيل المثال ، والذي يعتبر حيويًا في النظام الصوتي الإنجليزي وأكثر حيوية في بعض اللغات الأوروبية الأخرى ، لا يعتبر مجرّاف في اللغة الصينية حيث تعتمد تلك اللغة اعتمادا كبيرا على طبقة الصوت في التمييز بين الكلمات على نحو غير مألوف في كل اللغات الأوروبية بما في ذلك اللغات القلائل التي تسمى أحيانا باللغات «العمية» (tonal) . وتتميز اللغة الإنجليزية بين ثلاث درجات من فتحات الصوائت البسيطة (غير المركبة) تتمثل في pit/pet/pat . أما الفرنسية فتتميز أربع قيم لفتحات الصوائت لا يماثل أي منها القيم الإنجليزية ، كما في pit (اضحك) / ré (رى الموسيقى) / rare (مفرق الشعر) / rat (جرذ) . ويقال إن في اللغة التسوانية Tswana ست قيم (كول Cole ، ١٩٥٥ م) . ويمكن أن يوصف المنهج الوصفي في علم الأصوات الوظيفي مجازيا بأنه «ديمقراطي» بمعنى أن الوصفيين كانوا يعتبرون جميع المقاييس الصوتية وكل الأصوات متساوية صميم في إمكانية استخدامها في اللغة . وأمدى الوصفيون ترددهم في الاعتراف بأن أي صوت قد يوجد في لغة ما يمكن أن يعتبر صوتا «صعبا» نسبيا بالمعنى المطلق فإذا كان الإنجليزي يعتقد أن للصوت [a] في كلمة rat الفرنسية صائتا مباشرا أكثر من [y] في كلمة rue مثلا ، فإن هذا مرده إلى وجود صوائت مشابهة (مع أنها غير مطابقة) في اللغة الإنجليزية للصائت [a] لكنها تفتقر للصوائت الأمامية الدائرية مثل [y] .

ويعد ياكوبسون ، من ناحية أخرى من علماء الأصوات المحافظين ، فهو يعتقد أن هناك مجموعة صغيرة فقط من المقاييس الصوتية مؤهلة ذاتيا لكي تؤدي دورا لعموم عميرا . وبالرغم من المظاهر السطحية يرى أن كلاً من هذه المقاييس يتنسب إلى النوع الثالث ثنائي القيمة . كما أن لظام المقاييس ترتيبا هرميا في الأسبقية <sup>(٧)</sup> وبالإضافة إلى ذلك فإن تفاصيل النظام الثابت لا تتحدد باعتبارات سطحية مثل تركيب القناة الصوتية أو الحاجة إلى مميزات سهلة الإدراك ، بل تتحدد بمبادئ «أعمق» بكثير تتعلق

بالخصائص الداخلية للعقل البشري . والفوارق بين نظم الأصوات في اللغات عدد  
ياكوسون ليس سوى فوارق سطحية لموضوع نخني ثابت . ومن هذا المطلق بها حم  
ياكوسون نسبية سوسير وواس في النظام الصوتي مثلما رأينا مرلين وكاي بها جمنها  
في علم الدلالة .

لقد طرحت الأفكار التي أشرت إليها أنقا طرحا كلاسيكيا في كتاب ياكوسون  
وفايت Fant وهاليه Halle (مبادئ تحليل الكلام) Preliminaries to Speech Analysis .  
(١٩٥٢م) ويورد هذا الكتاب القصير مجموعة من اثني عشر زوجا من المصطلحات  
تطلق على القيم الديلة لما يسمى بالسماوات المميزة الاثني عشرة الموجودة في جميع  
الكلام الإنساني . لاحظوا أن كلمة «مميزة» تستعمل هنا بمعنى مختلف تماما عن المعنى  
الذي قصده بلومفيلد . فالنسبة إلى بلومفيلد كان الحهر مميرا في الإنجليزية وغير مميز  
في الهندينية . لكن السؤال ما إذا كان الحهر سمة مميزة في اللغة بصورة عامة قد يكون  
بلا معنى على الإطلاق نظرا لأن أي مقياس صوتي يمكن أن يستعمل ، وربما استعمل  
فعلا ، بشكل مميز في بضع لغات على الأقل . أما بالنسبة إلى ياكوسون ومريديه فإن  
كلمة «مميز» تعني إمكانية استعمال السمة بشكل مميز في «إحدى اللغات الإنسانية» وبهذا  
المعنى ليس هناك سوى اثني عشرة سمة مميزة ، وبما أن عددها قليل فإن التوقعات تشير  
إلى أن جميع اللغات تقريبا تستفيد من جميع السماوات الاثني عشرة تقريبا (رغم أنه  
من الممكن أن تتجاهل بعض اللغات سمة أو اثنتين منها) .

وبالطبع لو أن السماوات المميزة الياكوسونية عودلت مباشرة بمقاييس النطق العادية  
لا نصح لنا بطلان نظرية ياكوسون نظرا لأن لغات العالم تستعمل أكثر من اثني عشر  
مقياسا نطقيا . لكن المقصود ليس شيئا بهذه البساطة ، فهناك جزء مهم من النظرية ينص  
على أن بعض مقاييس النطق المتميزة تماما فيزيائيا هي متكافئة نفسيا كما نوسعها أن  
نقول .<sup>(٨)</sup> فعلى سبيل المثال ، يمكن للسمة الياكوسونية «منخفض» low أن تحل محل كل  
من قسم مقاييس النطق التالية (وكما هي الحال في الموسيقى فإن استعمال المصطلحات  
الاطباعية بدلا من المصطلحات الصوتية الفنية شيء متعمد) : التدوير rounding (كما  
في الصوتيات الدائرية أو الصوامت المشفهة) ، والتحلوق pharyngealization (أي النطق  
الشاوي للصوامت الذي ينطوي على إرجاع جسم اللسان إلى موضع (a) ، والنطق

لارتدادى retroflex (أي أن الناء الارتدادية [ʈ]) منخفضه والناء [ɳ] عادية أو غير منخفضة). وبهذه الطريقة يتقلص مجال مقاييس الطى الواسع إلى مجموعة صغيرة من «لسمات المميزة». وهذا التقلص يطرح ادعاءات قابلة للاختبار عما هو ممكن وغير ممكن في اللغات الإنسانية. وهكذا فإن تعريف «منخفض» يتضمن أن بعض اللغات مثل «توي Twi» تميز بين الصوامت الانفجارية العادية والمشبهة، بينما ترى لغات أخرى (كعربية مثلاً) تميز بين الصوامت الانفجارية العادية والخلقية، كما تميز لغات أخرى (مثل العديد من اللغات في الهند) بين الصوامت الارتدادية والصوامت الانفجارية اللثوية أو الأسانية، بيد أننا لا نجد لغة تميز مثلاً بين الناء المشبهة [ʈ] والناء الارتدادية [ʈ] مع أن الصامتين يحرران بطريقتين مختلفتين تماماً ويستطيع المرء أن يتدرب على سماع الفرق لأن الفرق الفيزيائي بين الصوتين لا وجود له نفسياً (المباديء، ص ٣١).<sup>(٩)</sup>

وقد ظهرت فكرة أن السمات المميزة الكلية منتظمة في ترتيب هرمي كمن ذي أولوية نسبية في كتاب شره ياكوبسون خلال الفترة الواقعة بين معادرتة تشيكوسلوفاكيا ووصوله إلى أمريكا (ياكوبسون Jakobson، ١٩٤١ م). فباديء ذي بدء، يشير ياكوبسون إلى أن دراسة اكتساب الطفل للغة تبين أن المميزات المختلفة لا يمكن أن تكتسب بأية حال من الأحوال في نظام عشوائي. وهكذا نجد أن التمييز بين الصوامت الانفجارية واللثوية يظهر قبل التمييز بين اللثويات واللثويات. فجميع الأطفال يمرون بمرحلة يلعبون فيها «cat» على نحو شبيه بـ «bat». ويتعلم الطفل الأصوات الانفجارية قبل الاحتكاكية، أما الصوائت الخلفية الدائرية [u, o] فتتميز عن الصوائت الأمامية المسطحة [i, e] قبل أن تميز الصوائت الأمامية الدائرية (كما في [ɪ, y]) عن أي منهما وهكذا ترى في الألمانية، وهي لغة تضم الأنواع الثلاثة، أن [ɪ, y] هي آخر الأصوات التي تظهر في كلام الطفل. كما أن التقابل بين [ɪ] و [i] هو من التقابلات الأخيرة التي يتعلمها الطفل في الصوامت، وهكذا دواليك.

ويتقل ياكوبسون بعد ذلك ليقول إن هذا الترتيب الهرمي للسمات في النظام الصوتي والذي يقوم على أساس المعلومات حول اكتساب الأطفال للغة يظهر أيضاً في الدراسات المقارنة للغات الكبار وفي أعراض الخسة (فقدان القدرة على الكلام aphasia) حيث ترى أن التميزات الأخيرة التي اكتسبها الطفل هي تلك الممودة من



لغات بعض الكبار . فثمة لغات كثيرة لا تحتوي على صوائت دائرية [a, y] (كما في الإنجليزية) أو أنها تحتوي على صوت مائع واحد liquid صط بدلا من التمييز بين الراء و اللام (كما في اليابانية) ولكن لس ثمة لغة واحدة تحقق في التمييز بين [p] و [b] (دستناء حالات قليلة خاصة عند بعض القبائل التي تشوه الشفاء لأسماء تجميلية بحيث يصح أفرادها عاجزين «فسيولوجيا» عن لفظ الأصوات الشفوية). وبالإضافة إلى ذلك فإن الأصوات «المتأخرة» غير مألوفة نسبيا حتى في تلك اللغات التي تحتويها . فاستعمال الصوائت الأمامية الدائرية على سبيل المثال أقل في الفرنسية أو الألمانية من نوعي الصوائت الآخرين . لذلك هناك عذر قوي لدى الإنجليزي عندما يعتبر أن الصائت [a] في الفرنسية مباشر أكثر من [y] . فليس لكلا الصوتين وجود في لغته ، إلا أن الأول أساسي في الترتيب الهرمي الكلي أكثر من الثاني . (ويستعمل باكوسون مصطلحا من ترويتسكوي عندما يصف [y] بأنه موسوم نسبيا - ولا يقصد بهذا أن التقابل بين [y] و [a] هو «لنفي» مفهوم ترويتسكوي - بل على العكس ، فإن للصائت [a] نوعا من الأولوية الكمية النسبية فوق [y] ) فالذين يفقدون القدرة على الكلام ويصممحل نطقهم تدريجيا ، يفقدون قبل كل شيء آخر التميزات التي يكتسبها الطفل . والعكس بالعكس . وإذا استعاد هؤلاء فيما بعد قدرتهم على النطق كان ترتيب إعادة اكتساب النطق عكس ترتيب الفقدان ، وهو مماثل الترتيب الذي يكتسب به الأطفال هذه المميزات في الأصل .

ويستعمل باكوسون ملاحظات من النوع الأخير كرهاة ضد أولئك الذين قد يعتقدون بوجود تفسيرات فيسيولوجية سطحية سببها لكلياته . وهكذا يرى أن أهم تقبل في نظامه يقع بين الصوائت الشفوية [m, b] وبين الصوائت المفتوحة مثل [a] . وعالبا ما يقال إن السبب في كون الشفويات من الصوائت المكرة سببا هو أنها تصدر عن عمل مشابه للعمل الانعكاسي الماخص الذي يجعل الأطفال الرضع قادرين على امتصاص اللبن من الثدي الأم . لكن أشد الفرويديين تطرفا لن يدعي أن هذا السبب يفسر صدور الصوائت الشفوية أمام عوامل الزوال المشتملة في التبدلات الصوتية المتعاقبة والتي نحاول إحصاءها من لغات الكبار (Jakobson، ١٩٤١م ، ص ٦٧) أو أنه يفسر ، كما قد يضيف باكوسون ، السبب في كون الشفويات آخر الصوائت التي يحتمي في حالات فقدان القدرة على النطق .<sup>(١٠)</sup>

ولكي يشت ياكوبسون اعتقاده بأن الكليات الصوتية الوظيفية التي بدفها تتحدد بمادىء صوتية نفسه «عميقة» بدلا من حقائق غير جديرة بالاهتمام نسبيا حول تركيب الجهاز الصوتي أو ما شابه ذلك ، نراه يخصص جزءا كبيرا المناقشة الحقائق المترامية بمعنى أن الحالات التي ترتبط فيها صور الإدراك في غط حسي واحد (وهي في هذه الحال أصوات الكلام) مع صور الإدراك من غط آخر (ولا يستعرض ياكوبسون سوى ترتبط الأصوات مع الألوان فقط) . وإذا استطاع أن يبين لمن يقيمون هذا الترابط أن بعض السمات المميزة كما يحللها ترتبط باستمرار ببعض الخصائص المطلوبة ، كان لديه عندئذ دليل قوي على جدوى نظامه القائم على السمات المميزة ، وعلى الادعاء أن الحقيقة التي يقابلها العظام هي شيء مكانه العقل وليس التركيب العضلي للهم . ويستبعد ياكوبسون بشيء من الازدراء مثل تلك التفسيرات البديلة لعمليات الترابط السمعية كلتي قدمها عالم النفس الألماني لانغنبك K. Langenbeck وبصفها بأنها هريئة ويشير لانغنبك إلى أنه رأى أن الصائت /a/ أحمر اللون لأن أول لعبة أهديت إليه كانت عبارة عن شاحنة حمراء تسمى بلغته «Wagon» . فلو كان هذا هو السبب لاستحان تفسير صفة الكلية لهذه التفاعلات بين الصوت واللون (ياكوبسون Jakobson ، ١٩٤١ م ، ص ٨٣) .

وتكمن الصعوبة في هذا المصير من عمل ياكوبسون في أن برهانه يتبع الأسلوب القصصي إلى حد كبير ، فهو يسي كليات الترابط النفسي على حملة صئيلة من انتقاريير عن الأفراد والحكاية دوما قابلة للتشديد بحكاية أخرى معاكسة . وهكذا فإن من بين الادعاءات المهمة عند ياكوبسون أن الموضوعات المترامنة تميل نحو إدراك الصوائت أنها رمادية [انظر ياكوبسون Jakobson ، ١٩٤٠ م ، (الفصل الثالث) ، (المادىء Preliminaries) ، ص ٣٢] وعلى أية حال فإن الكاتب الحالي كان منذ طمولته يتصور أن للحروف الأبجدية ألوانا ثابتة معينة ، والمدأ الصوتي الوحيد تقريبا الذي يمكنني اكتشافه في الترابط السمعي لدي هو أن هناك ثلاثة حروف صائتة (F, I, O) لالون لها ، يسما كاتب كل الحروف الصائتة الواحد والعشرين ملونة باستثناء إثنين منها فقط (والمستثنان هما الحرفان الأنبيان (الميم M و النون N) . وإزاء طبيعة برهان ياكوبسون في وضعه هذا يرى أن هذه الملاحظة المنفردة نذهب بعيدا في دحض ادعاءاته بشأن كليات الترابط السمعي الصوتي sound synaesthesia

إن صيغة السرد التي تميز نقاش ياكوبسون لا تنطبق على آرائه عن الترابط النفسي وحسب، بل تنطبق بصورة أشمل على السمات المميزة. ولقد كانت هناك بالتأكيد تدلات صوتية في بعض اللغات أدت إلى روال الصوامت الشفوية، كما أن ما يقوله ياكوبسون عن الحبسة (فقدان الكلام) يعتمد على ما يبدو على حالات قليلة جداً أيضاً. ويتألف كتاب «مبادئ تحليل الكلام» بصورة أساسية من سلسلة من القرارات السلطوية حول طبيعة سمات «ياكوبسون» الـثلاث عشرة، التي ربما كانت هذه السمات صائبة أو خاطئة مع أنها تستمد دعمها فقط من الرجوع إلى ظواهر معينة مستقاة من عدد كبير من اللغات، كل منها موصوف في معزل عن اللغات الأخرى وعلى مستوى ضحل تماماً بالضرورة. ولست أرى في الواقع أي سبب مهما كان لقبول أية مجموعة من السمات الصوتية الشائبة الكلية فما بالك بالمجموعة الخاصة التي يباي بها ياكوبسون (انظر سامسون Sampson، ١٩٧٤). وبامتناء ملاحظة روتينية في مقدمة كتاب «المبادئ» فإن كتابات ياكوبسون، سواء بلهجتها أو محتوياتها، لا تشجع القاري على النظر إلى ما فيها من آراء على أنها معنوعة للنقاش والاختصار. وتؤدي هذه الخاصية في عمل ياكوبسون إلى إخفاقه الفطيع عندما تطرح أمثلة معاكسة وفيما يلي نص من مارتينييه (في باريه Parrot، ١٩٧٤، ص ٢٤٠):

خذ مثلاً الفاتون الرمزي الشامل panebronic الذي يقدمه ياكوبسون والذي لا تستطيع اللغات نماله أن تجمع بين مكان البير المميز (أي الثير الثغابي) وبين طول الصوت الوظيفي . . . ومع ذلك فإن هاتين السمتين نجتمعان صدفة في بعض اللهجات الفرانكو بروفينسالية Franco-provençal كما هي beré مقابل bère و M. la مقابل bola. وهكذا يتلاشى قانونك الرمزي الشامل . . .

وللمزيد من الأمثلة المعاكسة لادعاءات ياكوبسون انظر ماكولسي (McCawley، ١٩٦٧م). وإراء اعتبارات كهذه، يصعب علينا أن ننظر إلى منهج ياكوبسون في عدم لأصوات الوظيفي على أنه نظرية تجريبية أصلية. ولولا تأثيره على من هم أدنى منه مرتبة في أمريكا (وسعود إلى هذا الموضوع في الفصول اللاحقة) لما خصصت له هذا العدد من الصفحات في هذا الكتاب

ودعونا ننتهي هذا الفصل باستعراض عصر آخر من فكر براغ والذي أدى إلى واحد من أهم التطورات وأكثرها عطاء في اللسانيات خلال العهد الأخير على وجه الترميز.

إن من خصائص منهج براغ في دراسة اللغة الاستعداد للاعتراف بأن لغة معينة قد تحتوي على عدد من «النظم» أو «اللهجات الخاصة» أو «الأساليب» المدينة، يسمى كان الوصفيون الأمريكيون يصرون على معاملة اللغة على أنها نظام أحادي unitary ولأخذ معالجة الكلمات الأجنبية الدخيلة غير المطبوعة كمثال بدائي جداً. فهناك عدد كبير من الإنجليز يلمطون كلمة restaurant (مطعم) بصائت [ʒ] له صفة أنفية موروثه من الفرنسية (حتى لو اختلف جرس الصوت الصائت في وحوه أخرى عن الأصل الفرنسي). فالأصوات الأنفية غير مألوفة في الإنجليزية، إلا أن هذه الكلمة يلمطها الإنجليز وهكذا يجد الوصفيون صعوبة في ترديد حذف /ʒ/ من التحليل الصوتي الوظيفي في اللغة الإنجليزية. ومع ذلك، إذا قبلنا /ʒ/ فأين سنقف بعد ذلك؟ وكثيراً ما أتني على ذكر المفهوم الكومفشيوسي عن chin-iz أو «الإنسان الأمير» مستعملاً اللفظ المتدري بما أنني لا أعرف أي مقابل قياسي في اللغة الإنجليزية لهذا المصطلح، فكر الأصوات تقريبا في chin-iz ليست إنجليزية تماماً، فهل يعني استعمالها أنها من الواجب إدخالها ضمن قائمة الفوييمات الإنجليزية؟ وثمة مشكلة أخرى ذات صلة بالموضوع وهي التي تظهر عندما نقرأ أصوات الكلام السريع بالأصوات التي نسمع عند نطق اللغة نفسها بانثناء وحرص. فكثير من الإنجليز على سبيل المثال يلمطون رء منفورة [r] في الكلام السريع جداً - وهذا لا يحدث في الكلام البطيء - تمثل كلا الفوييم /r/ و /d/ عندما يقعان بين صائتين. فهناك لس في اللفظ p'æri بين patty و paddy. ويواجه الوصفيون الاختيار بين معاملة [r] كما لو كانت الفوياً لأحد الفوييم /r/ و /d/ أو إعطائها منزلة فونيم جديد. لكن جميع هذا الخيارات الثلاث تتجاهل نقطة مهمة وهي أن [r] صفة تميز أسلوباً خاصاً في الكلام. أما اللسانيو مدرسة براغ فهم على استعداد، بل ومنحمنون أيضاً للقول أن في الإنجليزية نظاماً من الفوييمات الأصلية لا يحتوي على /ʒ/ مع أن من الممكن أن يقع هذا الصوت في الحصيصة الخاصة من الكلمات الدخيلة وإذا كانت الأصوات الوظيفية للإنجليزية السريعة تختلف في

عدة نواح عن الإنجليزية البطيئة، فإن من الواجب عندئذ أن نميز بين القواعد في كلا الحالتين لا أن ندمجها ببعضها البعض. ولعل السبب في إحصاء الوصفين عن طرح مثل هذه المقولات هو أنهم غالباً ما يقابلون بعدم التقدير من الساحية المبهجة. وإذا سمعنا بأن من الملائم استبعاد 3/ من قائمة القوانين الإنجليزية فإن هذا يعود بالدرجة الأولى إلى شعورنا أن هذا الصوت أجنبي بالرغم من أننا قد نستعمله بانتظام، وليس من الواضح ما هي الحقائق الملحوظة التي يمكن أن ترتبط بها مثل هذه الأحاسيس. ولقد رأينا أن قصايا المبهجة العلمية لم تكن موضع اهتمام اللسانيين في مدرسة براغ وأمام المنهج الوظيفي الذي اتبعه علماء مدرسة براغ، كان من الطبيعي أن يولي هؤلاء قدراً كبيراً من الأهمية للطريقة التي تزود اللغة بها المتكلم بعدد من أساليب الكلام تلائم الأوضاع الاجتماعية المختلفة. (وكما ذكرنا آنفاً، فإن هذا التمييز في الاستعمال حسب درجة الرسمية أو البيئة الاجتماعية واضح بشكل خاص في اللغة التشيكية). ولقد طور الأمريكي ويليام لايوف (William Labov) هذا الجانب من أعمالهم في الآونة الأخيرة إلى نظرية عية ودقيقة، وكان لايوف يعمل سابقاً في جامعة كولومبيا قبل أن ينتقل إلى جامعة بنسلفانيا في بداية السبعينات.

وتعتمد أعمال لايوف (انظر مثلاً لايوف Labov، ١٩٦٦م) على مقبولات مسجلة مع غاذج كثيرة من المتكلمين يمثلون قطاعات شتى في أحد المجتمعات الكلامية speech community وكانت المقالات مصممة لاستخلاص أمثلة لشكل لغوي ما (أي متغير) معروف عنه أنه يتحقق بطرق مختلفة في ذلك المجتمع (وعلى النقيض من أعضاء مدرسة براغ الأصلية، يولي لايوف اهتماماً كبيراً بالقصايا المبهجة كما أنه من أبرز مؤيدي المنهج العلمي في اللسانيات الأمريكية المعاصرة سواء في الكتابات النظرية أو في النواحي العملية). ومن المتغيرات الأنغونجية وجود الراء [r] بعد الصوائت أو غيابها في مدينة نيويورك كما في بعض المدن الإنجليزية. فمن الممكن سماع كلمة farm [fɑ:m] أو [fɑ:m] أو ما شابه ذلك (مع أن المصاميين الاجتماعية لهدين اللفظين محسنة جداً في مدينة نيويورك عنها في أي مكان آخر في إنجلترا) وفي مثل هذه الحالات يعترف البلومفيلديون بأن مختلف المتحدثين الأفراد يتكلمون لهجات فردية مختلفة idiotecks ويعترفون باحتمال وجود لهجة فردية تكون فيها [fɑ:m fɑ:m] بدائل

حرّة، وباحتمال وجود لهجات فردية نستعمل باستمرار أحد اللفظين دون الآخر ولكن، وبعض النظر عن أن الفرق بين اللفظ الذي يحتوي على الراء وذلك الذي يحدوها في كلمة مثل *farm* هو تدرج صوتي وليس تغييراً ثنائياً حاداً (وهذه قضية معقدة سنبينها هنا) فإن كل شخص تقريباً يستعمل عملياً ألفاظاً فيها راء وأخرى ليس فيها راء في الوقت نفسه. والمصطلح «بدائل حرّة» مصطلح مضلل تماماً لأن هناك انتظاماً كبيراً في نسب الألفاظ التي فيها راء وتلك التي ليس فيها راء في الظروف المختلفة (رغم أن المتكلمين أنفسهم ليسوا على وعي بالتمطّل) لكن الانتظام مفهوم إحصائي وليس شيئاً مجرداً. فعمر المتكلم ومكانته الاجتماعية ومدى الطيعة الرسمية للمقابلة بالإضافة إلى عناصر أخرى تتصافر كلها بشكل منظم ومتوقع لتقرر نسبة احتمال استعمال الراء بعد الصوائت التي تلفظ فعلاً في أي تعبير معين. (انظر تراجيل Tredgill، ١٩٧٤م من أجل تطبيق أساليب لابوف على نص إنجليزي).

ومن الموضوعات المتصلة بما سوفش في هذا الكتاب وجود عوامل أخرى مثل درجة الرسمية في مقام الكلام (التي يتحكم فيها لابوف بطرق موضوعية نسبياً) تختلف عند المتكلم نفسه من مناسبة إلى أخرى بينما تبقى بعض العوامل المقررة مثل المستوى الثقافي للمتكلم ثابتة بالنسبة لشخص معين خلال حياته. وحتى في حال العوامل الثابتة للمتكلم الفرد فإن بالإمكان إظهار حساسية المستمعين المفرطة للتقابل بين المتغيرات اللغوية والاجتماعية (مع أنهم لا يستطيعون عن وعي تحديد المتغيرات اللغوية ذات العلاقة بالموضوع). ويعني ذلك، ولنضرب مثلاً قضية افتراضية تمثال من حيث أبداً بعض التجارب التي أجراها لابوف ومعاونوه، أنه إذا أجرى شاب أبيض تحميلاً نعمل فيه أن يدخل نسبة من الراء الواقعة بعد الصوائت بشكل يلائم أحد المحاور السود غير المثقفين من سكان مدينة نيويورك، فإن أي نيويوركي آخر يسمع الشريط المسجل سوف يقوم كما يقوم عادة كلام العجائز السود غير المثقفين دون أن يعرف أن رد فعله ناتج عن استعمال الراء /r/. ويشير هذا إلى خطأ الاعتماد بأن الفرد يتقن لهجه واحدة ولا يفهم كلام الآخرين إلا إذا كان كلامهم يشبه كلامه هو. لكن كل متكلم على ما يبدو يتعلم مجالاً ثنائياً من نظم الكلام البديلة بالإضافة إلى الترابط بين تعبير سنته الاجتماعية وتغير اتصال اللهجة ذلك. وليس ثمة ما يبعث على الدهشة في كون

المتكلمين على دراية بأنواع مختلفة من أساليب الكلام. لكن الكثيرين منا انخضوا بالطبع أن مثل هذه المعرفة معثرة وتقتصر إلى الدقة، شأنها في ذلك شأن معتقدات المتكلمين الواعية حول هذه الحقائق بكل تأكيد. والمذهل في عمل لانوف هو مدى مداه والاستمرارية والانتظام الرياضي في استعمال المتكلم للمتعبيرات اللغوية لإحصائية وردود فعل السامع عليها.

وبالإضافة إلى ذلك فإننا عندما نختبر عامل السن يتضح لنا أن التعبيرات التاريخية تناسب طرذا مع التعبيرات الاجتماعية (انظر فاينرايخ وآخرين Weinreich، ١٩٦٨ م) مما يراه السامع اختلافًا بين أساليب الكلام في طبقات اجتماعية عالية نوعًا ما يقاس غالبًا تاريخيًا الفرق بين استعمال جديد وآخر قديم نظرًا لأن المتكلمين في كل جيل يعدون كلامهم بصورة لا شعورية تعديلاً طفيفاً لكي يرتفعوا إلى المكانة الاجتماعية العالية. وهكذا نجد في مدينة نيويورك أن الأشكال التي فيها راء /r/ تستعملها الطبقة الوسطى أكثر من متكلمي الطبقة العاملة وتستعمل في المقامات الرسمية أكثر من غير الرسمية، ويستعملها الشباب أكثر من كبار السن.

وثمة ملاحظة هنا، فسوسير يؤكد على الطبيعة الاجتماعية للغة مثلما يؤكد أن من واجب اللسانيات كعلم اجتماعي أن تتجاهل المعلومات التاريخية لأن تاريخ اللغة بالنسبة للمتكلم لا وجود له. كما لم يكن بالإمكان إنكار هذه النقطة إن مدرسة براغ، ولانوف الآن، من اللسانيين الذين أخذوا الحاسب الاجتماعي للغة مأخذ الحدا، وانتهوا بتدمير الحاجز الذي أقامه سوسير بين الدراسة التزامنية والدراسة التعاقبية. وتبين بالنسبة للفرد أن جزءاً صغيراً من تاريخ اللغة حقيقي من الوجهة النفسية، ولكنه لا يدركه كدرج، بل كطنفية اجتماعية. إن التكلم بلغة ما كلفة أصلية يعني تعلم جهة الحركة وليس مجرد حالة اللغة الآتية، ورعنا بفسر هذا ما عبر عنه سايبير بالتباعد اللغوي طويل الأمد (انظر Saper، ١٩٢١ م، ص ١٠٦). ويسدو أن من المحتمل أن يصحح البرعة التي يفودها لانوف من الطرق المثمرة في البحث اللغوي. ولو كان الأمر كذلك لوجب علينا أن نتوقع تزايد الشبه بين أساليب الوصف اللغوي التعاقبي والرامني في المستقبل





## الفصل السادس

### نوم تشومسكي والنحو التوليدي

يقبس أي لساني اليوم مكانته الفكرية إلى مكانة تشومسكي ، الذي يقال إنه أحدث ثورة في اللسانيات ، وما أشد ملاءمة هذه الاستعارة السياسية . وكما كانت الكتب التي تنشر في الاتحاد السوفيتي في أكثر الموضوعات العلمية تجريداً تُستهل عادة بتقديم واجبات الولاء والطاعة لمقريه ستالين الملهمة ، كذلك يشعر علماء اليوم حتى الذين يبحثون في بعض الموضوعات اللغوية التي ليس لها صلة كبيرة بعمل تشومسكي أنهم ملزمون بالادعاء علانية أن أعمالهم تتماشى مع منهجه في التفكير اللساني . أما الذين لا يعترفون بمثل هذا الالتزام فإنهم يعتبرون (ويعتبرون أنفسهم) مراهضين لتشومسكية ، بقدر تمسكهم بأرائهم الخاصة ولم تكن المعتضدات اللغوية وحدها التي تغيرت ، بل إن مناح اللسانيات بأكمله قد تغير من جراء الانتصار الذي حققته الحركة التي بدأها تشومسكي لذلك مسداً الآن باستعراض طبيعة هذه الثورة .

ولد أفرام نوم تشومسكي في فيلادلفيا عام ١٩٢٨ م في عائلة يهودية روسية الأصل كان والده من كبار علماء اللغة العبرية ، ويحبرنا تشومسكي أن خبرته خلال طفولته في تصحيح أصول أحد كتب والده عن العبرية كانت من المؤثرات التي أوحى به بأن اللسانيات قد تلاثم ميوله الفكرية . وعندما أصبح تشومسكي طالبا في جامعة بنسلفانيا تحول إلى دراسة اللسانيات من خلال تطابق آرائه السياسية الراديكالية ، مع آر. زيليج هاريس Zellig Harris الذي كان أستاذا هلك ، كما درس الرياضيات والفلسفة وفي بدايه الخمسينيات حصل على منحة لمتابعة أبحاثه في الفلسفة في جامعة هارفرد حيث كان يعمل رومان ياكوبسون Roman Jakobson وفي عام ١٩٥٥ م أسند إليه وظيفة مدرس في "معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT" المجاور ، حيث بقي منذ ذلك الحين .

وبعد وصول تشومسكي إلى النصح العلمي في ظل تأثير ياكوبسون أحد المدخلين، الذي تساعد على فهم فكره. ولعل القاريء يذكر أن ياكوبسون كان مهتما بصورة أساسية بعصية الكلبيات الصوتية الوظيفية، إذ يعتقد أن الفوارق في البنى الصوتية بين لغات العالم ليسب إلا مجرد فوارق سطحية تخفي تحتها نظاما مشتركا (وكان هذا الاعتقاد مفصلا للنسبية المقيدة في المدرسة الوصفية، كما كان مناقضا لما يستتجه المراقب الحيادي من الدليل الظاهري). وعلى الرغم من أن ياكوبسون كتب أساسا عن الكلبيات انصوتية الوظيفية إلا أنه كان يرى أن المنهج ينطق أيضا على جميع مستويات البنية اللغوية. ولذلك فقد طلب ياكوبسون من إثين من تلامذته، وهما الروجيان أغينسكي Aginsky، أن يكتبوا مقالة عن أهمية الكلبيات اللغوية (وتعالج أساسا المظاهر الأثروبولوجية للغة) نشرها في أحد الأجزاء الأولى من دورية «الكلمة» Word وهي دورية اللسانيين لأوروبيين الذين لجأوا إلى أمريكا بسب الحرب العالمية الثانية (ب. أغينسكي وي. أغينسكي Aginsky and Aginsky، ١٩٤٨م). ويمثل جوهر منهج تشومسكي في دراسة اللغة في ادعائه أن هناك كلييات نحوية، حيث طور فرضية الكلبيات النحوية syntactic universals حتى أصبحت نظرية أغنى وأعمق من نظرية ياكوبسون عن الكلبيات الصوتية الوظيفية.

ويجب أن نتذكر أن سوسير لم يعتبر النحو حراما من المقدرة اللغوية langue أي من بنية لغة معينة. وترتيب الكلمات في جمل عمل يقوم به الأفراد في مناسبات معينة، وليس شيئا تؤدبه اللغة مرة واحدة وحسب. وهناك أنواع لا حصر لها من الحمل الممكنة في أية لغة بالرغم من أن مجال الشارات signs السوسيرية المتاحة (أي الكلمات بصورة عامة) محدود في أية لغة من اللغات. وبالرغم من أن الكتاب الذين جاؤوا بعد ذلك لم يوافقوا سوسير صراحة على أن النحو قضية تتعلق بالكلام parole، إلا أن الحقيقة الباقية تشير إلى عدم نجاحهم بصفة عامة في العثور على وسائل لإدخال التحليل النحوي ضمن الدراسة العلمية للغة. وقبل أن يتمكن تشومسكي من إبان أن التراكيب النحوية للغات المختلفة متشابهة، كان عليه أن يبين أن تعريف النحو يمكن في أية لغة معينة. وقد عالج تشومسكي هذه القضية بطريقة جاءت بصورة طبعه لعالم رياضيات مثله، مع أنها لم تكن كذلك بالنسبة لأي شخص آخر يعتمد ثقافته على العلوم الإنسانية.

(وهذا هو السبب في عدم تمكن اللسانيين الأوائل من استيعاب الفكرة بشكل واضح) ومن ثألوف لدى عالم الرياضيات أن تكون مجموعة من الوحدات محددة تماماً وأن نصمم في الوقت نفسه عدداً لا متناهياً من الأعضاء . خذ مثلاً دائرة مرسومة على ورقة بيضاء ومركزها نقطة التقاء محوري السينات والعيئات ونصف قطرها يساوي خمسة أصابع الوحدة المرسومة على الصفحة البيانية، ولنقل مثلاً إنها السنتيمتر . (ونقصد هنا دائرة هندسية مثالية وليس مجرد دائرة ملموسة مرسومة بقلم يرسم خطاً ذا عرض معين) . ويمكننا الآن أن نعامل الدائرة كمجموعة من النقاط الهندسية، أي كمجموعة ثابتة من جميع النقاط التي لا حصر لها الموجودة على صفحة الرسم البياني . والنقطة  $s = 5$ ،  $e = 0$  مثلاً تنتمي إلى الدائرة (إنها النقطة اليسرى لتقاطع الدائرة مع محور لسيئات) . لكن النقطة  $s = 4$ ،  $e = 1$  ليست من الدائرة (فهي تقع خارج الدائرة في الجهة اليمنى العليا) . ولا تحتوي ورقة الرسم البياني على عدد لا حصر له من النقاط فحسب، لكن الدائرة وحدها (وفي الواقع فإن أي خط أو مسحن يمتد في جهة أو أكثر) تحتوي على عدد لا متناه من النقاط أيضاً . وللمعظم النقاط التي تنتمي إلى الدائرة إحداثيات ليست «أعداداً مدورة» مثل  $4$  أو  $5$  . وبالرغم من أن مجموعة النقاط التي يحددها كدائرة لا نهاية لها، إلا أنها محددة تماماً وبصورة كاملة (إنها محددة بالمعادلة  $s + e = 5$  . ومن الاحتمالات الكثيرة اللانهائية للقيمتين (س) و (ع) نجد أن المجموعة الدورية التي تحقق المعادلة تشكل الدائرة . أما الاحتمالات الأخرى فتقابل نقاطاً واقعة إما داخل الدائرة أو خارجها .

وبالإضافة إلى ما تقدم، فلما لا نستطيع تحديد هذه الدائرة المعنية فحسب، بل نستطيع أيضاً أن نحدد، وبالقلم نفسه من الدقة، «المجموعة التي تضم جميع الدوائر الممكنة» على ورقة الرسم البياني، وهي مجموعة كبيرة لانهاية من النقاط . (وأسنميج القرىء هنرا إذا وجد أن الرياضيات قد شئت أفكاره، فأنا أحاول الإبقاء على البساطة في الشرح، مع أنني أدرك أن الكثيرين يعانون من قلة المعرفة في هذا الميدان . وسوف أعود إلى الفكرة الأصلية في الفقرة التالية) . وتحدد المجموعة الكاملة للدوائر الممكنة بالمعادلة (س) (أ) + (ع) (ب) = ج<sup>٢</sup> . وبالنسبة لأي قيمة تعطى إلى «أ، ب، ج» فإن مجموعة النقاط التي تقابل جميع احتمالات (س) و (ع) والتي تحقق المعادلة سوف

تكون دائرة، وكل دائرة تقابل أحد الاختيارات للقيم «أ، ب، ج». إن قيمتي (أ) و (ب) تحددان المركز، أما قيمة (ج) فتحدد نصف القطر. وفي حالة الدائرة التي وصفها في البداية فقد كانت قيمة كل من (أ) و (ب) صفراً، وكانت قيمة (ج) تساوي خمسة. وهكذا حدد مرة أخرى أن المجموعة التي تشمل كل الدوائر الممكنة محددة جداً مع أنها تصمم عدداً لا نهائياً من الدوائر.

ومن الأمثلة على مجموعة غير محددة تماماً في الأشكال الخطية مثال المجموعة التي تضم جميع الأشكال الجميلة. فبعض الأشكال (وربما الأشكال التي لها معدلات بالغة التعقيد) جميلة بصورة ملحوظة أو جذابة على الأقل. كما يلاحظ أن هناك أشكالاً أخرى لا حادبية لها وكثير غيرها لا تنتمي إلى هذه ولا تلك (مثل الخطوط المستقيمة والدوائر). ولا ريب في أن هناك عدداً لا حصر له من الأشكال الجذابة، ولكن يبدو أن من الصعب أن نتصور أن بإمكاننا تحديد عضوية تلك المجموعة تحديداً دقيقاً مثلاً فعلى بالدوائر. ولا تكمن المشكلة في أن الحاذبية هي خاصية متدرجة وأن الدائرية هي سؤال محدد يجاب عليه بنعم أو لا. فلو كانت تلك هي الصعوبة الوحيدة لكان حلها متيسراً بفصل الأساليب الرياضية. لكن المشكلة الحقيقية تكمن في استمرار الناس في اكتشاف عناصر جمالية لم يكن يحمل بها أحد في السابق (ولعل كلمة «إبداع» أو «اختراع» أفضل من «اكتشاف» في هذا السياق)، لذلك كان لزاماً علينا أن نتعلم كيف نرى الجمال، فهو ليس من العناصر التي تمنح إلى الشربة سلفاً، كما لم يعد من الممكن تطبيق تمثيل ثابت بين الكائنات الجميلة وغير الجميلة (سواء أكانت خطوطاً على ورق بياني أو أي شيء آخر). صحيح أن بوسعنا تحديد كل الأشكال الجميلة بمعادلات (ربما كانت بالغة التعقيد)، إلا أن المجموعة التي تضم جميع الأشكال الجميلة لا تقلل التحديد. ومن اللافت للنظر أنني في معرض تقديمي للأمثلة حول فكرة «المجموعة مبسطة التحديد» استعنت بالجمال، وهو من ردود الأفعال الإنسانية على الأشياء وليس من الخواص المتأصلة فيها في معزل عن البشر (كما هي الحال في الخاصية الدائرية). ويبدو أن الإنسان وحده فقط بذكائه المدع والدلي لا يمكن التكهن بهدراته هو السبب وراء المجموعات مبسطة التحديد. ولما كان من الممكن أن تعامل الدائرة كمجموعة مرع من مجموعة أكبر تضم جميع النقاط المحتملة في المستوي يقترح تشومسكي في كتابه

التي أنشأتها Syntactic Structures (١٩٥٧م) أن نعامل اللغة من الزاوية النحوية على أنها مجموعة ثانوية خاصة من مجموعة تضم جميع السلاسل الممكنة تشكيلها من مفردات معجمها. فالتقطة (٥ . ٠) تقع على الدائرة التي نأقشناها، بينما تقع النقطة (٤ . ٤) خارجها. وبالمثل فإن جملة «القطعة على الحصير The cat is on the mat» تنسب إلى اللغة «الإنجليزية» بينما نجد أن «الحصير القطعة على mat is cat the the on» تقع خارجها وعلى حد تعبير تشومسكي فإن أولى هاتين السلسلتين «نحوية grammatical» أو «سليمة التركيب»، أما الثانية فهي «غير نحوية ungrammatical» أو «سبئة التركيب». وتشير النجمة \* إلى أن السلسلة التي تليها غير نحوية. (لاحظ أن هذه التعبيرات تستعمل بمعنى وصفي حالي وليس بمعنى تقويمي. فبعض الحمل مثل I ain't never done nothing «لم أفعل شيئاً البتة» هي جملة سليمة نحويًا ضمن إطار لهجة واسعة الانتشار من اللغة الإنجليزية، رغم أنها ليست في اللهجة التي كتب فيها هذا الكتاب. ومع أن مجتمعنا يستهجن اللهجة الأولى إلا أن ذلك لا يقلل من كونها جديرة بالدراسة من وجهة نظر العلماء. ونظراً لاهتمام تشومسكي باكتشاف أنواع اللغات الطبيعية بالنسبة لبني البشر، فمن المحتمل أنه يعتقد أن اللهجة الأولى أولى بالدراسة من الإنجليزية الرسمية المكتوبة، حيث إنها أقل تقيداً بالقواعد المصطنعة التي يضعها المتزمتون).

ومن المؤكد أن مجموعة الجمل النحوية هي أية لغة من اللغات هي ضخمة ولا نهاية لها. فإحدى دي بده، يكسا أن نشيء جملة ثالثة من أية جملتين تقريريتين وذلك بإدخال حرف العطف (الواو) بينهما، وليس هناك نهاية من حيث المبدأ لتطبيق وسائل من هذا النوع لتشكيل الجمل. لكن تشومسكي في الوقت نفسه يعترض أن كون المجموعة التي تضم جميع الجمل النحوية محدودة تماماً من المسلمات. لكن هذه ليست بالمسئمة التي يضعها تشومسكي. فالخاصية النحوية تعتمد على نشاط العقل البشري بدلاً من كونها موجودة فيزيائياً في سلسلة الأصوات. ومن المحتمل جداً أن تكون الخاصية النحوية أقرب إلى الخاصية الجمالية منها إلى الدائرية. لكن الخاصية النحوية بأعسارها نامة لتحديد ما أثبتت جدواها. وسأقول هنا إنه بالرغم من أن تشومسكي لم يقدم أدلة واضحة تدعم افتراضه إلا أن هذا الافتراض أثبت وجوده بنفسه عملياً فالشرح الذي

قدمه تشومسكي لكي يبين كيف يمكن للنحو من حيث المبدأ أن يدخل في نطاق الوصف اللغوي العلمي. يعد إسهامها إيجابيا ضخما في هذا العلم.<sup>(١)</sup>

إن وصف مجموعة بأنها محددة تماما لا يعني أن شخصا قد توصل إلى قاعده صريحة بشأن الخصائص الضرورية والكافية لانضمامها إلى عصابة تلك المجموعة، بل يعني فقط أن هناك من حيث المبدأ مثل هذه القاعدة في انتظار أن تكتشف. أم المشكلة الأخرى التي واجهت تشومسكي فكانت العثور على وسيلة شكلية تولد مجموعة السلاسل الصرفية النحوية مثلما تولد المعادلة  $25 = 'ع' + 'س'$  مجموعة اللفظ التي أسميناها دائرة. (وقد أدخل تشومسكي إلى اللسانيات هذا الاستعمال المألوف في الرياضيات لكلمة «تولد»، ومن هنا أطلق على منهجه في علم النحو اسم «النحو التوليدي» generative grammar). وعند تلك النقطة نظر تشومسكي إلى عمل أستاذة الأول زيليج هاريس.

عالم هاريس (شأنه شأن معاصريه من الوصفيين، ولو أنه ذهب أبعد مما ذهب إليه معظمهم - انظر خاصة هاريس Harris، ١٩٥١م) التحليل النحوي بتصنيف المورفيمات في مجموعات تشبه بعضها بعضا من حيث توزيعها بالنسبة للمورفيمات الأخرى. وهكذا نجد أن كلا من «قطعة، كلب، ولد، ذيل» وكثير من المورفيمات الأخرى يمكن أن نستعمل في السياق «الـ — على الحصير»، وإذا لم نجد كثيرا من الأطر الأخرى تفرق بين هذه المورفيمات فإننا نعتبرها أعضاء في «مجموعة شكلية واحدة» وبما أن هذه المجموعة الشكلية هي تقريبا للمجموعة نفسها التي ندعوها عادة مجموعة الاسم، إذن يمكننا أن نرمز للمجموعة بالحرف  $N(A)$  ومن المهم أن ندرك أن هاريس، شأنه شأن فراير (Fries، ١٩٥٢م، ص ٦٥) لم يسلّم أبدا بأن أقسام الكلام التقليدية سوف تظهر في تحليله. فهناك جزء من المصطلحات النحوية التقليدية (لتي ورثناها نتيجة قرون عديدة من التطور الفكري الذي توح بعمل ديوسيبوس ثم كس الإسكندراني Dionysius Thrax حوالي عام ١٠٠ ق.م.) يعتمد إلى حد ما على التحليل المنطقي لمعاني الكلمات، بينما يعتمد الجزء الآخر على الخصائص الشكلية للنحو اليونانية الكلاسيكية. ورغم أن التحليل التوزيعي البحث الذي يطبق على الإنجليزية الحديثة يتمحصر عن نتائج تشبه أقسام الكلام التقليدية إلى حد كبير (وهذا طبيعي لأن كنا

اللغتين الإنجليزية واليونانية من اللغات الهندوأوروبية) فإن النتائج مشابهة فقط وليست متصدعة بأية حال من الأحوال. وعندما يطبق التحليل التوزيعي على لغة غير هندوأوروبية، فإن المجموعات التي نحصل عليها غالباً ما تكون مختلفة عن تلك التي نحدها في نظريتنا التعليلية في النحو (كما أكد بواس في بداية للذهب الوصفي). للاطلاع على مثال جيد انظر هوني (Honey، ١٩٥٦م).

وبعد أن أثبتنا أن «قطعة، كلب، ولد، ذيل، ... إلخ» تنتمي إلى مجموعة واحدة تسمى (أ) N، وأن الكلمات «جميل، سيء، محيف، ... إلخ» تنتمي، وبالمبدأ نفسه، إلى مجموعة واحدة، ولنقل (ص) Adj، نجد أن السلاسل مثل «قطعة جميلة، و كلب محيف» تقع في السياقات نفسها التي تقع فيها الكلمات ذاتها مثل «قطعة، و كلب» فالعبارات المؤلفة من كلمتين ملائمة أيضاً لملاءمة الفراغ في «ال — على حصر» مثلاً. ونسجل هذه الحقيقة في المعادلة / أ ص = أ / وهذا مثال لتراكيب دحنية لمركز endocentric حيث يتمتع الكل بمزايا التوزيع نفسها التي يتمتع بها الجزء. وهناك أيضاً تراكيب خارجية المركز exocentric ذات سلوك مختلف عن أي من مكوناتها. وهكذا يمكننا أن نرمز للمجموعة التي تصم «هؤلاء، بعض، كل، ... إلخ».

إلخ». بالرمز (د) R بحيث يكون سلوك التركيب (د أ) كما في (بعض القطط، كل الأولاد الصغار) مختلف عن سلوك (د R) وسلوك (أ N) لكنه يشبه سلوك مجموعة أخرى هي مجموعة أسماء العلم ولطلق عليها اسم (ع P) — مثلاً يمكن أن يبدأ أحد التركيبين «القطط، و بعض الأولاد الصغار» الفراغ في «رأيت —» شأنها شأن أسماء لعدم مثل «عادل وسيرة». أما الكلمتان «بعض، و كل» على سبيل المثال فلا (كذلك هي الإنجليزية لا يمكن للتركيبين «bad boy, cat» أن يحلا محل الفراغ في «is here —» إذا كانا في معزل عن العناصر الأخرى. وهكذا يكتب «د أ = ع»

وقد يكون من المفيد في بعض الحالات أن نخصص مجموعة السلاسل المورفيمية التي محل بعضها البعض برمز واحد رغم أنها لا تستطيع أن تحل محل مودم مفرد. وسلاسل مثل «الذي يشجر»، و «الذي يتبع»، إلخ (التي نستطيع أن نرمز لها بالرمز «مو» حيث نرمز «مو» إلى الاسم الموصول و «قع» إلى الفعل اللازم) يمكن أن تحل محل بعضها البعض في السياق (الكلب — على الحصر)، وبهذا يصبح

بوسعنا أن نعرف بأن مثل هذه السلاسل تمثل عنصراً خاصاً بها وأن نكتب «موقع ل» مع أنه ليس ثمة مورد قم مفرد يستطيع أن يؤدي عمل «ل». من هنا يتبين لنا أن «الكلب الذي ينبج» تعادل نحوتاً التركيب «بعض الأولاد الصغار» أو اسم العلم «عادل» فنكتب: «ع ل ع» وهذا أفضل من كتابة: «ع فع موقع» مباشرة بما أن لفراع في «الكلب» — على التحصير — يمكن أن يملأ بعبارات ليست من نوع «موقع». فعلى سبيل المثال، نجد أن الجملة «الكلب ذو الذيل الضخم على التحصير» سليمة نحوياً، وهكذا (وعلى افتراض أن «دو» تمثل المجموعة هـ) فإننا نستطيع أن نكتب: «ه ع = ل» مثلما نكتب «موقع = ل»

أما الخطوة الأخيرة التي قام بها تشومسكي فكانت إضافة الرمز «ج» ليمثل مجموعة الجمل التامة (بحيث يكتب مثلاً: ع فع = ح بما أن «عادل يشجر» و «الولد يصفر» هما جملتان سليمتان نحوياً). ويفضل «تشومسكي» أن يقلب المعادلة ويستبدل إشارة المساواة بسهم بحيث تدور المعادلات التي نوقشت بالشكل التالي:

ج	←	ع فع
ع	←	$\left( \begin{array}{c} ع ل \\ د أ \\ عادل \\ سميرة \end{array} \right)$
ل	←	$\left\{ \begin{array}{c} موقع \\ ه ع \end{array} \right\}$
أ	←	أص (قطعة، كلب، ولد، ديل . . .)
د	←	(بعض، كل، هؤلاء، هنا . . .)
ص	←	(جميل، سيء، مخيف . . .)

شكل رقم (٣)



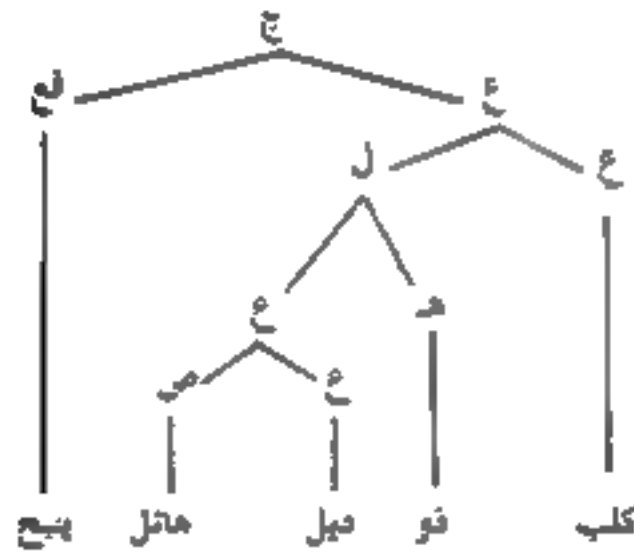
(وَمَا لَأَشْك فِيهِ أَنْ النُّحُو الْكَامِلَ يَحْتَاجُ بِالطَّبْعِ إِلَى عَدَدٍ كَثِيرٍ مِنَ الْقَوَاعِدِ الأُخْرَى، مِثْلُ الْقَوَاعِدِ اللَّارِمَةِ لِتَحْدِيدِ عَضْوِيَةِ الْمَجْمُوعَاتِ «فَع» وَ «هـ» وَلِتَقْدِيمِ عَدَدٍ صَاحِبٍ مِنَ الْمَجْمُوعَاتِ الشَّكْلِيَّةِ الأُخْرَى وَمِنَ الْبُنَى النُّحْوِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَعْصُرْ لَهَا فِيمَا سَبَقَ) وَالْهَدَفُ مِنْ اسْتِبْدَالِ شَارَةِ الْمَسَاوَاةِ بِسَهْمٍ هُوَ تَشْجِيعُهَا عَلَى رُفُوهِ الْقَوَائِمِ عَلَى أَنَّهَا قَوَاعِدُ لِبَاءِ الْجُمْلِ. <sup>(٢٧)</sup> وَبِاسْتِطَاعَتِنَا تَأْلِيفَ جُمْلَةٍ بِأَنْ نَبْدَأَ بِالرَّمْرِ «ح» الَّذِي يَعْنِي «جُمْلَةٌ» وَمِنْ ثَمَّ نَعِيدُ كِتَابَتَهُ حَسَبَ التَّعْلِيمَاتِ الَّتِي تَبَيَّنَتْهَا الْأَسْهُمُ. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اخْتِيَارُنَا عَشْوَاتِيًّا إِذَا كَانَتْ عُنَاوِرُ الْاِخْتِيَارِ مَدُونَةً بَيْنَ أَقْوَامٍ مَتَمُوجَةٍ { } وَفَوَاصِلَ إِلَى أَنْ يَسْتَبْدَلَ جَمِيعُ الرَّمُوزِ بِمُورَفِيَّاتٍ مِنَ اللُّغَةِ مَوْصُوعِ التَّحْلِيلِ (وَنَكْتُبُ بِحُرُوفٍ كَبِيرَةٍ هِيَ الدَّلَّةُ الْإِنْجَلِيرِيَّةُ) وَاللُّغَةُ الَّتِي تَتَوَلَّدُ بِمِثْلِ هَذَا النِّظَامِ هِيَ الْمَجْمُوعَةُ الَّتِي نَصْنَمُ كُلَّ الْجُمْلِ الَّتِي يُمْكِنُ الْحَصُولُ عَلَيْهَا مِنَ الرَّمَزِ جَ بِاتِّبَاعِ الْقَوَاعِدِ وَالْقِيَامُ بِاخْتِيَارِ مَعِينٍ عِنْدَهُ يَتَوَفَّرُ مَجَالٌ لِلْاِخْتِيَارِ. فَالدَّائِرَةُ الَّتِي تَتَحَدَّدُ بِالْمَعَادِلَةِ «س + ع = ٢٥» هِيَ الْمَجْمُوعَةُ الَّتِي نَصْنَمُ جَمِيعَ النُّقَاطِ الْمَحْدَدَةِ بِقِيَمِ «س، ع» الَّتِي تَحْقُقُ الْمَعَادِلَةَ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمَعَادِلَةَ الْهَنْدُسِيَّةَ تَحْتَوِي عَلَى سِتَّةِ رَمُوزٍ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ عِدَّةً لَا نِهَآيَةَ لَهَا مِنَ النُّقَاطِ الَّتِي نَحْفَقُهَا وَبِالْمِثْلِ هَإِنْ نَحْوَا مِنَ الرَّمَزِ الَّذِي رَسَمْنَاهُ فِي الشَّكْلِ رَقْمَ (٣)، وَغَمَّ كَوْنَهُ مَحْدُودَ التَّعْقِيدِ، يُولَدُ عِدَّةً لَا نِهَآيَةَ مِنْ سِلَاسِلِ الْمُورَفِيَّاتِ. فَالْقَاعِدَةُ «ع — ع ل»، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، يُمْكِنُ أَنْ نَطْبِقَ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ عَلَى نَتَاجِهَا د ت ه. فَمِثْلًا يُمْكِنُ أَنْ تَكْتُبَ «ع» مَرَّةً ثَانِيَةً «ع ل»، وَهَذِهِ بِدَوْرَهَا يُمْكِنُ أَنْ تَكْتُبَ «ع ل ل» وَهَكَذَا دَوَالِيكَ بِحَيْثُ نَسْمَحُ بِتَأْلِيفِ بُنَى مَعْقِدَةٍ مِثْلِ «الْكَلْبُ دَوَالِيْلُ الصَّحْمِ الَّذِي يَنْجَح . . .» كَمَا أَنَّ الرَّمْرَ «ج» نَفْسَهُ الَّذِي يَظْهَرُ فِي الطَّرْفِ الْاَيْمَنِ فِي عَدَدٍ مِنَ الْقَوَاعِدِ بِسَمَحٍ بِتَأْلِيفِ جُمْلٍ مِثْلِ «الْوَلَدُ يَعْرِفُ أَنَّ الْكَلْبَ يَنْجَح» وَبِوَسْمَا أَنْ نُمِثِّلَ هَذَا التَّرَكِيبَ بِالشَّكْلِ التَّالِي:

ج ← ع مَجَّ أَنْ ج

حَيْثُ «مَجَّ» مِثْلُ مَجْمُوعَةِ الْأَفْعَالِ الَّتِي نَشْتَرِكُ فِي هَذِهِ الْبُنَى. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ قَاعِدَةَ كَهَذِهِ يُمْكِنُ أَنْ تَطْبَقَ ثَابِتَةً عَلَى نَتَاجِهَا نَفْسَهُ عَمَّا يَسْمَحُ بِتَوَلَّدِ: «الْوَلَدُ يَنْكُرُ أَنَّ الْحَارَسَ

المحور يعرف أن الكلب ينبح». وهكذا يتبين لنا أن نحوا محدودا - إن كان معقدا - من هذا النوع يولد لغة (أي مجموعة من الجمل) غير محدودة، مع أنها محددة تماما ومن الملاحظ أننا لم نأت على ذكر الكليات حتى هذه المرحلة. والنقطة المتابغة عند تشومسكي هي أكثر النقاط حدا. فهو يرى أن الرموز الخبرية التي استعارها من هاريس (وهي مشابهة نوعا ما للمخططات التي استعملها الآخرون من المدرسة الوصفية ليدرسوا معالجة النحو) تنطوي على ادعاء تجريبي قوي حول الخصائص النحوية للغة الإنسانية وهو أن جميع مجموعات النحو الممكنة من النوع الذي رسمه هاريس وتشومسكي يمكن أن تعامل على أنها مجموعة محددة تماما (رغم كونها لانهائية). ونستطيع تعريفها بقولنا إنها تضم أية مجموعة محدودة من القواعد التي تمثل بالعلاقة «د — حيث «أ» رمز واحد و «د» سلسلة ما من الرموز أو المورفيمات أو كليهما معا (في الشكل ٣ دمجت مجموعات القواعد من هذا الشكل في بعضها البعض باستخدام الأقواس المنموجة { } والفواصل للإشارة إلى البدائل، لكن هذا لا يؤثر على المبدأ. فلقاعدة من النوع ل — مو فع، هـ ع تعادل القاعدتين: «ل — مو فع» و «ل — هـ ع» وكل منهما يتخذ الشكل «أ — د». ونعرف مجموعة القواعد التي تطبق التعريف المذكور أننا «بنحوية العبارات المستقلة عن السياق Context Free Phrase Structure Grammar». وبما أن هذا المصطلح مربك فلنأتي أفصل أن أسميه «بنحوية المكونات Constituent Grammar». ولقد بين تشومسكي رياضيا (١٩٥٩م) أن ثمة مجموعات محددة تماما من سلاسل المورفيمات لا يمكن أن يولدها «نحو المكونات» مهما كان معقدا (تماما مثلما نجد أشكالا خطية لا يمكن أن تولدها أية معادلة مستخلصة من مجموعة المعادلات المحددة بالعلاقة (س - أ) + (ع - ب) = (ج)'. إن مجموعة اللغات لمكونات constituency languages هي مجموعة فرعية محدودة تماما من مجموعة اللغات الممكنة بأكملها مثلما أن مجموعة اللغات هي مجموعة فرعية محددة تماما من المجموعة التي تضم كل الأشكال الخطية الممكنة في مستو. وبعبارة أخرى فإن افتراض أن نحو المكونات هو الأداة الملائمة لوصف النحو في اللغات الإنسانية يعني افتراض أن لغات الإنسانية تنتمي نحويًا إلى مجموعة محدودة معينة وهذا بدوره يعني أن هناك كليات

محوية لدعه الإنسانية . وقد شعر تشومسكي (مع أن هذا محذور لتراجع حاد) أن الوصفين أشاروا أصمما إلى هذا الافتراض حول ملامعة نحو المكونات (انظر بوستال Postal ١٩٦٤م ، المكتوب تحت إشراف تشومسكي) بحيث تضمنت ممارسة الوصفين وجود الكليات رغم أنهم ادعوا علنا أنهم يؤمنون بالتنوع اللغوي غير المحدود ولكي يبسط هذه الكليات النحوية نستطيع أن نصورها بقولنا إن نحو المكونات يربط بكل جملة يولدها في اللغة «بنية من المكونات» أو بنية هرمية على شكل شجرة . وهو في الشكل رقم (٣) على سبيل المثال يربط البنية التي تظهر في الشكل رقم (٤) بالجملة «الكلب ذو الذيل الهائل ينبح» :



الشكل رقم (٤)

وتقابل تلك الحملة السلسلة المرتبة لأوراق الشجرة المبينة في الشكل رقم (٤) وهي الوقت نفسه يجب أن تكون العلاقة واضحة بين القواعد المبينة في الشكل رقم (٣) والمروع المبينة في الشكل رقم (٤) . [يرسم اللسانيون شجراتهم عادة مستخدمين الرمز «ح» (حملة) ليدل على الجذر في الأعلى ويضعون «الأوراق» التي تحمل مورفيمات

اللغة موضع التحليل في الأسفل . ومن الواضح أن اللسانيين أضعف حتى من هيلاري بوسام في دراسة الطبيعة!]. ومن الممكن تعريف نحو المكونات تعريفها حدسيا بأنه نوع من الرموز النحوية الملائمة للغات حيث تتعلق مفاتيح السلامة النحوية بعنصرية المجموعات والسى الهرمية .

إن العلاقة بين السلامة النحوية في اللغات الإنسانية وبين تصنيف الكلام في أقسام متعددة وكذلك الطريقة التي تجتمع فيها الكلمات في شكل هرمي لتؤلف العبارات والحمل من شتى الأصناف ليست شيئا جديدا بأي حال من الأحوال . فقد دأب الأطفال في المدارس على تحليل جملهم باستخدام الأشكال المشابهة للشكل رقم (٤) بصورة عامة وطيلة قرون عديدة قبل تشومسكي . فالعناصر التي تحمل الرمز «ع» كانت تسمى تقليديا «بالعبارة الاسمية nominal phrase» (إلا عندما تتكون من كلمة واحدة فقط) والعنصر الذي يحمل الرمز «ل» كان يسمى «عبارة الحار والمجرور prepositional phrase» وهكذا<sup>(١)</sup> لكن تشومسكي نفسه يقول إن «نحو المكونات» يقابل نظرية المؤلفات ضمنية عن النحو، أما الشيء الجديد فيكم في معرفة أن اللغات من الناحية المنطقية ليست بحاجة لأن تكون من نوع المكونات . ومن السهل تماما معرفة مجموعات من سلاسل المورفيمات التي لا تنطق عليها أفكارنا النحوية التقليدية<sup>(٢)</sup>

ولما كان تشومسكي يسعى إلى إثبات الكليات النحوية، وبما أنه يئن أن بعض الآراء السائدة في النحو تنصص أن اللغات الإنسانية تنتمي إلى مجموعة محدودة (أي أنها تشتمل على كليات نحوية قوية) فقد كان في وسعه الوقوف عند ذلك الحد لكنه في واقع الأمر طوّر شروحه في كتابه «السى النحوية» وفق خطوط تقلل من شأن ما سبق . ويرى تشومسكي أن الاعتقاد بأن نحو المكونات ملائم لتوليد اللغات الإنسانية هو في الواقع اعتقاد خاطيء بالرغم من سعة انتشاره بصورة محتملة . ويصرح تشومسكي مثلا (ولن أناقشه بالتفصيل) عن التراكيب الموجودة في اللغة الإنكليزية والتي تعصف قواعد المكونات عاجزة عن معالجتها كما يدعي .

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من النتائج الواضحة أن مجموعة الألعاب السى يستعملها البشر أصلا ليست محددة تماما . وكان تشومسكي أول من تحصل احتمال وجود نظرية تجريبيه علميه قابله للطعن عن «الطبيعية النحوية syntactic naturalness»

(أي نظريته تعرف مجموعة من اللغات التي تسمى إليها جميع اللغات الإنسانية الخفية لكنها أصغر من المجموعة التي يضم كل اللغات الممكنة). ومن المحتمل ألا نفهم هذا مشروع بالطريقة الصحيحة، كما قد يفترض أحد الوصفين ممن يؤمنون بلانتهائية التنوع اللغوي. وإذا اعترفنا بقدرة الإنسان على تحليل مجموعه من سلاسل مورفيمية غير طبيعية ككلمات إنسانية، وجدنا أن الخاصية «الطبيعية» في اللغات أقرب إلى الخاصية الجمالية منها إلى الخاصية الدائرية في الأشكال الخطية.

ولست هذه هي النتيجة التي حلص إليها تشومسكي، الذي يقول إن نظرية مكورات عن الكليات النحوية يجب أن تستبدل بنظرية معدلة رسم إطارها في كتابه «لسي النحوية» وطورها هو وأتباعه بإسهاب منذ ذلك الحين. والنظرية الجديدة عن الطبيعية النحوية هي في جوهرها توسيع للنظام الرمزي ذي القوابل وذلك بإضافة سلسلة مما يدعو بالقواعد التحويلية إلى قواعد المكورات. والقاعدة التحويلية باختصار هي قاعدة تمارس عملها على تركيب هرمي جديد بطريقة تعدل سلسلة المورفيمات التي تقوم بدور الأوراق في الشجرة. فمثلاً بدلاً من تشكيل سؤال مثل «من قابل عادل ليلة أمس؟» بواسطة قواعد مكورات مختلفة عن تلك التي تحتاجها لتركيب «عادل قابل خلدا ليلة أمس» فإن بإمكان النحو التحويلي أن يستعمل مجموعة واحدة من قواعد المكورات لإنتاج سلاسل مورفيمية من الشكل التقريري فقط. ومثل هذه السلاسل تشمل «عادل قابل من ليلة أمس؟» وهي غير سليمة (إلا إذا قيلت بسفمة خاصة تعطيها صفة طلب إعادة جملة لم تسمع جيداً). لكن ثمة قاعدة تحويلية (أو في الواقع سلسلة من القواعد) تطبق على الجملة بسبب وجود «من» فيها تمارس عملها في الجملة لتعطيها شكل السؤال الصحيح.

ولا تزال المسألة الهرمية تحتفظ بدور خاص في نظرية تشومسكي النحوية الجديدة وهو الدور الذي كانت تتمتع به في نحو المكورات. ولكن الجملة في النظرية الجديدة ليس لها سمة هرمية واحدة، بل سلسلة من البنى الهرمية. (ومع تطور النظرية استعدت حرية إدخال القواعد التحويلية في النحو إلى الحد الذي أصبحت معه كل الجملة في لدعه بما فيها الجملة الإحارية تقدم على أنها نتيجة لتحويلات عديدة خصعت إليها خلال عمليات اشتقاقها). ونقول عن سلسلة مورفيمية إنها تنتمي إلى اللغة التي

ولدها النحو التحويلي إذا كانت شجرة ما أنتجها المكون الأساس هي النحو base تحرج في النهاية على شكل شجرة أوراقها سلسلة المورفيمات موضع البحث و ذلك بعد تعديلها عدة مرات بتطبيق القواعد التحويلية . وتدعى الشجرة النهائية «السمة السطحية» ليجمله surface structure . أما الشجرة الأصلية التي تنجب عن المكون الأساس قبل حصولها للتحويل فتدعى «البنية العميقة للجملة deep structure» .

والجانب المتعلق «بالقاعدة التحويلية» في أعمال تشومسكي أقل إقبالاً من الموضوعات التي ناقشناها آنفاً . فقبل كل شيء نرى أن النحو التحويلي لا يرقى إلى وصوح نحو المكونات في تحديد مجموعة من اللغات أصغر من مجموعة اللغات الممكن تصورهما من الناحية المطلقية، أي أنه يقدم ادعاء قابلاً للاختبار حول الكليات النحوية . فمن المحتمل أن يكون هناك نحو تحويلي لأية مجموعة يمكننا تصورهما من السلسلة المورفيمية (وول Wall ، ١٩٧١م) ولعل من الممكس الدفاع عن نظرية تشومسكي ضد هذا الاعتراض (سامسون Sampson ، ١٩٧٢م) : «الشكل Form» ، انظر ص ٢٥١ رقم ١ ، ص ص ١١٢-١٤) ، لكن المشكلة الأخرى هي أن البراهين التي جاء بها تشومسكي ليبدل بها على عدم كفاءة نحو المكونات هي براهين هريئة جداً (الشكل ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦) . وبالإضافة إلى ذلك فإنه حتى في أوضح الحالات حيث يحقق نحو المكونات (كما في تراكيب العطف) فإن القواعد التحويلية بدورها لم تقدم الكثير أيضاً (ديك Dik ، ١٩٦٨م) . ويبدو لي أن النظرية التحويلية أشبه بتتوء قبيح في فكر تشومسكي اللغوي . وأعتقد أن هذا الجانب من عمل تشومسكي ، والذي كان سبباً في جذب الانتباه أكثر من أي عصر آخر وفي جعل منهج تشومسكي في دراسة لغة يعرف غالباً «باللسانيات التحويلية» يمثل الصعوبة التي يحددها الناس أحياناً في التمييز بين ما هو أساسي وما هو سطحي في النزعات الحديثة

ومهما يكن الأمر فإن الحقيقة هي أنه منذ بداية الستينات بدأت مجموعة من المفكرين - وما أكثرهم الآن - بتطوير نظرية تشومسكي المعدلة في الكليات النحوية ولفظه الأثوذكسية في أي من الدوريات العلمية المتعددة التي تكرر من الآن شكل واسع لسانيات تشومسكية تطرح مرشحاً جديداً لتضم إلى قائمة الكليات النحوية ، أو أنها تقدم دليلاً من لغة ما يفقد فرضية سابقة عن إحدى الكليات المحملة ، أو تقول إن

تحليلاً أعمق للنحو في اللغة المعنية يبين أنها مثال مضاد لكلية مقترحة وهكذا وتتصل الكليات المفترضة في كثير من الحالات بعناصر نحوية كان تشومسكي قد ناقشها في الأصل . ومن الأمثلة النموذجية عن نوعية الموضوعات التي يطرح على بساط البحث ما يلي : ما هي أنواع التعديلات على الأشجار التي تحدث أو لا تحدث كتحويلات في اللغات الإنسانية؟ وإلى أي مدى تختلف قواعد المكونات وكذلك قواعد التحويلات من لغة إلى أخرى؟ (يقول البعض إن هناك أساساً ثابتاً من المكونات تشترك فيه جميع اللغات، مع وجود فوارق نحوية تعزى بأكملها إلى فوارق في المكون التحويلي transformational component وذكر ايموند باخ Emond Bach (١٩٧١م) أنه حتى لمكونات التحويلية لا تختلف إلا في الاختيار من قائمة ثابتة كلية ومحدودة من التحويلات الجائزة . فما هو المبدأ الذي يتحكم بتطبيق التحويلات؟ (من المتفق عليه بشكر واسع أن سلسلة التحويلات في اللغة تطبق على البنى الشجرية المعقدة بصورة دورية cyclically بمعنى أن القواعد تطبق بالتسلسل على أصغر الجمل الفرعية subordinate أي الأشجار الفرعية الخاضعة للعقدة «مح» ، ومن ثم تطبق ثانياً بالتسلسل على الجمل الأشمل التي تليها وهكذا إلى أن يتم تطبيق القواعد على الجملة بأكملها . وثمة خلاف حول ما إذا كانت بعض التحويلات الخاصة تطبق قبل السلسلة الرئيسة أم بعدها ، وحول ما يتحكم بترتيب القواعد في تلك السلسلة إن وجد) . وفي حالات أخرى اقترحت كليات نحوية لم تكن ترتبط بالقضايا التي طرحها تشومسكي لكن إعطاء مسح شامل للفرضيات التي قدمت خلال السنوات الأربعين الماضية مد أن نشر أول كتاب لتشومسكي ليس في صميم هذا العمل الحالي .

ومن الخصائص الجديدة بالانتباه في هذا البحث في الكليات أن الفرضيات تقدم بصورة قياسية على هيئة اقتراحات لتعديل نظام القوانين الرمزية Canonical notation system للوصف اللغوي ، أو لتعديل تفسير القوانين التي كانت مقولة من قبل حد على سبيل المثال مناقشة تشومسكي (Chomsky ، ١٩٦٨م ، ص ٤٠ . . .) لما يسمى عمداً «أ - فوق أ A-over A» . ومجمل القول ، فقد تم اقتراح هذه الفكرة لتفسير الصعوبة اللغوية التالية : إن من الممكن عادة تشكيل سؤال من جملة إخبارية في اللغة

(الإمليزية) بأن يبدل إحدى عباراتها الاسم بصمير استفهام وتقليم الصمير إلى بدنة، الخملة (مع إحراء بعض التعديلات في الفعل والأفعال المساعدة أيضا) بحيث تعطي الخمدة (١) الخملة (٢) إذا شئت أن يحول «الولد» إلى استفهام، ولكن من غير الممكن أن نشق السؤال (٤) من (٣):

١- الكتاب أمتع الولد.

٢- من أمتع الكتاب؟

٣- قرأ الكتاب الذي أمتع الولد.

٤- من قرأ الكتاب الذي أمتع؟

ويمكن ملاحظة حقائق مماثلة في اللغات الأخرى وتتمثل المشكلة في أن «الولد» في (٣) - وهي العبارة التي يجب أن تطبق عليها قواعد تشكيل السؤال لكي تعطي (٤) - عبارة اسمية تشكل جزءا من عبارة اسمية أكبر (وهي «الكتاب الذي أمتع الولد»). ونجد في الوقت نفسه أن عبارة «الولد» في (١) ليست مشمولة بأية عبارة اسمية أكبر لذا يقترح تشومسكي ما يلي: عندما تكون مكونات من النوع نفسه ضمن بعضها البعض فإن التحويلة تطبق على المكون الأكبر فقط. وهكذا نجد المثال (٣) «الكتاب الذي أمتع الولد» يمكن أن يتحول في صيغة السؤال إلى «ماذا قرأ؟»، لكن عبارة «الولد» وحدها لا يمكن أن تتحول إلى سؤال في المثال نفسه. وقد ثبت في الواقع أن المسألة أكثر تعقيدا من هذا، لكن هذا لا يعيب الآن، وما يهمنا هو التالي: إن تشومسكي لا يصوغ كلبته المقترحة على أنها تبيح بوجوب إضافة قواعد جديدة للقواعد التحويلية حين نحصل على وصف نحوي مناسب للغات العالم المختلفة، مع مراعاة أنها لا تطبق إلا على لمكون الأكبر من المكونات المضمنة nested ومن نوع معين. لكنه يقول (إن كانت فرضيته صحيحة) إن علينا أن نقل الآن تفسير صيغة القواعد التحويلية بطريقة تجعلنا نفهم ألبا أنها لا تطبق إلا على المكون الأكبر في مثل هذه الحالات دون الحاجة إلى نص صريح بهذا الشأن في أنواع النحو المنشورة للغات المتفرقة.

وثمة مناقشات مماثلة تراها في صدر رموز المصطلحات التي تحصر المجموعات

المتحصنة لمواعد المكونات (انظر تشومسكي Chomsky، ١٩٦٥م، ص ٤٢-٥٠)



فمن المؤلف أن يحتصر قاعدتين من القواعد المتبادلة ذات الشكل «أ — ب ج» و «أ — د هـ» باستعمال الأقواس الطويلة [ ] و / أو باستعمال العواصل كما في «أ — { ب ج ، د هـ }» وتحتصر قاعدتان مثل «أ — ب ج» و «أ — ب ج د» عادة باستعمال الأقواس كما في

أ — ب ج د (د)

ولا يناقش التشومسكيون ما إذا كانت لغات العالم تحتوي على ظواهر نحوية يمكن أن تنطبق عليها وبشكل مفيد مصطلحات للمحتصرات بواسطة الأقواس المتعرجة { } أو الأقواس الصغيرة، لكنهم يناقشون ما إذا كان من واجب نظام الرموز ذي القوائيم السماح بإدخال الأقواس الصغيرة أو الطويلة أو كليهما معا . وقد شعر التشومسكيون ، كما نلمس من خلال التطور التاريخي ، أن من واجب نظرية الكلبيات التي جازواها أن تكون مشمولة بنظام من الرموز . وقد بدأ تشومسكي ذلك بربط أن أي نظام رمزي مقبول (مثل نظام هاريس) يقوم على افتراض مسبق لوجود نظرية كاملة هي الكلبيات . وهكذا يرى أنه ما إن تصبح معالم النظرية وتعديل بعض نواحيها ، حتى تصبح الاستجابة الطبيعية لها إجراء تعديلات مقابلة في الرموز . وإذا نظرنا إلى هذا الإجراء من زاوية أوسع فإنه لا يبدو طبيعيا ولا محبدا أبدا ولنجر المقارنة التالية لكي نرى كم هذا الإجراء غير طبيعي : تشير إحدى الكلبيات الجيولوجية إلى أن جميع الوديان تتسبب إلى أحد نوعين : الأول وهو الوديان مسطحة القعر ، وهي على شكل الحرف U وهي التي تشكلت بفعل الحموديات ، والثاني وهو على شكل الحرف V وهو الذي سحنته المياه . ولو حذا الجيولوجيون حذو التشومسكيين لأصدروا تعليماتهم إلى رسامي الخرائط لكي يستعملوا نوعين من الرموز فقط لتمثيل الوديان بدل النظام الحالي وهو الذي يتألف من خطوط الحدود التي تبين أكثر من مجرد شكلين مختلفين من المقاطع . لكن الجيولوجيين بالطبع لا يفعلون شيئا من هذا القبيل ، وليس هناك من يرر بحملهم على فعل ذلك . فقدرة خطوط الحدود الكاملة على تحديد

مجموعة واسعة من أنواع الوديان في حرائط أراض معينة لا تمنع الجيولوجي المطري من ملاحظة مواعين فقط في هذا المجال موجودين بالفعل في جميع الأراضي، أو تمنعه من تفسير سبب ذلك.<sup>(٢)</sup>

والسبب في العروف عن معادلة النظرية الكلية بنظام الرموز هو ميل هذه المعادلة إلى تنفيذ عملية اختيار النظرية وتطويرها. ولنفترض أن النظرية الجيولوجية المفهولة كانت على خطأ، وأن هناك بالفعل نوعاً آخر من الوديان تشكل بفعل عملية لم تكن معروفة من قبل وهي وديان ذات مقطع على شكل الحرف W مع ارتفاع بسيط في قعر الوادي. وإذا أخذ الوضع الحالي في الاعتبار، بدت الفرصة سانحة أمام الجيولوجيين لاكتشاف خطأ النظرية المكتسبة حول تشكل الوديان بملاحظة أن بعض الخرائط المعينة تحتوي على أشكال لا تنطبق على النوع الأول U ولا على النوع الثاني V. ولو أنهم أصدروا تعليماتهم إلى رسامي الخرائط لكي يقتصروا على الرمزين لهدين النوعين فقط لما اكتشف الجيولوجيون النظريون بتاتا قصور نظريتهم. وسيبدل المساحون في الحقول قصارى جهدهم لإدخال الوديان ذات الشكل W ضمن الرموز المصطلح عليها. فقد يرسمونها كروح من الوديان ذات الشكل V، وفي هذه الحال تلقى التبعة على تعليمات النظريين أنفسهم لخلق الخرائط من أية معلومات ربما تساعد في اكتشاف أن المرتفعات بين هذه الأزواج من الوديان المتوارية هي أقل اعداداً من الجوانب الخارجية، على عكس الوديان العادية ذات الشكل V حيث نجد أن الطرفين يرتفعان بالزاوية نفسها. ولو تبين أن صحة النظرية لم تعد موضعاً للتساؤل عملياً، لأمكن عندئذ أن تكون هناك فائدة عملية في نظام وصفي لا يسمح بأكثر من الاحتمالات التي تعترف بها النظرية (الخريطة التي تمثل الوديان من النوع V والنوع U بواسطة رمزين متصلين قد تكون أقل اضطراباً). ومن المفصل مع ذلك أن يكون نظام الرموز مربواً إلى أبعد الحدود بحيث يمكن الاعتراف بالأمثلة المعاكسة ووضعها كما هي في الوقت الذي تكون فيه النظرية في طور التشكل وعرضة للتحدي.

وتصع جمع نظم الوصف بالطبع افتراضات حول الأشياء التي نعوم بوصفها حتى رموز الحدود بالسمة إلى رسام الخرائط ليست مرنة تماماً، فهي لا تسمح بمثل الوديان التي ميل جوانبها نحو الداخل مبلاً شديداً بحيث يكون قعر الوادي أعرض من

حسافة الفاصله بين الجانبين في الأعلى . وثمة أسباب هندسية واضحة تجعل وجود مثل هذه الوديان ضرباً من المستحيل . وهكذا فإن هذا النقص في رموز الخرائط لا يتسبب بأي ضرر . أما اللسانيات فأمرها مختلف . فالبحث عن الحدود في التسرع الحوي شيء جديد ، فهناك الكثير من لغات العالم لم تبحث من هذه الراوية . وثمة حلاوت كثيرة حول تفسير البرهان الذي عرضنا له آنفاً . وإذا أردنا أن يكون السهام حليف البحث ، فإن رد فعلنا على الحمود في الرموز الوصفية القياسية يجب أن يكون تشجيع المشتغلين في الميدان على تبديل الرموز بهدوء كلما سنحت الفرصة لذلك ومن تبدل جهداً بالتأكيد لكي نقيّد بأسلوب وصفي أكثر صرامة من الناحية الشكلية من الأسلوب الذي ورثناه

ومما لا شك فيه أن النتائج السيئة التي يحتمل أنها مشأت من جراء تنبي لحيولوجيين لمبدأ « النظرية تساوي الرموز » تظهر واضحة في اللسانيات التشومسكية فمما فخر الثورة التشومسكية أصبح من المألوف في دراسة اللسانيات أن يبدأ الباحث بتركيز اهتمامه بصورة أساسية على إتقان نظام الرموز والمصطلحات النحوية . فقد أصبح هذا النظام في منتهى الدقة مع شوء نظرية الكليات اللغوية . ويشجع مثل هذا التدريب شكل واضح الطالب على رؤية الأمثلة في اللغات التي يجري البحث فيها وفي السمات التي تعلم أن يصفها وعلى تجاهل السمات التي لم يتوصل إلى وصفها . وبعبارة أخرى يجب تدريبه على رؤية أمثلة الإثبات في نظرية الكليات وعلى تجاهل البراهين المعاكسة . وكان من تأثير الموقف المتشدد الذي يتخذه أعضاء هذه المدرسة تجاه الأعمال الوصفية المحفزة أن رادت هذه الناحية السلبية في اللسانيات التشومسكية سوءاً . وربما يخطر ببال المرء أن من دواعي سرور أية مجموعة تهتم باكتشاف السمات الكلية هي اللغة وحود لسانيين آخرين يسعون إلى وصف اللغات المختلفة في حدوداتها . وتشجيع أنصار كليات مثل هؤلاء الناس على المضي في أعمالهم . فمثل هذا التورع في الجهد يعني أنه بدلاً من قيامهم بأعمالهم الشاقة في الميدان فإن أنصار الكليات يحصلون على الكثير من المعلومات التي يحتاجون إليها جاهرة سلفاً . لكن التشومسكيين لم ينظروا إلى لفظة دائماً بهذا المظار ، فقد ذهب أعضاء هذه المدرسة مرة أخرى إلى الادعاء صراحة أنه ليس للعمل اللساني الوصفي المحض حق في الوجود (انظر مثلاً شرايبر Schreiber .

(١٩٧٤م). وعلى النقيض مما كانت عليه الحال في أمريكا قبل دخول المدرسة تشومسكية عالم الشهرة، وخلال الفترة العظيمة من الستينات والسبعينيات، تدب الأبحاث الميدانية التي كانت تجرى على اللغات الغريبة وكأنها فن يحتصر، دعم النتائج النصاره الواضحة التي يتركها هذا على البحث عن الكليات. فذلك البحث وما له من علاقه باللسانيات الوصفية للخصه، يمكن أن يمارن بأعمال النظريين بالنسبة إلى أعمال التجريبيين في موضوعات كالقيرباء والكيمياء. فمن يتابع هذه الموضوعات يعرف أنها لا يمكن أن تحقق أي تقدم إلا من خلال التعايش السليم بين المفكرين من كلا السوعين. وثمة سبب آخر قد يبرر تبني تشومسكيين لبدا «النظرية تساوي الرمز» رغم أنه لا يقلل من صلح الصرر الذي يتج عنه. ويتعلق هذا السبب بالمصامير التي يعتقد تشومسكي أنها تأتي من وجود الكليات اللغوية، وسوف بحث الآن في هذه المصامير قبل أن نفسر كيف ترتبط بمبدأ «النظرية تساوي الرمز».

إن اعتقاد تشومسكي بأهمية دراسة الكليات في اللغة الإنسانية جعل الفلاسفة وعلماء النفس يولون اهتماما كبيرا في السوات الأخيرة، الأمر الذي أكسب اللسانيات أهمية أكثر من ذي قبل. ويقول تشومسكي إن تفسير اشتراك جميع لغات العالم بقالب واحد (على افتراض أنها فعلا تشترك في هذا) يكمن في أن تركيب العقل الشري الموروث يجبره على استعمال لغات من هذا النوع بالتحديد. أما أسلاف تشومسكي الوصفيون فكانوا من التجريبيين الذين يعتقدون أن الناس يتعلمون ما يمكنهم تعلمه بعض مروة العقل الشري الهائلة وقدرته على استيعاب ما يصادفه من الخبرات مهما كان نوعها وعلى صم القوالب لها. أما تشومسكي فهو عقلاني، ويسير على خطى أفلاطون Plato وديكارت Descartes، كما يؤمن بأن للعقل تركيبا في غاية شبات وشفيد يحدد شكل شاطه إلى حد كبير. فما بقدر على تعلمه لا يعتمد على الحوافر اسي بصطدم بها بمحض الصدفة بقدر ما يعتمد على ملائمة شكل تلك الحوافر لإيقاظ درائنا الذهنية الكامنة. وليس لدى التجريبيين أي سبب مهما كان يجعلهم سو قعود أن يكون نوع معين من اللغات طبيعيا أكثر من نوع آخر. ومن ناحية أخرى يرى تشومسكي أن اكتساب اللغة عند الطفل ليس سوى ملء نفاصل سيطرة سبيا في حطة سيوة مكتوبة سلفا. ويعول تشومسكي إنه لو حاول أحدا أن يعلم الطفل لغة لا تتفق

مع تلك الخطه لما تمكن الطفل من إتقانها مهما كانت بسيطة . صحيح أن اللغات الافتراضية التي لا تمتلك ترتيباً هرمياً تبدو دوماً مصطنعة حتى أن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل كيف يمكن أن تستعمل كنظم تواصل في الحياة العملية ، غير أن هذه النقطة لا يمكنها أن تنال من قوة حجة تشومسكي . إنها فقط تعيد طرح السؤال الذي يدعي تشومسكي الإجابة عنه . نحن نعرف أن اللغات غير الهرمية ليست طبيعية بالنسبة لشيء البشر ، ونريد أن نعرف السبب . ويدعي تشومسكي أن السبب هو أننا مولودون بعقول مبرمجة تبعا للغات هرمية البنية .

لقد ناقشت هذه الجوانب الفلسفية العامة من أعمال تشومسكي وانتقدتها بصورة وافية في أماكن أخرى (شكل اللغة Form of Language والحرية واللغة Liberty and Language والتبسيط Making Sense) . وربما كانت أقرب كتابات تشومسكي المختلفة بالنسبة للقارئ العادي هي ما كتبه في عامي (١٩٧٢م) و(١٩٧٦) . واللغة في عرف تشومسكي مجرد مصدر واحد لإقامة الدليل لصالح العقلانية كروية عامة للطبيعة الإنسانية (مع أنها حالة واضحة بصفة خاصة) . (وبالنسبة فإن المنهج العقلاني الذي يتبعه تشومسكي في دراسة اللغة يبين بوضوح تأثير رومان باكوبسون ، وينعازص تعارضاً مباشراً مع الفرضيات التي وضعها أسلاف تشومسكي الأمر يكون بدون استثناء حسب اعتقادي) .

وفي نهاية هذا الفصل سأبين أن تشومسكي على صواب في اعتقاده بوجود بعض الكليات غير الضرورية مطلقاً (أي أنها وليدة الصدفة) في البنية اللغوية . وربما كان على صواب أيضاً في ادعائه أن هذا هو دليل لصالح الغير العقلاني للعقل . لكن الأرجح يولي علينا أن نقول أيضاً إن الكليات اللغوية لا تعتبر بالنسبة إلى تشومسكي واتباعه اكتشافاً طهر نتيجة أبحاثهم بالرغم من توقعاتهم ، لكنها تعتبر افتراضاً مرشداً يحدد طبيعة الفرضيات التي يقدمونها من أجل تفسير المعلومات . وسارع الشومسكيون دوماً لاقتراح تفسير ضمن نطاق الكليات للمعلومات التي قد يكون لها تفسير لا يعتمد على أساس الكليات nonuniversalist إن كان المرء على استعداد للبحث عنه . وعندما تكون مثل هذه التفسيرات باطلة فإن من الممكن دحضها طبعاً برهان معكس من اللغات الأخرى . لكن إيجاد مثل هذا البرهان المعاكس ونشره يحتاج للكثير

من الوقت لهذا السبب (ولأسباب أخرى سأناقشها فيما بعد) قيل مدرسة تشومسكي في جميع الأوقات نحو الاعتقاد بوجود نظام أكثر ثراء من فرصيات الكلبيات مما يدعمه في الواقع.

وسأصرب مثلاً عن الاندفاع نحو الكلبيات الذي تصادف أنه يتعلق بعدم الأصوات الوظيفية بدلاً من النحو لكنه يتميز بالوضوح بصفه خاصة (رغم أنه لا يمثل حانة شادة) فقد لاحظ اللساني بول كيبارسكي Paul Kiparsky (١٩٧١م) وجود اختلاف بين العبرية الإنجيلية والعبرية الحديثة المستعملة في فلسطين المحتلة. ففي العبرية الإنجيلية يلاحظ أن جميع الانفجاريات [p, t, k, b, d, g] تتبادل مع ما يقابلها من الأصوات الاحتكاكية [f, x, v, ɣ] ولم يبق من المجموعة الثابتة في العبرية الحديثة سوى [f, x, v]. ويطرح كيبارسكي، وهو يحاول تفسير هذه الظاهرة، مدداً دقيقاً في الكلبيات يتناول تحول الأصوات. ومن الطبيعي أن يتعرض كيبارسكي للانتقاد لأنه يبني فرضيته عن الكلبيات اللغوية على ظاهرة وحيدة في لغة واحدة. ولكن يبدو من سياق مقالته أن هذا معقول إلى حد ما. (فهو يشير إلى شبه صليل مع ظواهر معينة في لغات أخرى). والنقطة التي أريد أن أثبرها هنا هي أن هناك تمسكاً آخر ضمن معطيات تخصص العبرية بدلاً من معطيات تخصص الكلبيات اللغوية لم يكلف كيبارسكي نفسه عاء النظر فيها. فعلى مدى ما يقرب من ألفي عام، وبين انقراض العبرية الإنجيلية وظهور الحركة الصهيونية الحديثة كانت العبرية لغة ميثية يتعلمها اليهود كما يتعلم الإنجليز اللاتينية. وبما لا شك فيه أننا لا نلفظ اللاتينية بأصوات عربية مثلما كان يعمل الرومان، لكنك نلفظها بأصوات مستمدة من لغتنا الأم. وطيلة القرون الماضية كانت الألمانية اللغة الأم لعامة اليهود الأشكنازيين (الأوروبيين الشرقيين) الذين شكلوا الحركة الصهيونية. ولقد تصادف أن الألمانية تحتوي على الأصوات [f, x, v] وليس على [θ, ɣ] هذا كله معروف غامماً، ولكن من سمات منهج تشومسكي في دراسة اللغة أنه يهتم احتمال تفسير اللغة بالرجوع إلى حقائق معينة ملموسة وأنه يحاز إلى وضع نظريات في الكلبيات اللغوية للجردة.

ولبعد الآن إلى المبدأ الفائل إن نظرية الكلبيات اللغوية يجب أن تكون محطه معجموه رموز اصطلاحية متفق عليها من أجل وصف كل لغة على حدة. وإد أحد

التفسير العقلاني الذي يطرحه تشومسكي للكليات اللغوية، وحينما أن أهمية هذا المدأ تكمن في مساعدتنا على التمييز بشكل واضح بين عناصر السمة اللغوية التي نعرفها الصعل «قبل أن يبدأ» وبين المعلومات التي ينبغي عليه تعلمها من خلال التأثير مكلام والديه والآخرين. والنظرية العامة التي تحدد الرموز والتفسير الملائم للرموز تقابل الملكة اللغوية لموروثه. والقواعد في أية لغة من اللغات لا تصم سوى العناصر التي ينبغي على امرء أن يتعلمها. فمبدأ «أ - فوق - أ» الذي يخص تطبيق التحويلات هو من الكليات، وبالتالي فهو كامن، وهذا ما يجعل الطفل في غنى عن تعلمه ويعفي القواعد الإنجليزية من ذكره صراحة. أما المصطلحات المتعلقة باستعمال الأقواس فإن إدخالها ضمن مجموعة القوانين الرمزية يكون ملائما إذا كان الأطفال مرمجين سلفا من أجل استنباط تلك القولية التي تمثلها هذه الأقواس من خلال التجربة. وإذا كان الأطفال مرمجين بهذه الطريقة، فإن البنية النحوية التي يمكن وصف جزء منها بالقاعدتين «أ — ب ح» و«أ — ب ج د» ستكون أبسط بالنسبة للطفل من بنية مشابهة تحتوي بدلا عنها مثلا «أ — ب ج» و«أ — هـ و ز». ويعكس استخدام الأقواس الساطة النسبية المتمثلة في السماح للقاعدتين الأوليين بأن تختصرا إلى «أ — ب ج (د)»، بينما لا يمكن للقاعدتين في الحالة الثانية أن تكتبا بهذه الصورة المختصرة. وهكذا بمجرد أن نكتشف نظرية صحيحة عن الكليات اللغوية ونجسد ضمن نظام الرموز الذي يقابلها، فإن الطبيعة السية عند بني البشر حول اللغة، حقيقة كانت أم افتراضية، يجب أن ترتبط مباشرة بطول أقصر وصف ممكن لتلك اللغة تسمح به القوانين الرمزية (بلمريد من المناقشة انظر سامسون Sampson، ١٩٧٦ م وهرفوردد Hurford، ١٩٧٧ م) وبشكل هذا حاصر المبدأ «النظرية تساوي الرمر» الذي لا نظير له في الفضية الحيولوجية، مع أن ذلك الحاصر، وكما ذكرنا آنفا، لا يمد في تخفيف الآثار الصارة لذلك المبدأ. ويعلم كثير من العلماء على إجراء البحوث اللغوية دون أن يكون لديهم كبير اهتمام بالفلسفات العامة لطبيعة البشر التي افترض وجودها مسقا تشومسكي وأمثاله انتحرييون من قبله. ولعل أبرز الفوارق وأشدّها استمرارا بين اللسانيات التشومسكية ولسانيات المدرسة الوصفية قضية منفصلة عن تلك التي نوقشت آنفا (رغم ارتباطها بها) ألا وهي قضية أسلوب البحث. فباعتقاد تشومسكي أن مصدر المعلومات الملائم

في التحليل اللغوي هو «الحكم النابع من الخدس» الذي يصدره الناطقون مثل تلك اللغة (وللمزيد من المراجع حول التصريحات المختلفة عن رأي تشومسكي وأتباعه، انظر مثلاً بوتا Botha، ١٩٦٨م ص ٧٠، و لايوف Labov، ١٩٧١م وديروبنغ Derwing، ١٩٧٣م ص ص ٤٠ - ٤٢، وكتابي «شكل اللغة» ص ٢٠٢) فعندما يقول أحد الرصمين عن سلسلة معينة من الكلمات إنها جملة إنجليزية، ويجب بالتالي أن تعالجها المراعد الإنجليزية، فإنه يريد أن يقول بصورة عامة: «أعتقد أنني صادقت قصايا من هذا النوع بطق بها بعض المتحدثين بالإنجليزية وإن كان لدى أحدكم شك في هذا فاب عن استعداد للبحث عن برهان وثائقي أدم به ادعائي» أما عندما يقول أحد أتباع تشومسكي عن سلسلة معينة في اللغة الإنجليزية إنها سليمة نحويًا فإنه يعني بصورة عامة: «هذه الجملة تبدو لي سليمة باعتباري أحد الناطقين بالإنجليزية، وليس هناك في الواقع أي احتمال للجدل لأن خدسي هو مصدر السلطة على الأقل بالنسبة للهجتي الإنجليزية الخاصة التي أقوم بوصفها» إن استعمال المعلومات المستقاة من الخدس بدلا من العمل الميداني يوفر الكثير من الجهد في البحث اللغوي، ويقلل في الوقت نفسه من فرص إثبات خطأ التحليل المردي (على الأقل بمعايير المحلل نفسه). وللهذين السنين، اجتذب منهج تشومسكي كثيرا من اللسانيين ممن لا يكثرثون بادعاءاته حول النية العقلية الموروثة.

ويسلخ توفير الجهد أوجه عندما يستعمل الإنسان خدسه الخاص حول لغته الأم. ويقل أثر الخدس إلى درجة كبيرة إذا كان المرء يبحث في لغات «عريبة» لأن الجهد الذي يبذل في تدريب شخص ينتمي إلى ثقافة أخرى لكي يتعرف على خدسه النحوي ويصدر أحكاما متساقفة بشأنه يشبه الجهد الذي كان يبذل قديما في العمل الميداني حين كان من المعتاد أن «يقبل الإنسان كل ما يقوله المتكلم الأصلي هي لغته وألا يقبل أي شيء» يقوله عنها» لذلك انجذبت المدرسة التشومسكية نحو التركيز على الإنجليزية وعدد قليل من اللغات الأوروبية الأخرى اختصارا للوقت، وبذلك نالوا من الوقت أقل مما بدله الرصميون في دراسة اللغات العربية. ومرة أخرى يرى أد من الواضح أن هذه لسانه تقلل كثيرا من فرص النجاح في تطوير نظرية الكليات اللغوية حتى لو كان الخدس مقبولا كأساس لتحليل أنه لغة من اللغات.



ورعما تصهم اعتقاد تشومسكي بأن الحدس مقبول، لأن هذا وليد عقلانيه  
محور العقلانية الفلسفية يقوم على الاعتقاد بأن المعرفة تكمن في داخلنا منذ البداية،  
وأن «التعلم» لا يعني سوى التعرف على ما هو موجود في أذهاننا مسبقا والتعبير عنه  
بكلام، ولا دخل للملاحظة العالم الخارجي في ذلك تقريبا. [إن تشومسكي صريح  
تماما بشأن العلاقة بين منهجه في اللسانيات والعملانية الفلسفية عند أفلاطون  
وديكارت. انظر مثلا تشومسكي Chomsky، ١٩٦٦م، ١٩٧٦م، ص ٦ - ٨]  
ولكن بالرغم من إدراكنا خطأ تشومسكي، إلا أننا لا نستطيع أن ننظر إلى توسيع  
العقلانية الفلسفية بعين الحد بحيث تشمل قضية المنهجية اللغوية - فحتى المتطرفون من  
الفلاسفة العقلانيين يعترفون بأن الإنسان يدرك العديد من القصايا الواقعية من خلال  
التجربة فقط، وما كان ديكارت ليقول «كنت أعرف منذ الولادة ما لون الثوب الذي  
سرتديه زوجتي اليوم» على سبيل المثال. ومن الواضح أن كل متكلم يعرف عددا لا  
بأس به من الحقائق عن لغته، حتى أن من يؤمن بالمذهب التجريبي يُدهش إن فاته ذلك  
خاصة إذا ما أخذ بعين الاعتبار فرص ملاحظتها التي أتاحت له. وإذا ما دعونا أنفسنا  
للسؤال عما إذا كان لدى الناطقين باللغة مصدر داخلي للحقائق السلطوية سواء المتعلقة  
بلهجاتهم الخاصة أو باللغات الأشمل التي يتكلم بها أفراد مجتمعهم، وجدنا أن كافة  
الاحتبارات التي تخطر بالبال ستعطينا الجواب بالنفي القاطع. أما في حال النحرفون  
المعرفة المتاحة للناطقين باللغة (بمعنى أنهم يعرفون أن... ) لا توازي مطلقا (معرفتهم  
كيف أن... )، فعابا ما يرتكب المتكلمون - وبنية سليمة - أخطاء مباشرة ومدهشة  
في أحكامهم المخلصة حول أسط الأمور في لغاتهم (وكما ذكرت سابقا فإن هذه  
القصة أنشأها ويليام لايف بشكل مقع عام ١٩٧١م و١٩٧٥م، انظر سنو Snow، وماير  
Mejer، ١٩٧٧م). والحدس الحوي عند اللسانين أنفسهم أخير ما يمكن الاعتماد  
عليه فاللغوي لديه مصلحة ثابتة في كون أحكام نحوية معينة صحيحة (على العكس  
من لفظي باللغة العادي). فاللساني يرى بعين واحدة أن من المفيد له أن يكون سائسه  
معبه وغير مألوفة من الكلمات سليمة نحويا، رعا لأنها تجعله قادرا على إبراز قسم من  
لغز أعد الإغليزية التي يكتسها بشكل أتيق بصفة خاصه، أو لأنها تشكل مثالا معاكس  
نظرية منه الأساس للكميات وبهذا تمنحه الشهرة وكأنه داوود الذي يقبل النظرية

فهو يفكر في سلسلة الكلمات في ذهنه مدة من الزمن وفجأة «هلموا وانظروا!»، إنه نوصّل من خلال خدمته (وهو مخلص النية تماماً) إلى حكم حكمي واضح بأن التسلسلة سليمة نحويًا (في «لهجته»). ومثل هذا الأمر يتكرر مرات ومرات في اللسانيات من المدرسة التشومسكية. ومن الواضح أن نتائج مثل هذه الأبحاث لا قيمة لها. ومن الممارقات أن تشومسكي يبين كيف يمكن للتحليل التحوري أن يكون علماً من العلوم بطرحه فكرة السلامة الحورية في اللغة كخاصية ذات مدى محدد تماماً مع أنها لا نهائية. لكنه بدعوته لاتباع منهج الحدس إنما يؤكد في الوقت نفسه أن التحليل التحوري لم يعد علمياً في واقع الأمر. ومن حسن الحظ أن حل هذه المشكلة بسيط إن كان في إمكان إقناع اللسانيين بتبنيه، ويتمثل بوجود توقف اللسانيين عن كتابة (شتي) أنواع السور لكي يولدوا السلاسل التي يشعرون أنها سليمة نحويًا، ويجب عليهم بدلاً عن ذلك أن يقيموا قواعدهم على ما يلاحظونه منطوقاً أو مكتوباً أو كليهما معاً (أشار بعض التشومسكيين إلى وجود أسباب مبدئية وراء عدم إمكانية إنتاج أنواع «موضوعية» من القواعد من هذا النوع، لكن هذه الآراء سادجة (انظر «شكل اللغة» الفصل ٤)). ومن المهم أن ندرك أن الحدس بالنسبة إلى تشومسكي ليس مجرد مصدر تكميلي للمعلومات اللغوية، بل إن له سلطة فعلية لا تتمتع بها الملاحظة. فعندما يصطدم الاثنان يصبح الحدس في رأي تشومسكي هو المرجع الذي يحدد طبيعة القواعد التي يضعها اللساني. وحتى الوصفيون براهم يستعملون الحدس باعتباره «طريقاً مختصرة» بدلاً من محاولة توثيق كل ملاحظة من ملاحظاتهم حول اللغات التي يعرفونها. ولكن إذا ما تعرضت أية ملاحظة معية للتحدي، فإن الوصفيين صمدت سبباً عن دليل موضوعي يدعمون به آراءهم (بدلاً من إضاعة الوقت في مناقشة قوة حدسهم)، وهذا حل ما يطلبه من أي علم تجريبي. أما عند تشومسكي فلا يحور الاستعانة بالدليل الموضوعي في مثل هذه الحالات. وقد رأينا أنه يستعمل مصطلحي «المقدرة» و«الممارسة» كي يميز الدعة كنظام عن الأمثلة المفردة التي تمثل هذا النظام. إلا أن تشومسكي يستعمل هذين المصطلحين بطريقة أخرى. (إن القلب باستعمال المقدرة والممارسة من أهم أسباب المشكلات في فكر تشومسكي، ومن سوء الحظ فإن مثل هذه المفاهيم المضطربة لاقت قبولاً واسعاً على الشكل الذي نراه. انظر فودور Fodor وغاريت Garrett،

١٩٦٦ م، وموراڤتشيك Moravcsik، ١٩٦٩ م). وثمة حالات كثيرة تولد فيها القواعد «حملة» لا يطقها أي شخص بالفعل لأنها مثلاً طويلة جداً للدرجة بتعذر معها استعمالها عملياً. ففي مثل هذه الحالات يقول تشومسكي إن الجملة هي في نطاق مقدرتنا أي أنها سليمة نحويًا بمعنى أننا ندعي الشعور بأنها سليمة نحويًا بالرغم من أنها لا تظهر في «ممارسة» للغة. وهذا يعني أن «المقدرة» هنا هي تلك الفئة من السلاسل التي يمكن للغة المثالية، بالمعنى الأفلاطوني تقريباً، بينما تكون «الممارسة» فئة السلاسل الواقعة في اللغة الناقصة والتي ينطق بها الناس في هذا العالم.

إن تشومسكي على صواب في العديد من الحالات حين يقول إن هناك فوارق بين ما تنبأ به القواعد التي يكتبها اللساني عندما تؤخذ في معزل عن الكلام، وبين الكلام الملاحظ. لكن هذه الفوارق لا تزيد استعمال المعلومات الصادرة عن الحدس، بل تزيد المبدأ القاضي إنها بعدم صحتها عن بعضها البعض (نظراً لأن معتقداتنا ونظرياتنا المختلفة تؤثر في تسويات بعضها البعض)، وهذا مبدأ ثابت في العلوم التجريبية (شكل اللغة Form، ص ٦٦). ومن الحقائق التجريبية الثابتة أن زمن انتباه الإنسان محدود، وهذا بدوره يؤدي إلى تسويات حول أطول الحمل التي يقدر على نطقها والتي تفوق تسويات اللساني التي تقول إن من الممكن نطق أية سلسلة طويلة إذا كانت تتفق مع القوالب النحوية الموجودة في عبارات أقصر منها. وفي حالات أخرى (انظر المرجع نفسه، ص ٢٣٧) ليس ثمة مبرر لوجود الفوارق بين «الغة المثالية» التي تولدها قواعد تشومسكي واللغة الحقيقية الملاحظة، أي أن القواعد التشومسكية هي وبكل بساطة على خطأ.

إن الخطأ الذي ارتكبه تشومسكي في مجال المنهج هو في الواقع الخطأ عينه الذي ارتكبه لسلوكيون والذي ناقشته في الفصل الثالث، فيما عدا أن خطأ تشومسكي جاء معكوساً. فباعتقاد «السلوكيين غير الموقنين» أن ليس هناك شيء يحكم فيه حدسنا لأن من المحظور على العالم أن يستعمل الحدس كدليل. ويعتقد تشومسكي (وهو على صواب مع أن عقلانيته قد تقوده إلى التشديد على هذه النقطة بشكل خاص) أن لدينا عقولاً معقدة ذات حياة خاصة بها نستطيع التوصل إليها بفضل حدسنا. ويستنتج أنه لا بأس من استعمال الحدس كدليل في وضع التنظير العلمي. إن كلا هاتين الحججتين لا

نقل سوءا عن الأخرى. فالاعتراض على دليل الخدس في العلوم لا يُعزى إلى عدم وجود شيء يسمى الخدس، بل يُعزى إلى أن الخدس، مع أنه عرصة للخطأ شأنه شأن الملاحظة، لا يمكن أن يتقد بشكل بناء على النحو الذي تتعد فيه تقارير الملاحظة. وحين يتحول النزاع بين المهتمين بوضع النظريات إلى أنواع متصارعة من الخدس، تصبح المهارات الوسيطة الوحيدة لحل ذلك النزاع. وتتميز الطريقة العلمية في إعطائها الإنسان في تلك الميادين الفكرية التي تطبق عليها (والتي تنحصر دراسة النحو) الوسيطة بل ارتقاء فوق مستوى المهارات.

ومن حسن الحظ أن المهارات بمعناها الحرفي نادرة حتى بين أتباع تشومسكي. لكن الملاحظ في تلك المدرسة أن فئة صغيرة من العلماء نحتت في اجندات الاهتمام (سواء بقوة شخصية أفرادها، أو بقرينهم المعروف من مؤسس المدرسة، أو بطرق أخرى) ضائع هؤلاء في استعمال حالة السلطة التي لديهم حتى أصبحت أضعف نكهاتهم تؤخذ على أنها مساهمات فكرية مهمة، بينما أهملت أعمال الآخرين إلى أبعد الحدود. (نوقشت هذه الظاهرة في أعمال أنيلا Annila، ١٩٧٥ م، وهاوسهولدر Householder، ١٩٧٨ م ص ١٧٠، وفيو من Newman، ١٩٧٨ م، ص ٩٢٧). وعندما يستبعد التوافق مع الملاحظة من أساسه كمقياس للمفاضلة بين النظريات فلا بد عندئذ من أن يحل محله مقياس قوة الشخصية السببية التي يتمتع بها المهتمون بالنظرية أنفسهم - أي أنه سيستبدل في الواقع بحث النظام الذي كان سائدا في القرون الوسطى والذي كان قائم على النقاش من موقع السلطة.

ومن الصعوبات العملية التي يواجهها من يشارك تشومسكي اعتقاده بوجوب استثناء المعلومات الحوية من الخدس معرفة أنواع الحقائق التي تتعلق بلغة المتحدث الأصلي والتي من المفترض أن يكون قادرا على إدراكها بحدسه. وينبغي لجميع التشرمسين على أن بإمكان المرء أن يحكم بالخدس على الوضع الحوي لسلسلة معية من الكلمات. لكن معظمهم يذهب إلى أبعد من هذا بكثير. فنشومسكي على سبيل المثال، لم يقم الدليل الحوي (كما فعل هاريس) على فئات الأشكال التي تظهر في فواعله. فهو يحكم خدسه بكل بساطة لكي يقول إن المصطلحات التي يرثها من الإسكندرانيين Alexandrians (كالاسم والمعل... إلخ) هي مصطلحات

صحيحة<sup>(١)</sup> ويشير بعض الكتاب على ما يبدو إلى أن باستطاعتنا أن نستخدم حدسا في الحكم على شجرات «البنية السطحية» المرتبطة بجملةنا وليس «البنية العميقة» (وبالطبع فإن المتحدث العادي غير المتعمرس في اللسانيات يحتاج إلى تلقين حذر لكي يتمكن من التعبير عما يليه عليه حدسه النحوي. لكن هذا لا يؤخذ كتعديد لفكرة أنه كان يعرف) الحقائق على الدوام - انظر لانجندوين Langendoen ، ١٩٦٩ م الفصل الثاني ، إن فصول اللسانيات تختلف عن المحاكم القصائية في أنها تبيح الأسئلة الإيحائية) ومن الطبيعي أن القضية لا تناقش بصراحة إلا لئلا<sup>(٢)</sup> وهي اعتقادي أن من جملة الأسباب وراء نفاذ صبر التشومسكيين إزاء العمل الوصفي المحض أن النتيجة المنطقية لأراء تشومسكي حول المهج تبين قدرة المتكلمين في نهاية المطاف على التوصل بأحدس إلى كل ما يتعلق بقواعد لغتهم ، بحيث يتكون وصف أي لغة من مجرد إعادة قولبة «ما يعرفه كل متكلم» . فالنظرية اللغوية الكلية هي وحدها القادرة على احتواء الإضافات الأصلية إلى حصيلة المعرفة البشرية . (وقد أشار أحد التشومسكيين إلى أن يدين حدسا سلطويا حول الكليات اللغوية ، باح Bach ، ص ص ١٦٥-٦ . وقد ينتج هذا بالفعل عن اعتماد تشومسكي بأن الكليات اللغوية تقابل المعرفة الكامنة باللغة) ومن جملة نتائج موقف تشومسكي من الأحدس تلك المتعلقة بعلم الدلالة . وكما رأينا في الفصل الثالث فإن بلومفيلد شعر - وهو على حق في ذلك - أن البنية الدلالية للغة ليست مفتوحة أمام البحث العلمي ، على الأقل من الناحية العملية . فالتحوي يتعلق بانتماء سلاسل من الكلمات إلى لغة ما ، ويومئنا أن نتأكد من هذا بصورة موضوعية بأن نصغي إلى السلاسل التي ينطق بها المتكلم أما علم الدلالة فيتعلق سلاسل من الاستنتاج تمكنتنا من الانتقال من مجموعة من المعتقدات أو العرضيات إلى مجموعة أخرى . وتبين من هنا أن ما نلاحظه هو أطراف السلاسل فقط . فكل معتقد يتولد في ذهن من خلال ملاحظته العالم الخارجي (الذي نستطيع ملاحظته طوال الوقت) ويتوصل المرء بالمقابل إلى نتيجة تجعله يتصرف بطريقة ملحوظة عن طريق محاكاة العقلية لكن «المدخلات» و«الخرجات» الفردية ترتبط عادة فيما بينها بواسطة سلاسل طويلة من المحاكمات العقلية بشكل لا يسمح بإعادة بناء الخطوات المتوسطة على أساس المعلومات الموضوعية حول التفاضل الطرفية . فكل خطوة متوسطة معينة لا

يمكن أن نلاحظ بكاملها. (ولا نستطيع أن نلاحظ شخصا وهو يستنح أن «صديقي متروح» من الجملة «عند صديقي ثلاثة أطفال»<sup>(١٠)</sup>.

ومن النقاط التي استعصت على فهم بلومفيلد أن المشكلة لم تكن مجرد صعوبة عملية تتعلق بكون العلاقات بين المدخلات والمخرجات غير مباشرة فحسب. فقد بين لنا عدد من الملاسمة مثل كارل بومر Karl Popper، ١٩٤٥م، وويلارد كواين Willard Quine، ولودفيغ فيتغنشتاين ١٩٥٣م، ورسيل هاسون Russel Hanson، ١٩٥٨م، وجوناثان كوين Jonathan Cohen، ١٩٦٢م أنه حتى لو كان بالإمكان ملاحظة التكهات الفردية فإن من غير الممكن معالجة البنية الدلالية للغة بصورة علمية لأن السية الدلالية غير ثابتة. فالإعليري يني جملة تبعا لقاعدة نحوية تظل (تقريبا) ثابتة خلال الرمن وبين المتكلمين، ولكن عند اتباع طريقة الاستنتاج في الانتقال من جملة إلى أخرى فإن نشي القواعد بانتظام، ونعدلها باستمرار طوال مسارها. إن السؤال عما إذا كانت الجملة «عند صديقي ثلاثة أطفال» تتضمن أن «صديقي متروح» هو أقرب إلى السؤال «هل هذا الجسم جميل؟» من السؤال «هل هذا الجسم مستدير؟» فمجموعة الاستنتاجات الصحيحة هي أية لغة حقيقية (على الفيض من «اللغات» المصطنعة التي يسيها المنطقة) ليست مجموعة محددة تماما، بل تخصص للتعديل باستمرار وبشكل لا يمكن التنبؤ به من خلال دكاء الإنسان المبدع. لذلك فإن البنية الدلالية للغة لا يمكن أن تناقش إلا بطريقة سردية لا تبي فيها وتناسب الموضوعات السية بدلا من أن تحلل تحديلا علميا، لا لندرة المعلومات ولكن لأنها في حال توفر البرهان الموضوعي ستفند فوراً أي تحليل مقترح.

ولم يستطع اللسانيون التشومسكيون استيعاب هذه النقطة أبدا، مع أنهم عاحرون عن الادعاء كما يفعل أنصار بلومفيلد، بأن النقطة التلمسية قد وُضعت بعد انقضاء زمانهم. ومن جملة الأسباب في هذا المقام أن تشومسكي نفسه (بالاشتراك مع العديد من أساعه) صلبا فيما دعي بخطأ «العلمية» (هايك Hayek، ١٩٥٥م) فهو ينحيل أن أي موضوع قبل المناقشة يمكن أن يعالج بطريقة علمية (انظر مينا Menta، ١٩٧١م، ص ٢١٢)<sup>(١١)</sup> إلا أن مهج تشومسكي المسي على الخس عامل آخر أسهم في سوء فهمه لطبيعة علم الدلالة. فعندما يحكم المتكلم الأصلي حكمه حول النحو

في لعمري، فإنه يصدر أحكاماً تقريبية غامضة ومتحركة نوعاً ما وتقرب من الحقيقة إلى حدٍّ معين. ويقول تشومسكي إن هناك بنية نحوية معقدة ودقيقة وواضحة تمام الوضوح ضربت منها هذه الإشارات. وهو محق في قوله هذا، مع أننا لا نملك مسالاً فراضاً أن المتكلم يعرف تلك السبب معرفة صمنية. ولو طلب إلى المتكلم أن يحكم حكمه حول معاني كلماته، لأصدر مرة ثانية عبارات عامة وغامضة ومتحركة. ومن الطبيعي أن بتحليل التشومسكيون مرة أخرى وجود عبارة دقيقة وكاملة تنتظر التعبير عنها. أما في علم الدلالة فلا وجود لمثل هذه العبارة. ويستطيع اللساني الذي أوتي حدساً جيداً بالطبع أن يرسم معالم نظرية علمية تهدف إلى وصف الجانب الدلالي من اللغة. وهذا ما فعله العديد من اللسانيين التشومسكيين بدءاً من كاتز J.J Katz وفودور A. Fodor، ١٩٦٣م وما بعدهما. إلا أن الكاثين المذكورين وكثيرين غيرهما من أعضاء المدرسة التشومسكية (بمن فيهم مؤسسها) أحققوا في اتخاذ الخطوة الأولى نحو إدراك أن غاية الوصف الدلالي تقرير علاقات الاستنتاج التي تربط الحمل بعضها ببعض. وافترضوا بدلاً من ذلك أن الغاية هي ترجمة الحمل إلى لغة مصطنعة تفوق في شفافيتها اللغات العادية، التي يتكلم بها الناس من الساحة الدلالية. فهم يدركون بحسبهم أن الكلمات البسيطة في اللغات المتداولة تقابل مجموعات معقدة من المكونات أو العلاقات الدلالية semantic markers في هذه «اللغة التصورية». ويبدو أن هذا المنهج خاطيء من أساسه حتى أنه من الصعب العثور على أية مزايا للنظريات التي وضعت ضمن إطاره. ولا يمكن دحض هذه النظريات لأنها لا تقدم ادعاءات واضحة قابلة للاختبار، فهي خوفاء وحسب. ولا أعتقد أن هناك ملامح لمعالجة التشومسكيين لعلم الدلالة بما في ذلك أساطير الطويلة حول الجدل القائم بين ما يسمى بعلم الدلالة التوليدي generative semantics وعلم الدلالة التفسيري interpretive semantics حيث ترى مواقف العلماء المعبرين واضحة إلى الحد الذي يجعلها جذيرة بالمناقشة في كتاب من هذا النوع (إسي). أتفق أسلوب تشومسكي في دراسة علم الدلالة بصورة مطولة في كتابي التفسير Making Sense

(Sense)

قد يدهش القارئ بعد ما ذكرته حتى الآن عن السمات العامة للمدرسة تشومسكية، عندما يسمع أنها حققت ارتقاء كاملاً، وأنها تمتع بسلطة القانون لدى

الكثيرين من العلماء المهتمين بوصف لغات معينة أكثر من اهتمامهم في البحث عن الكليات (ويشعر كثير من هؤلاء الآن بأن لزاماً عليهم الاعتذار عن تأثيرهم بالتحويل إلى الشومسكية الناقصة شأنهم شأن الدين يارسون الممن وراء الستار الحديدي نظر هاجيج Hagege ، ١٩٧٦م ص ١٠ وما بعدها). وتكمن الإحالة هنا أيضاً إلى حد كبير في الناقص بين المهجين العقلاني والتجريبي فالتجريبية تطلب من النظر إلى الدنيا على أنها قابلة للطمس، وأن نبحث باستمرار عن البرهان المعاكس لها. أما العقلانية فنقول إن المعرفة الحقيقية تولد معنا. ويعمل هذا الاختلاف في المذهب على جميع مستويات فهو لا يترك على تحليل النحو الإنجليزي فحسب، بل يطبق أيضاً وسبق على أية مساطرات حول الأسس النظرية والمهجنة لهذا العلم. وبصفة عامة، فإن الفلسفة التجريبية تبحث الإنسان على التمكين دوماً بأنه «قد يكون محطناً، وأن الآخر قد يكون على صواب». أما العقلانية فتشجع الإنسان على الاعتقاد بأنه يعرف الحقيقة، لذا فإن النقطة الوحيدة في حديث مع الشخص الآخر هي «تمكينه من رؤية النور». وعندما يتقبل إثنان من مؤيدي هذين الموقفين المتضادين فإن المآثر في المناظرة معروف سلباً. وليس من قبيل الصدفة أن يقبل العديد من لسانبي المدرسة الشومسكية بحماسة على اعتناق عقيدة توماس كون Thomas Kuhn حول تاريخ العلوم كسلسلة من «تجارب التحول Gestalt switches» حيث لا يمكن العثور على أسس عقلية لتسي القلب الفكري المشترك الجديد، كما أن القلب المشترك القديم تلاشى في نهاية الأمر بسبب موت آخر من بقي من معنقيه، ليس إلا (بيرسيفال Perceval ، ١٩٧٦م). عادعاء كون شبيه بالادعاء بأن التحول الاجتماعي نجم في الغالب عن ثورة سياسية فإجاعة الدستور. نقول: «أجل، لقد كانت هذه هي الحال عالياً لأن الناس ليسوا من الفديسين السياسيين لكن مثل هذه التحولات كانت محو الأسوأ مثلما كانت محو الأفضل سواء بسواء. فما أعظم التقدم الحقيقي الذي كان ليتحقق لو أن المصلحين عملوا دوماً ضمن الإطار النماذجي للدستور حر (وهذا الأخير هو المعادل السياسي لطريقة منعق عليها للاحير من النظريات المناقضة حسب ميزاتها وذلك بالرجوع إلى اعتبارات يمكن أن يشترك بها الناس كافة». إن العقلاني المتطرف على أية حال ملزم بإرجاع الثورة إلى الإصلاح الدستوري (في العلوم والسياسة) فإذا كان بمقدورنا أن نعرف مدى صحته، حتى



النظريات أو مدى الرغبة بشكل من أشكال المجتمع من خلال نور العقل فحسب بدلا من تجربة العملية، عندئذ سوف نفقد وسائل إقناع سلمية إذا ما أصر أحد المعارضين معاد على ادعائه بأنه يرى الأشياء بطريقة مختلفة. وبالطبع فإن اللسانيين التشومسكيين اندس سدروا على أثر كون شأنهم في ذلك شأن الثوار السياسيين، يقيمون وربما أكبر لمشروعية استيلائهم على السلطة من خلال تبديل قالب كومي (سبة إلى كون) بدلا من استنتاج أن تبديل القالب غير العقلاني الذي أطاح بهم يجب أن يقبل على أنه مشروع سواء بسواء».

ومن النتائج الأخرى للتناقض بين الأسلوبين الفكريين العقلاني والتجريبي ميل للسانيين التشومسكيين للتخلي عن مبدأ اعتبار العلم تراكميا. فالعالم التجريبي يرى أن من المسلم به أن قدرته على إحراز ما يستطيع من التقدم موطنة بالعمل الذي قدم به أسلافه، بالرغم من احتمال كونهم محطشين في جواب متعددة من أي ميدان من الميادين. إننا نتقدم في المعرفة من خلال نقد العاصر وتبديلها في هيكل الأفكار التي نرثها من الأجيال السابقة، والإنسان الذي لم يتعلم شيئا من هم أكبر منه سنا، وكن مضطرا لتكوين بنية أفكاره بنفسه من العدم فإنه لن يجتاز مرحلة إنسان الكهوف. أم العقلاني فلا يرى الأمور بهذه الطريقة، إذ يعتبر أن الفرد يرث معرفة حقيقية بالمعنى لوراثي، وأن المشكلة الأساسية تتمثل في إطلاق المعرفة الكامنة داخل الإنسان وبذلك لا لزوم لفكر الأجيال السابقة طالما أنه صحيح، إذ أنه مفضل وحسب حين يكون خاطئا. ومن هنا نجد أن الرواد من العلماء من مدرسة تشومسكي يحسمون شكل غير عادي عن الاعتراف بأية مبرة تتحقق من دراسة السلف (أو - لهذا الأمر بالدات - المعاصرين) من المدارس الأخرى. ويميز هذا الموقف التشومسكيين كمجموعة عن جميع مدارس اللسانيات الأخرى (انظر هاوسهولدر، ١٩٧٨م، وميومن، ١٩٦٨م؛ المراجع المذكورة أعلاه). وبما أن الشر لا يملكون في الواقع معرفة كامنة بالنظرية اللغوية فإن الكثير من الأبحاث التي قام بها أعضاء المدرسة التشومسكية - حتى عندما لا يهدف عمادها على أحكام حدسية خاطئة - تتألف من اكتشاف حقائق أو مبادئ تصبغ الوقت لأنها كانت جزءا من المعرفة العامة خارج المعسكر التشومسكي منذ أمد بعيد.

(ويجب أن نذكر من قبل الإنصاف أن هذه التزعة لا تلاحظ في أعمال تشومسكي منه مثلما تلاحظ في أعمال الكثيرين من أتباعه)

وسأورد مثالا واحدا فقط عن هذا وهو «مقدمة لنظرية تشكيل المردب» (Prolegomena to a Theory of Word Formation) لموريس هاليه، ١٩٧٣م وهي التي تبحث في علم الصرف (أي تنظيم المورفيمات في المفردات مقابل علم النحو الذي يعالج حصرا ترتيب المفردات الكاملة في الجمل).<sup>(١١)</sup> ويستهل هاليه مقدمته بالادعاء بأن الموضوع «لم يدرس إلا في نطاق ضيق جدا». وهاليه الآن ليس مبتدئا ولا نصف متمرب، إنه رئيس قسم تشومسكي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT، وكان قد انتخب رئيسا للجمعية اللغوية في أمريكا للسنة التي تلت ظهور مقالته (وهذا أرفع شرف يمكن لجمعية لسانية أمريكية أن تمنحه لأحد أعضائها). لكن الحقيقة هي أن هناك ملفات ضخمة في علم الصرف (كتبها علماء لا يتسبون إلى المدرسة التشومسكية) رغم أن هاليه يتجاهل هذا. ويتساءل ليارد ليكا Leonard Lipka في نهاية مقالة هاليه (١٩٧٥م) قائلا: «هل أثار هاليه أية مشكلات لم تعالج من قبل؟ أو هل طرح أي حل لمثل هذه المشكلات لم يكن قد طرح في مكان آخر؟ يبدو أن الإجابة هي بالنفي».<sup>(١٢)</sup>

وعندما أقول إن العقلانية تشجع العلماء على تجاهل أعمال سابقينهم لاسي أعني فقط أن هيكل العقل العام الذي ولدته الافتراضات العقلانية يروح هذا الموقف ويمكن تأكيد فرضي لا أقصد أنه لو كان رينيه ديكارت حيا يرزق اليوم لقال صراحة إن من استحسن بالنسبة للسامي المدرسة التشومسكية أن يعزلوا أنفسهم عن أبحاث الآخرين. وربما يعترض اللسانيون التشومسكيون قائلين إنني محفف في وصفي إياهم لأنهم على قدر من المعرفة يمنعهم من الخلط بين العقلانية كرسالة محددة حول طبيعة العقل وبين العقلانية كموقف عام جدا في الفكر. وثمة إجابتان على هذا. هناعندي أن القصايا المنهجية التي نوقشت في الفقرات الأخيرة أقرب إلى العقلانية الديكارتية من الموضوعات (مثل مبدأ أ. فوق أ) التي يدعي تشومسكي صراحة أنها معروفة بشكل مستقل عن التجربة مثل الأفكار الديكارتية الكامنة. وعلى أية حال، إن كان للتشومسكيين أن يدافعوا عن أنفسهم كما بوحت سابقا، فإنهم بحاجة إلى تفسير اتعلاهم على أنفسهم فكريا بصورة غير مألوفة، وهذه حقيقة لا تقبل الخذل

ولأن هيكمل الفكر العقلاني يستنقد صبر العلماء تجاه قواعد النشر الأكاديميه  
الضخمة، أو لححد أن التقنية الجديدة جعلت هذا التطور ممكناً فقد انتشرت ظاهرة بارزة  
أخرى ارتبطت بشيء المدرسة التشومسكية، وهي ما يعرف في اللسانيات أحياناً بالنشر  
السري حيث يقدم بعض من لم تعبى أعمالهم للنشر في الدوريات العلمية المعروفة  
أو من أحققوا في نشر أبحاثهم في الوقت المناسب - على توزيع المادة في هيئة نسخ  
مصورة عبر قنوات مختلفة غير رسمية نوعاً ما. فالعلماء يرسلون دوماً إلى زملائهم  
نسخاً من مقالاتهم التي هي على وشك النشر بغية التعليق عليها طبعاً، لكن مثل هذا  
لا ينشر غير الرسمي للأفكار لم يكن بذي بال من قبل، إذ لم يكن سوى تخصيص للتقدم  
بعام في ميادين المعرفة عن طريق الدوريات والكتب المطبوعة. أما في المدرسة  
التشومسكية فإن للمشورات السرية أهمية كبيرة، وهناك شعور بأن ثمة أهمية كبرى  
تعلق على انضمام الفرد إلى لائحة المراسلات للعلماء الذين يتمتعون بسمعة عالية  
(انظر ماكولي McCawley، ١٩٧٦م، ص ٢). وقد تمكن عدد من اللسانيين في بعض  
الحالات من تأكيد ذاتهم وترسيخ دعائم سمعتهم العلمية وبشكل شبه كامل بفضل  
الاعتماد على المقالات الموزعة بهذه الطريقة غير الرسمية.<sup>(١٧)</sup> والمشكلة في هذا  
الأسلوب من نشر العلم أن العمل السري لا يحاول عادة أن يعي بالشروط التي تطلبها  
دور النشر المسؤولة أو رؤساء التحرير في الدوريات المشهورة. ففي «ورقة عمل» أو في  
«تقرير حول بحث جارٍ»، فإنه لا بأس من التغاضي عن العمل المضني الذي يتطلبه  
التدقيق في تفاصيل المعلومات وتوثيق المراجع والتعامل بشكل شامل مع الأمثلة المعاكسة  
استثنائية وما شابه ذلك. وكما يشير هاغيج Hagege (١٩٧٦م، ص ٣٥) فإن أفكار  
هؤلاء العلماء فحسب لهم إذا أثبتت مجاحها، أما إذا ثبت خطأ عملهم بأكمله، عندئذ  
يرمون به وراء ظهورهم وكأنه لم يكن عملاً جدياً على أية حال.

ولهذه الأسباب التي ناقشتها في الفقرات السابقة يرى أن لدى أعضاء المدرسة  
التشومسكية عادة (بالاشتراك مع المفترجين الذين يأخذونهم على أساس تقويم أنفسهم  
بأنفسهم) انطباعاً مبالغاً فيه عن مدى الاكتشافات التي حققتها هذه المدرسة فعلاً عن  
اللغة. وقد عبر بول بوستال عن رأي أنموذجي (Paul Postal، ١٩٧٢م، ص ١٦١  
٢) حين قال في معرض حديثه عن الكتاب الضخم الذي ألفه أونو يسبرسن بعنوان

«السحر الإنجليزي الحديث Modern English Grammar» والذي جمع في مسعة أحراء، وشر على مدى أربعين عاما ما بين ١٩٠٩ - ١٩٤٩م) - بالطبع فإننا (معشر تشومسكيين) وما اكتشفنا منذ الستينيات، أي في أقل من عقد واحد [وقد تمت ورقة بوستال في الأصل كحديث عام ١٩٦٩م] حقائق جديدة أكثر مما يمكن وضعه في اثني عشر مؤلفا من أكثر مؤلفات يسر سن. وإن كان بوستال يعصد مجرد الكمية الفيزيائية للوثائق المتداولة بين أعضاء مدرسته، فإنه على صواب بالتأكيد. ومن الأسهل بكثير إحراء الأبحاث باتباع أسلوب تشومسكي، وهذا ما جعل تشومسكيين قادرين على إنجاز أكثر مما أجزته المدارس الأخرى بكثير في المدة نفسها من الزمن. إلا أن العالية العظمى مما يعتقد بوستال أنه «حقائق» ليست حقائق مطلقا.

وفي العديد من الحالات (بل وفي معظمها) نعالج تلك الحقائق جملا توصف بأنها خاطئة بحوثا لكن المقصود في الواقع هو أن الكاتب أحقق في العثور على مقدم تكون فيه الحملة ذات معنى. ولقد كان تشومسكي في كتابه الأول البنى السحرية (١٩٥٧م) حريصا على التمييز بين سلاسل المفردات الخاطئة والحمل الجوفاء السليمة وضرب مثاله الشهير عن النوع الثاني وهو «الأفكار الخضراء عديدة اللون تنام بغضب Colourless green ideas sleep furiously». إن الحكم على سلسلة من المفردات بأنها خاطئة يعني أنها لا تطيع المعايير البنوية للغة وهي التي تبدو أنها قضية نعم أم لا. كما أن الحكم على سلسلة ما بأنها جوفاء (خالية من المعنى) يعني أنها لا تطيع تلك المعيير لكن المرء لا يحس أية فائدة من ذلك المثال المنفرد، فهو تعليق على قوة خيال المرء نفسه بدلا من كونه تعليقا على اللغة ذاتها. (وليس من المدهش أن نجد أن التحدي المتخصص سرعان ما لقي التأيد في قضية «الأفكار الخضراء عديدة اللون» - هارمن Harman، ١٩٧٤م، ص ١). وما لبث تشومسكي أن تراجع عن موقفه حول تلك القضية عملياً (شكل اللغة، ص ٨٠). ولم يبد اهتماما بالتمييز بين ظاهرة السحوي والعراع المعوي سوى قلة قليلة من أتباع تشومسكي (رعا لأن ملكتنا الخدمه على ما يبدو عبر حساسه تجاه هذا التمييز بالرغم من عظم أهمية المنهجية).

وتبدو حقائق تشومسكي الجديدة في كثير من الحالات الأخرى أصلية حول فكرة الحملة النحوية وليس الدلالية. إلا أن المعتقدات مبنية على الحدس فقط، لذا

فقد نكون كاذبة أو صادقة . فعندما نكون الحقائق مجرد مقولات عن الكليات الدعوية بدلا من الدعة ذاتها، فإنها تقتصر في معظم الحالات على كونها فرصيات طرحت فيما مضى بشكل مبسر ثم أهملها الناس، بمن فيهم واضعها، منذ زمن بعيد . إن أسلوب البشر السري الشائع بين أوساط التشومسكيين يجعل من الصعب اكتشاف الطروحات التي تم سحقها - . فحتى الحقائق عن الكليات اللغوية والتي صمدت أمام اختبار النقد من النوع الذي تمارسه المجموعة التشومسكية يتبين عادة أنها لم تدخل أي اختبار صد البرهان observable بحيث لا يمكن اعتبارها حقائق بالمعنى المألوف .

صحيح أن هناك عددا من اللسانيين اليوم يعتبرون أنفسهم أعضاء في المدرسة لتشومسكية دون المدارس الأخرى، مع أنهم يبنون تحليلهم إما على الأدلة الموثقة أو، إذا هم لم يذهبوا إلى ذلك الحد (نظرا إلى أن من غير المقبول هذه الأيام أن يعطي المرء لفرصة لغيره كي يصفه بأنه من التجريبيين)، يقتصرون في استعمالهم الحدس على فئات من الحقائق يمكن التحقق منها ميدانيا من خلال الملاحظة، والتي تبدو احتمالات صحتها عالية . (ولا ينكر أحد أن لدينا العديد من الأحاسيس الداخلية حول لغتنا الأم، رغم صرار التجريبي على وجوب معاملتها على أنها مصدر للسلطة) . ولكن كلما زاد هؤلاء العلماء احتراما (بالمعايير التجريبية) قلّت صفة التشومسكية في أعمالهم على وجه التحديد، لا سيما وأن المنشدين من التجريبيين يميلون نحو الإقلال من طرح الادعاءات حول الكليات . وأفضل هؤلاء العلماء، بالنسبة لجميع الوايا والأعراض، هم سبين يتبنون المذهب البلومفيلدي والوصفي بدون أن يعترفوا بالخفية . وربما كان هناك الكثير من أمثالهم لو لم تمت اللسانيات الوصفية بمثل هذا الوصف السيء .

ومن الواضح أن ظهور المدرسة التشومسكية كان تطورا مشؤوما في علم اللسانيات . فقد شعلت اهتمام الكثيرين وأنتجت قلرا هائلا من العقائد . ومن الطبيعي أن يشعر الناس أن هذا العمل لا يمكن أن يذهب هباءا بالتأكيد، لكنهم شعروا دون شك بالشعور نفسه حول التنجيم astrology والسيمياء alchemy عندما كانت هذه العلوم في أوج ازدهارها، ومع ذلك نفر اليوم بأنها كانت على خطأ . أو لم يبق هنالك شيء يمكن انشأه من الحطام؟

أما في الواقع أعتمد ذلك . لكن الأمر لا يتعلق بالنشاط الهائل الذي بذله ذلك الحشد الكبير من العلماء خلال السنوات العشرين الماضية، فقد عبر عنه تشومسكي في كتابه الأول تعبيراً ملائماً لا يقل عن جاء بعده منذ ذلك الحين . والذي أعبه هو الدور الخاص الذي تلعبه البنية الهرمية في النحو في جميع اللغات الإنسانية . وليس البقصة المهمة في كتاب تشومسكي «البنية النحوية» الادعاء بأن اللغات الإنسانية تولد في قوعد نحوية، وربما كان هذا الادعاء أجوف ولو كان تجريبيّاً إذ أنه يقتصر إلى الدليل الصامع على كل حال . والمهم أن تقول إن من الممكن توليد جميع اللغات - على الأقل بصورة تقريبية جداً - من خلال قواعد المكونات constituency grammar ، وإنه ليس هناك سبب مطلق يبرر وجوب أن يكون ذلك على تلك الصورة . ومن الثابت رياضيّاً أن كثيراً من اللغات بمعنى القواعد المحددة جيداً من السلاسل المورفيمية لا يمكن أن تولدها أنواع نحو المكونات ، وأنا مستعد للمجادلة بأن فكرة المكونات ليست قريبة من الملاءمة بحسب ، بل إنها ملائمة تماماً لتوليد أية لغة إنسانية (شكل اللغة ، ص ص ٢٠٥-٦) . وهذا كان الأمر كذلك ، فإن تشومسكي محق في ادعائه أن جميع اللغات الإنسانية «مفصلة وفق قالب مشترك» وربما كان على حق أيضاً في استنتاجه من ذلك أن فصيلتنا تراث آلية نفسانية معقدة وغير مرنة (غير مدعة non-plastic) تحددية حيانتنا العقلية إلى حد بعيد .<sup>١</sup>

ويمكن اختبار فرضية أن جميع اللغات الإنسانية قواعد مكونات بالاجوء إلى لبرهان القائم على الملاحظة فقط وذلك بمحاولة بناء مثل هذه القواعد لتوليد مجموعات العبارات الكلامية التي نسمعها أو نقرأها صادرة عن ناطقين بلغات مختلفة في حضرة غير مدروسة . وكما قلت ، فإن تأكيد الفرضية قد يبرر نسي تشومسكي نظرية عقلانية بدلا من تجريبية تجاه العقل الشري . ولكن ما من شيء حول هذا الاكتشاف يمكن أن يبرر بصورة معقولة انشغادنا عن التجريبية باعتبارها «مبهجا علمياً» إذ أن من السد جنة الخلط بين التجريبية كنظرية والتجريبية كمنهج

ومن المؤكد أنه ليس في نقاش تشومسكي المؤيد للنظرية العقلانية ما يبرر الطريقة سي نحول فيها ليس طاقات حقة من المتحمسين فحسب ، بل طاقات العلم برمتها ولذا نرى على عهد من الزمن عن مهمته تسجيل الحوائث المختلفة للغات العالم ووضعها ضمن الإطار الخاص بكل منها ، وانصرفنا تلك الطاقات إلى وضع كل لغة داخل هيكل

عقيم مفرد وهو الذي كان في الغالب ما يشوه تلك الجوانب من اللغة التي هي على علاقة وثيقة بها ويشجع الممارس على تجاهل كثير من جوانب اللغة التي لا تعنيها مجاهلاً . ولقد كان هذا السبيل الخاطئ الذي صار عليه اللسانيون . ومن حسن الحظ أنه في نهاية السبعينات ظهرت بوادر كثيرة نتم عن أن العلم بدأ يعود إلى شكل جماعي سليم . وقد أحدث الآن بعض السمات الحثيرة نهج عبر العزلة الشكلية ، كما قال أحد العلماء .  
 « ليس لم يصرحوا قط للمذهب السائد (بولينجر Bolinger ، ١٩٧٧م ، ص ٥١٩) .





## الفصل السابع

### نحو العلاقات

يقول سوسير (Saussure، ١٩١٦م، ص ١١٣) إن اللغة «شكل وليست مادة» فأصوات الكلام هي العناصر الوحيدة في اللغة التي تتمتع بكيان مادي فهذه العناصر تشكل جزءاً من لغة بعينها، لكنها ظاهرة فيزيائية تستغلها لغات العالم بطرق مختلفة. أما المعنى فيقصد به الأفكار والمفاهيم أو الأحاسيس الموجودة في العالم الخارجي أو كلاهما معاً، بالإضافة إلى الخصائص التي تعتبر عنها اللغة وتشير إليها والتي يمكن أن نقول إنها خصائص مستقلة في وجودها عن اللغات المنفردة (ولكننا لن نعالج هذه النقطة التي هي محط جدل كبير). وليس لأصوات الكلام ولا للمعنى في حد ذاته أية بنية أو شكل. فاللغة هي التي تفرض بنية معينة على كل منها، لكن العناصر البيوية للغة ليست «أشياء» مستقلة، بل إنها أسماء لعلاقات تربط بين أجزاء صوتية أو أجزاء من المعنى، أو كليهما معاً. وليس باستطاعة أي ناقل بالعربية أو الإنجليزية أن يلفظ الفونيم /l/. فتارة يلفظه [l] وتارة أخرى [lʰ]، وأحياناً يلفظه بأشكال أخرى لا هذه ولا تلك. فلتحدث عن الفونيم /l/ ما هو إلا وسيلة مختصرة للتعبير عن أن للصوتين [l] و [lʰ] توزيعاً متكاملًا في اللغة، وأن هذين الصوتين يتقابلان فيما بينهما مع الأصوات الأخرى التي يطلق بها المتحدثون بالإنجليزية. والسؤال عن الأصوات والمعاني فوق اللغوية التي تقع في أطراف نظام العلاقات التي تصنع اللغة يخرج عن موضوع شحصية تلك اللغة. فالإنجليزية هي الإنجليزية سواء أكانت منطوقة أو مكتوبة أو مرسلة بإشارات مورس، تماماً مثلما تكون لعبة الشطرنج التي تمارس بقطع ورقية مطبوعة بدلاً من القطع الخشبية المعروفة هي نفسها لعبة الشطرنج. ويعول سوسير (Saussure، ١٩١٦م، ص ١١٧ و ١١٩). إن «المفهوم concept» عبارة عن لا شيء في الأساس إنه فقط صفة

يحدد بعلاقتها مع القسم المشابهة الأخرى، ويدونها تعقد الدلالة وجودها ويقول: «المويمات لا تتسم بتوحيدها الإيجابية الخاصة، بل في كونها كيانات متممة ومتفاسدة ونسبية وسلبية» (سوسير Saussure، ١٩١٦م، ص ١١٧).

ومع ذلك فقد أقامت اللسانيات خلال تطورها في العقود التي نلت سوسير أعداداً ضخمة من الكيانات النظرية حافلة بعناصر متشابهة قيل إنها موجودة في اللغة وبالفعل فقد كان هذا هو دأب المناهج التقليدية المتبعة في دراسة اللغة «فكرة احتواء اللغة على فونيمات ومورفيمات وربما (إيمات) أخرى كانت فكرة جديدة. أما فكرة احتوائها على كلمات مثلاً فقد كانت فكرة موهلة في القدم. أعلم يكن هناك تنقّص بين الادعاء بأن اللغة تتألف حصراً من علاقات بين «أشياء» تقع خارج اللغة وبين وجوب وصف اللغات كنظم من آلاف «الأشياء» من شتى الأنواع؟

وقد كان العالم الدنمركي لويس هلمسليف (Louis Helmslev، ١٨٩٩ - ١٩٦٥م) من الذين شعروا بوجود تناقض في هذا المقام. وانتقل هنا إلى شرح أفكاره لأنها أدت في السنوات الأخيرة إلى ما قد يصبح البديل الحداثي لنظرية اللغة عند نشومسكي<sup>١</sup> وهو الذي يستأثر بأكبر قسط من الاهتمام على مسرح اللسانيات المعاصرة.

ويقول هلمسليف إن اللغة تفرق بين أمرين: الشكل مقابل المادة، والمضمون مقابل التعبير (وبدل التعبير إن الأخيران على التقابل بين المعنى وبين أصوات الكلام أو الكتابة أو إشارات مورس). وتتلاقى هذه العوارق فيما بينها فيبثق عنها أربع «طبقات» هي: المضمون والمادة، والمضمون والشكل، والتعبير والشكل، والتعبير والمادة وتنتهي «لصفتان في الوسط إلى اللغة العملية، أما الطبقتان الأولى والأخيرة فهما الحقائق الخارجية التي ينبغي على اللغة أن تربطها ببعضها البعض. فاللغة تتألف من علاقات محسب سواء أكانت علاقات «خارجية» تربط بين عناصر الطبقات المختلفة أو علاقات «داخلية» تجمع عناصر الطبقة الواحدة. وفيما عدا الأصوات والمعاني في الطبقتين الخارجيتين فإن «العناصر» التي تسود بين هذه العلاقات هي نفسها محرد «علاقات» فقط لا غير. فكل نظرية صادقة في عموميتها ونقائنها لن تناقش سوى صفوف العلاقات لتسوية والممكنة التي يمكن أن تتأصل في اللغة مع إهمال خصائص «المادة» فوق السعوية

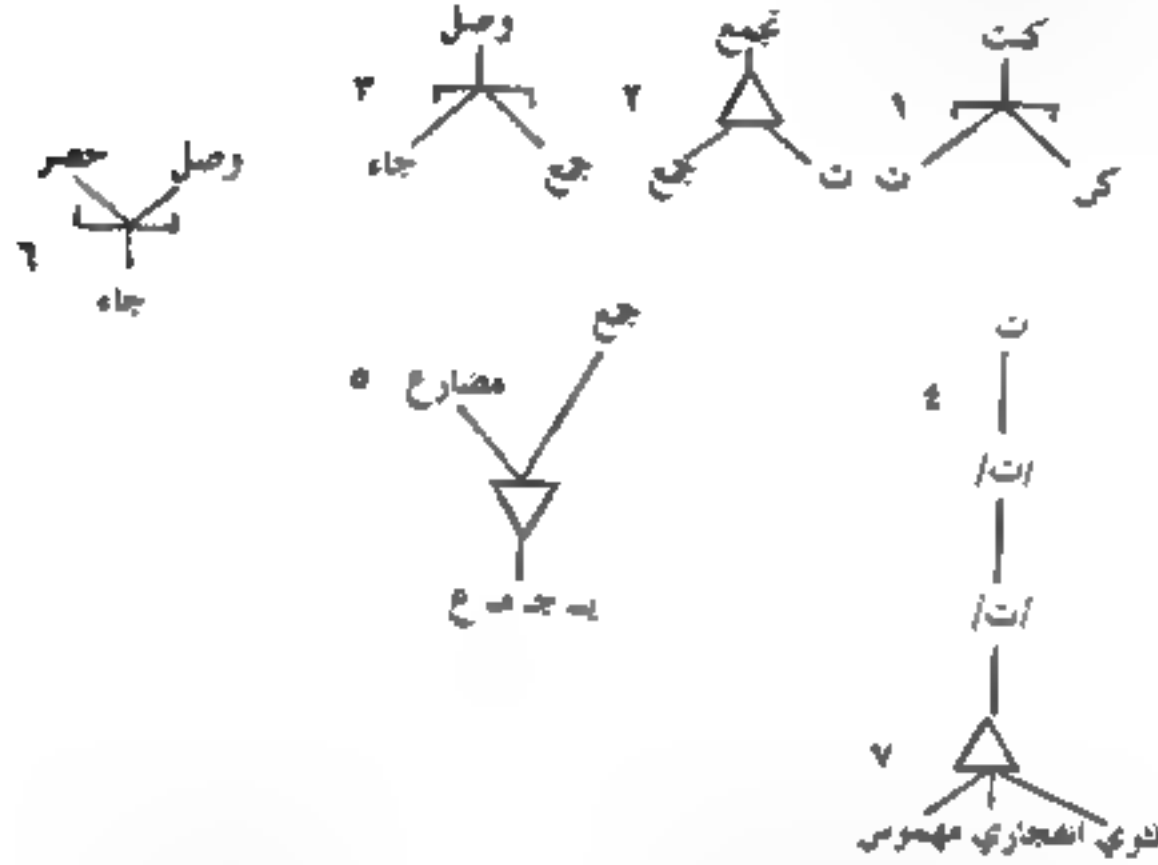
إن هذا كله مغرق في الغموض، إن لم نقل من نسج الخيال، وهو الغموض الذي طمع اتجاهها فكرياً معينا في القارة الأوروبية. فالقارىء إن كان من أتباع الفكر التحريبي يشعر أن الذهب يعرف عدداً للحك. وسيتنظر لكي يرى ما ستقدمه أفكار هلمسليف عملياً إلى تحليل اللغات الفعلية. ويجب أن نستدرك حالاً وبهول إن من بحث «نظائر عمل هلمسليف»، فهو لم يطور نظريته بتطبيقها في وصف حقائق لغوية ملموسة بشكل جدي لكنه طورها بأن وضع مصطلحات بالغة التعقيد وبإدارة الشرح لوصف علاقات افتراضية من أنواع شتى (انظر مثلاً هلمسليف Helmslev، ١٩٤٣ م)، كما توصل أول معاونيه ويدعى أولدال Udal إلى نظام من الرموز الخيرية لا يقل غموضاً عن نظام هلمسليف أو يفوقه في ذلك (أولدال Udal، ١٩٥٧ م). وهناك وصف لغوي آخر يبلغ طوله طول كتاب كامل يقول مؤلفه عن نفسه إنه يعمل ضمن إطار هلمسليف - وهو كتاب كنود توجيبي Knud Togeby «البنية القوية للغة الفرنسية Structure Immanente de la Langue Française» (١٩٥١ م). ولكن بغض النظر عن بعض مصطلحات الخاصة فإن وصف توجيبي لا يحتوي على أي شيء لا يمكن أن يكتبه سوسي من أية مدرسة أخرى. حد مثلاً ادعاءه مرة - بدون تعمد الإيحاء بوجود تناقض ما - أنه ربما كانت هناك في الماضي لغات بلا أناس يتحدثون بها (Helmslev ١٩٦٣ م، ص ٨٤). وبصفة عامة، نرى أن من الصعوبة بمكان ألا تتبين سخريّة هلمسليف الثلاثة هي بقده لأعمال أسلافه من اللسانيين منهما إياها بأنها مجرد نظير استعجالي من أعمال الهواة. . . (Helmslev ١٩٤٣ م، ص ٧).

وما يهمنا أكثر من عمل هلمسليف نفسه هو التطور الذي حظي به على يد الأمريكي سيدني لام Sydney Lamb (وهو مولود عام ١٩٢٩ م) الذي عمل سابقاً في جامعة كاليفورنيا في بيركلي قبل أن ينتقل إلى ييل Yale عام ١٩٦٤ م، وعلى يد تابعه شرر ريج Peter Reich من جامعة تورنتو.

وبدأ لام (انظر لام، ١٩٦٦ م، ولو كود Lockwood، ١٩٧٢ م) بذكر أنواع مبسطة ومألوفة من العلاقات التي تقوم بين وحدات اللغة. ومن هذه العلاقات علاقة تناوب alternation حيث يحدث أن وحدة ما على مستوى «أعلى» تتحقق (إما عن عدم كثرات، أو حسب الظروف) كعصر من عناصر متعددة متساوية في مستوى أدنى

فإذا قلنا أن كلمتي «جاء» و«حضر» هما مترادفتان قريبتان، أمكنا القول إن «وحدة معنى» واتحدت وهي «وصل» تتحقق بالتناوب في المفردتين «جاء» و«حضر» (إن فكرة «وحدة المعنى» أو ما يطلق عليه لام اسم «سيم» *sememe* هي من الساحة الفلسفية صفة وبدائية حدا). كما أن فكرة وجود طبقة «المضمون والمادة» برمتها هي موضع شك كبير (انظر أولدال *Ullal*، ١٩٥٧م، ص ص ٢٦ - ٢٧، ليونر *Lyons*، ١٩٦٢م) ومن الأفضل أن نتخطى هذه النقطة هنا لأن معالجة لام للمعنى ليست أسوأ ولا أفضل منها عند تشومسكي أو أي لسانٍ آخر تقريباً. وأمل أن أركز على العناصر الأكثر أهمية وإيجابية في عمل لام. وبالمثل فإن الوجدتين «كن» و«تاء» قد تعتبران تحقيقاً متناوباً للوحدة الدلالية «كنت». والتناوب يقابله التحييد *neutralization* حيث تمثل وحدة من المستوى الأدنى بوحدة أو أكثر من الوحدات ذات المستوى الأعلى. وهكذا فإن كلمة «وصل» قد تمثل وحدة المعنى «جاء»، وقد تمثل أيضاً وحدة المعنى «جمع» إن التبدل والتحييد هما ما يسميه لام «علاقات - أو». فالمعصر (أ) يقابل في مستوى معين العنصر (ب) أو (ج) أو (د) في مستوى آخر. كما أن «علاقات - أو» تتقابل مع «علاقات - و»، وهكذا تتحقق وحدة من المستوى العالي في التحقيق المركب *composite realization* كسلسلة من وحدات ذات مستوى أدنى. فعلى سبيل المثال، تتحقق وحدة المعنى «كنت» في اللغة العربية بالمورفيم «كن» متنوعاً بالمورفيم «ت» رغم عدم وجود أية علاقة بين معنى هاتين الوجدتين كمفردتين مستقلتين وبين معنى المجموعة المركبة من كليتهما. ويمكن أن يشي المرء أن كلمة «كنت» تتألف من مورفيمين بدلاً من مورفيم واحد حين يدرك أن أجراءها تشبه أجراء مورفيمات أخرى لا سيما عندما تنصرف كعمل كُحد الأفعال كما في «فمت». كما أن المورفيم «كن» يتحقق بدوره بشكل مركب كسلسلة من مورفيمين هما /ك/ + /ن/. كما يتحقق الفونيم /ت/ مجموعة من السمات الصوتية وهي لثوي، انفجاري، ومهموس. والتحقيق المركب يقابله التحقق المشترك *portmanteau realization*، حيث تتحقق وحدتان من المستوى الأعلى كوحدة منفردة من المستوى الأدنى. فإذا كان المورفيم الجذر «كن» مسوقاً بمورفيم «المصارعة» فمورفيمان معاً على شكل «يكون».

ويرسم لام محططا لهذه العلاقات مستعملا مثلثا ليمثل حرف العطف (و) وأقواسا مربعة ليمثل حرف العطف (أو) وهكذا. فالأمثلة التي استعرضت أولا يمكن أن تمثل بالمحطط الموضح بشكل رقم (٥):



الشكل رقم (٥)

ونتفقي الحاجة إلى استعمال أسماء الوحدات مثل الفونيمات والمورفيمات وامتدادات وما شابه ذلك بمجرد حصولنا على المحططات. فالمورفيم «كن» عنصر يقع كإحدى النهايتين السملين غير المرتبتين في العلاقة ١، وكأنها نهاية السملى الأولى في العلاقة ٢، وكأنها نهاية العليا في العلاقة ٤. كما أن تحديد العلاقات التي يدخل هذا عنصر طرفها فيها يعني تعريفه تعريفا كاملا. فتسميته بالمورفيم «كن» لا يضيف شيئا معروفا. وبالمثل فإن المورفيم /ت/ عنصر يقع كنهاية العليا في العلاقة ٧ وكنهاية سفلى في العلاقة ٤ (وكنهاية سفلى في آلاف من «علاقات الواو» الأخرى في وصف كمن لغة الإغليزية). لذا يمكننا الاستعانة عن التسميات بالنسبة للعناصر الداخلة في ندعه وأن بين تركيبها بصورة مباشرة أكثر بربط نهايات العلاقات بالشكل المناسب (انظر الشكل رقم ٦):



التحقيق في اللغة ككل ممكن في نهاية المطاف ضمن إطار شبكة باللغة التعقيد فيها تسميات لوحدات دلالة في الأعلى وتسميات للسمات الصوتية في الأسفل ولا شيء في الوسط سوى العقد التي تمثل العلاقات والخطوط التي تربط هذه العلاقات ببعضها البعض. وليست «الكيانات» مثل الفونيمات والمورفيمات في هذا السياق سوى وسائل تساعد في الواقع على التذكر مع أنها غير أساسية في التحدث عن العلاقات. وهكذا فإن المورفيم «ت» ليس سوى اسم للخط الذي يربط العقدتين ٨ و ٤، والمورفيم /ت/ اسم للخط الذي يربط العقدتين ١٢ و ٧، أما الخطوط والعقد فهي كما هي سواء أعطيت تسميات أم لا. <sup>(٢١)</sup>

ولكن ما هي الموائد التي نجبرها من رسم مخططات للغات كشبكات من علاقات محصورة بهذه الطريقة؟ هناك موائد متعددة <sup>(٢٢)</sup> فبادي، دي بدء، يسجل النحو عند «لام» باعتباره نظرية عامة للغة وصيادا كبيرا من النقاط ضد مافيه فيما يتعلق بالبساطة. فمن أهداف العلوم كافة تقليص الطواهر المرئية المعقدة ووضعها في نظريات دقيقة وبسيطة ولا يعني قولنا عن نظرية «لام» إنها بسيطة هنا أن من السهل على المستجدين فهم النحو عند «لام»، أو أي شيء من هذا القبيل. فثمة الخطوط والعقد المتشابهة التي يستعملها لام في عرصه لبي اللغة لا تقل إرباكا على الأقل بالنسبة للمبتدئ، عن القوانين شبه الرياضية التي يراها في النحو عند تشومسكي. لكن لام، شأن شأن تشومسكي، يعتقد، وهو محق في اعتقاده، أن لا علاقة لهذا بالمكانة العلمية التي تحتلها نظريته. فالبساطة التي نبحث عنها في النظرية العلمية هي شيء يشبه قلة المفاهيم الابدائية المستعملة. ويتموق لام في هذا المجال على تشومسكي تفوقا ساحقا. فنظرية اللغة عند تشومسكي تستعمل عددا من المفاهيم النظرية المتنوعة في أماكن مختلفة. فقواعد «المكومات» و«التحويل» و«الأصوات الوظيفية» بالإضافة إلى «واسم المكونات constituency marker» ومجموعة السمات الصوتية phonetic feature matrix و«الإدخال المعجمي» أمثلة أوضح من غيرها في هذا المجال ومعظمها، لا سيما «إعادة التحويلية» - هي في حد ذاتها أفكار معقدة تحتاج إلى التفسير في نهاية الأمر في ضوء مفاهيم كثيرة أساسية أكثر. ومن جهة أخرى، فإن لام لا يعرف سوى أنواع قليلة وبدائية جدا من العلاقة التي ترد على جميع المستويات اللغوية كما هي مثله بعدد

مختلفة الأشكال مع الفكرة البسيطة التي تربط أطراف العلاقات ببعضها البعض وسمات فوق لغوية للصوت والمعنى (وللعقد أنواع أخرى غير التي ذكرناها هنا، لكنها ليست كثيرة العدد، وربما كانت ستة أنواع في مجموعها). وهذا كله هو الجهار النظري الذي يستعمله لام من أجل تعريف كامل النسب اللغوية بما في ذلك الجوانب الدلالية والصحية والصوتية الوظيفية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه البساطة في نظرية لام العامة تعطيه ميزة كبيرة فيما يتعلق بحاجات أحرارها، ألا وهو تحديد مقياس شكلي للاختيار بين التحاليل البديلة لمعلومات لغوية معينة. وقد أكد تشومسكي أن البساطة في هذا المعنى ليست مفهوما يدرك بالحدس، بل إنها خاصية يجب أن تدرس بأمعان وبأسلوب تجريبي (تشومسكي Chomsky، ١٩٦٥م، ص ٣٧ وما بعد). فالمعلومات المحدودة المتوافرة عن لغة والدي الطفل تنمق دوماً مع كثير من أنواع النحو الأخرى، بحيث يصبح من الضروري أن يكون لدى الطفل «مقياس تقويم» كامن في دماغه يستعمل عند الاختيار بين البدائل. كما يتمثل جره من عمل اللسانيات في اكتشاف مقياس التقويم الذي يؤدي بالأطفال إلى اكتساب ما يعرفونه من أنواع النحو. (إن ما يقوله تشومسكي في هذا الصدد مضطرب في الحقيقة. انظر سامسون ١٩٧٦م، ولكن لترك هذه النقطة هنا). وبالرغم من تأكيد تشومسكي الحاجة إلى مقياس شكلي للبساطة في النحو فإننا، وهذا من غريب المفارقات، نجد أن أنواع النحو عند تشومسكي لا تتلاءم مع تعريف هذا المقياس أبداً (كما أن تشومسكي لا يقدم أية اقتراحات ملموسة حول ماهية هذا المقياس). فعلى سبيل المثال، وضمن الإطار الذي رسمه تشومسكي، فإن تدمير حرية الاختيار في العال بين تقليص عدد المكونات وبين زيادة عدد التحويلات ولا يحدث المرء إلا أن يقرر ما إذا كان اختياره بالنسبة إلى حالة معينة يعتمد على الموازنة بين «تكلفة» النسبية للتحويلات إزاء تكلفة قواعد المكونات. إلا أن هذين النوعين من القواعد يختلفان عن بعضهما البعض من حيث الشكل اختلافاً كبيراً مما يجعل تحديد «سعر السبيل» بينهما أمراً متعزراً. أما قواعد لام فهي على درجة عالية من الانسجام وفيها عنصر متماثلة في كل المسويات. والكمية، في قواعد لام، مثل عدد الخطوط (وهي التي تصل بين العقد) سهله العد، ومتيرة حداً كمقياس للتعقيد الإجمالي في النحو



وعن هذا المقاس الدقيق للمساطة فإن كل الحكايا القديمة مثل السؤال إن كانت *ch* في اللغة الإتحادية فوثيما واحدا أو اثنين يمكن الإجابة عنها مباشرة وذلك بأن نرسم شككت مماثل التحليل البدليه، ثم بعد الخطوط الناتجة . والتحليل الذي يضم أقل عدد من الخطوط يكون هو الفائز. (انظر لام Lamb، ١٩٦٦م، ص ص ٥٢ - ٥٤ من أجل مثال محلول).

وتعتبر نظرية لام تعبيراً ممتازاً عن إحدى خواص اللغة المستعصية على التفسير ضمن نظام اللغة عند تشومسكي، ألا وهي وجود مبادئ مستقلة للقولبة *patterning* في المستويات اللغوية المختلفة.

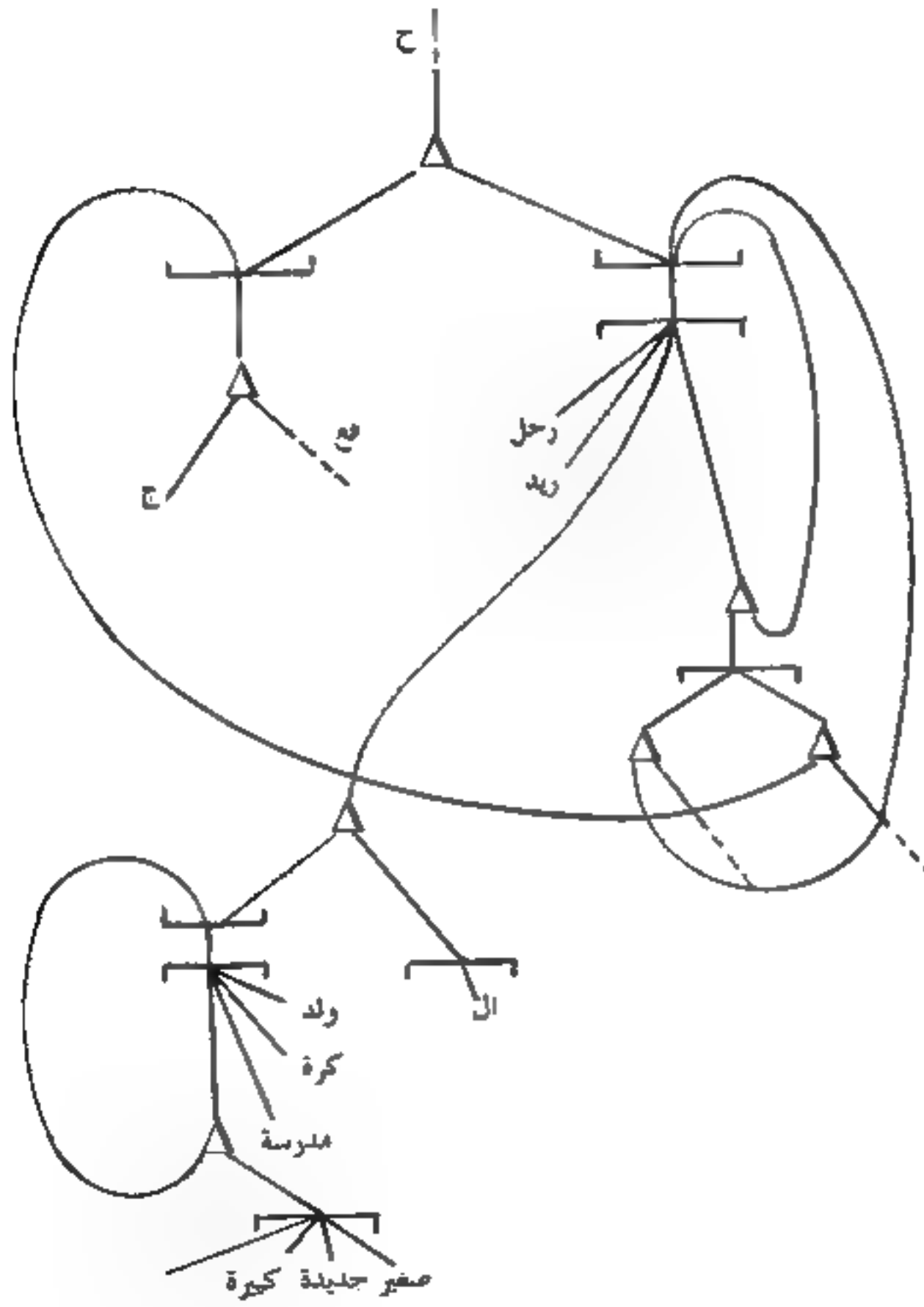
فالسحر عند تشومسكي يحتوي على قواعد تحدد محال السى المسموح بها في مستوى واحد من النحو، وهو المكون الأساس. أما جميع القواعد الأخرى في النحو فهي لتحويل البنى التي يحددها المكون الأساس إلى سى نحوية سطحية، ومن ثم إلى تمثيل صوتي من جهة، أو إلى تمثيل دلالي من جهة أخرى. ولاتعطينا النظرية أي سبب لكي نتوقع وجود عملية قولبة، ولنقل في محال السى السطحية للغة ما عدا تلك التي فرضتها السى العميقة في المكون الأساس والتي تصادف أنها لم تدمر بعمليات التحويل. لا أن مثل هذه القولبة موجودة بشكل عام. ومثال ذلك أن الإتحادية ترفض تتابع معين مصارعين في الحملة نفسها. فقولنا «It is continuing raining» مرهوض نحوي في الإتحادية وتنتمي هذه القاعدة إلى القولبة النحوية السطحية وليس العميقة، بما أن للمصارع المستمر *pres. part.* مصادر نحوية مختلفة هي النحو عند تشومسكي، ومن لتحويل صياغة القاعدة في شكل عام ضمن إطار البنية العميقة (راجع روس Ross، ١٩٧٢م). وقد اضطرت اللسانيون التشومسكيون، سواء في النحو أو في علم الأصوات اللغوي، إلى الاعتراف بوجود ما دعي «بالمؤامرات *conspiracies*» بمعنى أن محرمات مجموعة معينة من القواعد تحتوي على قولبة لم تكن موجودة لا في المدخلات إلى مجموعة القواعد تلك ولا في القواعد نفسها (بيرلنر Perlmutter، ١٩٧٠م و كيسييرث Kisseberth، ١٩٧٠م) أما في نظرية تشومسكي فإن وقوع المؤامرات أمر غير متوقع ولا يحضغ لأية صوابط.

لكن نظرية لام من الجهة الأخرى تتبناها ولم نناقش حتى الآن سوى كيف يمثل نحو لام العلاقات بين الوحدات في مختلف المستويات اللغوية، أي «العلاقات الخارجية» بتعبير هلمسليف. وفي حال التناوب، وما لم تكن العناصر المساوية ذات توزيع تكاملي (وهنا غير شائع كما رأينا) فإن من واجب النحو أن يحررنا بوسيلة أو بأخرى ما أي العناصر المتناوية تستعمل في ظروف معينة. وهكذا فإن المورفيم «جيد» يجب أن يتحقق في هيئة المورف /ج و د/ بعد «أ»، ولكنه يتحقق في هيئة /ح ي ي د/ في معظم الظروف الأخرى واللام في الإنجليزية موبم جانبي مرفق إذا وقع قبل الصوائت، لكنه مفهم في الحالات الأخرى وهكذا. ويشتمل النحو عند لام على هذا النوع من المعلومات في هيئة النموذج التكتيكي *tactic pattern* بين التركيبات التي يمكن تشكيلها من الوحدات على مستوى لغوي معين، أي «العلاقات الداخلية» في طبقة م. (ويستعمل لام تعبیر هلمسليف «طبقة» مع أنه لا يلزم منه بطبقات أربع فقط، كما أن أوصاف الطبقات عند لام تتعدد تجريبياً بدلاً من أن تتحدد من خلال تحليل نصوري استنتاجي) وتتلاءم فكرة لام التخطيطية مباشرة مع تمثيل العلاقات الداخلية وهكذا فإن قواعد المكونات التشومسكية التي تظهر في الشكل رقم (٣)، تترجم إلى فكرة لام كما يظهر في الشكل رقم (٧).

ويتم ربط النموذج التكتيكي من هذا النوع لدى اكتماله بشبكة التحقيق التي ناقشناها سابقاً وذلك بوصل الخطوط السفلى من النموذج التكتيكي بالخطوط المقابلة في المستوى الملائم من النموذج التحقيق. ويعالج النموذج التكتيكي الذي شرحناه آنفاً «العلاقات الداخلية» بين الكلمات (ويدعوها لام باللكسيمات *lexemes*). فالخط الذي يحمل الاسم «ولد» مثلاً يوصل بخط على مستوى الكلمة في النموذج التحقيق (وهو خط قد تربطه «علاقة واو» مع الوحدات الدلالية «شاب، ذكر، إنسان» في مستوى أعلى، ومع الموبيمات /و/ /ل/ /د/ في مستوى أدنى). ومرة أخرى بمجرد أن تكتمل عمليات الوصل في المخطط، تنفي الحاجة إلى تسميات النموذج التكتيكي ولكن من الأمور الجوهرية في نظرية لام أن النحو يجب ألا يحتوي على أعمود تكتيكي واحد محض، ولكن على عدد من تلك الماذح في مستويات محتله. ويتم إدراج «مخاربات» باستمرار من خلال عقد من أنواع (أو) كلما تحرك نحو الأعلى أو الأسفل.

في أتمودح التحقيق . وتتحدد هذه الخيارات بالبحث عن البدائل المتناوية التي تتفق مع الأنموذج التكتيكي الذي يليها . فالأنموذج التكتيكي الذي ينظم الكلمات في جمل يسعد سلاسل الأفعال المضارعة، وذلك الذي يجمع المورفيمات في كلمات بحذر ج و د / بدلا من / ج ي ي د / إذا وقعت بعد «أ»، والأنموذج الآخر الذي يجمع السمات الصوتية في مقاطع متناسقة يقرر ما إذا كان من الضروري تعميم اللام أم لا ولا تمثل اللغة في نظرية لام الخيار في أن تظهر القولية المستقلة، لأن من واجبها أن تفعل ذلك .

ومن عناصر البنية اللغوية التي يبدو فيها مفهوم «القولبة المستقلة» واصحا نسبيا ما يعرف بعلم الصرف الاشتقاقي (derivational morphology) (وبمعنى بناء كلمات معقدة من جذور بسيطة مثل «تعليمي» و «افتتاح» مقابل علم الصرف المتصرف (inflectional morphology) الذي يتعلق بأشكال الكلمات الحرة المحتلقة شرب، يشرب، شربا) . ولقد كن موريس هاليه محققا عندما قال . إن علم الصرف لم يدرس بالتفصيل في مدرسة التشومسكية، إذ إن هناك مساوحيها حال دون ذلك . فالمبدأ التشومسكي لدي يقول إن الطول النسبي للحو يعكس الطبيعية السببية في اللغة بالنسبة لمستخدميها من البشر يعني أنه إذا كانت اللسانيات التشومسكية تسمح بأنواع بديلة من الحو تختلف في أطولها للغة الواحدة، فإن أقصرها هو الوحيد الذي يتمتع بالمكانة العلمية . (ومن أنسهل أن نزيد في تعقيد أي نحو بدون أي داع بحيث يصح من السحب أن نقول إن اللغة لم تكن طبيعية لا لشيء إلا لأنه كان من الممكن بناء نحو طويل لها لا يتناسب معها) ونرى أنه لا لروم للفواعد التي تناول قوالب الاشتقاق في الحو عند تشومسكي مما يعني أن تلك الكلمات المركبة التي تقع في اللغة فعلا يجب أن نصنف كل منها على حدة هي «المعجم» في نحو تشومسكي . وإن كان الأمر كذلك، عندئذ لم يكون لمقرلات مصم الصرف في أي دور في توليد مجموعة الحمل الحرة . إن قواعد هاليه الصرفية يجب أن تذهبها المقاييس الملهجية التي أسهم في صاغتها هاليه نفسه (إن اللا حقه ١٧- في (المجلد ١) المستعمله في الصفات تأتي عادة مع حذور الأسماء الحرمانية، بينما يستعمل اللا حقه ١٨ مع الحذور اللاتينية) بمعنى أنها لا تؤثر في شخصية اللغة المتألفة عن نهاية الحو . ومثل هذا الانظام ليس متجاء، إذ لا يستطعم المرء أن يلحق (١) بكر



الشكل رقم (٧)

حدود الأسماء الجرمانية . فالصفة من book مثلا هي bookish وليست bookly كما أن انصهه من tree ليست treeily ولا treeish . ومن ناحية أخرى ، فإن تلك الظواهر المنظمة موجودة ، بحيث يترأى لنا أن الوصف اللغوي الذي يخفى في تسجيلها بعمل حادبا من وصف اللغة . أما في النحو عند لام فإن الظواهر المنظمة نجد مكانا طبيعيا في الأنموذج التكتيكي في الطبقة الصرفية .

ولا غمس كل هذه الاعتبارات العنية حتى الآن المسوغ الحقيقي للسحر عند لام  
 مميزة النظام الأساسية هي كونه أقرب إلى الواقع من منافسيه كأنموذج يمثل كيفية عمل  
 المتكلمين والسماعين في الواقع . ويتفق لام مع تشومسكي في أن اللغة تصل بين التمثيل  
 الدلالي semantic representation - أي الرسائل - والتمثيل الصوتي phonetic representation أي اللفظ . وإن كانت هذه الطريقة ملائمة لرؤية اللغة فإن من المفترض  
 أن من يتكلم يقوم بتحويل بنية دلالية وهي الرسالة التي يريد أن ينقلها إلى بنية صوتية  
 مقابلة أو إلى لفظ مقابل . كما أن السامع يقوم بعملية تحويل عكسية . ومع ذلك ، فإن  
 نظرية تشومسكي لا تبين كيف تتم عملية التحويل المزدوجة تلك ، لكنها ترمي بدلا عن  
 ذلك إلى تعداد المردوجات الدلالية الصوتية دون الإشارة إلى آلية استرجاع إحداها من  
 الأخرى . ويؤكد تشومسكي أن الأنموذج الناح للتمثيل السامع يتضمن محو توليد  
 بمفهومه هو (١٩٦٥م ، ص ٩) ، لكنه لا يعطينا أي سبب يحملنا على تصديق هذا  
 تأكيد ، بالإضافة إلى أنه غير ممكن من الناحية العملية . فكل كل شيء ، نرى أن من  
 مزايا قواعده الصوتية عند تشومسكي «أنها تسير باتجاه واحد فقط» . وبهذا نفترض أن  
 المكتسب «يفكر وفق سى عميقة» يحولها فيما بعد إلى سلاسل قابلة للنطق بتطبيق قواعد  
 تحويلية وصوتية . ولكن ما من وسيلة تتيح للقواعد التحويلية أن تعمل بصورة عكسية  
 بحيث يمكن استعمالها لاستعادة بنية عميقة من أخرى سطحية . فإذا حاولنا أن نفسر  
 نحو تشومسكي على أنه أنموذج يمثل المتكلم فإننا نقر عندئذ إما بأن عمل السامع فيما  
 سلق بالحو أصعب من عمل المتكلم ، أو أن السامع يستعمل آلية أخرى مقصده  
 وكلتا التبعيتين غير معقولتين .

ومن ناحية أخرى يعتبر النحو عند لام متوازنا تماما سواء بالنسبة إلى المتكلم أو  
 السامع . كما أن عمليات التحويل بين الصوت والمعنى وبالعكس هي عمليات أساسية

في قواعد لام ، بالإضافة إلى غمادج تكتيكية ملحقة بأغودح التحقيق تسهل التحويل في كلا الاتجاهين . أما قواعد تشومسكي فتعتبر أن تعداد كل الحمل السليمة وكلها فقط هو لأساس ، وهذا أمر عبر «طبيعي» في الوقت الذي تسند فيه إلى القواعد الصوتية و بدلالته دور تفسير إنتاج المكون الأساس . ويسمح لنا نحو لام بإدخال الوحدات الدلالية في الأعلى وبالوصول على اللفظ المقابل في الأسفل وبالعكس . وفي كدنا ، الحدين من الشبكة نفسها هي المستعملة وبالطريقة العامة نفسها . ومن الممكن أن يقرن عمليات تشفير الرموز encoding وتحليلها decoding في نحو لام بجهاز الكمبيوتر (رايخ Reich ، A Relational Network Model of Language Behavior ، ١٩٧٠م ب) .

فلرموز التخطيطية diagrammatic notation هي من بقايا الصور الدقيقة للأعصاب وتصلاتها المتشابهة . ويعتقد لام جازما (وهو ليس بالإنسان الجبان) أنه عندما يجمع علماء الأعصاب والفسولوجيا في نهاية المطاف بحطواتهم المتناقلة في اكتشاف تفصيل عمل الدماغ فإنهم سيخرجون «بمخططات دوائر» مماثلة لتلك التي يرسمها .

وربما بدا لنا أن ذلك التعاؤل بحاب الواقع ، ولكن له ما يبرره على أية حال . فعندما يستعمل بيتر رايخ أساليب المحاكاة لاكتشاف سلوك قواعد لام التي تفسر على أنها شبكة من القنوات تتغل عبرها البصبات ، والعقد التي تتفاعل عندها النبضات فإنه يكتشف تأثيرات لم يكن لام قد تبا بها مع أنها تعكس بدقة جوانب من سلوك لدعة الإنسانية لم يحاول تشومسكي التصدي لها . وأبرزها الظاهرة الحوية المسماة بالتضمين الذاتي self-embedding . فمن المعروف أن الناطقين بأية لغة يحدون صعوبة باللغة في استيعاب نطق وفهم أية جملة تحتوي على مكون من عنصر معين هو في الوقت نفسه جزء من مكون أكبر من عنصر ثان مماثل بحيث يشكل جزءا من مكون أكبر من عنصر ثالث شريطة أن يكون العنصر المضمن في كل مرة واقعا في منتصف المكون الذي يحويه وليس في بدايته أو نهايته ، وأن تكون العناصر كلها من النوع نفسه . وبناء على هذا فإن الجملة

[[[[[مرل] صم] [روجه] [عمر] مصغف في الدرجة الثانية]]]]

لا سطوي على أية صعوبة . فعلى الرغم من وجود عبارات اسمية مضمنة داخل عبارات اسمه أربع مرات ، فإن العبارة الاسمية الأدنى تقع في كل مرة في بداية العبارة الاسمية الحاوية ، وكذلك الأمر في الجملة التالية :

مداها [الكلمة التي تلحقها] القطعة التي تليها [الجزء الذي يتركب منه] الشعر]]]]

حيث نجد أن العبارة الاسمية المضممة موجودة دائما في نهاية العبارة الاسمية التي تنحو بها. ومن الناحية الأخرى فإن جملة مثل :

[ ثم حل الذي [ المعناه التي [ علمتها روجتي [ نزوجته [ يكتب روايات مثيرة]]]]

غير مستعمله عمليا مع أن فيها ثلاث درجات من التضمين فقط. كل عبارة اسمية موحودة هي منتصف العبارة الاسمية الأكبر التي تليها. وتشومسكي على دراية تامة بهذه الصعوبة، ويستعملها على اعتبار أنها من تأثيرات «الممارسة» فبما يحق لتشومسكي تحت اسم الممارسة أن يهمل أن الجملة المكونة من مليون كلمة (مثلا) لا يمكن أن تنطق أبدا (لأننا نعرف بشكل مستقل عن اللسانيات أن الناس لا يستطيعون تعيد مثل هذه الأنماط السلوكية المطولة، كما أننا لا نحتاج إلى اللسانيات لكي نكرر الحقائق التي نعرفها بدون مساعدتها) نرى أن قضية التضمين الداتي مختلفة نوعا ما ويبدو أن هذه الظاهرة متعلقة باللغة بشكل حاصر، وليس لها نظير في أي فئة من فئات السلوك الأخرى. وهكذا فإن اللساني دون غيره مدين لنا بتفسيرها. والسبب الحقيقي وراء إهمال تشومسكي لظاهرة التضمين الداتي هو عجزه عن تفسيرها. فضمن إطاره النظري تعيد قواعد المكونات كتابة الرموز مثل «ع» بغض النظر عن البنية الأكبر التي تقع فيها، وبالرغم من أنه كان باستطاعة تشومسكي بالتأكيد أن يعدل نظريته بحيث تمنع التضمين الداتي، إلا أن مثل ذلك التعديل لن يكون أكثر من مناورة مخصصة لهذا الغرض بدون أن يغير شيئا. أما رايخ فيبين تماما أن من الممكن في نحو شبكة العلاقات التسلطية ظاهرة التضمين الداتي التي نلاحظ في اللغات الإنسانية (وهي في الواقع أشد تعقيدا مما ذكرته عنها أنها). وإذا لم تؤحد هذه الظواهر في الاعتبار كان من الواجب عندئذ أن تعدل نظرية رايخ لهذا الغرض بالدات (رايخ، 1969م). ولم يصمم التطوير الذي أدخله رايخ على نظرية لام القائمة على شبكة العلاقات لكي يحل هذه المسألة. فمع التضمين الداتي مكسب عبر متوقع في نظرية تهدف إلى تحقيق أهداف كانت محتلمة كل الاختلاف. ولذلك فإن المنع بصر كبير حفزه نحو العلاقات ضد اسحو المحوولي. أما الميدان الآخر الذي يعدم لنا فيه نحو العلاقات إمكانيات بعيدة بعينها أعوذنا للمتكلم السامع فهو إمكانية محاكاة شتى الأعراض المعروفة عند من

يعانون من فقدان القدرة على النطق باستئصال أجزاء محددة من نحو لام على حدّ دعم البعض (فليمسج Fleming، ١٩٦٧م).

إن هذا كله يحمل بشائر واعدة. ولكن نظرية لام مع ذلك تعرض نفسها لاستقادات خطيرة. فليس من الواضح أن شبكات العلاقات قادرة على تمثيل بعض الظواهر الأكثر شيوعاً في اللغات الإنسانية. ومن عوامل الجذب البنية للعيان في نظام لام مقابل عدم تشومسكي أن الأول يعتمد على «العنصر والترتيب» بينما يعتمد الثاني على «العنصر و العملية» (انظر الفصل الثالث). إن نحو «تشومسكي» حافل بالقواعد التي تبدل انتعش لتحتوي للجمل بتمثيل آخر. فالبنية العميقة للجملة تحتوي على مورفيمات معينة مجتمعة هي بنية هرمية معينة، إلا أن القواعد التحويلية تحذف أو تعدل بعض المورفيمات أو تحل مورفيمات أخرى وتعيد صياغة البنية. ومع أن المفردات محرونة في المعجم بشكل صوتي معين، إلا أن هذا الشكل قد يكون مختلفاً جداً عن اللفظ الذي تخرج به عندما نتحدث من القواعد الصوتية الوطنية (وللمزيد حول هذه النقطة انظر الفصل الثامن). وما أشبه صورة الجمل وهي قيد المعالجة حتى تصل إلى شكلها النهائي بالمنتجات التي تتحرك على السير النقال داخل المصنع. وقد بدت هذه الصورة أبعد ما تكون عن الواقع في وضعها لعمل المتكلمين، حتى بالسبب اللسانيين الذين يعترفون بأن مقولات «العمليات» في اللغة تلائم القصص الرصفية فعلى سبيل المثال، يقول بلومفيلد في معرض نقاشه لتغير شكل اللاحقة الإنجليزية الدالة على الجمع بين [z] بعد المحورات و [s] بعد المهموسات. إن من المفيد أن نحاول صيغ الجمع الشاذة مثل knives [naɪvz] «سكاكين» بأن يقول إن الجذر [naɪf] «سكين» يتحول أولاً إلى [naɪv] ومن ثم يأخذ شكل اللاحقة المتوقع الآن وهو [z] ولكنه يضيف قائلًا (١٩٣٣م، ص ٢١٣):

إن الترتيب الوصفي . . . شيء خيالي وينتج بساطة عن أسلوبنا في وصف الأشكال. ومن المسلم به . . . أن المتكلم الذي يقول knives لا يبدل [v] بـ [z] أولاً ومن ثم يضيف [z]، لكنه يلصق الشكل (knives) الذي يشبهه في بعض سماته شكلاً معيناً آخر (هو knife) ومختلف عنه بسمات معناه أخرى.

وتبدو قواعد لام مطمئنة جداً بالنسبة لمن يشارك بلومفيلد افتراضاته المبينة في «الشاهد السابق». فلا شيء «يتحول» إلى شيء آخر أبداً، كما أن شبكة العلاقات تحدد فقط الترتيبات المعقولة حيث تقع بالفعل الوحدات الدلالية والصوتية في الحمل كم



معرفها عمليا لكن تشومسكي يستعمل قواعد العمليات، لا لأنه يستمتع بالتفكير ضمن إطار السير النقال، بل لأن المرء حين يبحث في النحو بصورة أعمق مما فعل بنو ميلند يجد أن المعلومات لا يمكن أن تعالج إلا بقواعد العمليات لكي تكون على ما هي عليه ولا يمكن الاستعناء عن قواعد العمليات، حتى إن من الصعب استبعادها على أنها خدع وصفية مهيئة. فهي تقابل على ما يبدو خاصية أصلية في اللغات الطبيعية. أما الظواهر النحوية التي تتطلب بشكل واضح معالجة ضمن إطار العمليات فإنها تبدي مقاومة عبيدة للمعالجة ضمن إطار الشكات في نظام لام.

ولنأخذ على سبيل المثال الحمل الواقعة صلة الموصول. فلهذه الجمل مكونات تشبه الجمل المستقلة وتختلف عنها أساسا في أن صلة الموصول ينقصها عبارة اسمية واحدة بالمقارنة مع الجملة التامة. ويمكن تمثيل العبارة الاسمية المفقودة (وأحيانا يجب أن تمثل) باسم موصول يظهر في بداية العبارة. وهكذا فإن:

\* الرجل [الذي عمر ترك الكتاب قرب الخزنة القديمة] محتال

ليست جملة سليمة لأن المكون الذي يجب أن يشكل صلة الموصول يحتوي على كل العبارات الاسمية للجملة التامة. كما أن:

\* الرجل [الذي ترك الكتاب قرب] محتال

غير سليمة أيضا لغياب عبارتين اسميتين. أما الحمل التالية فجميعها سليمة التركيب:

الرجل [الذي ترك الكتاب قرب الخزنة القديمة] محتال

الرجل [الذي تركه عمر قرب الخزنة القديمة] محتال

الرجل [الذي ترك عمر الكتاب هذه] محتال

والطريقة الواضحة للتعبير عن الحقائق هي أن نقول إن الحمل الواقعة صلة الموصول تتشكل من جمل عادية بعد حذف أحد التعابير الاسمية منها أو بعد استبدالها باسم موصول. والأسماء الموصولة تسبق فيما بعد إلى بداية الجمل التي تقع فيها. وهذه هي أنواع العمليات التي صممت الرموز التحويلية من أجل معالجتها. فمثل هذه القواعد تمارس عملها على عناصر الجملة بطرق تعتمد على البنية الحية للجملة ككل. أما أنموذج التحقيق في قواعد لام، وهو الذي يبين المادة المختلفة في مستويات معرفية أخرى التي يمكن أن تمثل وحلة معية في مستوى معين، فيعالج كل شكل مداني

صورة مفصلة وفي معزل عن البنية التي يقع فيها ذلك الشكل . لذا فإن من السهل باندسة لأغودج التحقيق أن يبين كيف يمكن للواحدة المستقلة «عمر» أن تتحقق كصفر zero ولكن ليس ثمة طريقة واضحة يمكن من خلالها لأغودج التحقيق أن يسمح بحذف «الكتاب» أو «الخزانة القديمة» بأكملها . وبالإضافة إلى ما تقدم ، وببما يمكن تصميم الأغودج التكتيكي بحيث يسمح باستعمال الصفر كأحد الخيارات في كل موقع من مواقع العبارات الاسمية في الجملة الموصولة ، يبدو أن من المستحيل ضمن إطار رموز لام أن نجمع اختيار الصفر أكثر (أو أقل) من مرة واحدة في جملة واحدة . وليست هذه مسألة عجز من جانب الكاتب الحالي عن رؤية كيف تتحقق النتيجة المرجوة ضمن التقدم ، فالعينة الصغيرة من النحو الإنجليزي التي قدمها لام في هيكل نظريته المنشورة تعالج صلة الموصول كجملة مستقلة (لام Lamb ، ١٩٦٦ م ، ص ٨٠) .

لقد عر لام عن معارسته لتشومسكي حول هذه القضية بالقياس على عملية اختيار صنوف الأكل في المطعم (انظر باريه Parrot ١٩٧٤ م ، ص ١٩٥) ، حين يمر الإنسان بالطعام المعروض على الطاولة فيختار عناصر الوجبة حسب ترتيبها العشوائي ، فربما اختار الفاكهة أولاً ، ثم الطبق الرئيس ، ثم الحساء ، وأخيراً القهوة . لكنه بعد أن ينتقل إلى المائدة يتناول هذه العناصر بترتيب مختلف تماماً . ويشير لام إلى أن طريقة تشومسكي في تمثيل هذه الظاهرة ضمن إطار القواعد التحويلية تقول إن الواحد من يشتق تسلسل الأكل بإجراء عملية على التسلسل الذي جمعت به هذه العناصر ولنقل ١ . ٢ ، ٣ ، ٤ ← ٢ ، ٣ ، ١ ، ٤ من أجل الحصول على الترتيب الملائم : «الحساء ثم طبق الرئيس ثم الفاكهة وأخيراً القهوة» . ويتضمن هذا على ما يبدو أنه لو سمحت سيدة لمرافقتها أن تجمع لها عناصر الوجبة (وبذلك تكون جاهلة بتسلسل عملية الجمع) فلن يكون باستطاعتها أن تتوصل إلى عملية الأكل الصحيحة . فإذا عبر المطعم بترتيب الأصناف المعروضة على الطاولة ، كان على الزبون أن يعيد ترتيب سلسلة أكله بصورة البية لكن هذا لا يحدث بالطبع . فسلسلة الأكل يحكمها أغودج خاص بها وهو مستقل تمام الاستمالة عن الأغودج الذي تعرض به صنوف الطعام على الطاولة (أو عن أغودج إعداد الطعام في مطبخ المطعم بالنسبة إلى هذه القضية بالدات ، وهكذا) .

ونحقق عملية القياس هذه نجاحا يستحق الإعجاب في إيضاح موقف لام. فمن لفظ التي توضحها عملية القياس هذه نقطة تشير إلى وجود اختلاف بنوي مهم بين ترتيب الكلمات في الجملة وبين تناول طعام الغداء. فإذا أخذنا مثلا طقا يحتوي على هاتق، وطاقطا مقلية، وفطيرة، وبعض الحلوى فلن نجد سوى طريقة واحدة لترتيب هذه لأصناف في وجبة طعام جيدة. لكننا نستطيع أن نكون جملتين مختلفتين من «عمر» و«ريد» و«رأي». فوجبات الطعام تحتوي عادة على مثال واحد من أي «عصر» من عناصر الطعام. أما الجملة فتحتوي عادة على العديد من العبارات الاسمية والعديد من العبارات الوصفية وهكذا. صحيح أن شخصا نهما قد يأخذ قطعتين من الحلوى، ولكن لن يكون من المهم في هذه الحال أي منهما متوكل أولا. لكن هناك فرق شاسع بين قولنا «عمر رأي ريدا» و«ريد رأي عمرا». ولكن لكي نحصل على الشكل التسلسلي الصحيح على مائدة العشاء السحوية عليا أن نعرف المواقع التي تحتلها هذه العناصر في طاولة العرض الدلالية في المطعم. ويبدو أن لام يعتمد استبعاد هذا الاحتمال.

ولا علاقة لهذا المثال بالطواهر التي يستعمل تشومسكي التحويلات من أجلها. فما أن ندخل هذه الطواهر في الحساب حتى نتردد الحال سوفا. فالنقطة التي أشرنا حول الشبه بين الجمل الواقعة صلة والحمل الرئيسة التي حدثت منها عبارة اسمية واحدة صُممت كي تبين أن السؤال حول ما يعتبر صلة موصول سليمة لا يمكن الإجابة عنه بالرجوع إلى النحو السطحي للغة فحسب (أو أن الإجابة في هذا الإطار ستكون بالغة التعقيد على الأقل) إذ تكمن الطريقة البسيطة للإجابة في «شكل سطحي» تحتوي مماثل للجملة الرئيسة والذي نطلق عليه عملية التحويل لاشتقاق الشكل السطحي. ولبعد الآن إلى القياس على عملية الأكل عند الذواقة. فما يعتبر وجبة منمقة هنا هو نتيجة تصوف الطعام المعروضة على الطاولة (على عكس المطاعم الحقيقية حيث نرى أن هذين المصنفين مستقلتان عن بعضهما وأن عدم التجانس ممكن جدا).

ومن الممكن بالتأكيد أن تكون تحويلات تشومسكي هي أسلوب حاطي، في معالجة هذه الطواهر، وأنا على استعداد للجدال في ذلك. لكن لام لم يفعل الكثير ليسر أن لديه طريقة أفضل (ولا أية طريقة في الواقع) لمعالجة مثل هذه الحالات. فعجزه عن معالجة العمليات السحوية المعتمدة على البنية بعد نقصا خطيرا في نظريته، لأن هذه

ظواهر تلعب دوراً رئيساً في التنظير عند تشومسكي. كما كانت نظرية تشومسكي الساقية في هذا الميدان. فعندما تظهر نظرية جديدة منحدية المعتقدات السائدة، فإن من الممتع أن نراها تحل مشكلات كان أنصار الاعتماد السابق قد وضعوها على الرف ومن المهم أيضاً دون شك أن نعرف أن يوسع النظرية الجديدة أن تكون ندا لما فسرتها في المجالات التي كانت فيها الأحيرة ناجحة بشكل خاص. ويصعب لام اهتمامه على كسب المجتمع المكري الذي كان قد تحول بأكمله تقريباً إلى اعتناق آراء تشومسكي، ولكنه لا يقدم أي دليل على إدراكه الحاجة إلى ملاقة تشومسكي على أرض تشومسكي نفسه. أما بيتر راينغ فقد كان أكثر إحساساً بالمسؤولية في هذا الشأن (انظر راينغ Reich، ١٩٧٠م). ولكن بالرغم من أن العمل المذكور يشكل بداية واعدة لإظهار قدرة شبكات العلاقات على معالجة أنواع الظواهر النحوية التي ناقشها تشومسكي، إلا أنها سرعان ما تفقد عزمها على المتابعة. هي السنوات القلائل الأحيرة، بدا أن راينغ قد تخلى عن النشر في هذا الموضوع ولعل السبب في هذا هو التحول في مجالات اهتمامه، وليس نعد تنفيذ العمل. لكن الحكم على النظرية يكون حسب منجزاتها الملموسة لا حسب البريق في عيني مخترعها. وواقع الحال الآن يحكم على نحو العلاقات بأنه كان بالتأكيد فكرة جيدة تبين فيما بعد أنها لا تصلح للعمل.

ولعل ما سبق يكفي كنقد لنحو العلاقات. ولكن هناك نقطة أخرى تستحق أن نقف عندها نظراً لأهميتها العامة. فقد رأينا أن مؤيدي نحو العلاقات الدغميين أيدوا بوضوح العكسة القائلة إن نظرية اللغة - والمقصود هو نظرية المقدره langue وليس الممارسة parole - هي تعبير سوسير - يجب أن تركز اهتمامها في السنية الشكائية، وألا تسمح لنفسها بالتأثر بالعوامل المادية التي تحقق تلك البنية. فالمشكلة هي هذا المبدأ المسطقي الأبق هي أنه إذا توعدنا في العالم المجرد وابتعدنا عن حقائق الكلام الملموسة، عرّضنا أنفسنا لخطر الوصول إلى نظرية لا تقول لنا شيئاً حتى عن العناصر الشكلية للغة. وبدون أن أتبع الكلو سماتية glossmatics قد وقعوا في الفخ حيث نرى الي فيشر بورعس (Eli Fischer Jørgensen، ١٩٦٧م، ص ٥) يقول إن الكلو سماتية بالنسبة للساني أولدال (أي ما اسميه أنا «نحو العلاقات») هي نظرية شكلية لا نطرحها أية مادة معينة، لكنها مصممة بشكل صريح لكي تعمل في «جميع» أوجه النشاط البشري. أما لام فيشرها

لفظة قوية في نظامه، بحيث يمكنها أن تمثل «قواعد» لظواهر مثل اليبسول، والرقص الهندي بشكل لا يقل سرعة عن اللغات في المعنى العادي (انظر لوكوود Lockwood، ١٩٧٢م، ص ٢٨٣ وما بعدها). وبينما تعتبر المرونة في نظام الرموز شيئاً عتاراً من مفهوم نظام شكلي من الرموز قابل للتكيف بلا حدود هو مغالطة في التعبير فاسوع، لو حيد من نظم الوصف التي يمكنها أن تكيف نفسها لكي تصف أي شيء، مهما كان هو لدعة الطبيعة نفسها التي يوضع المتكلمون جانبها الدلالي بدلاً من أن تكون أسيرة لقواعد الشكلية. ويسفي على أي نظام مبني على الرموز الشكلية أن يقدم اعتراضات حول المادة التي يطبق عليها. فخطوط الكفاف التي يستعملها رسامو الخرائط لتبين مناطق متساوية الارتفاع نظام يتكيف مع نوع التضاريس إلى حد كبير. ولكن لا يمكن استعماله لتمثيل بنية الخريئات العسوية أو توزيع الدخل في المجتمع مثلاً. فإذا كان نظم الرموز قد وصع متعمداً إهمال الخصائص المهمة للمادة التي يراد وصفها، فإنه سيجسد نظرية كاذبة حول تلك المادة (عما أنه من الواجب عليه أن يقدم بعض الاعتراضات النظرية) ومن ثم فإنه لن يكون مفيداً للمشغل بالوصف، وسيكون في الوقت نفسه مضللاً لو اصبح النظرية

والدرس الذي نخرج به دون شك هو أن الاستنتاج بأن اللغة مجرد شكل معروف عن المادة التي تحققة هو استنتاج خاطئ. فالمادة اللغوية تحدد الشكل اللغوي إلى حد بعيد ولعناتنا هي على ما هي عليه في العال لأبها لغات منطوقة وكل محاولة لإهمال واسطة الكلام وتحليل طبيعة اللغة هي ضوء المنطق الصرف وحده محكوم عليها بالإحراق



## الصوتيات الوظيفية التوليدية

كانت الصوتيات من أبرز فروع اللسانيات عند الوصفيين في العقود الوسطى من هذا القرن. فقد كانت دراسة اللسانيات لديهم تعني أولاً وقبل كل شيء، التمكن من رد حبيط من المعلومات الصوتية إلى نسق أبيق من القويمات. ولو أحدا كتاب مدرّس جوز Martin Jones «قراءات في اللسانيات» Readings in Linguistics (١٩٥٧م) كأنموذج يثب أكثر مقالات المدرسة الوصفية تأثيراً، لرأينا أن معالجة النظرية والتطبيق في التحليل الفونيمى تعوق بكثير معالجة أي موضوع آخر، بما في ذلك النحو. وفضلاً عن ذلك، فقد تأثر الوصفيون في معالجتهم لمستويات لغوية أخرى تأثراً كبيراً بالأفكار التي لبنت فائدتها في الصوتيات الوظيفية. وما استعمالهم لتعابير مثل «مورف والومورف ومورفيم»، بصورة مواربة للتعابير الأخرى مثل «فون والوفون وفونيم»، إلا غيصر من ميفض في هذا الاتجاه.

أما عند تشومسكي فإن النحو يشكل جوهر علم اللغة. وكان كتابه «السى النحوية Syntactic Structures» أول كتاب ينشره. ويعود الفصل في شهرته سواء هي اللسانيات أو هي غيرها من الميادين على وجه الخصوص، إلى ما قدمه إلى علم النحو أكثر بكثير من أعماله هي الصوتيات الوظيفية. لذا لم يعد من المستغرب هي أياما هذه، بعد أن اكتسب ما يعرف «بأنموذج تشومسكي Chomskyan Paradigm» موقعا قياديا في عالم اللسانيات، أن نرى الأعمال المنشورة للمؤتمرات العلمية وما شابهها تقسم إلى أجزاء مثل «النحو» (أو النحو وعلم الدلالة) و«موضوعات أخرى» وهو تقسم كان شير العراه قبل عشرين عاما.

ولا نعرف على وجه التحديد ما إذا كان تشومسكي نفسه يقر بأنه هو السبب وراء انصراف علماء اللسانيات عن الصوتيات الوظيفية. فالرغم من أن كنهه الأول كان في النحو، إلا أن أول بحوثه كان رسالة في الصوتيات الوظيفية العبرية، كمن كنهه المشورة في الصوتيات الوظيفية لا تقل عدداً إن لم تزد - عما كتبه في النحو، حتى أنه عبر في أكثر من مناسبة عن اعتقاده بأن الصوتيات الوظيفية أكثر جاذبية من النحو، على أساس أنه من الأسهل لنا، وفي صوء ما نملكه من المعرفة في وقت الراهن، أن نتوصل إلى نتائج قاطعة في الميدان الأول أكثر من الثاني. ومع ذلك فإن معظم العلماء يرون، صواباً أم خطأ، أن مكانة الصوتيات الوظيفية تفهقرت إلى المحل الثاني في ظل الاتجاه الجديد، والدليل على ذلك هو الاسم الذي يطلق على النظرية الصوتية الوظيفية وهو «الصوتيات الوظيفية التوليدية» التي يزيد بها تشومسكي وتلامذته. فنظرية تشومسكي تسمى «التوليدية» لسبب واضح هو أنها تعالج صوفاً من النحو تحدد، أو - إن شئنا استعمال المصطلحات الرياضية - «تولد» جميع الجمل السيمية نحويًا فقط لا غير في أية لغة بعينها. وعلى ذلك فإن اسم «الصوتيات الوظيفية التوليدية» لا يطلق عليها لأنها تحدد جميع السلاسل الصوتية السيمية في اللغة فقط لا غير، فهذا من الأمور التي «لا» تقوم بها ""، بل إن السبب الوحيد في إطلاق اسم «التوليدية» على النظريات الصوتية الوظيفية الحالية هو ارتباطها «بالنحو التوليدي»، ولأن ممارستها هم من ممارستها أيضاً.

وبصرف النظر عن الشخصيات ذات العلاقة بالموضوع، فإن القاسم المشترك الذي يربط «الصوتيات الوظيفية التوليدية» بنحو تشومسكي ليس أن كليهما «مولد» بالمعنى الواضح، بل هو اهتمامهما معاً بالكليات اللغوية universals. فعلماء الصوتيات التوليديون، شأنهم شأن النحويين «التحويليين»، يصبون حل اهتمامهم على وضع نظريات عامة تتناول حدود تنوع اللغة الطبيعية (ويعتقدون أن هناك حدوداً صعبة حد، هي التي يمكن اكتشافها). ولا يهتم هؤلاء العلماء إلا بصورة ثانوية فقط - إن كانوا يهتمون أصلاً - بإعطاء أوصاف متصلة ومفيدة للظواهر الصوتية الوظيفية لدعاب لمفصلة كعناية في حلة ذاتها. وقد بدأت الصوتيات الوظيفية في الواقع كتطوير لعمل



«رومان ياكوبسون» في الكليات الصوتية الوظيفية . ولكن عندما «توطن» هذا التقليد في أمريكا في الخمسينيات تحولت اهتماماته إلى كليات من نوع آخر .  
والصوتيات الوظيفية التوليدية بمفهومها الحديث هي في الأساس من وضع موريس هالبه المولود في عام ١٩٢٣م والذي يعمل في «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا» ، وقد كان في مراحل حياته العلمية الأولى أحد معاوني ياكوبسون .  
وبمصل هالبه امتدت الأسس التجريبية لنظرية الكليات الصوتية الوظيفية لتضم فئة جديدة وغنية من المعلومات . فقد استمداد من نظرية ياكوبسون حول السمات المميزة distinctive features في تفسير ظواهر التناوب الصرفي الصوتي ، الأمر الذي لا يأتي ياكوبسون على ذكره إلا لماماً .

ومصطلح «التناوب الصرفي الصوتي» شائع الاستعمال في معظم اللغات ، حيث يتخذ موريم معين صوراً صوتية متميزة ، مع أنها مرتبطة بعضها البعض في الظروف المختلفة . وقد رأينا مثلاً في الفصل الخامس وهو الجذر الألماني «bad» (حمام) لذي يلفظ بالصامت [d] حين تتبعه لاحقة صرفية في الكلمة نفسها ، بحيث يكون المصدر الفعلي «baden يستحم» [ba:dan] وفي حالتي الجر والإضافة [ba:das]bades وهكذا . أما في حالة الرفع ، حيث لا يتصل الجذر بأية لاحقة صرفية ، فتستبدل الدال [d] بالهاء [t] بحيث تلفظ bad مثل [ba:t] . ولا تنطبق هذه الحقيقة على هذا الجذر بحسب ، بل إن كل دال [d] تصبح تاء [t] في الألمانية إذا وقعت في نهاية الكلمة ، إذ نلاحظ تناوبات متشابهة في band (حجم) و lead (يؤدي) وهكذا .<sup>(١١)</sup>

وبكن كيف ترتبط فكرة «السمة المميزة» بعلم الصرف والأصوات morpho-phonemics ؟ لقد كان بلومفيلد وعدد من أتباعه يميلون نحو اعتبار الفونيمات السمات الصوتية الأولية في ساء اللغة . ولا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان بلومفيلد يريد أن يقتصر دور الفونيمات على كونها وسائل مفيدة للتحدث عن عناقيد متوافقة من قيم المقاييس المميزة . فالفونيمات مفيدة لأنها قابلة للتمثيل بالحروف الأبجدية ، والألفاظ يمكن أن تدون فربما بصورة خطية تشبه الكتابة العادية . ولكن إذا أردنا أن نمثل هم المعايير المختلفة بشكل منفصل ، وجب علينا أن نلجأ إلى نظام معقد من التدوين تأخذ فيه الألفاظ جداول ثنائية الأبعاد : أفقية ورأسية . فالبعد الأفقي يمثل المقاييس ،

بيما تمثل الأعمدة الرأسية الأقسام الزمنية المتعاقبة، وتغلا الخانات برموز تمثل القيم المحتملة الممكنة للمقياس الذي تصح الخانة في بعده الأفقي. وكانت لدى بعض علماء الفونيمات فكرة واضحة مفادها أن الفونيمات ما هي إلا رموز مختصرة في متناول اليد (انظر مثلا هوكيت، ١٩٤٢م). ولكن الآخرين لم يطوروا إلى الفونيمات في حدة ذاتها على أنها وحدات نظرية بدائية. على كل حال، فإن ذلك الرأي ليس مستبعدا في حدة ذاته فحسب، بل يؤدي أيضا إلى توقعات قابلة للاختبار بشأن أنماط التناوب الصر في الصوتي، وهذه التوقعات يمكن تنفيذها في الوقت نفسه

ولو كانت الفونيمات وحدات بدائية في نظريتنا لسهل الحديث عن العمديت مؤثرة في الفونيمات المنفردة ضمن النظرية أكثر من الحديث عن العمليات المؤثرة في مجموعات الفونيمات التي يجب أن نذكر كل على حدة. ولو كانت قيم المقاييس أساسية لسهل الحديث عن العملية التي تؤثر في مجموعة طبيعية من الأصوات، ولنقل جميع الصوامت المجهورة، أكثر من تلك التي تؤثر في الصامت [d]، بما أن من الواجب تحديده بذكر القيمة الأساسية «مجهور»، بالإضافة إلى قيم المقاييس التي تميز [d] عن الأصوات المجهورة الأخرى. فمن المفترض أن نسبة احتمال وقوع العمليات الطبيعية كبيرة نظريًا إذا كانت الاعتبارات الأخرى متكافئة. وهناك بالفعل أمثلة كثيرة من التناوب الصر في الصوتي تؤثر في «المجموعات الطبيعية» من الأصوات، وأمثلة قليلة سببًا تؤثر في الأصوات المنفردة، مثلما يلاحظ في التناوب بين الدال [d] و لثاء [t] في اللغة الألمانية. فالدال [d] في الواقع ليست هي الصوت الوحيد الذي يفقد جهره في نهاية الكلمة. فمن الملاحظ أن جميع الصوامت الانفجارية المجهورة الأخرى تحصص لهذه العملية. وهكذا نجد مع كلمة [gro:bə] 'gro:bə' (خشى) كلمات مثل [gro:bən] 'إبح، مقابل [gro:p]، كما نجد مع tag (يوم) كلمة 'ta:go' مقابل [ta:k]. وبما أن الصوامت الانفجارية المجهورة تعمل كمجموعة فيما يتعلق بالتناوب الصر في الصوتي، فإن من واجب النظرية أن تعاملها على هذا الأساس، أي أنها يجب أن تختل في صوء سماتها الصوتية المشتركة، لا في صوء لائحة الرموز الفونيمية<sup>(٣)</sup>

ولا تستعمل المعلومات الصرفية الصوتية لمجرد إظهار ضروره قيام الصوتيات الطبيعية بمعالجة السمات الصوتية بدلا من معالجة الأقسام الأحادية، إذ ليس ثمة حدل

كسر حول هذه المسألة . لكن تلك المعلومات تقيم الحجة على صحة الفرضيات الديلة أو حطتها فيما يتعلق بطبيعته مجموعة السمات المميزة الكلية . وهذا أمر على جانب من لأهمية . حد مثلا الاقتراح الذي يقول إن من الواجب أن تحتوي مجموعة السمات على السمات «غير رنينية» *obstruent* و «رنينية» *sonorant* ، حيث تعرف «الصوامت غير رنينية» بأنها تلك التي تصدر بإعاقة جريان الهواء المتدفق عبر الفتحة الصوتية (أي الاصطكاكيات والاحتكاكيات) ، بينما تعرف الصوامت الرنينية بأنها تلك التي تسمح بتدفق الهواء بحرية دون عائق (كما في الصوائت *vowels* والأصوات الامتدادية غير الاحتكاكية *approximants* والأنفيات *nasals* والموائع *liquids*) . وليست هذه المصطلحات ضرورية من أجل التعريف في حد ذاته . فأي صوت من «غير الرنينيات» يمكن أن يسمى «انفجاريا» أو «احتكاكيا» . والسؤال هو : هل تؤدي الصوامت غير الرنينية في الحقيقة وطيفة مجموعة طبيعية؟ ولكي نتابع مناقشة مثالا من الألمانية ، نجد أن تلك الأصوات تعمل ذلك في الواقع . فالقاعدة الألمانية الحفيفية لا تنص على أن الانفجاريات هي الوحيدة التي تفقد جهرها في أواخر الكلمات ، إذ تبين لنا أن جميع الصوامت غير الرنينية ، وجميعها فقط ، تعمل ذلك أيضا . وهكذا عند مثلا مع الصفات *brav* (جسور) و *mies* (معتوشب) أشكالا مثل *brave* مقابل *brat* و *mi:zo* مقابل *ms:s* ، بينما يرى أن الحدود التي تنتهي بأصوات رنينية ، كما هي *stet* (منحدر) أو *setau* (ماكز) لا تظهر مثل هذا التناوب . وقد يكون فقدان الانفجاريات والاحتكاكيات سمة الجهر في أواخر الكلمات مصادفة عربية لو عاملت النظرية الانفجاريات والاحتكاكيات على أنهما مجموعتان منفصلتان من الأصوات التي لا تشترك في شيء مقابل أنواع الأصوات الأخرى . ولكن هذا أمر متوقع إذا لم تكن الانفجاريات والاحتكاكيات سوى فرعين من مجموعة الصوامت غير الرنينية الرئيسة . لذلك نخلص إلى القول إن السمة «رنينية/ غير رنينية» يجب أن تضاف إلى لائحة السمات المميزة الكلية (مع العلم أن المعلومات من اللغة الألمانية ليست ظاهرة منعزلة يمكن أن تعالج على أنها محض مصادفة ، لكنها معززة بدليل يشير إلى الاتجاه نفسه في لغات عديدة أخرى) .

ونرر المشكلة حين ندخل في اعتبارنا الدليل الصرفي الصوتي الذي يهرر أركان نظرية باكوبسون القائمة على السمات المميزة الاثني عشرة . فالسمة «رنينية/ غير رنينية»

لم تكن في الواقع ضمن السمات الاثني عشرة الأصلية. والأسوأ من ذلك أن الدليل لا يدعو إلى إضافة سمة أخرى فحسب، بل ويقدم الحجة أيضا ضد السمات الأصلية. فمكان النطق في الانفجاريات مقياس ثلاثي القيم في الأصوات [p, t, k] والحقيس ثلاثة القسم مرتبة بالنسبة لنظرية تتعامل مع سمات ثنائية، إذ أن من السهل أن نعتبر مقياسا بطقيا ممردا يقابل «سمتين» مميزتين ثنائيتين تتعاعلان مع بعضهما لإصدار انهميم الطفعية. إلا أن تركيبات القيم من سمتين ثنائيتين يشكل أربعة احتمالات وليس ثلاثة. ونعنا لذلك، عالم ياكوبسون مكان النطق بطريقة استوحاها من اللغات السلافونية Slavonic، وهي التي تصمم انفجاريات حنكية مثل [c] بالإضافة إلى [p, t, k]، ويعتبر ياكوبسون أن الصوتين [k, c] متضامان compact مقابل [p, t] اللذين يعتبرهما منتشرين diffuse، كما يعتبر [k, p] خفيفين grave و [c, t] حادين acute (ياكوبسون وآخرون Jakobson et al., ١٩٥٢م، ص ٣٣). أما اللغات الأخرى كالإنجليزية التي لا تحتوي على أصوات حنكية فتعاني من نقطة ضعف تتمثل في أن الصوامت المتضامة لا تنقسم إلى أصوات خفيفة وأخرى حادة. ولم يقدم ياكوبسون تحليله في هيئة ادعاءات قابلة للاختار حول التناويات الصرفية الصوتية. وليس من الواضح أبدا كيف يشكل تحليله فرضية تجريبية، فما إن بوضع تحليله على محك المعلومات الصرفية الصوتية حتى يسيء بنفسه. وهكذا فإن من خصائص اللغات السلافونية التناوب الواسع بين اللثويات وحنكيات ولو كانت [t] بالنسبة إلى [c] مثل [p] بالنسبة إلى [k] كما يدعي ياكوبسون، نوحب عليها أن توقع أن تحمل [k] محل [p] دائما أو عادة في السياقات التي تحمل فيها [c] محل [t]. لكن هذا ينافي الواقع تماما.

ورغم هذه المشكلات، تمسك أتباع ياكوبسون باعتقادهم بصحة المجموعة الأصلية المكونة من اثني عشرة سمة لسوات عديدة من تطور الصوتيات الوطيمية التوليدية. وفي عام ١٩٦٦م كان تشومسكي لا يزال ينادي بصحة السمات التي ذكرت في «مبادئ تحليل الكلام». وعلى أية حال، دخل هذا الموقف حيز السبان شيئا فشيئا بعد ظهور كتاب تشومسكي وهاليه «نظم الصوت في الإنجليزية» عام ١٩٦٨م، وهو كتاب الذي يعتبر المرجع الرئيس لما تلاه من الكتب في الصوتيات الوطيمية التوليدية ولا يستعمل كتاب «النمط SPE» (كما يدعي الكتاب الأخير عادة) سمات مختلفة عن

ننتج المذكورة في كتاب «المادى» فحسب، لكنه يتخلى كلية عن فكرة التكافؤ النفسي بين بعض المقاييس المتميزة نطقاً (ويعتبرها كأن لم تكن). ونأخذ بدلاً عن ذلك الخط المظني الذي ينادي بضرورة غثيل أي مقاس نطقي من المقاييس التي يمكن التحكم بها بصورة مستقلة بصفة خاصة به (انظر «النمط» Chomsky and Halle، ١٩٦٨ م، ص ٢٩٧، انظر أيضاً ماكولي McCawley، ١٩٦٧ م).

ولهذا الاحتمال بمصرين من عناصر الصوتيات الوظيفية الياكوسونية المعادية لموصفين الأول وهو فكرة الوسم markedness (التي تقول إن أصوات الكلام تشكر تركيباً هرمياً، وإنها متباينة في فائدتها الكامنة). أما العصر الثاني فينص على أن جميع السمات المميزة هي ثنائية من الناحية النفسية، حتى ولو كانت مستمرة في معايير النطق. ويمكننا أن نعالج «الوسم» بصورة سريعة نظراً لصحة الادعاءات حوله، رغم أنها لا تحتوي على المصامين التي يفترضها علماء الصوتيات التوليدية. وإذا عدنا إلى موضوع الصوائت الأمامية الدائرية مثل [y] وجدنا أن علماء الصوتيات التوليدية يجادلون على النحو التالي: إن الجمع بين موقع اللسان الأمامي وبين استدارة الشفتين ليس أصعب فيزيائياً من الجمع بين استدارة الشفتين وبين موقع اللسان الخلفي، أو بين موقع اللسان الأمامي وانسباط الشفتين. لكنا نجد مع ذلك أن الصوائت مثل [y] أقل شيوعاً في لغات العالم من [u] أو [a] لذا يجب أن نصنف المجموعة «أمامية + مستدير» على أنها مجموعة «موسومة» marked في نظريتنا الصوتية الوظيفية. ويجب أن يقال معهم الوسم هذا خاصية كامنة في تركيب العقل البشري نظراً لثباتها في اللغات ولعدم وجود مقابل فيزيائي لها. والجواب على هؤلاء هو أنهم لم يبحثوا جيداً عن التفسير فيزيائي. فحركات النطق اللارمة لإصدار [a, y, u] على التوالي هي متساوية جميعها أم من ناحية الأكوسية فإن نمط الموجات الصوتية للصائتات [y] يحتل مكاناً وسطاً بين نمطي الصائتين الآخرين. وبعبارة أخرى، فإن [a] و [u] بالنسبة للمستمع أكثر بعداً عن بعضهما البعض من بعد كل منهما عن [y] لذا فإن من الطبيعي بالنسبة إلى أذهاننا أن نستعمل صائتين قريبين فقط أن نختار الصائتين الأولين. ولا يوحى هذا بوجود مدأ نفسي كما لم يكن معروفاً من قبل أكثر مما يوحى بذلك اختيار اللونين الأحمر والأحمر في الأعلام المستعملة في الإشارات بدلاً من اختيار اللونين الأزرق والأخضر.

أما الخاصية الثابتة فتستحود على قدر أكبر من اهتمامنا. ولقد ذكرت مدبره أن علماء الصوتيات الوظيفية التوليدية أساؤوا فهم الحقائق حول الصوائت الأمامية المستديرة لأنهم حصروا تفكيرهم ضمن إطار النطق فحسب. وليس ثمة شك في أن المبدأ الثنائي قد دخل الصوتيات الوظيفية التوليدية بسبب التركيز في الأيام الأولى لنظرية على دور السامع بدلا من دور المتكلم في التواصل الشفوي. وهي السمات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وعندما كانت الصوتيات التوليدية قيد التطوير، لاحظت بوادر تطورين جديدين في مدينة كامبريدج ماساتشوستس. ويتمثل التطور الأول في التحليل العليمي للكلام speech spectrography (الذي أتاح للمرة الأولى فرصة صياغة مقولات حول الأصوات حسب غط الموجات الهوائية بدلا من حركات لفظ التي تولد موجات الهواء)، أما الثاني فيتمثل بنظرية المعلومات وهي الدراسة الكمية لكفاءة التواصل. (هنا يتعلق بالحو المكري لهذا الوسط الأكاديمي في ذلك العصر بطر مثلاً بار هيليل Bar Hillel ، ١٩٧٠م، الفصل ٢٥). ومن الأسئلة الواضحة التي يطرحها المشتغلون بنظرية المعلومات حول العبارة الكلامية utterance سؤال يقول: ما هي القرارات التي ينبغي أن يتخذها السامع بشأن خصائص العبارة الكلامية لكي يعرف محتواها؟ فنظرية المعلومات تقول إن الشفرة التي تحمل العبارة الكلامية تبلغ أقصى درجات الكفاءة إذا كان كل واحد من تلك القرارات يمثل اختياراً ثنائياً بين «نعم» أو «لا»، وإذا كان مستقلاً عن جميع القرارات الأخرى. ومن هنا يستنتج أنه لا بد للسمات المميزة في الصوتيات الوظيفية من أن تكون ثنائية (ياكوبسون وهالبه، Jakobson and Halle ، ١٩٥٦م، ص ٤٧-٤٩). وكان من المفترض أن تتحد هذه السمات ثنائية معنى محددا نسبيا في الإطار الأكوستي، ولو أن الخاصية الأكوستية قد تنح عن عدد من حركات اللفظ البديلة. لقد كان علم الصوتيات اللفظي بمثابة القاة التي تحققت من خلالها المؤثرات الأكوستية (المرجع السابق، ص ٣٥)، وبالتالي فهي لم تكن حادثة بالنسبة لأي لساني ذي بوجه نظري. ومن سوء الحظ أن اللفظ هو الجانب الوحيد من الصوتيات الذي كان معروفا بالتفصيل.

ولقد سارع اللسانيون إلى تبديل مواقفهم من علاقة نظرية المعلومات عند فهم تقدم الأبحاث الأكوستية التي أجريت فيما بعد سمط الاعتقاد باحتمال أن يكون

لسمات المميزة الباكوسونية معنى مباشر في الإطار الأكوستي أكثر من الإطار الطيفي على أية حال فإنه حتى لو كانت التأثيرات الأكوستية أو الإدراكية للشفيه abrahization، مشابهة أو حتى مماثلة لتأثيرات التحليق pharyngalization مثلا، فإن أي وصف كامل للغة الإنجليزية مع ذلك يجب أن يبين أن استعمال المتكلمين للنطق الثاني بدلا من الأول، و انعكس بالنعكس بالنسبة إلى وصف «التوي Twi». ومن المؤكد أن أي جهاز بصري لن يكون كافيا في آخر الأمر إذا أهمل الفرق بين أنماط النطق المميزة صحيح أن علماء صوتيات الوظيفية التوليدية تخلوا مؤجرا عن هذا الجانب من النظرية، إلا أنهم لم يتحصوا عن فكرة الثنائية التي كانت تواكبها منذ البداية، حيث طغت هذه الفكرة بالفعل في الأعمال التي ظهرت فيما بعد وبصورة أكثر صرامة وكان تعسير ظاهرة تمييز اللغة الإنجليزية وعدد من اللغات الأخرى لثلاث درجات من فتحات الصوائت يرتكر على أن سمة «المتصام / المنشور» (التي تعطي المنحة في الصوائت ومحرج الصوت) هي حالة استثنائية. وكانت هذه السمة ثنائية دون معنى تقريبا لأنها تسمح بوقوع لصوت في أحد قطبيها، أو لا تسمح بوقوعه في أي منهما. وبعبارة أخرى فإن لأصوات قد تكون في موقع متوسط بين المتصام والمنشور (المبادئ ص ٩، ١٠، ٢٨). وما أن ارتبط مفكر عنيد مثل تشومسكي بالنظرية حتى تم اعتماد هذا النوع من الاستثناء عن حق. ففي كتاب «النمط» SPF تعالج المنحة بسمتين ثنائيتين + / - عال و + / - منخفض. (لقد استبدل أسلوب إعطاء الأسماء لكل من قطبي السمة المميزة باستعمال اسم واحد للسمة مع وضع إشارة زائد أو ناقص قبلها للدلالة على القيمتين). ونسمح هاتين السمتان الثابتيان بثلاثة تراكيب محكية وهي: [a] + عال، و - منخفض، و [e] وهو - عال و - منخفض، و [æ] وهو - عال و + منخفض (أما التركيبة + عال و + منخفض فغير محكية مطلقا). ومن المفهوم أن تركيبات السمات هذه لن تتحقق بطريقة نفسها في اللغات المختلفة، ولا حتى في اللهجات المختلفة للغة نفسها (ومصانف [æ] في كلمة pat الإنجليزية الرسمية RP يلفظ بفتحة أصغر وأعلى نوعا ما من اصانف [a] في كلمة patte الفرنسية، أو في اللفظ الشمالي لكلمة pat في الإنجليزية على سبيل المثال) مع أن كل هذه الأصوات متوصف بالسمتين «عالي، + منخفض» (عنى حد سواء إلا أن السمات الكلية تحدد عدد الأصوات المتقابلة الممكنة ونوع

العلاقات الصرفية الصوتية التي ربما تدخل فيها تلك الأصوات. أما التحقيق الصوتي الدقيق في لغة أو لهجة معينة لتركيبه مثل «عال و+ منحفض» فيتحدد بما يسمى «قواعد التفاصيل detail rules» التي تتفاعل بطريقة تثير الاهتمام مع المكونات الأخرى للنظام الصوتي (ومن الممارقات أنها لم تناقش بالتفصيل أبداً)

ومن العريب أن نقول إن أصوات الكلام في اللغة الطبيعية توصف وصفاً دقيقاً ضمن إطار مجموعة كلية من السمات الثنائية. فنحن نعرف قبل كل شيء، أن الملمات الأخرى غير التحليلية تميز بين أكثر من ثلاث قيم في مقياس الفتح على سبيل أمثال «وما يسترعي الانتباه أن تشومسكي يعالج الخاصية الثنائية على أنها قضية مستطوية لا جدال فيها، ويقول إن كل لعوي يفترض مسبقاً وجود مجموعة ثابتة وقياسية من السمات الصوتية (Chomsky، ١٩٦٤م، ص ٧٧):

«لم يقدم أحد من قبل إجراء يبين مثلاً لماذا يجب أن يعرف الصامت [p] في بداية الكلمة بالصامت [p] في نهاية الكلمة بدلاً من الصامت [i] النهائي. هي اللغة الإنجليزية لا يعتمد هذا أساساً على الفرض أن الخصائص الصوتية المألوفة (الصجاري، شفري، إلخ) هي خصائص «طبيعية» ومع توفر حرية اختيار السمات، فإن أي تجميع عشوائي ربما يكون أبسط.»

ويقول تشومسكي وهالیه إن خاصية الثنائية ليست محل جدل بالنسبة للسمات لأن «نعم» و«لا» هما الإجابتان الممكنتان على السؤال ما إذا كانت قطعة segment ما تنتمي إلى عنصر معين أم لا («النمط SPE»، Chomsky and Halle، ص ٢٩٧):

«إن السمات الصوتية ثنائية في ضوء الحقيقة التي تنص على كونها أجهزة نصيف مثلها مثل جميع سمات النصيف الأخرى في المعجم، لأن استعمالات السمات الثنائية هو الطريقة الطبيعية لبيان ما إذا كان عنصر ما ينتمي إلى فئة معينة أم لا.»

لكن هذه معالطة مكشوفة. فالتنص الأول يشير إلى موافقه الجميع على وجود مجموعة ثالثة من السمات، حيث تدل «السمات» على «المقاييس الصوتية» المفهوم بحسب. أما النص الثاني فيشير إلى وجود إجابتين فقط عملاً إذا كانت قطعة ما segment نتحدث عنه معينة. والمقصود «بالسمة» هنا هو «القيمة المحددة بالنسبة إلى مقبوس معين». ولا يجادل أحد بكل تأكيد في كون مقياس «الفحة» (أي مستوى ارتفاع النطق

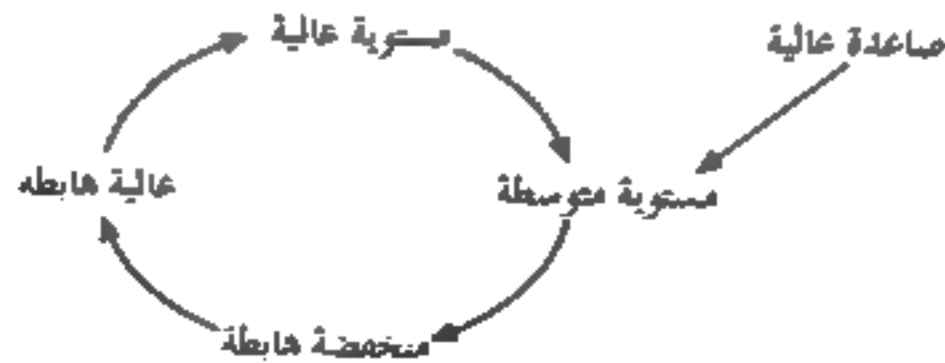


في العم) أحد الكليات المتعلقة بوصف الصوائت في جميع اللغات. وبالمثل فإنه ما من أحد يشير إلى احتمال وجود أكثر من إجابتين عما إذا كان صائت معين نصف مفتوح إن شئنا ذكر قمة واحدة من مقياس فتحة الصوائت. وليس باستطاعة المرء أن يحصل على أن من الممكن تحويل كل مقياس صوتي مستمر إلى العدد نفسه من الخطوات الثانية المنفصلة في كل لغة من اللغات. ومن البدهي أن نفترض مع «بلومفيلد» أن اللغات تتخذ قرارات مستقلة إن جار لنا التعبير حول عدد الخطوات التي يجب تمييزها في مقياس مستمر فيزيائيا. وإذا كانت نظرية السمات الثنائية الكلية صحيحة، فإنها صحيحة لأنها تؤدي إلى توقعات قابلة للاختبار يمكن التثبت منها من خلال الملاحظة، ولا يمكن معاملتها كأنها حقيقة منطقية.

والحقائق الملموسة، كالاختلاف المميز في عدد الدرجات في فتحة الصائت في لهرسية مقابل الإنجليزية، تقوض دعائم النظرية مباشرة بمجرد أن نفترض أن النظرية الثنائية عبارة عن ادعاء تجريبي. فإذا كانت السمات الصحيحة هي «+/ - حال و +/ - منحصر» (الأمر الذي يسمح بتمييز المستويات الثلاثة في اللغة الإنجليزية) فإن من المستحيل إذن العثور على لغة ذات أربعة مستويات مثل الفرنسية. ويمكن دوما التغلب على مثل هذه التعديلات الظاهرية بتعديل النظرية نفسها. فباعتماد ياكوبسون أن الاختلاف بين لصائتين [e] و [ɛ] في الفرنسية لا يعزى إلى «الفتحة بل إلى قضية الشدة tenseness مقابل الرخاوة laxness في عضلات اللسان فالعلاقة بين [e] و [ɛ] هي الفرنسية هي نفسها بين [i] و [ɪ] في الإنجليزية. وسواء أكان الدفاع عن هذا ممكنا أو غير ممكن من الناحية الصوتية فإن الخطر المحدق هو أنه كلما ازدادت التعديلات لهذا الفرص بالذات، قلت إمكانية اختبار النظرية تجريبيا حتى تصبح في نهاية الأمر جوفاء تماما.

ولقد حاولت أن أتأكد من إمكانية اعتبار النظرية الثنائية مقولة تجريبية حقيقية تناوب طبيعة اللغة من خلال اختبار ما قبل بشأن تحليل مقياس مطقي مستمر واحد إلى سمته الثنائية الكلية، وهو مقياس طيف الصوت المستخدم في اللغات النحوية languages (سامسون Sampson، ١٩٧٤م أ). ولقد وقع اختيار على طيف الصوت لأنها قاسية للمقاييس بدقة وسهولة أكثر من فتحة الصوائت، ولأن علماء الصوبيات الوظيفية التوليدية وضعوا لها معايير محددة. أما معالجتهم للفتحة فلم تتوصل إلى نتيجة قاطعة حتى الآن.

وليس لطبقة الصوت مكان في اللائحة الأصلية للسيمات المميزة. ولعل السبب في ذلك أن الصدقة جعلت رومان ياكوبسون (وأنا أيضا) ينتمي إلى الأقلية من لششر من لا سطفون بلغات نغمية. لكن ياكوبسون وهاله يذكران طبقة الصوت في كديهما (Jakobson and Halle, 1956 م، ص ص ٢٢ ٢٣) بالرغم من عدم وجود دليل قوي يدعم تحليلهما<sup>(١)</sup> وقد قدم ويليام وانغ Wang (١٩٦٧ م ب) أعمى المعالجات الصوتية، لتوليدية أثر الطبقة الصوت، إذ حظي تحليله بموافقة تشومسكي وهاله SPE («لحظ»، ص ٣٢٩) وغيرهما من العلماء. ويقدم وانغ مجموعة من السيمات الثنائية التي يمكن استعمالها، لا لتمثيل طبقات الصوت المختلفة فحسب، بل ولتمثيل النغمات التكتورية contour tones المعقدة نسبيا (كالنغمات الهابطة والهابطة الصاعدة مثلا) الموحودة في العديد من لغات الشرق الأقصى. وقد بينت سهولة قياس طبقة الصوت قياس دقيقا خطأ توقعات السيمات الثنائية عند وانغ بشأن الطبيعة الميريائية الفعلية لكتورت النغمات في تلك اللغات (سامسون Sampson, ١٩٧٤ م أ، ص ٢٤٨ وما بعدها). ولو كن في تحليل وانغ أي مصمون على الإطلاق فإنه سيحصر ضمن الإطار الصرهي لصوتي فقط وليس ضمن إطار «الصوتيات السطحية» التي يحاول وانغ من خلالها أن يبرز معالجته. يؤيد وانغ صحة مجموعة السيمات التي يقدمها حين يبين أنها تسمح بإعطاء مقولة موحدة وبسيطة نسبيا حول أنموذج ظاهره بالغ التعقيد من التناوب الصرهي لصوتي بين النغمات في لهجة صينية تعرف باسم «أموي هوكيان» Amoy Hokkien. وتحتوي تلك اللغة على خمس نغمات تتبادل فيما بينها في سياقات معينة لا تعيب طبيعتها لأن، وذلك حسما هو مبن في الأسهم الظاهرة في الشكل رقم (٨) (وبهذا تصبح لعممة المستوية العالية high level نعمة مستوية متوسطة mid level وهكذا)



الشكل رقم (٨)

و يوصف هذه الاعمات الخمس في تحليل وائع القوائم على السمات الثنائية سمات ثلاث «+ / عالي، + / هابط، و + / - صاعد». أما التغمات المستوية فهي «- هابط، و + صاعد» كما يوصف الطبقات المتوسطة والمنخفضة وصعاً دقيق بأنها «عالية» نظراً لأن همه السمة (هابطة) كافية للتمييز بين النغمة المنسوبة المتوسطة وبين النغمة الهابط المنخفضة في اللهجة «الأموية» Amoy. ويشير وائع إلى أنه في حال قول سماته الثنائية فإن جميع المتاوربات الخمسة يمكن أن تحتصر في قاعدة واحدة وهي

$$\left[ \begin{array}{c} \text{ب عالية} \\ \text{أ هابط} \end{array} \right] \rightarrow \left[ \begin{array}{c} \text{أ عالية} \\ \text{ب هابط} \end{array} \right]$$

(حيث أ و ب تمثلان إما «+» أو «-» بحيث تتحول النغمة من «+ عالية» إلى «- هابط») أي إلى «- هابط» وهكذا دواليك)

ومن الواضح أن العديد من العلماء شعروا أن النجاح الذي حققه وائع في احتصار التاورب المعقد في اللهجة «الأموية» إلى قاعدة عامة واحدة بهذه الطريقة يشكل دليلاً قوياً على صحة فرضيته حول السمة النغمية الكلية universal tone-feature أما مدى ثقل لدي يجب أن يعطيه مثال «الأموي» في تقويم ادعاء وائع حول المعالجة الثنائية للنغمة فيعتمد اعتماداً كلياً على مدى التحديد الذي تتمتع به رموزه. وقد تكون إمكانية وصف المعلومات من خلال القاعدة التي يقدمها وائع دليلاً قوياً على صحة نظريته شريطة أن يكون التاورب النغمي الموجود في «الأموي» غير مأكوف بين مختلف نماذج الشدب لافتراضية الممكنة بين مجموعة مماثلة من الوحدات في السماح بوجود قاعدة تمثل هذه البساطة السية. لكن الإحصاءات (سامسون Sampson، ١٩٧٤م، ص ٢٤٥ - ٢٤٦) تشير إلى إمكانية التعبير برموز وائع عما يزيد عن نصف نماذج التاورب الممكنة بواسطة قواعد هي على الأقل ببساطة نفسها قاعدته المتعلمة بلهجة «الأموي» بحلولاً مرحلاً يهدف بقطعة نموذج في الهواء فإذا نزلت واستقرت على الوجه الأول قال ب من التواحب تهللها بحيث تستقر دوماً على هذا الوجه، فهل نعتبر مثل هذا الحل

عاقلا؟ لكن دليله هذا حول ميل قطعة التقود هو في الواقع أقوى من دليل «واع» على نظريته حول السمات الكلية للنعمة (ولا يخضع وانغ نظريته لأي اختبار جدي غير الاحتار الذي ناقشناه انفا).

وليس ثمة جديد في مقالة وانغ باستثناء وصوحها التسي كمشال على الحجة التي تدعم السمات المميزة الثنائية، لذا فإن من السهل الإحاطة بها وفهمها. وأطن أب هذا النوع من الفكر في الصوتيات التوليدية مهلس بأكمله، وأن عدد قيم المقاييس المميزة ونوعيتها يمكن أن يختلف بشكل عشوائي من لغة إلى أخرى حين يكون المقياس الصوتي قادرا فيريائيا على أحد مجموعة كبيرة من القيم. وليس هناك «أبجدية صوتية كلية» كصفة في أذهان الناس. فالقبود الصوتية الوحيدة المفروضة على اللغة الإنسانية هي ثلث التي وصعتها الحقائق الفيريائية المرتبطة بتشريح الجهاز الصوتي.

وليست فكرة الأبجدية الصوتية الكلية سوى وسيلة واحدة من الوسائل - ولم تعد هي الأهم في السنوات الأخيرة - التي ادعى علماء الصوتيات الوظيفية التوليدية أنهم قدموا من خلالها برهانا على نظرية نشومسكي التي تقول إن اللغات مرتبة في أذهاننا وفق مبادئ تختلف كثيرا عما يمكن استنتاجه مباشرة من الكلام الظاهر. أما النوع الثاني السائد من الصوتيات التوليدية فينعلق بأغودح القواعد الصرفية الصوتية مقابل السمات التي وضعت القواعد ضمن إطارها.

وبصفة عامة فإن الوصيين لم يتعمقوا كثيرا في مناقشة الخصائص الشككية بقواعد التي تحكم الشاوب بين الأصوات في اللغة. ويمرر ذلك إلى أن معظم الوصيين (مع بعض الاستثناءات) كانوا يميلون إلى إعطاء مقولات واضحة تعبر عن العلاقة بين القويمات والوفوناتها. ولما كانت تلك العلاقات تميل إلى البساطة، فإن دقة الصياغة لم تكن بدأت بال. (ونظرا لعدم إيمان الوصيين بالكليات اللعوبة، فقد كانوا يعيدون كل البعد عن إدخال نظرية تتناول الكليات ضمن القواين الشككية). وقد أشار كثير من الوصيين، بمن فيهم بلومفيلد نفسه، إلى فكرة «المورفوفونيمات morphophonemes» (مع أن معظمهم لم يستعمل هذا المصطلح) التي تكون القويمات على اعتبار أن لها ألوفونات أيضا أعضاء فيها. وهكذا فإن كلمة loaf في الإنجليز يمكن أن تكتب من الراوية الصوتية الصرفية [loʊf] حيث يحقق المورفوفيم ɔ على

شكل الفونيم /v/ إذا سبق لاحقة الجمع وعلى شكل الفونيم /f/ في غير ذلك. لكن الوصفين لم يظهر وأي ميل لإجراء تحليل مفصل على المستوى الصرفي الصوتي لأن اهتمامهم كان منصباً بالدرجة الأولى على كيفية استخلاص السامعين لتلك السمات التي تحمل قيمة تواصلية في اللغة موضع البحث من بين خضم هائل من التفاصيل في لعبارة لكلامية. فمعرفة أن من غير الضروري الانتباه إلى كون الصوت الحائلي مفصلاً أم لا - لأن كلتا اللامين (المرققة والمهجمة) في الإنجليزية هما ألوفونان لفونيم واحد /f/ - مسألة تتعلق بمعرفة النظام الصوتي لهاتين اللغتين. كما أن تحديد ما إذا كان فونيم معين ويكنى /f/ يمثل مورفونيمًا خاصًا [f] بحيث يتحقق هذا المورفيم أحياناً على شكل /v/ أو على شكل مورفيم عادي [v] وهو غير دوماً (كما في oafs, oaf) ليس له علاقة بالنظام الصوتي للغة الإنجليزية، لكنه مسألة معرفة بالمعردات اللغوية ليس إلا.

ويشير موريس هاليه في إحدى بواكير مناقشاته إلى أن التمييز في الصوتيات الوظيفية بين علم الصرف الصوتي والعمليات دون الفونيمية subphonemic هو تمييز اصطناعي، ويؤدي إلى نتائج غير مرغوبة إذا كان هدفنا هو هدف علمي محض (وليس هدف عملياً) يتمثل في وضع العلاقات بين الأصوات والمعاني التي تشكل اللغة بأقصى درجة من الاقتصاد. وخبر هاليه مثلاً من اللغة الروسية (Halle, 1959م، تشومسكي Chomsky, 1964م، ص ٨٨ وما بعد) التي تنص إحدى قواعدها على أن الصوامت غير الرئيسية المهموسة تصبح مجهورة إذا سبقت صوتاً مجهوراً غير رنيني. وهكذا فإن الفعل الذي ينتهي بالتاء [t] يتبدل التاء دالاً [d] قبل اللاحقة الشرطية [bʰ] مع أن التاء [t] تفي [t] قبل اللاحقة الاستفهامية ([i] بما أن [i] ليست من غير الرننيات مع أنها مجهورة). والجهر عادة سمة مميزة في غير الرننيات الروسية، وهكذا فإن التاء [t] والدال [d] هويمان مختلفان. والعملية هي عملية صرفية صوتية محنة (رغم اختلافها عن مثال loaf في أنها منتظمة تماماً: فأية تاء [t] تستبدل دالاً [d] في السياق المناسب) إلا أن هناك عدداً قليلاً من غير الرننيات المجهورة لا تمنع إلا كبداً لما يقابلها من المهموسات حسب القاعدة التالية: إن الغين، وهي الصوت اللهوي الاحكاكي المجهور [ɣ] على سبيل المثال، لا يقع إلا كبديل للخاء، الصوت المهموس [x]. وهكذا فإن عالم هوييمات يجمع بين [v] و [x] على أنهما ألوفونان لفونيم واحد ولتقل /x/ لكن هذا

يعني وجوب تجرئة قاعدة رومسية بسيطة واحدة إلى قاعدتين متصلتين وأكثر تعقيدا  
 فعلى المستوى الصرفي الصوتي محتاج إلى قاعدة تقول «إن المورفونيمات غير اربسية  
 فيما خلا  $\{x\}$  إلح تمثلها الأصوات المجهورة المقابلة لها في المستوى الفونيمي قبل «عبر  
 الرسبات المجهورة». أما من الزاوية دون الفونيمية فيتوجب علينا أن نقول «إن الفونيم  
 $/x/$  يتحقق على شكل ألوهونه للمجهور قبل صوت مجهور غير ربيسي، ولكنه يتحقق  
 على شكل ألوهون مهموس في «الماكن الأخرى». لكن هذه نتيجة سحيقة، وبأن  
 هذا السخف ناشئ عن قرار الاحتفاظ بمستوى متميز للفونيمات بين المستوى الصرفي  
 الصوتي والمستوى الصوتي، كانت النتيجة التي خلص إليها هاليه نص على وجوب  
 التخلي عن المستوى الفونيمي.

وستطيع في ضوء تعليقاتنا السابقة على فكرة «الأبجدية الصوتية الكلية» أن  
 يرى أن ما يبيته هاليه هنا مختلف نوعا ما عما «يعتقد» أنه يبيته ولو منحت الفونيمات  
 وجودا ذاتيا فوق قيم المقاييس المعبرة التي تشكل منها، لوجب أن نتحقق الخاء  $\{x\}$   
 وانعين  $\{y\}$  في الروسية (ولكن ليس التاء  $\{a\}$  ولا الدال  $\{d\}$ ، . . . إلخ) في فونيم واحد.  
 وهذا هو السبب وراء النتائج السحيقة. ولقد سبق وقبلنا النقطة التي أثارها هاليه،  
 رغم أنها ليست جديدة على الإطلاق، بأن الفونيمات ما هي إلا مختصرات مفيدة  
 لمجموعات من «قيم المقاييس المتوافقة simultaneous parameter values». ولم يبين هاليه  
 أن عالم الفونيمات يؤمن بوجود مستوى ثالث لا لزوم له من التمثيل بين المستوى  
 الصرفي الصوتي ومستوى الصوتيات الفيزيائية المحسوسة لأنه هو أيضا يفترض وجود  
 مستوى متوسط وهو مستوى السمات المميزة الثنائية الكلية أو ما يسميه هوثومسكي  
 بالصوتيات «النظامية systematic phonetics» (كنقيض للصوتيات الفيزيائية). فعلى  
 مستوى الصوتيات النظامية يقال إن هناك مجموعة ثابتة كلية فقط من قيم المقاييس  
 الصوتية الممكنة (مقابل قيم المقاييس التي لا حدة لها والموجودة في مستوى الصوتيات  
 الفيزيائية، حيث تكون الكثير من المقاييس متصلة بدلا من أن تكون مفصلة) ولو  
 آمن المرء بالصوتيات النظامية لتلاشت حيث الحاجة إلى وضع مستوى رابع لا يعترف  
 إلا بمجموعة صغيرة من قيم المقاييس ذات العلاقة باللمعة موضع المناقشة على وجه  
 الخصوص. لكن بلومفيلد لم يفكر بصوتيات نظامية كلية مما اضطره إلى اللجوء إلى

مستوى من الصوتيات النظامية محتصر باللغة . ويدعم هاليه ماقشته بمثال حول المقياس (مجهور / مهموس)، وهو مقياس ثنائي حتى في الإطار الفيزيائي . ولكن بالرغم من احتمال تكرار قيم المقياسين «مجهور» و «مهموس» في لغات متعددة، إلا أن فكرة هاليه عن مجموعة ثمانية من قيم المقاييس المميزة لا أساس لها كما أشرت سابقا بحيث يصح وجود مستوى يشبه الهوييم الكلاسيكي أمرا لا مفر منه (ولو أدى ذلك إلى اتحاد الخاء [x] والعين [ɣ] في الروسية تمثيلات مختلفة في ذلك المستوى، لأن الجهر سمة مميزة في الروسية بصفة عامة).

وإذا تركنا مسألة مكانة المستوى الفونيمي جانبا، وبدأنا في تحليل نوع التناوبات الصوتية بالتفصيل والتي تسمى عادة «الصرفية الصوتية» بالإضافة إلى التناوبات دون لغوية أدركنا سريعا أن المعلومات المستمدة من معظم اللغات هي من الثراء بحيث تجعل إيجاد جهاز شكلي بالغ التعقيد أمرا لا بد منه .

فمعظم التناوبات الصرفية الصوتية في لغة مثل الإنجليزية لا تقع في تراكيب متجة مثل صيغ الجمع في الأسماء، ولكنها تقع في عمليات اشتقاق غير متجة حيث نستعمل طريقة لصق اللواحق وطريقة التركيب compounding من أجل تشكيل الممردات المعقدة وهكذا نجد تبادلا متظما بين [k] و [s] في كلمات مثل *opaque ~ opacy* [ə'peik ə'pæsi:] وأيضاً *decagon ~ decennial* وإذا نظرنا في أمثلة من هذا النوع بدأنا نلاحظ أن [k] تصبح [s] قبل الصائت [æ] «المفتوح الأمامي» (قارن *decathlon* حيث تبقى [k] تعظ [x] قبل الصائت المفتوح الأمامي [æ]) بالرغم من أن هذا القول يجب أن يعدل بحيث لا ينطبق على الكلمات في المفردات الجرمانية الأصلية . فكلمة *kiss* تلفظ [kɪs] وليس [sɪs] ومرة أخرى نجد تناوبا متظما بين الصائت المفرد المعلق [ɪ] وبين الصائت ازدوج [aɪ] كما في *suffice ~ sufficient* [sə'fɪs sə'fɪʃnt] و *decide ~ decision* وأبسط حل لها هو إدخال مورفيم تخني إذا يختلف عن بقية الصوائت الإنجليزية فهو رجو بالنسبة للصائت [ɪ] في المقاطع غير النهائية (مع إهمال تعقيدات كثيرة) وينحول إلى صائت مزدوج [aɪ] في المقاطع النهائية . ويتضح لنا أن القاعدة التي تحول [ɪ] إلى [aɪ] إذا ما كتبت وهي السمات بدلا من الوحدات التقطيعية تعبر عن الكثير من التناوبات الصائتية الأخرى الموجودة في اللغة الإنجليزية كما هي الحال في التناوب [eɪ] ~ [æ]

الذي رأيناه في opaque opacity أو في insanity-insane [m'sa:niti in'se:n] ولكن  
 سأحد الآن كلمات مثل decade والعكس elasticize حيث نجد في الأولى أن الكاف [k]  
 الموجودة في decagon تبقى [k] رغم أنها متبوعة بالصائت الأمامي المتوسط [e] من [ei]  
 مع أنه من المفترض أن تتحول إلى [s]. بينما نجد أن الكاف [k] التي تظهر في elastic قد  
 أصبحت [s] في elasticize قبل صائت مفتوح في اللاحقة [aiz]. هذه الكلمات في الواقع  
 ليست حالات خاصة بأية حال من الأحوال بالنسبة للقاعدة التي رسمنا إطارها بشرط  
 أن نحدد أن القاعدة التي تعبر الكاف [k] إلى سين [s] تطلق قبل القاعدة التي تعبر  
 بصوائت المنفردة إلى مزدوجة. ففي تلك الحال وفي مرحلة تطبيق الانتقال من [k] إلى  
 [s] فإن الصائت [æ] يظل موجودا في decade لكنه يتحول فيما بعد إلى [ei] بحيث لا  
 تتأثر الكاف [k] أما في اللاحقة -ize فنجد الصائت [a] بدلا من [æ] بحيث يتحول  
 العنصر -ic الذي يسبقه إلى [is]. وبعبارة أخرى فإن التاوبات الصرفية الصوتية يجب  
 أن تحدث في صوء قواعد تطبق على الأشكال الصوتية الوظيفية التحتية لكي نتج اللفظ  
 الذي نلاحظه، ويجب أن تكتب هذه القواعد في تسلسل خطي محدد

ويورد كتاب «النمط SPF» سلسلة من ثلاث وأربعين قاعدة من هذا النوع بلغة  
 الإنجليزية وكثير منها بالغ التعقيد في حد ذاته. كما يدخل تمثيلات صوتية وظيفية  
 تحتية لكلمات إنجليزية انصمت في الغالب عن إعطائها الأصلي الفعلي. (ويشير كل  
 من تشومسكي وهاليه، وإرضاء لفسيهما - وهما يستعرضان قوتيهما -، إلى أن  
 كلمة righteous يجب أن تحتوي على صوت طبقي احتكاكي تحتوي وهو الحاء [x] الذي  
 يقابل حرفي gh في الكتابة الأنموذجية، بالرغم من أن مثل هذا الصوت لا يرد مطلقا في  
 الإنجليزية السطحية. وبالفعل فإن الكثير من الإنجليز يجدون صعوبة في مطلقه لدى  
 محاولتهم التحدث بلغة أجنبية تحتوي على هذا الصوت. فبدون الحاء [x] التحتية فإن  
 القواعد التي وضعها تشومسكي وهاليه من أجل وصف التاوبات الموجودة في كلمات  
 أخرى تظهر أن لفظ كلمة righteous هو ([ˈrɪʃəs]).

والاعتراض الواضح هنا هو أن علماء الصوتيات التوليدية يستعملون أدلة تركتها  
 أصوات ماضية من أجل إعادة بناء تاريخ اللغة دون أن يبينوا (كما يدعون) كيفية ترسيخها  
 في ذهن المتكلم الحديث. فقاعدة تحويل [k] إلى [s] هي في الأساس إعادة بناء عملية



حدثت في اللاتينية المتأخرة قبل دخول الكلمات اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى  
 سيما عند أن فاعلة ازدواج الصوائت تقابل تدل الصوائت الكبير الذي شهدته الإنجليزية  
 بين قريبن الخامس عشر والثامن عشر . وبالنسبة فإن القاعدة الأخيرة يجب أن نسع  
 قاعدة تحويل *ka* إلى *[s]* في التسلسل الذي أعيد بناؤه . وليس السبب في أن كناية كلمة  
 righteous (والكتابة الإنجليزية بصفة عامة) تعكس بدقة الأشكال التحتية التي تحدث  
 عنها كتاب «النمط» هو أن الكتابة الإنجليزية مرآة قريبة من الكمال للمفرد الكلمات كما  
 تحترقها عقول الناطقين بها (كما يعتقد تشومسكي وهاليه ، النمط Chomsky and Halle ،  
 ١٩٦٨ م ، ص ٤٩) ، بل السبب في ذلك هو أن الأشكال التحتية تمثل صوتيا أجداد  
 الكلمات الإنجليزية في العصور الغائرة . أضف إلى ذلك أن الكتابة الإنجليزية محافظة  
 إلى حد كبير وقد أعلن تشومسكي على الملأ أن الأخطاء الإملائية (Chomsky ،  
 ١٩٧٠ م) التي يرتكبها الكبار من الناطقين الأصليين بالإنجليزية يجب أن تقتصر على  
 لحالات القليلة التي تحتوي فيها قواعد «النمط» على ليس فيما يختص بالتمثيل التحني  
 لكلمة معينة . لكن الدليل الذي رأته يشير إلى أنه محطىء تماما . فمن محطىء في  
 الإملاء يرتكب عادة أخطاء لا يمكن أن نمرها افتراضات تشومسكي ، رغم إمكانية  
 التسو بها بشكل كامل إذا افترضنا أن تعلم التهجئة يتألف من تعلم التقابل بين الحروف  
 الأبجدية والفونيمات من النوع الوصفي (سامسون Sampson ، ١٩٧٠ م ، ص ٦٢١  
 وما بعدها) . ويبدو أن تشومسكي يرتكب هنا الخطأ نفسه الذي ارتكبه في النحو ، ألا  
 وهو إعطاء معرفة الإنسان العادي بلغة أكثر مما تستحق . ويبدو اللسانيون المحترفون  
 ما قدرة على التهجئة السليمة منذ الطفولة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد واهمين أن الكتابة  
 الإنجليزية التقليدية هي «طبيعية نفسيا» إلى حد ما . ولكن إذا عجز المرء عن إدراك هذا  
 الزعم من خلال ملاحظة ما يعانيه الأدكياء غير المولعين باللغة بسبب نظام الكتابة ،  
 فمن الأفضل له أن يتوخى السلامة في حياته .

ومن هذا المطلق بصطلم معارضو الصوتيات الوظيفية عادة بالحدال المعاكس  
 أي يقول إنه سواء أكانت التاويات الصرفة الصوتية ، ولتقل في الإنجليزية الحديثة ،  
 ويبدو أحداث تاريخية وقعت في الماضي السحيق أم لا ، فإنها تبقى مع ذلك حقائق  
 تتعلق باللغة الحديثة ، ويجب أن توصف بأقصى درجة من الاقتصاد في الوصف الرسمي

لغة الإنجليزية وإذا وجدنا أن أكثر الأوصاف اقتصادا هي التي تشتق فيها الصيغ السطحية من صيغ تحتية تعكس حالة ماضية من حالات اللغة، وذلك باستعمال سلسلة قواعد مرتبة، فإما يكون بذلك قد حققنا اكتشافا تجريبيًا مهما وهو أن الدعايات لا تميل نحو تغيير ماها التحتية والحققيه نفسيًا بقدر ميلها نحو تغيير مظهرها السطحي أما نكار الحقيقة النفسية للقواعد بسبب مقارنتها بالتاريخ فيعتبر رفضا مبنيًا على جهل مطبق بلعبة الكشف العلمي.

لكن هذا يطوي على سوء فهم لطبيعة العلم (انظر سامسون Sampson، ١٩٧٥ م س). فالباحث العلمي لا يسير - أو على الأقل يجب ألا يسير - في حجرات منعزلة قاما عن بعضها البعض بحيث تحتاج كل معلومة datum عن اللسانيات التزامنية إلى تفسير في ضوء اللسانيات التزامنية، دون أن يجدي في هذا الصدد أي تفسير آخر وإذا تبين أنه بالإمكان تفسير بعض الحقائق التي لاحظها عامل في ميدان ما من خلال انبساطي، الراسحة في أحد الميادين الأخرى، فمن العباء أيضا البحث عن تفسير آخر ضمن إطار مألوف في الميدان الأول وإذا كان في الإمكان تفسير التباينات الصرفية الصوتية على أنها بقايا تبدلات صوتية تاريخية، فإننا سنفقد الحق عندئذ في وضع تفسير ثن في ضوء القواعد النصية التي يستعملها المتكلمون الحديثون ما لم يتوافر لدينا دليل مستقل عليها. إن التفسير الصوتي التوليدي اقتصادي بمعنى واحد، وهو أنه يسمح باحتران العالمية العظمى من الجدور في شكل صوتي واحد، ولكن على حساب معالجة و سعة (أي تطبيق القواعد) عندما ينبغي أن ينطق حذر ما ضمن سياق معين. ومن محفل أيضا أن نفترض أن باستطاعتنا أن نحفظ في أذهاننا أشكال اللفظ السطحية سديلة للجدور أو الكلمات الكاملة التي لدينا دون تحليلها إلى مكوناتها، مع مقولات تبين ظروف الملازمة لاستعمال كل دليل من الدائل. وهذا يعني أننا أكثر من استعمال «محزن» الذهني، ويعني في الوقت نفسه أننا لا نقوم إلا بالقليل من المعالجة، أو لا نحتاجها مطلقا عندما نتكلم فعلا. ومن معرفتنا الضئيلة كيميائية عمل الدماغ فإن الاحتمال الثاني لا يقل قوة عن الاحتمال الأول.

وبالفعل، فإذا كنا نتكلم ضمن إطار المنهج العلمي، كان الرأي المسطحي في الصوبات الوظيفية هو المفضل لأنه الأقوى، بمعنى أنه يولد توقعات أكثر قابلية

للاحتار . وفي رأي عالم الصوتيات التوليدية الذي ينص على أن النظم الصوتية موحدة في أذهان الناس كسلاسل من القواعد ، فإن من جملة الطرق التي يمكن من خلالها أن تعبر اللغة بنظامها الصوتي هي إضافة قاعدة جديدة إلى السلسلة . ولكن ليس لدى عالم الصوتيات التوليدية أي سبب يجعله يتوقع ظهور مثل هذه القواعد الجديدة في مكان معين من السلسلة . فقد تظهر في البداية أو المنتصف أو النهاية . ونعتبر المرء من جهة أخرى أن السلسلة وصف لتاريخ مضي فإن التبدل الصوتي الجديد يجب وبالتحديد أن يقابل قاعدة تقع في نهاية السلسلة . ونلاحظ بالعمل أن القواعد الجديدة تصاف على الدوام في نهاية السلسلة (كـ King ، ١٩٧٣ م) ضمن إطار الصوتيات الوظيفية التوليدية ، مما يدعم تفسير القواعد التاريخي ويضعف التفسير النفسي .<sup>(١)</sup>

ويجب على علماء الصوتيات التوليدية ، إن هم أرادوا الدفاع عن مواقفهم ، الابتعاد عن المبادئ الفلسفية واستعمال الدليل المادي لإثبات معتقداتهم . وأعرف منحيين واعددين من الأدلة في متناول أيديهم .

يتمثل المنحى الأول في أن بعض القواعد الصوتية ، شأنها شأن التحولات لحيوية ، تطبق بشكل حلقي cyclically (انظر الفصل ٦ ، ص ١٨٩) . ويبدو أن من الصعب ، طاهرًا على الأقل ، أن نرى كيف يمكن أن يفسر قاعدة حلقة تفسيرًا تعاقبيًا لأن من السخف أن نتصور كيف يمكن لعمليات من هذا النوع أن تحدث في حلقات عبر التاريخ (خاصة وأن الأشكال المعقدة تحتاج إلى حلقات أكثر من الأشكال البسيطة) . على أية حال فإن الظواهر التي صممت من أجلها القواعد الحلقية هي الصوتيات الوظيفية محدودة جدًا . ويظهر أن القواعد الحلقية تطبق بشكل واضح تمامًا عند توزيع مستويات انس مختلفة على معدلات الحملة (انظر برزبان Bresnan ، ١٩٧١ م) . لكن هذه القضية أقرب إلى السحر منها إلى الصوتيات الوظيفية البحتة . ومن المتفق عليه أنه إذا كانت التحولات في السحور ضرورة فعلًا وحب عندئذ أن تطبق بشكل حلقي . وسنعمل كتاب «النمط SPM» القواعد الحلقية لتعيين مكان النبر في الكلمات . لكن هذا التعديل قد يبدو مقعًا إذا جعلنا المبدأ الحلقي قادرين على توقع أنماط معقدة من النبر في المفردات لإحليرة من خلال قواعد بسيطة نسبيًا . إلا أن قواعد النبر في كتاب «النمط» في الواقع

دعه التعقيد، وتعتمد على التوزيع المصطنع لحدود المكونات ضمن المفردات (حول هذه نقطة انظر «بريم Brame»، ١٩٧١م). وقد جادل الكثيرون من الكتاب عن يؤمرون بالصوتيات الوظيفية إيماناً صادقاً بأن القواعد غير الحلقية ملائمة أيضاً للسبر في المفردات (روس Ross، ١٩٧٢م ح، وأوراق قدمها كل من لي Lee وشين Schane في غويمرست Goyvaerst ومولوم Pullum، ١٩٧٥م). وتاجراً ما أشار أحدهم إلى الحاجة إلى القواعد الحلقية في الصوتيات الوظيفية التقطيعية segmental phonology (أي صائت وصامت)، انظر فروتر Truener ودينغان Dunnigan (١٩٧٥م) ضد كاي Kaye ويغوت Piggott، (١٩٧٣م). وقد لردادت حيرتي حول عدم إمكان تفسير القواعد الحلقية تفسيراً تعاقبياً عن ذي قبل (سامسون Sampson، ١٩٧٨م). وهكذا، ولكل هذه الأسباب، سوف أتوقف عن عرض هذا الدفاع عن الصوتيات الوظيفية.

أما المنحى الثاني الذي ينير القلب أكثر من الأول فيتعلق باكتساب الطفل للنظام الصوتي. وقد نشر نلسون سميث Nelson Smith من الكلية الجامعية في لندن وصفاً مفصلاً (سميث، ١٩٧٣م) أقرب إلى الكمال من أي شيء رأيناه من قبل حول اكتساب أحد الأطفال (وهو ابنه) للنظام الصوتي الإنجليزي. والتفسير الواضح لظاهرة التماثل في الأخطاء التي يرتكبها الأطفال في لفظ المفردات بالمقارنة مع لفظ الكبار هو أنهم يبدأون بعدد محدود نسبياً من الأصوات، ويسمى «المفردات» التي ينطقها الكبار في صوة نظام الأصوات الذي أتقنوه حتى تلك المرحلة. لكن سميث يقول إن هذا الوصف يعالف الواقع. ويشير بدلاً من ذلك إلى أن المعطيات التي يقدمها لا يمكن أن تفسر إلا بافتراض أن الطفل يحترن كلمات الكبار في ذهنه كما يلفظها الكبار لفظاً صحيحاً، ثم يطبق سلسلة طويلة ومرتبطة من القواعد على أشكال اللفظ التحتية لكي يشتق الأنماط الحافظة الخاصة به (التي تشبه في شكلها القواعد التي يعرفها علماء الصوتيات التوليدية إلى الكبار). ولا يعد تطور النظام الصوتي عند الطفل من اكتساب قدرات جديدة، بل من «حذف» تدريجي «لقواعد الإعاقه» (incompetence rules) إن شئنا استعمال مصطلح «سميث» اللافت للنظر. ونما يدعو إلى الأخذ بهذا الرأي أنه عندما يظهر تمييز صوتي جديد في كلام الطفل (ولنقل التمييز بين السين [s] والشين [ʃ]) حيث كان ابن سميث يلفظ هذين الصوتين سينا [s] في مرحلة مبكرة من طفولته) فإن

«صوت الحديد يستعمل فوراً بشكله الصحيح في جميع الكلمات التي نحويه، حتى ولو لم يكن الطفل قد سمع أغودجا من الكبار من هذه الكلمات قبل أن يبدأ بالتنمير فوق طويل. وهذا يعني أن الطفل كان يميز الشين [s] دوماً في الكلمات التي نحوي على sh مع أنه كان ينطقها سينا [s]. ومن قواعد الإعاقه التي صادفها ابن سميت قاعدتان: الأولى تحول كلمة puddle إلى [paɪl] والثانية تحول puzzle إلى [paɪl] وهذان هما اللفظان اللذان يعطيهما الطفل إن طلب إليه تكرار هاتين الكلمتين من كلمات الكبار. وهذا بدوره يعني أنه كان بإمكانه أن يقول puddle بصورة جيدة كما إن طلب إليه أن يقول puzzle، لكنه لم يستطع أن يقول puddle إن طلب منه أن يقول puddle، وهذا اكتشاف يستحيل تفسيره، إن لم نقل إنه غريب، خاصة إذا افترضنا أن الطفل يقترب من كلام الكبار ما وسعه ذلك ضمن حدود نظامه الصوتي، لكنه اكتشاف يلائم دون شك نمط قواعد الإعاقه بشكل مقنع تماماً.

والسؤال الواضح في نظرية سميت يتعلق بالسبب الذي يدعو الأطفال لبعض شيء غريب كهذا يشوه كلامهم من خلال قواعد الإعاقه. لكن سميت لديه الإجابة عن هذا السؤال. فباعتقاده أن الطفل الذي يسمع كلام والديه للمرة الأولى يواجه مجموعة مضطربة من الأصوات التي تختلف عن بعضها البعض اختلافاً بسيطاً وعليه أن يكتشف فيها نظاماً معيماً. ولو كان هناك نوع من الصوتيات الوظيفية البسيطة جداً أو غير الموسومة للغة الإنسانية لوجدنا أن بدء الطفل باعتراف أن الكلام الذي يسمعه يمثل ذلك النظام الأسطى، وأن السبب في كل تلك التعقيدات الظاهرية يعود إلى الاختلاف دون القانوني الذي يمكنه تجاهله دون ضرر، يشكل استراتيجية معقولة. وبتراجع الطفل عن هذا الموقف شيئاً فشيئاً كلما تبين له من خلال الدلائل أن بعض الاختلاف الصوتي غير في الواقع في لغة الكبار. <sup>(١١)</sup> وقد لا يحتوي النظام الصوتي لسط على أية عاقد من الصوامع أو الصوتيات المزدوجة، وقد لا يصمم سوى أصوات غير موسومة مع قدر كبير من الانسجام في الصوتيات والصوامع. <sup>(١٢)</sup> كما أن قواعد الإعاقه التي يطرحها سميت تدفع الإنجليزية في ذلك الاتجاه بالدات عندما تطبق تطبيقاً كاملاً

والمهم في غايتنا الحالية أنه إذا اضطررنا إلى قبول نظرية سميث حول كيفية معالجة الأطفال للنظام الصوتي، فإن الوصف الذي يقوم على النظام الصوتي النوليدي عند الكبار يصبح معقولا أكثر. ويتردد المرء في قول كتاب تشومسكي وهاليه «مخط الصوت في لغة الإنجليزية» على أساس قيمته الظاهرية لأن جهاز الأشكال التحتية العريضة والمواعد المرتبة لا تقابل شيئا يعرفه المرء عندما يستطن عمليات كلامه الخاص. ومع ذلك يطرح سميث أشكالا تحتية مرتبطة بأشكال سطحية شديدة الاختلاف من خلال قواعد مرتبة في الطفل. وإذا كان لقواعد الطفل وجود واقعي على الإطلاق فإنه بالتأكيد لن يكون سوى وجود واقعي نفسي (إدليس من الممكن أن تكون قواعد الإعاقه إعادة بناء التاريخ). فقواعد الطفل لا تماثل قواعد الكبار (فأشكالها السطحية هي أشكال تحتية عند الطفل). إلا أن الشكل العام للنظام هو نفسه. ولعل من الواجب علينا إذن أن نعترف بأن حدسنا حول الطريقة التي نتكلم بها مفضل، وأن نعترف أيضا بأن قواعد الكبار في كتاب «المخط» هي قواعد واقعية من الناحية النفسية.

وأجد لزاما علي أن أعترف بقوة هذا الجدل، مع ملاحظة أن الفرصة لم تسح بعد أمام اللساني للتوصل إلى جدل يدحض فرضية سميث (انظر برين Braine، ١٩٧٦م)، وأنه باستطاعة المرء أن يرى دافعا معينا عند الأطفال لفرض عمليات معقدة على مفرداتهم، لكن الكبار على ما يبدو لا يملكون دافعا مماثلا لفعل أي شيء من هذا القبيل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الدليل الذي قدمه سميث ليس سوى دليل هزيل وغير مباشر لدعم الصوتيات الوظيفية التوليدية، (وليس هذا انتقادا لسميث، إذ لم يكن يرمي إلى الدفاع عن تشومسكي وهاليه، بل كان يهدف إلى دراسة لغة الطفل كغاية في حد ذاتها) وما أجمل أن نرى علم الصوتيات الوظيفية التوليدية الذي أثبتت عنه مفررات دراسية متالية، وأدى إلى نشر كتاب تلو آخر في جميع أنحاء العالم، يعتمد في نهايه الأمر في تثبت دعائمه على كلام طفل من أبناء منظمة هارتموردشر وحس في غياب أي دليل إيجابي ضد الواقعية النمائية للتحليل الصوتي الوظيفي عند تشومسكي وهاليه فإن الحجج المضادة طويلة جدا بكل تأكيد.

وقد تم في السنوات القلائل الماضية تقديم كثير من الدلائل الإيجابية المتنوعة بعية إظهار أن الكبار لا يعملون وفق قواعد من النوع الذي رسمه تشومسكي وهاليه

(انظر مثلاً المقالات التي كتبها كل من Hsueh وسكوسين Skousen وستابسرغ Steinberg وكرون Krohn في كورنر Koerner ، ١٩٧٥م) . كما أن الكليات الصوتية الوظيفية الوحيدة ما هي إلا نتائج الحقائق الفيزيائية للتشريح أو السمعيات (الأكوسنيكا) acoustics (انظر مثلاً إيليانكرانتس Liljencrantz وليدبلوم Landblom ، ١٩٧٢م وأوهالا Ohala ، ١٩٧٤م) . ويبدو من المحتمل الآن أن هذه التعميمات ستكون مصطبعة ، ولن تدخل ضمن نطاق أي تحليل صوتي للقطع المتأدلة حتى عندما يسي المتكلمون لأنفسهم تعميمات تربط مثلاً الصوت [s] في decennial (عقدي) مع [k] في decagon (مئشر الأصلاع) في اللغة الإنجليزية لأنهم يدركون أن كلتا الكلمتين تنصمان الجذر نفسه الذي يعني «عشرة» ، (ويمكن أن نلاحظ أيضاً صد تشومسكي وهاليه أن من غير معقول أن نحيل المتكلم الأصلي العادي وهو يجري هذه التوصيلات ، حتى ولو كان ذلك بطريقة ابتكرت خصيصاً لهذا الغرض . وهكذا نرى أن ثمة قاعدة من القواعد التي وصفها بالنسبة للإجليزية تتناول التناوب بين [pəʊn] في pugnacious مشاكس و [pju:n] في impugn «يفند» . لكن مؤلف هذا الكتاب هو أحد اللاطقين بالإنجليزية لذين لم يخطر ببالهم أن هاتين الكلمتين تخريان على جذر مشترك قبل قراءته المقطع الذي يتحدث عن هذا في كتاب «النمط» بالرغم من الدليل الذي تبينه التهجئة ، وهي بالنسبة إلى تشومسكي وهاليه أمر غير ضروري) . وقد توصل أحد المنظرين على الأقل وهو فسمان Vennemann (١٩٧٤م) إلى رأي مفاده أننا نحترن مفرداتنا لا في هيئة أشكال صوتية نحتية للجذور ، بل على شكل اللفظ السطحي للكلمات ، مع إدخال مفصل لكل من مشتقاتها المختلفة . ويدعى هذا الاتجاه الجديد أحياناً «بالصوتيات الوظيفية التوليدية الطبيعية» مما يكسبه هيئة نظرية جديدة . ولعل الاسم الأفضل لهذا الاتجاه الجديد هو «الصوتيات الوظيفية المنطقية commonsense phonology» لأنه يرجع في آخر الأمر إلى رؤية أن النظرية الحقيقية في الصوتيات الوظيفية تنص في واقع الأمر على «عدم وجود نظرية في الصوتيات الوظيفية» .

وإذا كان هذا هو الموقف الذي ينبغي أن نصل إليه في نهاية الأمر . وفي اعتمادي أنه لكذلك (بالرغم من أن علماء الصوتيات الوظيفية ماضون في نصالهم حتى الرمت لأحر ، مع العلم أنه من المتعذر في عمل من هذا النوع التصدي لكل نقطة من نقاط

دفاعهم على حدة) - فإن بمقدورنا أن نسأل أخيراً: لماذا استطاعت نظرية غير معمولة بهذا الشكل الواضح، ودون أن يكون لها ما يدعمها سوى أدلة واهية أن نحتفظ بتأثيرها طوال هذا الزمن؟

من العوامل التي ساعدت نظرية السمات الصوتية الثابتة على النجاح، وبمتهى الصراحة، هو على ما يبدو عدم إبداع اللسانيين الأمريكيين في مجال الصوتيات. فقد كانت الصوتيات راسخة الأساس في بريطانيا قبل أن تبرر اللسانيات التي نعرفها إلى حير الوجود. ومن المسلم به اليوم أن أية شهادة تمتح في اللسانيات لا بد من أن تشمل مكوناً قوياً من الصوتيات. أما في الولايات المتحدة فالأمر مختلف. فحتى في «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا»، كما سمعت، فإن طلاب شهادة الدكتوراه في اللسانيات لا يطالبون بدراسة الصوتيات والأدهى من ذلك أن مقرر الصوتيات لا يصرح مع المقررات الدراسية التي يحق للطالب اختيارها إن نظام الكتابة الصوتية الذي وضعته الجمعية الصوتية العالمية International Phonetic Association والذي يقدم تسجيلاً دقيقاً لصغائر اللفظ لا يعمل به في أمريكا. كما أن دورية «اللغة»، وهي دورية اللسانيات الأولى في الولايات المتحدة، لم تتمكن من طباعة رموز الأبجدية الصوتية العالمية IPA طيلة خمسين عاماً قبل أن تنقل طابعاتها إلى المطابع البريطانية عام ١٩٧٤ م. وما أشبه هذا بدورية علمية عاجزة عن طبع المختصرات العلمية المتعارف عليها بالنسبة للأصوات الفيزيائية أو الرموز العادية للمعادلات الكيميائية. وليست هذه مجرد مسألة رموز كتابية «مستقمة ومتساوية في الوقت نفسه». فالرموز المستعملة في أمريكا بصورة عامة أقل دقة وتطبعاً من مثيلاتها في بريطانيا. ولقد ثبت من خلال التجربة أن اللسانيين الذين تلقوا تدريباً يتطلب إتقان الأبجدية الصوتية العالمية يستطيعون دوماً أن يميزوا الأصوات بدقة أكثر من غيرهم من اللسانيين المؤهلين جيداً ممن لم يتلقوا مثل هذا التدريب (لادفوغد Ladefoged، ١٩٦٧ م). ومن الطبيعي لنظرية تدعي أن عدداً ضئيلاً فقط من التمييزات البدائية من الأصوات هي المهمة أن تحوز على رضى العلماء الذين لا يسمعون سوى قلة من التمييزات، لكن في أذهانهم وقرع عن التفاصيل الدقيقة الأخرى ولا يحامري أي شك مع ذلك في أن السبب الرئيس الذي حمل الناس على التمسك بإيمانهم بالصوتيات الوظيفية التوليفية هو كونها ملسة إلى أبعاد الحدود.



وقد لا يكون هذا الجانب من النظرية وثيق الصلة بالوصف الذي قدمته هالسنة لي من المنفعة التي نحنيها من التحليل الصوتي الوظيفي التوليدي تمثل دون شك دور الألفية، لكنها كبيرة بالنسبة إلى تلك الأقلية (التي أعترف بانسائي إليها). والمعلومات اللازمة لمثل هذا التحليل هي التاويات الصرفية الصوتية في اللغة موضع الدراسة ولعل هذه الحقائق معروفة تماما لدى المطلعين على أمور اللعبة، أو يمكن في أسوأ الحالات، التثبت منها من خلال الرجوع إلى مصدر أو مصدرين. وبعد أن يحصل المرء على قاعدة المعلومات المحددة تحديدا جيدا وبغاية فائقة يصبح باستطاعته أن ينصرف بصياغة قواعد بديلة كما يعمل شيرلوك هولمز وهو جالس على أريكته يحيك حلا أيقا لأحد الألغاز وهو يدحس غليونه. وعندما نثر على الحل فلن يكون هذا مماثلا لنجاحنا في حل الكلمات المتقاطعة في صحيفة يوم الأحد، لأسبابها يكون قد اكتشفنا حقائق جديدة حول عمليات فكرية معهولة تتعلق بأحد العروق أو الأمم.

ويزداد الأمر صعوبة بمجرد أن نفسر الصوتيات الوظيفية التوليدية من جديد على أنها إعادة بناء التاريخ. إذ ما من قيمة علمية تكمن في إعادة بناء تلك الأجزاء من تاريخ لغة من اللغات التي يمكن التكهن بها من خلال التاويات الصرفية الصوتية التي بقيت حية حتى الآن بمحض الصدفة. إعادة البناء التاريخي عملية قيمة، ولكن يتعين على القائمين بها الاستفادة من جميع مصادر المعلومات المتوافرة لديهم. ولا تقتصر هذه المصادر على حفنة من الكتب، إذ إن من الواجب أن يمضي المرء ساعات وأسابيع وهو يدرس المخطوطات القديمة والمخطوطات النادرة. ومن واجب المرء أيضا أن يتعلم، وينعم لغات أخرى لها صلة بالموضوع لما تلقى من سوء على تاريخ اللعبة موضع الدراسة. ومن واجبه أيضا أن يتقن دقائق مصطلحات الكتابة، وأن يأخذ في الحسبان امراضيات المتعلقة بالكلمات الدخيلة من وإلى اللغات البعيدة التي لا يعيرها اهتماما وربما نعد الدفاع عن نظريتنا المفصلة بسبب دليل قد يظهر بعد الشر، نظرا لأن إعادة المعلومات الآن بهاية مقبوحة. إن العمل التاريخي للساني أشبه بعمل رجل التحري الحقيقي منه بعمل شيرلوك هولمز. فرجل التحري الحقيقي يزن الحقائق بعين وأداة بعدا عن الأصواء، رغم ضالة فرصة توصله إلى نتائج قيمة. وإذا لم يدرك علماء الصوتيات التوليدية هذه النتيجة لإعادة تفسير النظرية إدراكا تاما، فلن يكون من المستغرب عندئذ

أن نراهم ينشئون برأيهم، ويقاومون الضغط الرامي إلى حملهم على تعبير معتقداتهم ولا أقصد في هذا المقام أن هناك غشا متعمدا، بل كل ما أقصده هو ما يتعماه الناس فاعلة.

ورعما شعر بعض القراء أنه لا مكان في كتاب أكاديمي جدي لاعتبارات مثل تلك التي موقشت في الفقرات الأخيرة. وأقول لكل من يرى هذا أنه صحيحة وهم شائع معده أن الفكر والملم على وجه الخصوص نشاط تمارسه كائنات حية عليا لا صانع لها هي أي نوع من أنواع الفضل الذي يصيب الإنسان العادي في الشارع (انظر لاكاتوس Lakatos، ١٩٧٦م، ص ١٤٢، الهامش ٢، حول أثار «أسلوب الاستنتاج» المجرد من الشخصية في العلوم). والحق بالطبع أن العلماء غير معصومين من الخطأ، وكثيرا ما نراهم يتعدون عن العقل كأى إنسان آخر. فمجد المنهج العلمي لا يكمن في العقلانية الكاملة لدى ممارسيه، بل يكمن في أنه يساعد جماعة من الخطائين على تجاوز أخطائهم التي ما انفكوا يرتكبونها فتطهير أي وصف لأي فرع من فروع المعرفة من عمليات الرجوع إلى منابع الخطأ، كما يفعل الناس عاليا، يعني زيادة الصعوبة بلا مبرر أمام الجيل الجديد من العلماء في محاولتهم العثور على مواضع الخطأ لاجتنابها.

## مدرسة لندن

إنجلترا بلد شهدت فيه بعض جوانب اللسانيات تاريخاً طويلاً بشكل غير عادي . ويكتسب الوصف اللساني قدراً من الأهمية عند أمة من الأمم عندما يتطور لغة «رسمية» أو قياسية خاصة به من مريخ من استعمالات متصارية ومتنوعة مما يلاحظ عادة في أية منطقة نعمت بالاستقرار مدة طويلة من الزمن . وقد شاءت الظروف أن تكون إنجلترا في هذه الناحية بالذات ، وباحتصار ، هي طليعة أوروبا . أما في الأماكن الأخرى فإن سيطرة ثقافة اللغة اللاتينية ، بالإضافة إلى رؤية العالم فوق الأهمية international في العصور الوسطى جعلت اللغات المعاصرة أقرب إلى اللهجات المحلية العامية التي لا تستحق الدراسة الجدية . أما إنجلترا فكانت تطور لغة قياسية متعارفاً عليها في القرن الحادي عشر . وغني عن القول إن العزو النورمندي أعاق هذا التقدم الأولي . فعندما فقدت اللاتينية دورها ، وبدأت الثقافات بالانعصام على طول الخطوط القومية في عصر النهضة ، سارعت بلدان أخرى نحو تأسيس لغاتها الرسمية قبل إنجلترا . ومع ذلك احتلت إنجلترا منذ القرن السادس عشر منزلة رفيعة بفضل الجوانب المختلفة «اللسانيات العملية» التي ازدهرت هناك ، وأذكر من ضمنها نشاطات مثل تنظيم اللفظ الصحيح وتعليمه ، وعلم المعجمات ، واختراع نظام الاختزال ، وإصلاح النطق ، وإيجاد «اللغات الفلسفية» المصطنعة مثل لغات «جورج دالغارنو George Dalgarno» و«جون وينكر John Wilkins» . فكل هذه الدراسات تولد لدى ممارسيها أو تصفي عليهم درجة عالية من الثقافة حول المصايا اللغوية .

وكان التركيز على علم الصوتيات (كما ذكرت في الفصل السابق) من نتائج تقديد علم اللسانيات الخالص الذي ظهر في بريطانيا في زمتنا الحالي . وقد كان هنري

سويت Henry Sweet (١٨٤٥ - ١٩١٢ م) في طليعه المهتمين بالدراسات الصوتية، وهو من علماء اللسانيات التاريخية القلائد الذين أنجبهم بريطانيا في القرن التاسع عشر. شافه اللسانيات التاريخية التي كانت تنمو في ألمانيا. ولكن سويت، على العكس من العلماء الألمان، سى دراساته التاريخية على فهم مفصل لحركة الأعضاء الصوتية. وكان الفسيولوجيون على وجه الخصوص هم الذين يجرون (مثل هذه الأبحاث الصوتية التي تمت في ألمانيا دون الاهتمام بالمسائل اللغوية). وكما ذكرتي. سى أوبيور ٢٢ Onions في قاموس السيرة القومية Dictionary of National Biography فإن كتاب دليل الصوتيات Handbook of Phonetics الذي ألفه سويت عام ١٨٧٧ م «علم أوروبا الصوتيات، وجعل من إنجليزية مهذا لهذا العلم الحديث» كان سويت أصل شخصية الأستاذ هيجنز Higgins في مسرحية «بيجماليون» Pygmalion التي كتبها جورج برنارد شو والتي تحولت إلى فيلم غنائي بعنوان «سيدتي الجميلة». وقد كان سويت خلال حياته عالما يشتغل لحسابه الخاص، وبسبب بعض العداوات الشخصية لم يتول أي منصب أكاديمي، على الرغم من أن أعماله ومشوراته كانت تؤهله لذلك (مما أثار دهشة للساينس الأجان). ولقد كانت الصوتيات عند سويت عملية بقدر ما كانت أكاديمية، حيث أبدى اهتماما كبيرا بتنظيم الكتابة الصوتية فيما يختص بمشكلات تعليم اللغة وإصلاح النطق. فالعنوان الكامل «للدليل» الذي ذكرناه أنفا يحمل عبارة تقول: «بما في ذلك شرح شعبي لمادي» الإصلاح الهجائي». كما كان سويت من أوائل مؤيدي فكرة الفونيم، فهي بالنسبة له قضية ذات أهمية عملية باعتبار أن الفونيم الوحدة التي يجب أن تمثل في نظام الكتابة المثالي orthography<sup>(١)</sup>.

وسار دانييل جومز Daniel Jones على نهج سويت في الصوتيات (١٨٨١ - ١٩٦٧ م) فكان الموضوع بالنسبة إليه بمثابة الهواة، واقترح على المسؤولين في الكلية الجامعية بلندن University College London أن ينظروا في تدريس صوتيات اللغة بمرسنة. وقد عين محاضرا هناك عام ١٩٠٧ م، فأسس ما أصبح فيما بعد أول قسم جامعي لدراسة علم الصوتيات في بريطانيا. وأكد جومز أهمية التدريب الواسع في المهارات العملية مثل الإدراك والكتابة الصوتية ونطق الفوارق الدقيقة بين أصوات الكلام لما لها من أهمية في دراسة اللغة. كما وضع نظام «مطاط المياسات الأساسية»

وهي التي يترتب تدوين الصوائت بشكل دقيق ومنتظم . ويفضل التغاليد التي أرسى دعائمها كل من سويت و هونز أصبح لتدريب الأذن في الصوحيات دور كبير في المقررات الجامعية في اللسانيات البريطانية . كما يميل البحث اللغوي في بريطانيا إلى استقاء المعلومات من خلال الاهتمام الدقيق بالتفاصيل الصوتية . أما اللسانيات الأمريكية فهاثرت بالممارسة الألمانية أكثر من البريطانية ، شأنها شأن الجوابب الأخرى من الفكر الأمريكي . ونتيجة لذلك كان الوصفيون أيضا في أمريكا ، وبالمقارنة مع أقرانهم البريطانيين ، لا يعبأون مطلقا بالحقائق الصوتية في اللغات التي وصروها (ببما يجد أن من مبادئ أتباع تشومسكي إهمال ما يدعونه «مجرد تفاصيل صوتية» )<sup>(١)</sup>

أما فيرث I R Firth (١٨٩٠-١٩٦٠م) فكان أول من جعل من اللسانيات الحقيقية دراسة علمية متميزة ومعترفا بها في بريطانيا . درس فيرث - وهو من مقاطعة يوركشير - التاريخ في المرحلة الأولى من دراسته الجامعية قبل تنقله كجسدي في أجراء متعددة من الإمبراطورية البريطانية إبان الحرب العالمية الأولى . وكان أستاذا في الأدب الإنجليزي في جامعة البنجاب من ١٩١٩م إلى ١٩٢٨م . ثم عاد بعدئذ إلى بريطانيا ليشغل أحد المناصب في قسم الصوتيات في الكلية الجامعية بلندن . وفي عام ١٩٣٨م انتقل فيرث إلى قسم اللسانيات في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية حيث أصبح عام ١٩٤٤م أول أستاذ في اللسانيات العامة في بريطانيا العظمى ، (وقد تأسس قسمه الذي يعد الأول من نوعه في البلاد عام ١٩٣٢م) . كما قام فيرث بالإشراف على تدريب معظم مدرسي اللسانيات في بريطانيا حتى عهد قريب ، فعاءت أعمالهم مرآة لأفكاره ، وهذا ما جعل اسم «مدرسة لندن» ملائما جدا للمنهج البريطاني المتميز في هذا الموضوع ، بالرغم من أن اللسانيات قد بدأت تزدهر في عدة أماكن أخرى

ومن الأمور اللافتة للنظر أن تكون اللسانيات قد بدأت في «مدرسة الدراسات شرقية والأفريقية SOAS» . فقد تأسست تلك المدرسة ، وهي من المعاهد التابعة جامعة لندن ، عام ١٩١٦م بعد استجابة متأخرة حثا من جانب الحكومة للحاجة إلى معهد لدراسة لغات الإمبراطورية وثقافتها<sup>(٢)</sup> وكانت تلك المدرسة (ولاتزال) تعص بأناس «مصريا حرا» كثيرا من حياتهم العملية وهم على اتصال مباشر مع اللغات والثقافات العربية ، حتى أصبحت اللسانيات اللندنية نوعا من اللسانيات التي يخضع التنظير فيها

لمعرفة سليمة محققات اللغات الغربية. (وقد علم فيرث عددا من اللغات الهندية واندعات الأخرى، وكتب أيضا عن الكثير حولها). وكانت الإمبراطورية البريطانية بالنسبة إلى مدرسة لندن بمثابة الهندية الأمريكية إلى الوصفيين الأمريكيين، حيث كانت كلت المجموعتين مزودتين بكميات من المعلومات غير مألوفة ضد الاستنتاج العقيم الذي شوه اللسانيات الأوروبية ومعظم اللسانيات النشومسكية. ومع ذلك فقد كان هناك فرق بين الحالتين. إذ انصرف الأمريكيون إلى دراسة لغات كانت على وشك الانقراض، بحيث مست الحاجة إلى تدوينها نظرا لأهميتها العلمية. يسا كان اللسانيون اللندنيون يعالجون بصفة رئيسة تلك اللغات التي ينطق بها الكثيرون، والتي واجهت مهمة التطور إلى وسائل فعالة للتواصل بين حضارات حديثة. وهذا يعني من جهة أن احساب العملي من التقاليد اللسانية البريطانية كان معرزا، حيث برزت موضوعات مثل إيجاد نظم الكتابة وتخطيط اللغة القومية بصورة مهمة. كما عني فيرث بتدريس مقررات في علم الاجتماع اللغوي sociology of language في الثلاثينيات قبل أن يظهر هذا الموضوع في قائمة الدراسات الأمريكية بوقت طويل. ومن المعارف أن يشير هذا أيضا إلى استعداد اللسانيين لقضاء قط كبير من وقتهم في تطوير مبهم يقوم على معلومات مستمدة من مناطق محدودة. ولم يحس هؤلاء بالضغط نفسه الذي أحس به الأمريكيون من أجل تسجيل الحقائق الختام قبل هوات الأوان. ولم تكن الرغبة لهندوستانية ولا لثامون مليوننا من الناطقين بها على وشك الضياع من دنيا العلم لأن شحصا أمضى سنة أو ستين وهو يصفق، ويعيد صقل، التحليل المبرد الدقيق لسته من أفعالها الشادة (إذا أردنا أن نصرب مثالا خياليا). ويتفق مؤيدو فيرث وبفاده على حد سواء على أن عمله في حد ذاته مشنت وبرنامجي إلى حد بعيد، كما أن مدرسة لندن لم تدل سوى القليل من المحاولات لتقديم أوصاف كاملة للغات.

وقد صنت نظريات فيرث جل اهتمامها على الصوتيات الوظيفية وعلم الدلالة بشكل أساسي، وسوف نعرض لهذه الموضوعات بالترتيب نفسه.

من السمات الرئيسة في معالجة فيرث للصوتيات الوظيفية (وسوف نرى تكرارا لهذه السمة في التحليل اللغوي في مدرسه لندن في مستويات أخرى) أنها متعددة النظم polysystematic إن شئت استعمال مصطلح فيرث. ولكي يعرف ما هو المقصود

بهذا ، دعونا نعود إلى مناقشة مشكلة تشاو Chao (في الصفحات ٦٤-٦٧ ، الفصل ٣) في النظام الصوتي للصينية المتدرينية . فالصوت اللثوي الحنكي alveNOPalatal لا حنكاكي [ɕ] يقع قبل الصوائت العالية الأمامية ، وهو متكامل التوزيع مع ثلاثة أصوات احتكاكية أخرى وهي [s, ʃ, x] التي تتقابل مع بعضها البعض قبل الصوائت الأخرى . ويشكل هذا حجر عثرة بالنسبة للتحليل الفونيمي بما أننا لا نعرف أي صوت من الأصوات الاحتكاكية الثلاثة الأخيرة يجب أن يساوي الصوت الاحتكاكي [ɕ] . أما فيرث فيرى أن هذه ليست سوى مشكلة وهمية . فالنظام الصوتي في أية لغة من اللغات يتألف من عدد من النظم التي تحتوي على احتمالات بديلة تؤدي عملها في نقاط مختلفة من الوحدات الصوتية كمقاطع الكلمات syllables ، وليس ثمة داع لمطابقة البديل في نظام ما مع بدائل أخرى في نظام آخر (وهذا يختلف كثيرا عن فكرة ترويتسكوي التي تقول إن التقائلات «المحيطة» يحققها فونيم أساسي archiphoneme [نظر لفصل الخامس] . ويفترض ترويتسكوي أن مجموعة الأصوات الموجودة في سياق التحديد الخاص سترتبط بصورة منظمة بالمجموعة الموجودة في سياقات أخرى . إلا أن فيرث لا يرى مسوغا لمثل هذا الافتراض) .

وقبل كل شيء ، فإنه ما من وصفي أمريكي يعكس بمطابقة العناصر التي تحتل مواقع النوى من مقاطع الكلمات syllabic nuclei مع تلك التي تقع على طرفي المقطع . وبعبارة أخرى ، لفترض أن لدينا لغة جميع مقاطعها من النمط السبيل أي + صائت + صامت ولها خمسة صوائت [i, e, a, o, u] وأحد عشر صامتا [p, t, k, ʃ, s, l, n, m, g, d, b] فالوصفي في هذه الحال لن يجمع الصوائت والصوامت على أنها ألوفونات للصوامت نفسها ، ولن يجد بالتأكيد أية صعوبة في رؤية صوامت متفائلة أكثر من الصوائت . أما فيرث فيرى أن نظام «نواة المقطع» هو بكل بساطة مختلف عن نظام طرف المقطع . ويصيف أن نظام الصوامت التي تعمل قبل صوائت أمامية قريبة في انصية مختلف عن النظام الذي يعمل قبل الصوائت الأخرى . ويمكن للمرء أن يصاغف الأمثلة عن الظواهر التي تشكل معضلات بالنسبة للتحليل الفونيمي ، وهي التي تلاشى عند معالجتها ضمن إطار تعدد النظم . فالصامتان الوحيديان اللذان يمكن أن يقعوا في نهاية المقطع في الصينية المتدرينية أيضا ، وعلى سبيل المثال ، هما [n ʊ] لكن

[5] ليست من بين الصوامت الكثيرة التي يمكن أن تقع في بداية المقطع . فالهوبيمي (من يعتقد بوجود الهونيمات) على أغلب الظن مبعير أن [h] هي أحد الوقوبات الصوامت التي تقع في بداية المقاطع ، ولكن أي واحد منها؟ هل هو [k] أم [m]؟ أما فيرث فيرى وكن بساطة أن ثمة نظاما لنهاية المقطع مؤلفا من عضوين وهو مختلف جدا عن نظام بداية المقاطع متعدد الأعضاء .

ويقول فيرث ، وأعتقد أنه على صواب ، إن الهوبيميين ارتكبوا الخطأ نفسه بسبب طبيعة نظم الكتابة الأوروبية . فالكتابة القوبية تمثل قبل كل شيء تطبيقا ثابتا لما لمبادئ معينة من مبادئ الكتابة التي تتمتع بحضرة الصدفة مع النصوص الأبجدية الأوروبية بشكل دقيق تقريبا . ومن الطبيعي أن يساور الشك العلماء المشتغلين بالثقافات الشرقية حول رفع نظام رموز كلامهم القلي إلى مرتبة البدهيات العلمية ، حيث كان لدى الكثيرين منهم نصوص معينة على مبادئ أخرى ، وكانت تفاليدهم بشأن القصص الدعوية القديمة مستقلة عن الفكر الأوروبي . ومن المؤكد أن الصينيين ، وهم الذين تمثروا بمفردات لغوية معقدة في القدم تتناول قصايا اللفظ ، لم يكونوا ليصعوا ، ولنقل المقطع الذي يكتبه صوتيا [nám] أبدا على أنه مؤلف من سلسلة من ثلاث قطع الأولى منها ثنائيات

ومن ناحية أخرى يمكن الحدل بأن مبدأ النظم المتعددة يهمل تعميما حول اللغة الإنسانية ، وهو صحيح باعتباره هدفا إحصائيا حتى ولو لم يكن قاعدة مطبقة . وكما لاحظنا في الصفحة (٦٧ ، الفصل ٣) ، فإن اللغات لا تبدي تباينا كبيرا في «نظمها الصوتية» الوظيفية ، بحيث لا نجد بصفة عامة لغات ذات صوامت تختلف نوعا وعلما وعددا قبل كل صائت غير . ونحتوي الصينية على تداخل كبير بين الصوامت غير [n. s. p. x] التي تقع قبل الصوائت القرية الأمامية والصوائت الأخرى على التوالي . على أية حال ، وبالرغم من أن هذا ليس من الموضوعات التي نخطي باهتمام فيرث ، فإن من غير الواضح ما إذا كانت صوتياته الوظيفية ذات النظم المتعددة فاشلة بهذا الشأن . فالرغم من أن النظرية تفسح المجال أمام أنواع غير محدودة من النظم ، نجد أنه كلما زاد تعقيد النظم التي يعرف بها وصف معين (وفي الغالب كلما زاد اختلاف قيم المقاييس الصوتية) رداد ذلك الوصف تعقبنا للدرجة تحملنا على القول إن نظرية فيرث تحقق هدف تشومسكي



في عطاء وصف بسيط للغات «الطبيعية» نسييا، وأوصافا معقدة للغات الأقل طبيعية. وثمة مجال آخر شعر فيه فيرث أن التحليل الفونيمي كان متأثرا بالكتابة الأبجدية بصورة غير مقبولة، ألا وهو مبدأ «التقطيع الصوتي». قال كتابه الفونيمية، شأنها شأن الحمدة في الكتابة الأوروبية العادية، تتألف من سلسلة خطية من وحدات تشبه حبات الخرز لمصنومة يحيط. وقد اضطر الأمريكيون للاعتراف بوحدات نغمية معينة مثل «هوييمات سر» في اللغات النغمية، و«هوييمات النغمة» التي تتجاوز في مقاطع كاملة بدلا من أن تشكل جزءا من صواتات وصواتات معينة. أما نماذج التنغيم intonation patterns فيمكن أن تمتد لتشمل سلاسل من مقاطع عديدة. لكن الهوييمات النغمية كانت شيئا مجموعا ومستهجيا في نظرية الفونيم، كما كانت محظورة إلا مع مقاييس صونية خاصة مثل ارتفاع الصوت وطقته loudness and pitch. أما فيرث فكان يعتقد أن هذا منافي للعقل. حدوا مثلا كلمة limp [limp] في الإنجليزية التي تنتهي بعقود من الصواتات الشعرية وليس هذا وليد الصدفة كما نعلم، فمثل هذه العنايف لا يمكن أن تختلف مخارجها في الإنجليزية وهكذا limp [limp]، link [link]، بينما لا نجد [liop]\* ولا [limi]\* أو ما شبه ذلك.<sup>(١١)</sup> لذا يجب أن تمثل شعيرة العقود في limp مرة واحدة لا مرتين في التحليل الصوتي الوطيفي. ويجب ألا نكتب /limp/ ولكن لنقل [limp] حيث «و» و «و» وحدتان هوييماتان phonomatic غملاان على التوالي صوتا أصليا اصطناعيا بمخرج غير محدد. أما الخط الأفقي فهو سمة معينة تدل على «الشعيرة» التي تتقابل مع السمات النغمية للمخارج الأخرى في مستوى عنايف الصواتات بدلا من الوحدة الهوييمائية المفردة.<sup>(١٢)</sup> وإذا كان «الواقع» الذي يراد أن يقابله تحليل النظام الصوتي متعلقا بطبيعة الأوامر العصبية التي ينقلها دماغ المتكلم إلى أعضاء الكلام عنده، كما يدعي علماء بصريات الرظمية التوليدية، نأكدنا عندئذ من أن الافتراض بأننا نأمر أفواهنا مرة واحدة فقط لكي نجعل العقود النهائي في /limp/ شفويا بأن ذلك الافتراض معقول أكثر من الافتراض بأننا نصدر أوامر منفصلة لعنصري العقود. ولا يحتاج السامع، كما يعمل في الواقع، إلى الإصغاء إلى سمة «الشفوية» سوى مرة واحدة فقط.

ويعترف تحليل النظام الصوتي عند فيرث بعدد من نظم الفونيمات النغمية التي يعمل في شتى نقاط البنية (مثلا في مستويات عنايف الصواتات، والمقاطع، والكلمات،

إلح .). وتحدد هذه النظم لمظ شكل معين بالتفاعل مع وحدات فونيمائية قطعية الحجم تمثل ما تبقى من المعلومات بعد عزل جميع القيود المفروضة على التحوار بين المقطع المتلاصقة واعتبارها عناصر نغمية. (إن التمييز الاصطلاحي بين العناصر النغمية وبين «الوحدات الفونيمائية» ليس جوهريا. إذ يمكن اعتبار «الوحدات الفونيمائية» أيضا «عناصر نغمية» يعادل طولها ويمحص الصدفة طول قطعة واحدة فقط حسبما اعتقد).

ومن النتائج المترتبة على هذا أن العبارات الكلامية تمثل بنية صوتية هرمية بصافة إلى البنية السعوية الهرمية التي يعترف بأنها تمتلكها على نطاق واسع وهكذا تفصح النظرية النغمية للحال بالطبع أمام وحدات متعددة القطع مثل المقطع الذي كان ولا يزال يعز يعبر الوصفين وعلماء الصوتيات الوظيفية على حد سواء. فمن زاوية الحدس، وبالنسبة للشخص العادي، يبدو أن المقطع كيان على جانب من الأهمية (حد مثلا دوره في الأوزان الشعرية) ومع ذلك فإن المقاطع في صوء التحليل الفونيمي أو الصوتي التوليدي ما هي إلا تجمعات عشوائية بحثة لسلاسل من القطع لا تشكل بناء في حد ذاتها لكن المقطع عند فيرث من الناحية الأخرى يلعب دورا أساسيا كمقر لعدد أكبر من العناصر النغمية. ولقد ذكرت في ملحات أخرى (سامسون Samson، ١٩٧٠م) أن هناك حقائق تتعلق بما يعتبر بصمة عامة نظاما صوتيا قطعيا في لغات معينة لا يمكن التعبير عنها ما لم نتعرف على نوع البنية الصوتية الهرمية التي يضمها التحليل النغمي. وعلى غرار مبدأ تعدد النظم يقدم التحليل العمي حلا جيدا للأسئلة الوهمية، وهي في هذه الحال أسئلة حول جهة التبعيات المتبادلة. واللغات التي تعتمد على توفيق الصوائت مثل التركية هي أوضح مثال على ذلك (مع أن بالإمكان أن يبر هذه النقطة عدة مرات عمليا في أية لغة). ففي لغة النموذجية تتوافق فيها الصوائت تنقسم الصوائت إلى مجموعات، ولتعمل أمامية [i e æ] وأخرى خلفية هي [u o ɔ] كما تحتوي كل كلمة على صوائت من مجموعة واحدة فقط، وهكذا تكون kibe أو puno من الكلمات الممكنة أما [loni] فلا. وقد نضع أحد الباحثين في النظام الصوتي يده على تعميم حول تشابه الصوائت في الكلمة نفسها بأن يعلم السمة الأمامية أو الخلفية في الشكل التحتي لأحد الصوائت في كلمة ما، ولتقل الأول، أو من خلال كتابة فاعلة صوتية وطبقة معادها ١٥ جعل كل صائت يتبع أول صائت في الكلمة في انحنائه سمة الأمامية

أو الخلفية» لكن هذه المعالجة تتضمن أن طبيعة الصائت الأول هي الأساسية، والصوائت الأخرى تابعة لها. أما التوليدي فيمكنه اختيار الصائت الأخير، أو حتى أي صائت في وسط كلمة متعددة المقاطع كي يكون هو الصائت الذي يحدد البقية لكن إشكالة نكمن في عمله الاختيار في النظام الصوتي القطعي، إذ ليس ثمة أساس (في كثير من الحالات) لمثل هذا الاختيار. وفي الحقيقة فإن الوحدات المحدد بعضها بعضها فسمه الأمامية هي من خواص الكلمة ككل بصفة أساسية، لا بصفة سطحية، ويمثلها لتحليل العمي على هذا النحو. (انظر هيل Hill، ١٩٦٦م للمزيد من المعلومات حول المعالجة النغمية لتوافق الصوائت في اللغة التركية الذي هو في الواقع أشد تعقيد مما أشرت إليه هنا). ومن الأمثلة الخيلة عن العمائم النظرية التي تحجب نظر كثير من التشومسكيين النقد الذي كتبه لاجندويس عن مدرسة لندن، إذ يقدم لنا الكاتب هذه الميزة من مميزات الصوتيات الوظيفية «الفيرثية» على أنها نقطة قابلة للاعتراض نظراً لأن الست في تحديد العناصر الناعمة والعناصر المبعوعة في الوصف النغمي «متروك لعبقرية المفسر» (لاجدويس Langendoen، ١٩٦٨م، ص ٥٣) وبعبارة أخرى، لا يرى لانغندون أن مثل هذا القرار قد يكون قراراً غير حقيقي لأن الصوتيات الوظيفية لتوليدية تجربنا على اتخاذه.

ويبدو مفهوم الوحدة العمية في النظام الصوتي جداً وطبيعياً، حتى أن من العرب الأتراء منتشراً على نطاق أوسع. وفي الواقع فقد استعمل أحد الوصفيين الأمريكيين، وهو ريلينغ هاريس فكرة مشابهة بالفعل. لكن «المكونات الطويلة» عند هاريس (Harris ١٩٥١م، الفصل العاشر) متميزة وأقل جاذبية من الساحة النظرية رغم الشبه بينها وبين العناصر العمية عند ميرث [فمن جهة يرى ميرث أن تحليل المكونات الطويلة يقوم على تحليلها مسبقاً إلى فويمات بحيث لا يمكن تجنب أياً من المشكلات الوهمية التي نتجت عن التحليل الفونيمي، (انظر روبنس Robins، ١٩٦٩م ص ١١٢، ١٣)]. ويبدو أن علماء الصوتيات التوليدية كانوا مصرين على تأييد تقسيم مجموعته لأصوات الكلامية نفسها أفقياً إلى سمات عميرة (مقابل أولئك الوصفيين الذين اعسروا الموصفات مثل الذرات لا تقبل الانقسام) حتى أنه لم يحطّر في بالهم أبداً أن يبحثوا في تقسيم الكلام عمودياً إلى قطع segments.

ومرة أخرى يمكن القول إن التحليل العمي يهمل برعة في اللعبة الإيسابية أخطاء التحليل الفونيمي والصوتيات الوظيفية التوليدية في رؤيتها كقاعدة مطلقه، إذ كان من الأحذر أن نعثر نزعة إحصائية على الأقل. ودعوني أفسر هذه النقطة بالاستعانة بمحاضرة سمعتها مرة حول التحليل الفهمي في الروسية. إن في الروسية تمايزاً بين الصوامت المعجورة palatalized وغير المعجورة non-palatalized (أي العادية أو المطففة velarized)، (وسوف أشير إلى التغير بالحرف [ʔ] في أعلى الصوت). وينسجم التغير نسبياً مع نطق أمامي للصوائت بحيث نرى مثلاً

[mat] مات الشاه (في الشطرنج)

[mæt] جمع كلمة mni (مصنع) في حالتي الجر والإضافة

[mæʔ] أم (الوالدة)

[mæʔt] يعجن

وكلما ازداد تغير الصوامت، ازداد الصائت تقدماً نحو الأمام والعكس بالعكس وبلاحظ هنا عاملاً بغيرنا (وقد خصص له المحاضر بالعمل) بافتراض وجود نعمة معينة اسمها اليودلة (التليس اليائي) تجعل الصوائت أمامية، والصوامت غارية، وتقول إن للكلمات السابقة تحتوي على الوحدات نفسها الفونيمائية، لكنها تختلف باليودلة. وإذا كانت اليودلة عنصراً عاماً على مستوى المقطع، إذن يجب أن يكون هناك مقطعان فقط لا أربعة، أحدهما فقط يحتوي على يودلة دون الآخر. وإذا كانت اليودلة سمة بحجم القطعة segment نفسها، وتطبق على الصوائت والصوامت بالطريقة نفسها، وجب علينا أن نتوقع ثمانية احتمالات بما أن الاختيار في كلا الجهتين سيتم بشكل مستقل بالنسبة إلى كل قطعة. فالتفسير الوحيد لوقوع أربعة مقاطع متميزة فقط هو أن اليودلة، أو بالأحرى التغير، أساساً سمة من سمات الصوائت فقط، وأن كون الصوائت أمامية محدد بطبيعة الصوامت المجاورة. (وهذه هي المعالجة المتعارف عليها للروسية عند علماء الصوتيات الوظيفية اللافيثية). ويعارة أخرى، نستطيع في هذه العلاقة بين القطع المجاورة أن نضع أيدينا على السبب وراء اختيار إحدى القطع على أنه المحدد والآخر على أنه المحدد. ويبدو أن هناك ملاعاماً للمدى السمات الصوتية (غير سدّ المتعلقة بطبيعة الصوت وارتفاعه) لكي تتأصل في قطع مفردة يمكن تحديدها، أو

على الأقل في وحدات متعددة القطع مثل عناقيد الصوامت والصوائت المزدوجة. أما اللغات التي تتوافق فيها الصوائت فهي حالات شاذة ولا تشكل قاعدة.<sup>(١٧)</sup>

ونشير من المثال الروسي ضعفا آخر في التحليل النغمي. فالعناصر النغمية التي ذكرناها هنا كانت تتحقق بطريقة بسيطة لا لبس فيها من الناحية الصوتية وتتمثل في كون منحرج العنقود شعويا وفي كون الصوائت أمامية. ففي حال اليودلة، وعلى الرغم من أن تعوير الصوامت يشبه من حيث النطق الانتقال من [o] إلى [e] عبر [æ] نرى أن المسألة ليست بهذه البساطة. فإذا أراد المرء أن يستعمل سمة اليودلة النغمية وحده عليه - في وصف شامل للغة الروسية - أن يفسر كيف ظهر ذلك العنصر النغمي في الصوامت والصوائت على التوالي. لكن العناصر النغمية تتحقق غالبا بأشكال كثيرة ومتنوعة. فتحليل يوحيني هندرسون للغة الفيتنامية (Eugene Henderson, ١٩٦٦م) يدخل عنصرا نغميا وهو «داكن» dark الذي يقابل على الأقل السمات الصوتية التالية في ظروف مختلفة: المنحرج الشفوي أو الشموي الأسنان، الخلفية والانفجار الداخلي. (وترتبط العناصر النغمية عند هندرسون باللفظ بصورة غير مباشرة). وليس ثمة إشارة إلى أن هذه السمات ترتبط كلية universally ببعضها البعض (وأعرب فيرث نفسه صراحة عن عدم اعتقاده بوجود الكليات اللغوية)، لكنها تشير فقط إلى أن بنية اللغة الفيتنامية بصفة خاصة ترداد ناسقا سيبا إذا اعتبرت أن هذه السمات تمثل عنصرا نغميا واحدا في تلك اللغة. وسواء أكانا نطرا إلى أمانة الوصف على أنها اعتبار جمالي أو على أنها مرتبطة «بطبيعية» naturalness نية للغة موضع الوصف، فإن من الضروري أن نأخذ في الحسبان بساطة القاعدة التي تقول لنا كيف تتمكن الوحدات النغمية و تفرعية من التجمع مع بعضها البعض، بالإضافة إلى بساطة القواعد التي تربط هذه الوحدات بالرموز الصوتية التي تمثلها. ففي اللغة الفيتنامية يعتقد المرء أن المقولات لأحيرة ربما تكون معقدة إلى حد يجعلها تفوق على تناسق الأولى. لكن المهج الميراثي يتميز بـ اهتمامه الكبير «منظم» الاختيارات بين البدائل التي تقع في لغة من اللغات بدلا من اهتمامه بتفاصيل تحقيق بدائل معينة. وهكذا تقدم لنا هندرسون مقولة منهجية حول التركيبات الممكنة في عناصرها النغمية في الفيتنامية، لكنها لا تناقش تحقيق العناصر النغمية إلا بصورة عابرة (بالرغم من وفرة التفاصيل) مشيرة ضمنا إلى أن ذلك الجانب من مناقشتها لا يشكل جزءا من التحليل الأصلي.

وينافض هذا الموقف تماماً موقف علماء الصوتيات الوظيفية التوليدية إذا اعتبرنا أن السمة العممية في عبارة كلامية معينة تحتل في النظرية الأولى الموقع نفسه الذي تحتله سمة النظام الصوتي التحتية في النظرية الأخرى. فاهتمام علماء الصوتيات التوليدية يمحصر تقريباً في قواعد اشتقاق الصوتيات السطحية من الصوتيات العميقة. كونهم لا يدكرون أي شيء تقريباً حول تماسق أو عدم تماسق نظام الأشكال الصوتية الوظيفية «النهئية الممكنة» في اللغة. فكتاب تشومسكي وهاليه - السط - حلا من أية إشارة إلى الأشكال الصوتية الممكنة سواء في الكلمات أو في المقاطع الإجمالية. ويبدو أن كلا من هذين الموقفين لا يرى سوى جانب واحد. لكن الضعف في كليهما ما هو إلا ضعف وليس خطأ قاتلاً. ولعل من السهل أن نلحق الصوتيات الوظيفية «بحر صوتيات وظيفية phonological grammar» يحدد مجموعة الأشكال الصوتية الوظيفية التحتية. وبالمثل، ليس هناك ما يمنع صياغة العلاقة بين التحليل العممي وبين اللفظ، فقد يؤدي هذا إلى رفض تحليل نعمية معينة فقط، لا إلى رفض التحليل الصوتي النعمي بشكل عام. إن للصوتيات الوظيفية عيوباً قاتلة في نواح أخرى، ولكني لا أعتقد أن هذا يفسق على التحليل فوق القطعي.<sup>(١٧)</sup>

وليس من السهل الدفاع عن آخر نقطة تستحق الذكر حول الصوتيات الوظيفية عند فيرث وهو الذي بصر على أن الصوت والمعنى في اللغة متصلان مع بعضهما مباشرة أكثر مما كان يعتقد. ويبدو أنه كان يرفض رؤية التمييز والمضمون كوجهين مختلفين لعملة واحدة، كما هي الحال عند سوسير (فيرث Firth، ١٩٥١م، ص ٢٢٧). ولم يكن مستعداً أبداً للاعتراف بأن العلاقة بين التمييز والمضمون علاقة غير مباشرة، على العكس مما يشير إليه مبدأ مارتنيه بشأن «الطق المضاعف double articulation» (ولا يأتي «فيرث» على ذكر مارتنيه أبداً حسب علمي). فقد كانت الروابط الأكاديمية بين مارتنيه وأوكسمورد أوثق منها بينه وبين لندن). وكان النظام الصوتي بالسمة إلى فيرث سمة من نظم الاختيارات، التي هي بدورها نظم من المعنى (انظر بري، Berry ١٩٧٥م، ص ١٤٣). صحيح طبعاً أننا نستعمل اللغة استعمالاً له معناه لمجرد أننا نختار أن نعول شيئاً بدلاً عن شيء آخر. لكن فيرث كان يقصد أن لكل نقطة اختيار في النحو نقاطاً ملارمه دلالية مفردة، وهذا رأي لا يمكن أن يتخذ على محمل الجد. ولقد سبق أن أشرب بي

أن مبدأ مارتينيه بدهية سطحية لا قيمة لها . وهذا يعني أن إنكارها خطأ سطحي أيضا .  
فالنون /n/ في اللغتين العربية والإنجليزية هي أحد الخيارات في نظام الصوامت الواقعة  
في بداية الكلمة . لكنها في حكاياتها لا تحمل أي مضمون يحص معنى عبارة كلامية  
وقد أختار هذا الصوت لكي أنطق كلمة «نغمه» أو كلمة «نظر» أو «غر» ، إلخ . وهناك  
عدد من المتلازمات correlates المباشرة ، فاجتماع الفاء واللام /fl/ هي كثير من الكلمات  
الإنجليزية يدل على حركة مفاجئة مثل flick (ينقر) ، flicker (يتراقص ، يتأرجع) ، flap  
(يتصاءل) ، flap (بصر ، ينقر) ، و flurry (يهيج ، يضطرب) ، . . إلخ . وقد كان  
فيرث مهتما بمثل هذه الحالات ، ولكن من الوهم أن تصور أن طواهر من هذا النوع  
هي أكثر من أشياء هامشية في اللغة ككل . ويبدو أن هذا الجانب من فكر فيرث هو  
نتيجة لتصوره الغريب عن «المعنى» والذي ستعرض له عما قريب .

لقد كان للمبدأ الأنثى الذكر قيمة توجيحية بالسبة إلى عمل مدرسة لندن . فقد  
دل ذلك على أن أعضاء تلك المدرسة كانوا يرحبون بإدخال اعتبارات نحوية ضمن  
تحليلهم الصوتية الوظيفية حين تمنح الفرصة لذلك ، في الوقت الذي كان فيه  
أوصفيون الأمريكيون الذين يتبعون مبدأ الاقناع من خلال إجراءات الاكتشاف  
يرفضون الخلط بين المستويين باعتبار ذلك انتهاكا للمهجية . لكن هذا الحدل قصبة  
عمى عليها الزمن الآن ، ولن نجني شيئا من معه مرة أخرى هنا .<sup>(٨)</sup> والمهم الآن هو أن  
لمبدأ شجع أعضاء المدرسة على توجيه قسم كبير من اهتمامهم نحو التنعيم ، وهو حقل  
من الصوتيات الوظيفية سهل فيه الدفاع عن التلازم الصوتي - الدلالي المباشر . وقد  
حقق لسانيو مدرسة لندن في ميدان تحليل التنعيم أكثر مما حققه الأمريكيون مهما كان  
اتساقهم فالأعمال في بريطانيا (خذ مثلا أوكومور O'Connor وأرنولد Arnold ،  
١٩٦١م) مختلفة شكلا ونوعا ، وهي في رأيي للتواضع أكثر فائدة من أنواع التحليل  
شائعة حاليا في أمريكا .<sup>(٩)</sup> إلا أن هذا الجانب من الفكر الصوتي الوظيفي عند فيرث  
يعتبر حاسا سلبيا أهمله كثير من الذين يبنون التحليل النغمي وكانوا محقين في ذلك .  
ونكي بهم المعنى كما يراه فيرث ، يجب أن نبحث في الأفكار اللغوية عند زميله  
بروسلاف مالينوفسكي Bronislaw Malinowsky (١٨٨٤ - ١٩٤٢م) وهو أستاذ في علم  
الإنسان (الأنثروبولوجيا) في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية London School of

Economics منذ عام ١٩٢٧ م. وقد أجرى مالمينوفسكي، وهو بولندي من أصل أرسفراطي، أبحاثاً ميدانية في الثقافة البدائية في جزر التروبرياندا التي تقع على مقربة من شرق غينيا الجديدة (وكان من الممكن أن يظل حسن السمعة لو لا أسلوبه بعريب الذي كان يتبعه في تسمية كتبه. وليس هناك سوى قلة من العلماء نعمت كتبهم العلمية بمعاوين جذابة بأسمائها المختلفة مثل «حناثن المرحان ومسحرها» Corai Gardens and Their Magic، والحياة الجنسية عند البدائيين The Sexual Life of the Savages. أما أهم ناحية في نظريات مالمينوفسكي بخلاف عمله الأثنوغرافي البحث فكانت في ميدان وظيفة اللغة.

ويعتقد مالمينوفسكي أن رؤية اللغة كوسيلة لنقل الأفكار من رأس المتكلم إلى رأس السامع ليست سوى حرافة مصللة (Malinowski، ١٩٣٥ م، ص ٩). فالتكلم، لا سيما في الثقافات البدائية، ليس «قولاً» بل «عملاً». «فاللغة باستعمالاتها البدائية حقيقة اتصال في نشاط بشري جماعي. إنها نخط من العمل وليست أداة للتأمل» (Malinowski، ١٩٢٣ م، ص ٣١٢). ويورد مالمينوفسكي في معرض شرحه لرأيه بعثة صيد في تروبرياندا فيقول: «يتم توجيه مجموعة من قوارب الصيد وتنظيم حركتها باستمرار عن طريق الكلام. فالصرخة التي تملأ وجود كمية من الأسماك تعني إعادة تنظيم جميع حركات القوارب من جديد» (Malinowski، ١٩٣٥ م، ص ٥٨). ومن جهة أخرى «إن الطريقة التي استعملت فيها [اللغة] الآن في كتابة هذه الكلمات هي من الاستعمالات المزعجة والمعبدة للغة» (Malinowski، ١٩٢٣ م، ص ٣١٢). فالكلمات هي أدوات، و«معنى» الأداة يكمن في استعمالها وبفضل هذا الرأي اكتسب لودفيغ فيثغنشتاين شهرته حين أعاد صياغة هذه النقطة بإسهاب بعد مالمينوفسكي بوقت طويل.

والمشكلة التي تعترض هذا الرأي هي أن سكان تروبرياندا أنفسهم كانوا يصورون قسطاً لا بأس به من الوقت في التحدث إلى بعضهم البعض، دون أن يدور الحديث حول نشاطاتهم المشتركة. وهذا النوع من الكلام بالنسبة إلى مالمينوفسكي لا بد من أن يؤدي «عملاً ما»، لذلك يقول إن وظيفته هي إيجاد، أو الحفاظ على روابط «العاطفة بين المتكلمين». وقد أدخل مالمينوفسكي عبارة «تواصل للجماعة» Phatic communion



(Malinowski, 1923 م، ص ٣١٥) للتعبير عن الكلام الذي يؤدي هذه الوظيفة والذي يكون فيه «معنى الكلمات» المؤلف حار حار عن الموضوع. ويورد ماليوفسكي عبارات مثل «كيف حالك» و «هذا يوم جميل» كأمثله على هذا النوع من التواصل من اللغة لإيحيزيه. أما الموضوع الذي يتهرب منه لعجزه عن مواجته مواجته صحيحة فيمثل في أن الثروة لا تتألف لا حصرا ولا حتى أساسا من عبارات المحاملة مثل هذه. وهي تسبح في إقامة روابط عاطفية لا لشيء إلا لأنها تخبر السامعين بأشياء تستحوذ على اهتمامهم وتطمئنهم عن مواقف المتكلم. وبعبارة أخرى، فإن ماليوفسكي، في كتاباته الأولى على الأقل، يعترف أن اللغة العلمية الحديثة هي قول وليست عملا. وعندما يعترف المرء أن باستطاعة الناس أن يقولوا أشياء لبعضهم بعضا، فإن من الخطأ دون شك إنكار هذا بالنسبة إلى أهالي «تروبرياندا». فما يقوله التروبرياندي حين يلمح كمية من الأسماك يسبب إعادة تنظيم حركات القوارب، لا لأن العبارة التي ينطقها هي أداة لتحديد مواقع القوارب كما هي حال المطرقة التي تدق المسامير، بل لأن العبارة تخبر الآخرين عن مكان السمك فيقومون بعمل يبدو أنه مناسب لهم في ضوء تلك المعلومة الجديدة. وواضح أن ماليوفسكي يتفاد للخطأ السلوكي الذي تحدثنا عنه في الفصل الثالث حين يحاول إنكار عمليات التكبير التي لا تدركها الحواس، بالرغم من أن تعليقاته حول استعمال اللغة في المجتمعات المنحصرة تبيّن أنه في عام ١٩٢٣ م لم يكن شديد التمسك بسلوكيته السيئة. وأيقن ماليوفسكي فيما بعد أنه لم يكن ثابتا في موقفه (Malinowski, 1935 م، ص ٥٨)، وحاول أن يجادل قائلا إنه حتى الكلام العلمي في غرب كن مسألة «عمل» لا مسألة «قول». إلا أن محاولته لم تكن مقنعة البتة. فقد أكد على وجود العبارات الكلامية utterances التي دعاها «أوستن L. Austin (١)» فيما بعد عبارات الأداء performative مثل «أعذك بأن أدفع لك عدا» أو «أعلن إنكم أروجان» وهما عبارتان «تفعلان أشياء» في الواقع بدلا من أن تقولوا إن شيئا هو كذا وكذا (Malinowski, 1935 م، ص ٥٣). لكن معظم عبارات الكلام لا علاقة لها بالأداء.

وقد قل فيرث رأي ماليوفسكي حول اللغة. وربما تأثر أحدهما بالآخر في تطوير ما تمحّص في نهاية الأمر عن آراء منشابهة إلى حلة كسر. ونتيجة لهذا يستعمل

فبرث كلمة «المعنى» التي تتكرر في كتاباته بطرق عريضة نوعاً ما فمعنى العبارة الكلامية هو ما نفعله، لكن جوانب العبارة المختلفة بالطبع تقوم بأداء أشياء شديدة الاختلاف وهكذا نجد أن بعض السمات الصوتية التي نعرف أنها مكونات لإحدى اللهجات الأمريكية نحملاً على التصرف بالطرق التي نراها ملائمة في حضور بعض الأمريكيين، كأن نتصرف بكرم ولكن مع اتحاد جانب البيئة. فالإنسان لا يعتبر أن حمده عادية نعي شيئاً خاصاً بالمجرد أنها نطقت باللهجة الأمريكية (إذا استثنينا كلمات خاصة مثل «candy حلوى و bathroom حمام»). لكن فبرث Firth يعتقد أن «التكلم باللهجة أمريكية هو بالتأكيد جزء من المعنى الذي يفصله الأمريكي» (Firth ١٩٥١ م ب، ص ١٩٢). ويعتقد فبرث، كما يتبين من كتاباته، أن أية خاصية من خصائص العبارة الكلامية هي جزء من معناها. فاستعماله للمصطلح واسع وعامص جداً في الوقت نفسه حتى أنه يبدو عديم الفائدة (انظر النقد الذي كتبه ليونز Lyons، ١٩٦٦ م).<sup>(١١)</sup>

ويورد مالمينوفسكي في معرض شرحه رأيه عن المعنى فكرة «مقتضى الحد» context of situation (مالمينوفسكي Malinowski، ١٩٢٣ م، ص ٣٠٦). ويقول إنه إذا وجد أحد الأوروبيين نفسه فجأة وسط المجتمع التروبرياندي، وأعطى ترجمة حرفية لكلام التروبرياندين، لما ساعده ذلك على فهمهم أكثر مما لو بقيت العبارات دون ترجمة. فمعنى العبارات لا ينصح إلا من خلال نمط الحياة التي هم جزء منها. وهذا صحيح بكل تأكيد، فهي النقطة نفسها التي ينتها في الفصل الرابع عندما قلت إن عيباً أن يدرس نظريات «البورورو Bororo» قبل أن يستطيع فهم ما يعنيه بنسبية أنفسهم محاولات. وكان ذلك مثلاً متطرفاً عن الصعوبة التي ما رحت تتكرر في أشكال ثل نظراً في التواصل بين الناس في شتى صنوف الحياة، إذ إن فهم عبارة كلامية هي لغة أجنبية لا يعني فقط مساواتها بعصر ما هي لغة المرء نفسه بل يتمثل في معرفة موقعها ضمن شبكة معقدة من علاقات المحتوى الدلالي sense التي تكتسبها مع عناصر أخرى من اللغة الأجنبية. وما أن يصبح المرء (سلوكياً سيئاً) قلماً وقالباً على أية حال، حتى تصبح فكرة وصف النظام الدلالي كشبكة غير مرتبة من العلاقات في ذهن المتكلمين موضع الشبهة. (ولم يكن لدى فبرث ولا مالمينوفسكي الدليل المتمثل في رد السية إلى «الصمير الجماعي collective conscience» فقد عارض كل منهما صراحته فكرة الجماعية

عدد در كهديم). فقولهم إن المعنى يسعى أن يتضح من خلال الحواس وهي فكرة ترتبط بالمفهوم المراد للمسياق - يوحى بمهجين في دراسة علم الدلالة ويؤيد فيرث كلا المهجين في أماكن مختلفة من كتاباته.

فمن جهة يمكن للمرء أن ينظر إلى السلوك الإنساني كسلسلة من الأنماط التي يدركها الحواس، حيث يلعب الكلام إلى حد ما دوراً تفسيرياً يمكن توقعه في أماكن معينة. وحاء في الشرح الذي كتبه ليونر Lyons لرأي فيرث (Firth، ١٩٦٦م، ص ٢٩٠) «إن المعنى» أو «الوظيفة في السياق» يجب أن يفسر على أنه مدى القبول أو الاملاء في ذلك السياق. فالتعبارة أو جزء من العبارة لا تكون ذات معنى، لا إذا كن، وفقط إذا كان، من الممكن أن تستعمل بشكل ملائم في سياق فعلي. ويبدو أن هذا يتضمن أن العبارات لا تكون ذات معنى إلا إذا كانت متوقعة، الأمر الذي ينافي الواقع. فأكثر العبارات ذات المعنى التي نسمعها هي تعليقات تفاجئنا لدى سماعنا بها للمرة الأولى. وكلما زاد توقع عبارة ما مثل «كيف حالك؟» في سياقها، قل محتواها الدلالي. وقد اضطر فيرث لإطلاق عبارة «هراء» على مثال ساير وهو «قتل الملاح فرخ البط» لأنه عجز عن تصور سياق مناسب لمقتضى الحال فيه (فيرث Firth، ١٩٣٥م، ص ٢٤). لكن الحق هو أن الجملة نامة المعنى في المعنى العادي، سواء أكان من الممكن أن يقال عملياً أم لا.

ويتمثل المنهج الثاني في تفسير السياق بأنه الكلمات في النص التي تحيط بالكلمة أو الكلمات التي يراد إظهار معناها، ومساواة معنى الكلمة بمجموعة السياقات الكلامية الواقعة فيها. ويقول هاس (W. Hays، ١٩٥٤م، ص ٨٠): إن بدائل كلمة «قطعة» في وحدات أكثر شمولاً مثل «اصطادات القار» أو «اشتريت سمكاً للـ» إلخ تظهر معناها. فالمعنى اللغوي لكلمة «القطعة» هو وقوعها في هذه السياقات مع توريح معين لسبب وقوعها. (وكان «فيرث» على علم بالفرق بين هذين المهجين [نظر فيرث، ١٩٥١م، ص ١٩٥] لكنه مع ذلك اتبع كليهما). إلا أن الفكرة الأخيرة تبدو خاطئة، إذ إنها، وبعض النظر عن أي شيء آخر، تدفعنا للدعاء، ولقول إنه في سيد مثل. «موقف حالا ولا فمات» ، إن فرصه وقوع كلمة «عيبك» في الصراع هي عما مثل فرصة كلمة «مغلبك» ، أو تدفعنا لإبتكار أن هاتين الكلمتين مترادفتان،

مع أنهما كذلك بكل المعايير المعروفة. <sup>(١١)</sup> وقد يدعي أحدهم أن لهذا المصباح قيمة توحده في تأكيده أن «قوة» العبارة الكلامية تحمل أكثر من معناها الخبري البحت propositional meaning الذي يراه المناطقية فيها. ولكن على حد معرفتي فإن فكره كونه المعنى مجموعة من سياقات كلامية محتملة لا تتناقض واستعمال الرجل العادي لكلمة «معنى» فحسب، بل تريد من غموض الفرق بين «ما يقوله» المرء وبين «كيف يقوله» بدلا من إيصاله كما أن النتائج التي تتمحض عن نطق جملة معينة تعتمد على عوامل النغمة الاجتماعية للكلمات المستعملة اعتمادها على معانيها المنطقي. ولكن إذا نجسنا الأحكام السلوكية فمن يكون لزاما عليها مساواة معنى الجملة بالنتائج المرئية التي تترتب على نطقها

إن أفكار فيرث عن المعنى في الواقع لا تقدم شيئا على ما يبدو. أما فيما يتعلق بالعلماء الذين تدربوا في مدرسة لندن وما قدموه من إسهام لفهمنا علم الدلالة، كما فعل جون ليونز على وجه الخصوص، فقد حققوا هذا تتجاوز هيكل الأفكار المشتركة بين أعضاء المدرسة الآخرين. ودعوني أنقل الآن إلى موضوع آخر يخص منهج مدرسة لندن في النحو، وهو منهج وثيق الصلة بمبادئ فيرث التي رأيناها سابقا فيما يتعلق بتحليل الصوتي الوظيفي. إلا أن تطبيق هذه المبادئ على علم النحو قام به أثناع فيرث، لا سيما مايكل هاليداي Michael Halliday (المولود عام ١٩٢٥م) والذي كان أستاذ اللسانيات العامة في الكلية الجامعية بلندن. وبعد كتابة هذا الكتاب كان هاليداي أستاذا في جامعة سيدني، وكذلك هدمون Hudson (المولود عام ١٩٣٩م) والذي يعمل في الكلية الجامعية بلندن.

ويعرف التحليل النحوي في أسلوب مدرسة لندن عموما باسم «النحو النظامي systemic grammar» (كما استعملت مصطلحات أخرى أقل شيوعا). «النظام» بلغة فيرث، ويجب أن نتذكر هذا، هو مجموعة من الاختيارات المائعة لبعضها البعض mutually exclusive تمارس عملها في البنية اللغوية. وإليك المفتاح إلى النحو في مدرسة لندن إنه مثل الصوتيات الوظيفية عند فيرث، يهتم بالدرجة الأولى بطبيعة ومصموم الاختيارات المختلفة التي يجريها المرء (سواء أكانت تلك الاختيارات تتخذ عن وعي أو لا وعي) عند اتخاذه قرارا ينطلق حملة معينة من العدد غير المحدود من الحمل التي تفرها لبعته.

وربادة في الإيصاح، يمكننا أن نقارن المنهج النظامي بمنهج النحو عند شومسكي. ففي هذا النحو تُعرف مجموعة الجمل السليمة في اللغة من خلال إعداد مجموعة من القواعد لإعادة كتابة الرموز كرموز أخرى، بحيث إذا بدأنا برمز محدد، ونفسح، وطبعا القواعد بشكل مطرد كانت النتيجة النهائية الجمل الهدف. ومثل هذا النحو يمكن أن يتجسّد في تعريف مجموعة من الجمل المختلفة لا شيء إلا لأن المرء يروجه اختيارات عند تطبيق القواعد. لكن نقاط الاختيار في النحو عند شومسكي منشورة عبر الوصف، ولا تخفى بأي اهتمام خاص. فكثير من الاختيارات تتم في المكون الأساس *base constituency*، حيث يتوسّع رمر عنصر ما وفق أقواس كبيرة متموجة أو فواصل لكي يصبح مكتوبا بالرموز الجديدة البديلة، كما يمكن استخدام الأقواس العادية لبيان إن كان بإمكان عنصر ما أن يقع في الصيغة الناجمة عن إعادة كتابة رمر العنصر. وتظهر اختيارات أخرى عند تطبيق التحويلات. فبعض التحويلات اختيارية، وبعضها الآخر يطبق بالتبادل. كما تحتوي بعض تعرعات النظرية التحويلية على ترتيبات بديلة لتطبيق التحويلات مما يؤدي إلى تغير طبيعة النتيجة النهائية التي تعتمد على الترتيب المتبع. وغالبا ما نلاحظ أن اختيارا معينا في تطبيق القواعد التحويلية لا يتحقق إلا بتبني خيارات أخرى في المكون الأساس. لكن نحو شومسكي لا يبذل أي جهد لإيصاح مثل هذا الاعتماد المتبادل بين الخيارات، فهذا لا يقع ضمن نطاق أهدافه أبدا.

أما في النحو النظامي، فإن المكون المركزي هو جدول يصمم كامل الاختيارات المتوفرة في بناء الجملة، مع تحديد للعلاقات بين الاختيارات. وهذا يعني أنه لا يمكن لـصمم معين من الدائل أن يمارس نشاطه إلا إذا، وإذا فقط، تم انتقاء اختيار معين في نظام محدد آخر، وهكذا دواليك. وتعطى «النظم» وجميع الدائل أسماء معينة ضمن كل نظام. ويعتبر من البديهي أن لعناصر الاختيار هذه عناصر دلالية ملازمة. ولأن يكون بعض الدلالية الملازمة هذه في العادة عناصر دلالية خاصة بالمعنى «الإحصاري» أو «المنطقي»، إدراجها تحت أساسا باختيار المقررات لا باختبار البنية النحوية. أما العناصر الملازمة فتتعلق بنوع الخصائص كالتالي توقفت على أنها منظور الجملة الوظيفي في مدرسه مراع، أو نعرف عناصر المعنى المنطقي الذي يعبر عنها تركيب معين (انظر

هاليداي Halliday، ١٩٦٩م، و ١٩٧٠م من أجل معلومات متيسرة نسيباً حول الجوانب الدلالية «لنظمه النحوية». ولنضرب مثالا في منتهى البساطة: يقول هاليداي (Halliday، ١٩٦٧م، ص ٤٠) إن من نظم الاختيار التي تعمل في الجمل الإنجيلية الرئيسة نظاما يسميه «التعدي» يساعد في الاختيار بين الجملة «المكثفة» intensive (وهي جملة الدالة على النسبة كما في قولنا «تبدو سعيدة») و «الموسعة» extensive (وهي الدالة على العمل). فإذا بدأنا باختيار الجملة «الموسعة» كان الخيار التالي عندئذ بين الجملة «الوصفية» descriptive (أي الجملة التي لا تدل على عمل موجه مثل «السجباء مشوا») و «المفعالة» effective (وهي الجملة التي تدل على عمل موجه). فإذا وقع الاختيار على «المفعالة» وجدنا تعارفا آخر بين الجملة «العاملية» operative (وفيها يكون المسند إليه «فاعل» كما في «لمس غسلت الثياب») و «المستقلة» receptive (وفيها يكون المسند إليه «مفعول»، كما في «الثياب غسلت»).<sup>(١٧)</sup> أما في النحو التحويلي القياسي فتترتبط الفروق النحوية بين هذه الجمل بكمية إعادة كتابة التركيب المعلي (فع) «VP» وبعض الرموز المعينة الأخرى في الأساس، كما تترتبط بقرارات حول تطبيق تحويلة المبني للمجهول، وما إذا كنا سنطبق التحويلة التي تحذف عبارة by- التي تقترن به. وليس في النحو التحويلي ما يشير صراحة مثلا إلى أن اختيار تطبيق تحويلة المبني للمجهول ينشأ فقط عن انتقاء اختيارات معينة عند إعادة كتابة التركيب المعلي (فع) في الأساس. وليس هناك بالتأكيد أسماء خاصة للبنى البديلة التي تنشأ عن الاختيارات المتوقعة. (صحيح أن النشومسكيين يستعملون أحيانا عبارة خاصة لوصف نية نحوية معينة، لكن هذه ليست سوى عبارة موروثية عن مفردات فقه اللغة التقليدي، بالإضافة إلى أن الخصيلة النحوية التقليدية لا تسمى سوى أكثر النظم بدائية، والمعرفة هي النحو النظامي. والنشومسكيون لا يهتمون بتدراك هذا الخلل). فقولنا إن لكل اختيار ملازما دلالة مباشرة هو أقرب إلى الصواب في النحو منه في النظام الصوتي.

وما يطبق على النظام الصوتي النعمي، ينطبق على النحو أيضا، إذ إن اهتمام مدرسة لندن بتحديد مجال الاختيارات المتاحة أمام المتكلم يعوق اهتمامها بتحديد كمية تحقيق مجموع الاختيارات المعينة من المجموعة المتاحة كسلسلة من الكلمات. فوجود علاقة منتظمة بين الأشكال النحوية الخارجية لمجموعة من أعماط الجملة يتعلق بالمرار

بأنها تؤلف مدخل تخصص نظاما واحدا. لكن «الظم» تحدد أيضا من خلال حدى المحس  
نحاء العلاقات الدلالية، كما أن قواعد تحقيق بعض الاختيارات التحويلية قد تركت دون  
صيغة محددة مسبقا، بينما حظيت نظم الاختيارات وعلاقاتها المتبادلة بصنع واضحة حله  
(ولا يعير لسانيو مدرسة لندن أي اهتمام إلى السؤال عن أنواع القواعد المستعملة في  
تحقيق الاختيارات النظامية للمخلقة لعدم اكترائهم بموضوع الكليات اللغوية) ومرة  
أخرى يبدى التشومسكيون ميلا معاكسا. ففي ميدان النحو نجدهم أقل تطرفا عما هم  
عليه في النظام الصوتي، على اعتبار أن معظم أنواع النحو عند تشومسكي تختوي على  
مكون أساس يعدد مجموعة من البنى العميقة بالإضافة إلى عدد من القواعد التحويلية  
التي تحول البنى العميقة إلى سطحية. لكن كثيرا من التشومسكيين يظهرون اهتماما  
بتفصيل القواعد التحويلية أكبر من اهتمامهم بتفصيل الأساس، كما يعتبر بعض  
مؤيدي علم الدلالة التوليدي أن المكون الأساس من نتيجة مسطحية (انظر  
ماكولني McCawley، ١٩٦٨ م، ص ١٦٧ وباريه Parrot، ١٩٧٤ م، ص ١٥٢) وهكذا  
فهم يحصرون مناقشتهم في القواعد التي تحول البنى التحتية إلى شكل قابل لللفظ.  
ولكني نتمكن من فهم مسوعات النحو النظامي، علينا أن ندرك أن أصداره لا  
يقصدون عادة أنه أكثر مجاحا من النحو التوليدي في أداء العمل الذي صمم من أجله،  
الا وهو تحديد مجموعة الحمل السليمة في اللغة.<sup>(١٣)</sup> فالنحو النظامي يهدف إلى إيجاد  
تصنيف للجمل، أي وسيلة لتصنيف جمل معينة بطريقة وصفية. ولو أعطينا جملة  
مستقنة، لى أحد أتباع المهج التوليدي في نحو تشومسكي وسألناه عن نوعها لرب أجاب  
«إنها جملة سليمة التركيب» أما إذا تابعنا سؤاله عن أي نوع من الحمل السليمة هي،  
فقد يرتد عندئذ ويقول. إن النظرية التوليدي مصممة لوصف اللغات وليس الحمل  
المفردة لكن النحو النظامي يقدم لنا مجموعة من المصطلحات الوصفية التي تمكن  
اللساني من إعطاء وصف مفصل لأية جملة وإظهار كيف أنها تشبه الجمل الأخرى  
وكيف تختلف عنها.

ويدعي الحويون النظاميون ولهم بعض الحق في ذلك أن نظريتهم بلسي  
حاجات المهتمين باللغة على اختلاف مذاهبهم أكثر مما يفعل المنهج التوليدي (ومما له

دلالة خاصة أن إحدى مقالات هالدي تحمل عنوان «النحو والمستهلك Syntax and the Consumer»، ١٩٦٤م). أما فيرث فعبر عن اعتماده بأن «هاوس هولدر» كانت تعبر عن مسح الشعوذة وليس عن الحقيقة عندما سمع بالتمييز الذي تقيمه (سبيوك Sebeok، ١٩٦٦م، ص ٥٥١). ومن التقاليد المهمة التي تستحق الإعجاب في مدرسة لندن الاعتماد بأن الأنواع المختلفة من الوصف اللعوي قد تلائم الأهداف المختلفة). ١٠

المقدمة التي كتبها مارغريت بري Margaret Berry للنظرية النظامية تثير نقطة بارعة معادها أن اللسانيات التشومسكية تستحوذ على اهتمام علماء النفس، بينما يجد أن اللسانيات النظامية موضع اهتمام علماء الاجتماع (بري Berry، ١٩٧٥م، ص ٢٣).

فعلم النفس يريد نظرية تصف اللغات لكي يرى ما هي أنواع اللغات التي يستطيع الإنسان استعمالها ومن ناحية أخرى، فإن اللغة بالنسبة للفرد، باعتبارها مجموعة «لاختيارات المتاحة لديه، هي من المعطيات الثابتة إلى حد ما. ويسعى عالم المجتمع إلى امتلاك القدرة على وصف أية نمادح تظهر في الاختيارات المعينة التي تجريها فئات معينة من الناس ضمن ظروف معينة من مجموع الاختيارات التي تتيحها لغتهم. (وأعترف أن هذا التمييز بين علم النفس وعلم الاجتماع مبسط جدا، لكنه دقيق بصورة عامة). ويعتبر النحو النظامي أكثر جذوى في مجالات النقد الأدبي وتعليم اللغة ومن الطبيعي أن نشك في وجود علاقة بين اللسانيات النظرية بشتى صورها وبين هذه النشاطات التي يشعر البعض أن أفضل وسيلة للتعبير عنها هي اتباع الأساليب الحديثة غير المنهجية ولكن إن كان المرء بحاجة فعلا إلى مصطلحات معينة لكي يناقش استعمالات كاتب معين، أو لكي يستخلص بعض عناصر النحو المرسي التي يلاقي الطفل صعوبة في إتقانها، فإن من السهولة بمكان أن نوافق على الحاجة إلى نظرية تمك من وصف الحمل المستقلة بدلا من أن تكون مصممة لوصف اللغات ككل.

وفي الوقت نفسه، هناك عدد من المشكلات تتعلق بالافتراضات الكامنة وراء نظرية النظامية، ومنها مشكلة تشبه تلك التي واجهت ادعاء فيرث بأن للاختيارات في النظام الصوتي علامات دلالية مباشرة، مع أنها أقل حظوة منها بالنظام الصوتي يقدم مجموعه من الاختيارات ليست، ولا يمكن أن تكون ولا بصورة تقريبية، مواصلة صريحة في نظام الرسائل الدبيلة التي يرغب الناس تداولها. لذلك فإن معظم العلاقات



بين الصوت والمعنى في أية لغة من اللغات يجب أن تكون علاقات غير مباشرة إلى حد  
 بعد. ويبدو أن هذا ينطبق على النحو أيضا إلى حد ما. فاللغة توفر إمكانات نحوية  
 تستعمل بطرق مختلفة بدلا من أن يستعمل كل منها لأداء وظيفة دلالية واحدة فقط  
 وهكذا، موردي (Berry، ١٩٧٥ م، ص ١٤٢) نظاما من الحالة الإعرابية finiteness  
 للمجموعة الفعلية الإنجليزية يصمم الخيارين «المتصرف finite» و«الجامد non-finite»  
 (بالمعنى التقليدي). ومن المؤكد أن ليس هناك معنى أو عنصر معين يلزم الحالات  
 الجامدة. وتعطيا «بري» مثالين على هذه المجموعات الفعلية الجامدة وهما «بعد أن  
 أنهى الدورة Having finished the course» و«اجتياز الامتحان To pass the exam». ولكل  
 الأول يؤدي وظيفة ظرفية كما في المثال «بعد أن أنهى سمبر الدورة ذهب في إجازة»  
 بينما يؤدي الثاني وظيفة اسم (اجتياز الامتحان سهل). والمجموعات الفعلية الجامدة  
 الأخرى تأتي في تراكيب ظرفية كما في «بعد أن انتهت الدورة سافر الجميع The course»  
 having finished, everybody left. ولست أحد معنى واحدا متعادل فيه هذه الوظائف  
 المختلفة. فالشكل النحوي فقط ثابت بالمقارنة مع شكل المجموعات الفعلية المعربة.  
<sup>(٥)</sup> وعلى النقيض من ذلك، يشير هيدسون (Hudson، ١٩٧١ م، ص ١٠٦-٢،  
 ٣٠٤-٥) إلى أن التمييز بين «He thinks that she is wonderful» يظن أنها رائعة و«He  
 thinks she is wonderful» يظنها رائعة» يمثل «نظاما» معينا بالرغم من أنه في هذه الحال لا  
 يبدو أن هناك أي فرق بالمعنى مهما كان يرتبط بالنظام المذكور (الفرق الوحيد بين هذين  
 الجملتين هو وجود that في الأولى وعدم وجودها في الثانية. ويطلق هيدسون على  
 لنظام اسم «رابطه with BINDER» و«بدون رابطه without BINDER»). (وهذا قد  
 أقل حظرة كثير. فإعادة الصياغة علاقة دلالية، ولعل من المفيد أن يكون لدينا تسميات  
 مديدة لتمييز نحوي موجود فعلا قد يرتبط مستقبلا بفارق ضئيل في المعنى وإن لم يكن  
 مرتبطا بأي اختلاف دلالي في الوقت الحاضر).

وثمة مشكلات خاصة تتعلق بالمط الخاص من النظرية النظامية التي وضعها  
 ماينكل هاليدي. ولعل من المفيد أن تأتي على ذكرها باختصار، بما أن المط الذي قدمه  
 هاليدي هو أشهر الأنماط المتوافرة في الوقت الحاضر، وإن لم يكن أكثرها حداثة في  
 رأيي. فالإضافة إلى فكرة «النظام» يدخل هاليدي في النحو (مثلا في ١٩٦١ م) فكرة

«الرتبة rank» و«الحساسية delicacy». والرتبة هي مقياس حجم الوحدة النحوية والمورفيم بصورة عامة هو أخفص الوحدات النحوية رتبة، أما الجملة فأعلىها وهناك عدد محدد من الرتب المتوسطة في أية لغة من اللغات (ويقال إن في الإنجليزية خمس رتب) ولا بد لأي نظام نحوي من العمل وفق رتبة معينة. وإذا فكرنا في إصدار المحفظات الشجرية الهرمية عند تشومسكي فإن هالدي يهول إننا استطاعنا تمثيل خمس لا كأشجار وحسب، بل كأشجار منظمة، بحيث يحتوي كل عصب على العدد نفسه من العقد المتوسطة بين «الحذر» و«الأوراق». أما في أنواع النحو عند تشومسكي فإن هذا ليس صحيحاً بناتاً (انظر الشكل ٤)، حيث تخضع بعض المورفيمات مباشرة أو تقريباً مباشرة إلى الحذر الممثل بالعقدة «ح». أما المورفيمات الأخرى فلا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق سلسلة طويلة من العقد والأعصاب المتوسطة التي تمثل تطبيق قوعد كثيرة. أما هالدي فيبدو بمكرته عن الرتبة كما لو أنه يقترح كلية هي البنية النحوية لم تكن معروفة حتى ذلك الحين. لكنا رابياً أن مدرسة لندن لم تكن تولي الكليات اللغوية اهتماماً كبيراً، واعتقد أن هالدي لم يكن يدري ما يلتزم به وهو يصنع المصطلح الجديد. ويقول ماثيوز (Mathews، ١٩٦٦ م) إن المفكرة إما أن تكون جوهراً أو كادبة إن شئنا تفسيرها بحيث تقدم الادعاء التجريبي. ويدعو أنه محق في ذلك، فاللغات ليست منتظمة بتلك الصورة على وجه الخصوص.

أما «الحساسية» فهي مقياس للدقة النسبية للمقولات النحوية. وهكذا فإن كلمة «سيارة» تتميز عن «لامعة» في مستوى نحوي واضح جداً، بما أن هناك سياقات فعلية قليلة يمكن فيها لإحدى هاتين الكلمتين أن تحمل محل الأخرى في جملة سليمة التركيب ومن ناحية أخرى، تتميز كلمتا «سيدة» و«امرأة» في مستوى أكثر حساسية إذ يمكن استعمال كلتيهما بالتبادل من الوجهة النحوية، لكن كلمة «امرأة» لا تجمع بإضافة «ات» وفكرة «الحساسية» لا تطوي على أي ضرر في حجة ذاتها لو لا أن الدافع الذي حمل هالدي على تبنيها هو الادعاء بأن زيادة الحساسية في النحو لا نهاية لها من حيث البدء «هي مستوى على قدر كاف من الحساسية يمكن التمييز نحوي بين «ولد» و«تت» مثلاً (هالدي Halliday، ١٩٦١ م، ص ٢٦٧). إن هذا خطأ واضح. واعتقد، ما لم يسي شيء، أن «ولد» و«تت» كلمتان متساويتان نحويًا في أعلى مستويات الحساسية

فما مكر فيه هاليدي على مسيل المثال هو أن عبارة «البنث حامل» (في أقصى حد) أكثر حملاً من عبارة «الولد حامل»! لكن السب في هذا هو البنية الفسيولوجية للإنسان، ولأن الناس لا يكذبون علانية في العادة، وليس لأن الجملة الثانية لا تنتمي إلى البنية أية حال من الأحوال. (انظر كتابي «الشكل»، ص ٨٠ وما بعد). (وحتى إن لم تكن حملتي الأخيرة من صميم اللعبة، لا يمكننا أن نحدد سبب صحتها) ويعتقد هاليدي (Halliday، ١٩٦١ م، ص ٢٧٥) أن «من المفترض في أغلب الأحيان أن ما لا يمكن التعبير عنه بطريقة سليمة نحويًا، لا يمكن التعبير عنه منهجياً، أي أن ما ليس بالنحو هو الدلالة، وعدد هذه النقطة . . . تستسلم اللسانيات». (وفي إشارة ساحرة إلى كتاب تشومسكي «البنى النحوية» يصف هاليدي: إن الادعاء «بأن اللسانيات الشكلية هي النحو» يمكن أن يوصف بأنه أفكار حصراء، لا لون لها، وتنام بعصب بين أغلبية النظرية لسانية، وتعيق ترتيب السرير!) ومؤلف هذا الكتاب هو أحد الذين يحملون الرأي الذي يندد به هاليدي. ولا أجد في أعمال هاليدي ما يشير إلى أنني على خطأ. والنحو الإنجليزى الصحيح هو نحو كامل الحساسية، بمعنى أنه يميز بين جميع الكلمات التي لها سلوك نحوي خاص بها مهما كان هذا السلوك. وليس هناك ما يمنع إمكانية تحقيق هدف الحساسية الكاملة عملياً «عدم الحساسية» كالعجز عن التمييز بين «سيدة» و«مرأة»، كلاهما من الأخطاء. فالتمييز في النحو بين «ولد» و«بنث» من الساحة الأخرى لا يزيد حساسية النحو ولكنه يخلط بين ما هو أجوف وما هو خطأ نحوي. لذلك استغنى بعض النحويين النظاميين في الأعمال التي ظهرت مؤحراً عن استعمال كلمتي «الرتبة» و«الحساسية» (هلمسون Hudson، ١٩٧١ م، ص ٦٩).<sup>(١٧)</sup>

وتكمن الصعوبة الكبرى في النحو النظامي بالنسبة لمن يهتم بالقضايا المنهجية التي ناقشناها في الفصول السابقة في الدور الأساسي الذي يلعبه الحدس في التحليل النظامي. حيث يدعي تشومسكي وأتباعه أنهم يعتمدون على الحدس، غير أنني بوضوح في الفصل السادس إلى أن النحو التوليدي يمكن أن يقوم على أساس الدليل التحريبي العددي. فهو يعطي توقعات بشأن سلاسل الكلمات التي يستعملها أو لا يستعملها المتكلمون، وهذه قصية تترك بالحواس. أما مسألة ما إذا كانت بعض التراكيب نادرة عن حالات مختلفة لعنصر دلالي واحد وبالتالي تجتمع معاً في نظام واحد فقد يكون

فراراً حذوياً لا محالة . وفي هذه الحال لا يمكن للنحو النظامي أن يأمل بالرفي إلى مرتبة العلم ويسري هذا على علم الاجتماع أيضاً (انظر وينتش Winch ، ١٩٥٨ م) وهو العلم الذي يدعي النحو النظامي أنه مرتبط به . وإذا فهم علماء الاجتماع الوضع المنطقي لهذا الحقل ، لم يعد هناك ضرر يمكن أن ينشأ عندئذ من كونه غير علمي . (على أية حال لو برز النحو النظامي وجوده كنوع من التحليل الفلسفي بهذه الطريقة لكان بحاجة للمقدرة على الادعاء بأن صور الحدس الذي تعتمد عليه التحاليل إلى نظم هي صور مشتركة على نطاق واسع . ويبدو أن هذا لا ينطبق بالوضوح نفسه على التحليل السحوي في مدرسة لندن انطباقه على بعض الموضوعات الفلسفية والاجتماعية) . فمن ناحية أخرى ، قد نجد أنه في حال تمكن النحو النظامي من توصيح قواعد تحقيق الخبرات مثل قواعد الاختيار فإن معايير البساطة النهائية ربما نحدد التحليل إلى نظم بصورة مستقلة عن الحدس حول المعنى (انظر الهوامش حول التحليل النعيمي ، ص ص ٢٧٦-٢٧٧) . أما إذا لم يعد التحليل النظامي عندئذ متميزاً عن اللسانيات التشومسكية فهذا سؤال أشعر أنني غير كفء للإجابة عليه . وبالرغم من أن دور الحدس يشكل عقبة كأداء أمام لنظرية النظامية ، إلا أن أنواع المدرسة التشومسكية هم آخر من يستطيع استعمال هذا النقد للهجوم عليها .

ومجمل القول ، إن باستطاعة مدرسة لندن على ما يبدو أن تقدم الكثير . فالموضوعات الدلالية التي مبيت فيها بالفشل ، هي نفسها التي مبيت فيها جميع مدارس الأخرى بالفشل كذلك . ويبدو أن النحو النظامي جدير بالاعتبار كبديل ، دون أن يكون بالضرورة البديل الوحيد ، لمناهج أكثر شيوعاً . والنظام الصوتي النعيمي في رأيي أقرب إلى الصحة من أية نظرية أخرى في النظام الصوتي .

أما إذا كانت المساهمات المستقبلية لمدرسة لندن ستمكثها من احتلال مكانة دائمة في الوسط العلمي اللساني فهذه قضية أخرى ، إذ أن علم اللسانيات على ما يبدو حكر على المفكرين البرهمنيين Intellectual Brahmanists الذين يقوّمون الأفكار في إطار انسب بدلاً من إطار الحقيقة المجردة . وفي الوقت الراهن نرى أن العربي المناسب الذي يعصل الانساب إليه هو العربي الأمريكي . والفكرة ، مهما كانت غير محتملة ، تؤخذ على محمل الجد إن كانت صادرة عن «معهد ماسانشومنس للتكنولوجيا» ، حتى لو

كانت مسروقة بأعمال قيمة أنجزت في «الأماكن الخاطئة». فعلى الرغم من أن مثل هذه الأعمال لا ترفض، لكنها تؤول إلى الإهمال.<sup>(٧٧)</sup> وفي لندن وكذلك في بقية الجامعات البريطانية وجامعات دول الكومنولث هناك علماء ما فتئوا يعملون ضمن إطار المذهب البربري، لكن عددهم ضئيل الآن، أو أن منشوراتهم تصاءلت على الأقل أمام الجيل الجديد المقتنون بتأثير نشومسكي.<sup>(٧٨)</sup> فبالنسبة للساني الشاب في أيامنا هذه فإن الطباعة والحرارة والتحليل الأبيق لمعاصر الجمعية اللغوية Transactions of the Philological Society تنم عن التهذيب، وعن الفقر بستره المرقعة، وعن الحنين إلى الأمجاد العابرة على الحدود الشمالية العربية. أما النشرات المظلمة والطبوعة على ورق الحرير والخرقة لتوها من مطابع نادي اللسانيات بجامعة «انديانا» فتتمتع بكامل إمكانات برنامج «أبولو» واقتصاد البليون دولار. ولسوء الحظ يبدو أن المطلق السليم (الذي تستطيع مدرسة لندن أن تقدم منه كل ما يمكن أن يقدمه منهج أسسه رجل من بوركشير) والعلم الدقيق (الذي أقل ما يقال إنها حظيت منه بنصيب لا بأس به بالمقارنة مع الحركة التي طغت عليها) اعتبارات لا قيمة لها أمام هذا التيار الهائل.



### الخاتمة

لا أطر أنه من اللائق أن أصع في نهاية هذه الدراسة خاتمة لموضوع حي ولا يزال يمارس حتى الآن (وإن لم يكن ناجحاً بالضرورة) في الحقبة - الراهنة - مثلما كان على الدوم . فجميع الأطر العامة التي اطلعت عليها في أعمال هذه الحقبة التي تنوف عن قرن من الزمن ، والتي ناقشتها في هذا الكتاب ، سوف تظهر عما قريب كإطار شخصي بوجه واحد أمام الأفكار الحديثة التي تصطرنا إلى إعادة صياغة آرائنا حول أهم الأعمال السابقة وبهذا التحفظ يبدو أنه من المناسب أن أختم الكتاب بتجميع بعض الموضوعات التي تكررت باستمرار خلال الحقبة التي شملتها دراستي .

فالموضوع الأول يدور حول ما إذا كانت اللسانيات فتا أم علما إن شئنا استعمال التعبيرات المعاصرة والمطعة . وفي الواقع فإن السؤال لا يطرح غالباً بهذا الشكل المتشدد . فكثير من اللسانيين (شأنهم شأن العديد من الناس العاديين) شعروا أن دراسة اللغة دراسة ملائمة لنطوي على الجمع بين طرفي القضية ، إذ إننا لا نسيطر على عاداتنا الصوتية سيطرة واعية كما أن السلوك الصوتي للمناطق بأية لغة ينماشى إلى حد معين عنى ما يبدو مع معايير ثابتة . وما الصوتيات والنظام الصوتي سوى جانب واحد من حوائط السلوك الإنساني الذي يمكن وصفه بوضوح من خلال مقولات لا تتوقع ظواهر ملحوظة ممكنة مطلقاً الأمر الذي يكسب هذا الجانب صفة علمية (عالماتقون بالألمانية على سبيل المثال لا ينطقون احتكاكيات بين أسنانية) . (إن احتواء هذه المقولات على أسماء علم مثل «الألمانية» يجعلها موضع شبهة بالنسبة للعلم . فالناطق بالألمانية قد يتعدى الإنجليزية ، لكن هذه مجرد صعوبه سطحية في طريق معاملة الصوتيات الوظيفية على أنها علم) . أما الوصف الدلالي فلا يمكن أن يكون علماً . وليس سلوك

اندلالي سوى مثال ممتاز لعمل العقل الشرعي غير المنتظم الذي لا يمكن التكهن به مسبقا وأحبري جبرولد كاتر Jerrold Katz «أن العازب» هو «بالتعريف» ذكر، بالغ، عمر مزروح ولكن لي الحق في أن أجيب أن جوهر العروية بالنسبة لي لا يكمن في حسن الفرد ذكرًا كان أم أنثى، لكنه يكمن في حياة العزائب التي تتصف بالحرية والبساطة (وهذه «الكون» من مكوبات العزوية لم يلاحظه كاتر). من هنا يرى أنه في عصر حرية النساء نجد أن الصبية «سمائش» عزباء، تمامًا مثلما كان ثيوفوليوس المعجور. والكلمات الحقيقية في اللغة الحقيقية تبدل فحواها بهذه الطريقة التي لا يمكن التنبؤ بها. وهكذا فإن أية مناقشة لمعاني الكلمات لا تستطيع أن تقدم سوى تفسير لما حدث في الماضي وليس نبوءات عن التطورات التي يعملها المستقبل. لذا فإن الدلالة لا يمكن أن تكون علما. <sup>(١)</sup>

وما أكثر أذعياء التطرف المنطقي! فاللسانيون الإيطاليون الجدد من أتباع الفيلسوف بنديتو كروسي Benedetto Croce الذي يساوي بين اللسانيات وعلم الجمال، لا يؤمنون بوجود مكانة لأية قصايا علمية discourse في أي فرع من فروع اللسانيات. ولقد حالت معرفتي المحدودة بيبي وبين إعطاء تلك المجموعة الجزء الذي تستحقه عن جدارة. وأحب أن أصيف بعد كل هذا، وكما تبين لي من الجزء اليسير الذي اطلعت عليه من كتابات بارتولي Bartoli وبرنفاشي Bonfame أسي لن أكون مقتنعا في النهاية. فاللسانيون الأمريكيون، على النقيض من الإيطاليين، يجادلون بأن جميع جوانب اللغة يمكن أن تعالج بطريقة علمية (ويطبق هذا مدنيا على بلومفيلد مثلما ينطبق على تشومسكي، مع أن بلومفيلد كان يظن أن هناك صعوبات عملية في تطبيق المنهج العلمي على الدلالة) ولا يعني هذا أن الأمريكيين قد حكموا على الدلالة بأنها تقع على الطرف العلمي من الخط الفاصل بين العلم والفن، إذ أنهم لا يعترفون بمثل هذا التقسيم ويؤمنون بدهم المذهب العلمي scientism (ويعرب بلومفيلد صراحة عن تمسكه بالهسته المنظمة، أي بفكرة كارثاب Camap حول فلسفة فيينا التي أسسها بوبر Popper من الحربين أما تشومسكي فيستبعد فكرة الفن غير العلمية الناتية geisteswissenschaften على أنها بصفة يأس نستعصي على التصديق. انظر ميتا Mehta، ١٩٧١م، ص ٢١٢). ومن المواقف البعيدة عن التطرف نرى أن موقف شلايخر يتمتع بجاذبية كبيرة (Schleicher، ١٨٥٠م،



ص ص ٣ ٤) فهو الذي وجد أن الحدود بين العلم والفن تقابل الحدود بين النحو والصرف على أساس أن علم الأصوات الوظيفي وعلم الصرف كانا يشتركان في مكانة واحدة مثلما كان علم الدلالة والنحو يشتركان في المكانة نفسها أيضا. وبين من خلال الخدس أن من المعقول جدا أن نقول إننا نقبل كلمات لغتا على أنها معطيات ثابتة، كما يستعمل قلربا على الإبداع في ترتيبها معا. ويبدو أن موسير شعر بأن علم الصرف أيضا يقع على جانب الفن من الخط العاصل بين العلم والفن (مع أنه لم يكن صريحا جدا، ولو أنه كان يعني أن يقول هذا فهو محطىء بالتأكيد).<sup>(١١)</sup> وفي زماننا هذا، بين لنا تشومسكي أن النحو يمكن أن يكون علما، وأعتقد أنه على صواب. فنحن نحدد أنفسنا عندما نتخيل أننا نتمتع بحرية ترتيب الكلمات كيما نشاء. فالبسي النحوية تتبع قواعد ثابتة ومتعارفا عليها، مع أن العالمية مثلا لا نحس بوجودها. ونحن نمارس ذكاءنا في كيفية فهم الجمل السليمة في لغتنا، وهنا نضع الحد العاصل بين المقولات التي نحمل مضمونا دلاليا، وبين الهراء ولو كان سليما من الوجهة النحوية. فمثل هذه القصايا هي قضايا دلالية صرفة، وليست نحوية. فالإحراز الذي حققه تشومسكي المتمثل في إثبات إمكانية وصف النحو بطريقة علمية إسهام هائل في علم اللسانيات، ومن دواعي الأسف أنه اختار الابتعاد عن المساهمة في بناء العلم الذي حدد مكانه بنفسه على خارطة لسانة الفكرية.

لكن تشومسكي لم يساعد عمليا في إدخال منهج علمي في دراسة النحو بسبب اعتقاده بإمكانية وضع قواعد علمية تنبؤية استنادا إلى معلومات مستمدة من الخدس لا من الملاحظة الحسية. ومن الصعوبة بمكان معرفة كيف يستجيب المرء بشكل مفيد لهذه لفكرة. صحيح طبعاً أن الموضوعات ذات الإمكانية العلمية في مراحلها الأولى ندرس بروح الخدس الذي لا يقل التكذيب، وقد رأينا هذا في بعض أعمال مدرسة براغ على سبيل المثال (أما الخوايب الأخرى من أعمال مدرسة براغ كتمههم الأدبي فهي باعقادي فيه في حد ذاتها). لكن الاستجابة الملائمة لتلك الحال، إن بدا أن هناك ميرة في الأفكار الخشبية، تكمن في محاولة شحدها، والنهوض بها إلى مرتبة النظريات التحريبيه القابله للاحتار واحتارها فعلا. وقد رأينا كيف دفع أنثريه مارتييه وويليام لايف وغيرهم هذا الرمامج قدما في فكر مدرسه براغ. صحيح أن الفرضيات في العلوم كفة، حتى

«الناصحة منها، تنع من محبلة العالم ولا يستتجها من معلوماته، لكن ما يجعل النظرية تجريبية ليس السؤال عن مصدرها بل عن كيفية اختبارها. فعندما يجادل تشومسكي بأن الدراسة العلمية الناصجة يجب أن تكون من حيث المبدأ مستعدة من الخدس وليس من الملاحظة، فإن الحوار المنمر يصح عندئذ ضرباً من المستحيل.

والقصبة الأخيرة هي قصبة الكلبيات اللغوية. وهي وثيفة الصلة بقصبة العلم مقابل الفن. فقولنا إن كذا وكذا سمة كلية في اللغة الانسانية يعني أن ليس ثمة لغة يمكنها الاستغناء عن تلك السمة، وهذا يعد مقولة علمية قابلة للاختبار. والعرق هو فرق في المستوى. وعندما طرحنا السؤال إلى أي مدى يمكن للسانيات أن تكون علمية، كنت أتساءل عن الأجزاء المتاحة أمام التحليل العلمي من اللغة المنعقدة. ولكي أسأل هنا ما هي العاصر التي يمكن أن تعامل بشكل تنبؤي في اللغة الإنسانية باعتبارها ظاهرة عامة؟ والسؤال الآن مرتبطان ببعضهما البعض في جميع المستويات. فإن كان من المستحيل مبدئياً وصف البنية الدلالية لأية لغة وصفاً علمياً نتج عن ذلك (بالتأكيد؟) عدم استطاعة المرء التنبؤ بالكلبيات الدلالية. ومن جهة أخرى فإن كانت الحقيقة هي أن البنى الدلالية والصوتية الوظيفية في اللغات المنعقدة يمكن أن توصف وصفاً علمياً، فإنها لا تعني أن هناك نظريات علمية في الكلبيات الصوتية الوظيفية والكلبيات النحوية في انتظار أن تكتشف. فدلهمات يمكن أن تختلف بصورة لا يمكن التنبؤ بها في طبيعة بنائها النحوية والصوتية الوظيفية الثابتة المتعددة.

وأعتقد أن هذه هي الحال بالنسبة إلى النظام الصوتي كما اكتشف الفارسي بنفسه. ولا جدال بالطبع في أن نوعاً معيناً من «الكلبيات الصوتية الوظيفية» موجود، بحيث إذا كانت لغة ما تحتوي على نظام يتألف من ثلاثي الصوتيات كانت هذه الصوتيات هي [i, u, a] (بدلاً من [e, ɛ, ɔ] مثلاً)، لأن [i, u, a] أكثر بعداً عن بعضها البعض من الصوتيات الأخرى سواء من ناحية النطق أو السمع. وهكذا يكون الكلام أسهل وأكثر كفاءة إن كانت الصوتيات [i, u, a] هي الصوتيات المستعملة. فمثل هذه الكلبيات لا تشكل أساساً لهذا لكي نعترض أن الآليات الذهنية الثابتة والمعقدة لمعالجة اللغة هي آليات موروثية فمثل هذه الكلبيات يمكن التنبؤ بها تماماً دون فرضية حول البنية الذهنية الداخلية إذا ما توافرت لدينا الحقائق الفيزيائية والفسيولوجية البشرية. (ولا جدال في أن فيسيولوجية

الإنسان تحدد داخلياً إلى حد بعيد. ويعتقد التجريبيون أن العقل يختلف عن الجسد في هذه الناحية). ولا يمكن لأية مناقشة بدءاً من الكليات اللغوية وانتهاء باليات الدهر الكامنة أن تجدي إلا إذا توافرت للكليات اللغوية تفسيرات واضحة، كما أنني متمسك بما تدعي موجود العديد من هذه الكليات في مجال النظام الصوتي.

وعندما بدأت بتأليف هذا الكتاب كنت أعتقد أن الوضع مختلف بالنسبة للنحو. ولا شك في أن كثير مما يسمى كليات نحوية، كما أشرت في الفصل السادس، لا يمت إلى الكليات بصفة أو أنه مجرد كليات جوفاء. زد على ذلك أن من الممكن تفسير عدد من دعاءات الكليات التي تشكل مقولات قابلة للطعن، والتي صمدت أمام الاختبار بالطريقة نفسها التي فسرنا بها الصوائت [a, e, i] بالرغم من أن التفسير أكثر دقة بوجه ما في النحو منه في النظام الصوتي. [وهكذا يفسر شاختر Schachter، ١٩٧٧م إحدى الكليات النحوية التي بدت لبعض الوقت عشوائية تفسيراً يستحق الإعجاب مثل مبدأ «أ - فوق - أ» الذي ناقشته في الفصل السادس (وأعتقد أن تفسيره مقنع). ومن المحتمل في رأيي أن تتمخض الظاهرة الأخيرة عن تفسير مشابه فيما يتعلق بالحاجة إلى ضمان مفهومية الجمل]. على كل حال فإن الحفيظة الأساسية لمركزية البنية الهرمية في نحو جميع اللغات الإنسانية، وهي التي تبدو ظاهرة صحيحة قابلة للاختبار تجريبياً (وليست مجرد كيفية اختيار الأفراد للنحو ووصفهم إياه كما أشار البعض ممن لم يطلعوا على الجانب الرياضي من اللسانيات) كانت حسب اعتقادي وحتى عهد قريب تقاوم التفسير بأنها نتيجة يمكن التنبؤ بها للمبادئ المعروفة وبالتالي فهي تشكل برهاناً ظاهراً جيداً على التفسير العقلاني للعقل. (لقد انتقدت محاولات قياسية standard مختلفة «لتفسير» الوجود الكلي للنسبة الهرمية في كتابي «الشكل»، الفصلان ٦-٧). ولقد تحليلت عن هذا الاعتماد منذ أن قرأت مقالة (تبدو غير معروفة لدى معظم اللسانيين، مع أنها نشرت منذ فترة من الزمن) كتبها هيربرت سايمون Herbert Simon، أستاذ علم الحاسب الآلي وعلم النفس في جامعة كارنيجي ميلون Carnegie-Mellon (سايمون Simon، ١٩٦٢م) وبصيق المقام هنا عن عرض مناقشة سايمون. لكنني ناقشت تطبيقها على اللسانيات في عمليين (سامسون Sampson، ١٩٧٨م، ١٩٨٠م). وباختصار فإن اهتمام سايمون يركز في التمييز بين التراكيب المعقدة التي يحطط لها، وتطلق من العدم «دفعه واحده»

مفصل الذكاء الموحى، وبين تلك التي هي نتيجة عملية متدرجة تتم وفق تقويم يعتمد على التحربة والخطأ من بدايات بسيطة، أي أنها عمليات ترتبط شكلتها بالتطور الدارويني. وباستطاعة تراكيب الفئة الأولى أن تتخذ أي شكل يريد منشئها، إلا أن سايون يبين رياضياً أن تراكيب الفئة الثانية يجب أن ترتب هرمياً، ولو أن الترتيب الهرمي قد لا يجعلها أكثر صلاحية أو فائدة، ولا يزيد احتمالات بقائها حال ظهورها ولا شيء أقرب إلى العقل من افتراض أن اللغة الإنسانية، شأنها شأن بقية المؤسسات الاجتماعية الأخرى، قد تطورت نظام إشارات سيطر على الحيوانات عبر سلسلة طويلة من الانتقال الثقافي والتعديل والمنافسة في مجال الكفاءة بين الاستعمالات البديلة. وبناء على هذا الافتراض يظهر لنا أن مناقشة سايون تنبأ تنبؤاً دقيقاً بالعمليات النحوية التي ناقشها تشومسكي والتي كانت على ما يبدو تزيد وجود ملكة لغوية كامنة. ومن هنا أخلص إلى نتيجة مفادها أن التفسير التجريبي للطبيعة البشرية صحيح، وأن لا أساس للتفكير بأن لدى الطفل «معرفة كامنة بالمعرفة» عندما يأتي إلى هذا العالم (وبالفعل فإن مناقشة سايون تعطينا أسباباً إيجابية للاعتقاد بأن الطفل لا يمتلك مثل تلك المعرفة)، فحين نتعلم الكلام مثلما نتعلم أي شيء آخر، لأننا ماهرون في الالتقاط، لا لأننا نعرف مسبقاً. والحدود الوحيدة لتنوع اللغات الإنسانية هي التي تفرضها أجسامنا (بدلاً من عقولنا) وبالرعة الطبيعية هي جميع أوجه النشاط الإنساني (دون الاقتصار على الكلام فحسب) كي تتعد بكفاءة وليس بالعكس عند توافر طرق بديلة.

إن نظرية اللغة الصحيحة والعامة تقول إنه لا وجود لنظرية لغوية عامة مما السمات الوحيدة المشتركة بين جميع اللغات الإنسانية سوى نتائج يمكن التنبؤ بها لمبادئ تنتمي إلى علوم معروفة أخرى، وبالتالي فإنه ليس ثمة مكان في الساحة الفكرية لموضوع نظري مستقل يسمى «اللسانيات العامة».

وهكذا، ويقدر معين من الدقة نعود من حيث بدأنا في الفصل الأول: في علم الأحياء لقد نعت بعضهم شلايخر بالسداحة، وبأكثر من هذا لأنه عالج اللسانيات كهرع من الداروينية، لكنه على ما يبدو لم يكن بعيداً عن جادة الصواب.

ورعنا ارتكك شلايخر خطأ بحصره تفكيره ضمن إطار الصراع على البقاء بين لغات ذات سمات صرفية مختلفة بدلا من التحوية (ويمكننا بما سبق أن نتهم السب وراء عدم مناقشة شلايخر للنحو في ضوء الداروينية). فالكفاءة السببية في اللغات مربوط بالنحو أكثر من ارتباطها بالصرف. ولكن جميع اللغات الحية (الحدثية والكلاسيكية) هي بمقاييس التطور متعائلة، وعلى حدة تعبير سايمون، فإن ميدان اللغة glossosphere المعاصر أشبه بميدان علم الأحياء biosphere المعاصر منه بميدان علم أحياء استمر فيه الصراع على البقاء إلى الحد الذي تمكنت فيه إحدى الفصائل من القضاء على كل انفصائل الأخرى (وهنا يجب علينا أن نحسب حساب الفوارق بين اللسانيات وبقية فروع علم الأحياء). وهذا من جملة الأسباب التي تجعلنا عاشرين عن تأكيد عملية البقاء للأصلح من خلال معلومات تتعلق بانتشار اللغات أو تدهورها مثل الإنجليزية والويلزية. فمن الراوية الداروينية كلتا اللغتين جيدتان، وهكذا فإن الري والسياسة والمقاييس الأخرى التي لا علاقة لها بالسببية الداخلية للغات هي التي تهي على الناس اختياراتهم.

ولا يخامرني أدنى شك في أن شلايخر كان مخطئا في افتراضه أنه إذا كانت الداروينية تنطبق على اللسانيات أيضا، وحب علينا أن ننظر إلى اللغات عندئذ على أنها كيانات حية تحددتها الوراثة. وتنطبق النظرية الداروينية على السمات المفردة للكائنات الحية انطباقها على الكائنات الحية ككل. ويدرك عالم الأعراق البشرية الحديث (لايثولوجي) أن التحليل الدارويني يطبق على أنماط السلوك انطباقه على الصفات الأخرى كشكل الأقدام والعيون. أصف إلى ذلك أن تطبيق الداروينية على اللسانيات لا يبرر منا شئ الرأي الذي يقول إن أفراد البشر يرثون «عريضة اللغة» فالتعلم بطريق التجربة والخطأ بالسنة إلى العقل الذي يبدأ من وضعية الصفحة البيضاء عملية داروينية مثل التطور من خلال الطفرات التي تظهر ضمن الفصيلة الواحدة.

لقد كان شلايخر على صواب بصورة عامة. وأستطيع أن أتنا (شقة محدودة جدا) وهي الثقة التي بحق للمراء أن يصنعها حيال التثو بالعملية العكسية) بأن لسانيات الماضي، لغريب كانت لسانيات نفسه، لذا فإن لسانيات المستقبل الغريب ستكون بلا ريب لسانيات حيوية.



## الهوامش

### هوامش الفصل الأول

(١) ينطوي مصطلح «فقه اللغة philology» والمصطلحات المماثلة في اللغات الأوروبية على لبس محير. ففي القارة الأوروبية، وفي الإنجليزية أصلاً، تشير كلمة philologie إلى دراسة الثقافة من خلال الأدب. فقد كان فقه اللغة الكلاسيكي مكرساً لدراسة اللغتين اللاتينية واليونانية كوسيلة نحو فهم أفضل للحضارة الرومانية واليونانية. وعندما بدأ العلماء في أوروبا الوسطى يبان العصر الروماني بدراسة أشكال لغاتهم اليدانية كعناية في حد ذاتها وليس كوسيلة أدبية (وما كانت كذلك) فقد كانوا يملطون معو تمير هذا المهج الجديد في دراسة اللغة وأطلقوا عليه اسم «علم اللغة» sprachwissenschaft أو linguistik. أما في الإنجليزية فقد بدل فقه اللغة philology معناه ليشمل الموضوع الأكثر حداثة إلا أن كلمة «اللغويات linguistics» لم تدخّل حيز التداول إلا بعد إعادة التوجيه اللاحق الذي شهدته الموضوع الجديد الذي موقش في النص وهكذا، فإن استعمال كلمة linguistics في الإنجليزية يعني عادة اللسانيات بمفهوم القرن العشرين، وبالتالي يعني «اللسانيات الترامية» بالدرجة الأولى، بينما تشير كلمة philology عند استعمالها، على ضالته، وغالباً بصورة مجارية، إلى اللسانيات التاريخية التي تمارس في القرن العشرين. للمزيد حول المعاني المتناقضة لمصطلح فقه اللغة philology (مع اختلاف الاستعمال بين أمريكا وإنجلترا) انظر بولسج (Booth، ١٩٢٩ م).

(٢) يشير مصطلح «اللغات الهندوأوروبية» إلى عائلة اللغات التي تنسب إليها اللغة الإنجليزية ومعظم للغات الأوروبية ولغات شمال الهند. ويعتقد أن جميع تلك اللغات انحدرت من لغة مفترضة أطلق عليها «الهندوأوروبية الأولى Proto-indo-european». ومن الهندوأوروبية لأولى انحدرت اللغات السنسكريتية واللاتينية والجرمانية الأولى بالإضاهة إلى لغات قدمه أخرى سواء أكانت معروفة أو مفترضة، واللغات الحديثة انحدرت بدورها من تلك. وهكذا يرى أن للاتينية أصل العرسية والإيطالية والرومانية، إلخ. كما أن الجرمانية أصل الإنجليزية والهولندية والألمانية واللغات الاسكتلندية الأخرى وهكذا بالنسبة للفروع الأخرى

- (٣) إن آراء «كون» لا تعني بالعرض كوصفه تساعد العالم على اختيار بين نظريته دون أخرى لكنها وافية كوصف لما يحدث عملياً (انظر ص ١٦٦).
- (٤) مقابل كلمة door الإنجليزية كلمة tür في الألمانية و يعود النسب في هذا إلى أن الخرمسة لأوسى انفصلت إلى اللغات التي انحلت منها اللغات الجرمانية الحديثة بعد أن تغير الصامت [d] إلى [t] سائر تبدلات صوتية أخرى حصلت في الفرع الألماني (بالإضافة إلى أشياء أخرى)
- (٥) تشير كلمة «اللهجة» إلى عادات الكلام عند التكلم الفرد.
- (٦) خط التماثل اللغوي isogloss هو الخط الذي يحدد المدى الجغرافي لسمة معينة الذي يميز بهجة دون أخرى.
- (٧) بعض النظر عن مناقشة شديدة، هناك دليل يشير إلى أن السمات اللغوية البيئية قد تمتد عبر الحدود الفاصلة بين اللغات التي تربط بينها علاقات بعيدة، أو التي تكون غير مرتبطة ببعضها البعض بنائاً وقد أدرك شلايخر هذه الظاهرة (Schleicher، ١٨٤٨ م، ص ٢٩) لكنه لم يدرك كم كانت صارة بالنسبة إلى رأيه الدارويني عن اللغة إذ ليس لها نظير في علم الأحياء. فالترجح بين الفصائل ذات الصلة البعيدة عظيم. ولقد رفقت المدرسة الإيطالية وأعصارها من اللسانيين المحدد نظرية شجرة العائلة فيما يتعلق بالعلاقات اللغوية (بونفاني Bonfante، ١٩٤٦ م. انظر أيضاً ياكوبسون Jakobsen، ١٩٣١ م و فانشيك Vachek، ١٩٦٦ م، ص ٢٦ حول رأي مدرسة براغ في مفهوم sprachbund أو تراوح اللغات). إلا أن شجرة العائلة بقيت من المسلمات في العالمية العظمى من التقاليد اللسانية الموروثة من أمريكا وألمانيا وكان إيميسو (Emeneau، ١٩٥٦ م) أول من ناقش العلاقات غير الوراثية بين اللغات في إطار تلك التقاليد بالتفصيل.
- «نظر بواس (Boas، ١٩٢٩ م)
- (٨) من النقاط التي توحد علم الحيوان وعلم النبات ضد اللسانيات أما إذا أوعنا في الماضي انسحق رأينا أن جميع فصائل النبات والحيوان كانت تشترك في أصل واحد. ولكن مهما مضيت في تفصي أصل اللغات فلم يرد سوى لغات، فلا يرى مثلاً طحالب أو ما شابه ذلك ولكن ليس من الممكن أن تتحد موضوعات علم الأحياء جميعها من أصل واحد. فلو تبين لنا مثلاً أن الحياة نباتات ونظورت بصورة مستقلة في المريخ لما رخص عالم الأحياء إدخال حياة المريخ في محاله. وقد أعطى شلايخر إجابته على الاعتراض الذي يقول إن اللغات ليست «أشياء» في ملحق «النظرية داروين واللسانيات» وهو الذي نشر عام ١٨٦٥ م.
- (٩) يسيرسن (Jespersen، ١٩٢٢ م، ص ٣٦) في معرض إشارته إلى أ. و. هون شلغل (Schlegel، ١٨١٨ م) فالصنع ثلاثي الجهة لا يزال يستخدم حتى اليوم ولكن دون أن يوحى بأل لأبوع الثلاثة تجمع بالمرأمة معها. إذ يبدو أن التمييز بين النوع العارل والنوع اللاصق ليس سوى تمييز سطحي بحت والسبب الوحيد الذي يدعونا للقول إن في التركيبة كلمات متعددة المورفيمات، وإن الكلمات في الميشتامة لا تشير عن المورفيمات هو وجود الانسجام بين الصوائت التركية، وإن من المفيد استعمال لفظ «كلمة» للدلالة على المجال الذي يشمله الانسجام بين الصوائت



(نظر ماثيوز Matthews، ١٩٧٤م، ص ١٧٠). وهناك تفسير لمصطلحي «موريم» و«انسجم» بصيغتين في الحاشية رقم ١٤ ص ٢٦٦ والحاشية رقم ٧ ص ٢٧٤ على التوالي «التميز بين هذين النوعين معاً، وبين النوع المتصرف من جهة أخرى يبدو أساساً بالعمل، مع أن هذا التمييز متفرج ولا يشكل حدوداً قاطعة

(١٠) لهذا قدم شلايخر إجابات (مع أنها إجابات غير مقنعة بتاتا في نظري) على النقطة السابقة، إلا أن النقطة الأخيرة تتطلب على تناقص واضح ليس له حل. انظر يسبرسن (Jespersen، ١٩٢٢م، ص ٧٢-٧٣) حول مقدمة جرأي كتاب شلايخر Sprachvergleichende Untersuchungen (١٨٤٨م، ١٨٥٠م) أو حول خلاف كورت يانكوفسكي (Jankowsky، ١٩٧٢م، ص ١٠١) مع دليبروك بشأن العلاقة بين هيكلية شلايخر ورت للسانيات على أنها فرع من فروع علم الأحياء.

(١١) نظر كاتفورد (Catford، ١٩٧٤م)، وهاوسهولدر (Householder، ١٩٧٧م، ص ٥٦٠) - (٣) ولقد تم مؤخراً إحياء فكرة الاتجاهية الصوتية (انظر مثلاً Lee، ١٩٧٥م) وسوف نحدد الأيام مدى نجاح هذا الإحياء

(١٢) من المشكلات التي نعتزص بتفسير التعليق الأخير وما شابهه أن الناس كانوا ينظرون إلى التاريخ على أنه أكبر مثال من العلوم الأخلاقية (ويعادل بالألمانية Geisteswissenschaft)، الأمر الذي أدى إلى بعض الاضطراب في التعبير بين المفهوم الترميزي والمفهوم التعاقبي وبين الفن والعلم. (١٣) ما كان بول يُقبل أن هذه النقطة تصعب من قوة اعتراضه على شلايخر ولم يكن خلاف بول مع أسلافه قائماً على أساس تبين الآراء حول الظواهر الاجتماعية فحسب، بل كان قائماً على افتراضات مسبقة جديدة حول طبيعة العلوم بصفة عامة. ولقد تأثر بموقف الوصفيين من العلم والذي كان رائده في ذلك الوقت الفيلسوف والمبرماني إرنست ماح Ernst Mach ويعتقد الوصفيون أن ما تدركه الحواس هو الموجود فقط، بينما كانت الكيانات النظرية - كالذرة مثلاً - مجرد أوهام تم إدخالها كوسيلة لاحتصار المقولات حول الأشياء الملحوظة. وهكذا فإن عالم الأحياء الذي يترض وجود فصيلة «الجررة» بالنسبة إلى بول قد يتهم «بالموهمة» (انظر مثلاً بول Paul، ١٨٨٠م، ص ٢٧). إلا أن «الوصفية» هي مظهر معظم العلامات الحديثة لا تقدم تفسيراً مناسباً لطبيعة النظريات العلمية (حول هذا الموضوع انظر مثلاً نايجل Nagel، ١٩٦١م، الفصل السادس، وسامسون Sampson، ١٩٧٥م أ، ص ٢٧-٢٩)

(١٤) لقد أعاد ويليام وانغ إحياءها مؤخراً (Wang، ١٩٦٩م)

(١٥) من الحدير بالملاحظة أن اللحن يعتبر ون التبدل النحوي عملية تسط ليسوا مكرهين بالمثل على افتراض لغات أولية في غاية التعيد. ويشير ستيرفانت (F. H. Sturtevant، ١٩٤٧م، ص ١٠٧-٩) إلى أنه من طبيعة التبدل الصوتي إيجاد تباين نحوي. وهكذا ما إن يقبل المرء التبدل الصوتي كحقيقة واقعة حتى يصبح بإمكانه أن يرد البدلات اللغوية الأخرى إلى ميل اللغة نحو الساطة، لكن الخاصة التركيبية للغة تشكل عام نقى ثلثه تقريباً.

- (١٦) ... يلعب النع في تطور الاستعمال اللغوي الدور نفسه الذي أسنده إليه داروين في التطور العضوي [Zweck] فدرجة الملازمة التي تسبح بها الأشكال حديثة استواء تلعب دوراً مصيرياً هي بغائها أو انعراضها Zweckmassigkeit (بول Paul، ١٨٨٠م، ص ٣٢)
- (١٧) بذلك محاولات جديدة مؤخراً لوضع نظريات علمية عامة حول البديل اللغوي انظر مثلاً فابراغ وإخريو (Weinreich, et al. ١٩٦٨م) وكذلك لي (Li، ١٩٧٥م) من أجل ما فيه حديثة لمسوحات قانون عزم، انظر لاس (Lass، ١٩٧٤م).

### هوامش الفصل الثاني

- (١) هذا يحتمل المناقشة من الباحة الفلسفية فكما يفترض المرء وجود نظام اسمه «اللهجة» (أي اللهجة الفردية) يكمن وراء مختلف العبارات التي ينطقها، بمكسر الادعاء أيضاً أن باستطاعة المرء أن يفترض وجود جسم فيزيائي من أجل تفسير الدافع المرئي اليرنفالي اللون الذي يتأثر به عندما ينظر نحو طاولة المطبخ. إلا أن الأحكام الفيزيائية باعتبارها أحد أصناف الكيانات أكثر مباشرة بكثير من اللهجات مما يؤكد الخلاف بين اللسانيات وعلم الأحياء
- (٢) أرقام الصفحات فيما يتعلق بسوسير هي أرقام صفحات كتابه «دراسة»، سوسير (Shuksure، ١٩١٦م)
- (٣) تشير عبارة اللفظ المكتسب received pronunciation في اللغة الإنجليزية إلى ذلك النوع من لغة المنطوقة الذي يعتبر النوع «الصحيح» على نطاق واسع في إنجلترا
- (٤) لم يخترع سوسير المصطلح «فوبيم» فقد كان عالم الأصوات الفرنسي أ. دوفريش دهرميت A. Dufresne-Devernet أول من استعمله عام ١٨٧٣م. ولكن يبدو أن «دراسة» سوسير عام ١٨٧٨م هي التي كانت وراء استعمال المصطلح بشكل واسع للدلالة على واحدة النظم الصوتي في اللغة مقابل أصوات الكلام التي تؤخذ في معزل عن دورها في النظام الصوتي. ومن المتبع أن نوضح الكتابة الصوتية بين أقواس مربعة والكتابة الفوبيمية بين خطوط مائلة وهكذا كتب غير في الإنجليزية الأنموذجية RP بين القوسين [٣١] و [١] ولكما اعتبرهما عضوين بمثلان لفوبيم منه /١/ وتدعى الأعضاء التي تمثل الفوبيم نفسه بالأكوفونات وتتمثل جميع الكتابة الصوتية الواردة في هذا الكتاب أبجدية الجمعية الصوتية العالمية IPA
- (٥) وحتى هذا قد لا يحدث. هي الإنجليزية الأنموذجية RP اختلاف غير محير في رموز الصائت فهو الذي يجعل الصائت /١/ مثلاً أقصر إذا سبق أحد الصوائت المهموسة مثل /١/ مما لو سبق أحد الصوائت المحهورة في آخر الكلمة ولو استمر هذا الاختلاف إلى ما بعد اجتماع /١/ فقد يصبح حثد عمراً بحيث يبدو [li] القصير في كلمة leaf مختلفة عن الطويلة في leave أو eat. وهذا يعبر فكرة سوسير عن العواقب غير التوقعة لتغير صمد في النظام. فهذا يؤدي معاد صامت في آخر الكلمة بصورة آله إلى إدخال سمة مميزة عديدة للصوائت، وهي الرمز، لم تكن معروفة من قبل في اللغة الإنجليزية

(٦) في الواقع فإن أية لعبة شطرنج تقام من على هذا النحو ستؤدي إلى هور مربع للرجل الذي كان باستطاعته أن يرى ما يفعل إلا أن هذا يوسع مدى عملية القياس إلى حد كبير بما أن فكرة «هور» ليس لها نظير في اللعبة وأن علينا أن نفكر باللاعبين على أنهما يحافظان على حالة توازن في لعبة لا نهاية لها.

(٧) يعطي سوسير في سياق كتابه «الدراسة» (ص ٧٩) ما يبدو أنه سبب ثالث مستقل للفصل بين اللسانيات النראسية واللسانيات التعاقبية. فيقول إن معظم العلوم، على النقيض من اللسانيات وعلوم الاقتصاد، (وأمثله مستمدة من علم الفلك والجغولوجيا والقانون والعلوم السياسية) ليست بحاجة لإقامة هذا التمييز (فالتاريخ الاقتصادي مختلف جدًا عن الاقتصاد السياسي حسب اعتقاد سوسير) والعامل المشترك في هذين الموضوعين أنهما يتعاملان مع نظم ذات قيمة (فالاقصاد يربط النقود بالسلع، واللسانيات تربط الأصوات بالمعاني) ولكن ليس من الواضح بالنسبة لأي نوع من الرابطة يمكن أن توجد بين فكرة القيمة والحاجة إلى الفصل بين انترامية ولتعاقبية. وليس من الواضح بالنسبة لي أيضًا أن التمييز الأخير غير مهم في موضوعات مثل علم الملك كما يشير سوسير (وبناءً على هذا أليست الأليات السمارية ونظرية تطور الهجوم فروقا متميزة جدًا من هروع علم الملك تتعارض مع بعضها البعض كما يرى في اللسانيات انترامية واللسانيات التعاقبية؟) فالرغم من موقعها المارر في كتاب «الدراسة» فإني أعتبر ذلك الجزء خطأً محسوباً.

(٨) لقد تصادف أن الجدل بين الفردانية والجماعية لم يلعب سوى دور ضئيل في تلك المناظرة النهائية (٩) إن ملاحظات «كورمر» Koerner مابتة من اهتمام مبالغ فيه بموضوع مصدر المصطلحات الفنية التي يأتي بها العلماء (وهو موضوع ناهه سبباً) فعلى سبيل المثال يناقش كورنر (Koerner، ١٩٧٣ م، ص ٩٠) استعمال سوسير لكلمة «الضمر» ويصمها بأنها «مصطلح نعتقد أنه - أي كورنر استعاره من «الرياضيات» وهو تخمين سليم كما يبدو.

(١٠) إن روبرت هوديل (Robert Hoodell، ١٩٦٩ م) يتحدث عن «مدرسة حبيب» أو «المدرسة السوسيرية» في اللسانيات إلا أن هؤلاء العلماء اختيروا لأنهم يعملون في جامعة سوسير، ولأن العديد منهم كانوا متشعنين في تحقيق أوراق سوسير في كتاب يشرح أفكاره، وليس لأن أعمالهم الأصلية تأثرت بأفكار سوسير على النقيض من أعمال اللسانيين الآخرين. ويعرف أوردان أور (Jordani-Orr، ١٩٣٧ م، ص ٢٧٩ وما بعد) «مدرسة فرنسية» كانت مهتمة بشكل خاص بتطوير فكرة اللعبة كحقيقة اجتماعية.

(١١) إن رولون ويل (Rulon Wells) لسوسير (Wells، ١٩٤٧ م) في واقع الأمر يهمل هذا الجانب من كتاب «الدراسة» (لأسمها في الجزء ٦٠ من مقالة ويل) ويتساءل عما إذا كان الفكر الجماعي غير مألوف لدى ويل حتى أنه لم يصرّف به لما كان عليه.

(١٢) هناك مناقشة مستفيضة لفكر تشومسكي في الفصل السادس. لكن موقعه من العلم لأن يجعل احتمالات مواجهة الفاريز لأفكاره أكبر من معظم العلماء الذين جاء ذكرهم في هذا

- الكتاب وسوف أسمع لنمسي باستيقاق الفصل السادس بأن أنطرق أحياناً إلى أعمال شومسكي عندما تكون الفرصة سانحة لذلك
- (١٣) قد يعبر عن المرء أن «الماء» يعني  $H_2O$  و XYZ هي وقت واحد هي اللغة الإنجليزية (وهي لغة على نواصير الأرض) بما أن أي إنجليزي يجهل الكيمياء سوف يسمي عتة من XYZ «ماء» (وبالعكس بالنسبة إلى نواصير الأرض) ولكن ما إن عال إنجليزي إن العينة كانت محتلة كيميائياً عن المادة الموجودة هي البحيرات إلخ، حتى يوافق على أنه كان محطناً طوال الوقت في تسميته إياها «ماء» وهذا ما يظهر أن «الماء» لا يعني XYZ في الإنجليزية
- (١٤) المورفيم هو «أصغر وحدة ذات معنى» وهكذا فإن كلمة «قطعة» تتألف من مورفيم واحد، بينما تتألف كلمة «ساعتهم» من ثلاثة مورفيمات هي «مساعدة - ت - هم» ويقال إن (بعض) المورفيمات «المورفيمات» مثلما أن للفونيمات أوفونات، حيث يعتبر الجزء الأول better من كلمة better «أفضل» الإنجليزية «المورف» من المورفيم الذي تمثل كلمة good «المورف» الرئيس.
- (١٥) هناك علاقة أفقية سواء بين المورفيمات أو الواحدات الأخرى ذات المعنى وهكذا فإن إمكانية وقوع الصائتين / s / قبل الصوامت فقط و وقوع / s / في أواخر الكلمات يمثل حقيقة أفقية أما التعاقب بين / s / و / t / والتوزيع التكاملي بين الأول و / s /، في الإنجليزية فيمثل حقيقة رأسية
- (١٦) من أجل المزيد من المناقشة عن علاقه المعرفة الكيمية والمعرفة الماهية باللسانيات انظر سامسون (Sampson، ١٩٧٥ م، ص ٧٤ وما بعد، و ص ٢٠٤) وانظر كذلك المراجع المذكورة بهذا الشأن

### هوامش الفصل الثالث

- (١) سناقش ادوارد سابير، وهو من اعلام الوصفيين الأوائل في الفصل الرابع
- (٢) يستعمل مصطلح «القواعد grammar» للوصف الشكلي لتركيب اللغة
- (٣) حتى هذه المقولة تدعم الرأي الذي أعرضه أكثر مما ينبغي فمثلاً إن منهج السلوكيين لا يطلب منا أن نرفض فكرة حرية الإرادة أبداً
- (٤) إن المناقشة التي تتبع لا تحصى تحليل الاحكامات المناسب فحسب بل تحصى أيضاً لصوامت التي لها طريقتا لفظ أخريين ولكن إن نحصر شأن من حصر المناقشة بالاحكامات فقط لسهولة الشرح
- (٥) إن الكمومية الأساسية التي يعرضها التحليل القومسي مستقاهي في الواقع أكثر دقة مما أشير إليه آنفاً. فالوصفي على صييل المثال ما كان لسجد مشكلة حول لغة حيث يتقابل عشرون صامتا قبل الصوائت مع وجود صامت واحد فقط هو [s] يمكنه أن يقع في عتود قبل صامت آخر ولعل

من الواجب أن يقول إن التحليل العنوي يفترض أن عدد البدائل الموجودة في سياق واحد سيكون مماثلاً للعدد الموجود في سياق آخر أو مختلف جداً عنه ولعله يفترض أن /\_١/ و /\_٢/ و /\_٣/ مسافات متساوية نوعاً ما حيث /\_٧/ و /\_٨/ ليسا متساويين.

(٦) يقول ميللر (Miller، ١٩٧٣م)، وهو على صواب، إن مدى اهتمام المدرسة الوصفية ككثير بإجراءات الاكتشاف مبالغ فيه إلى حد كبير في المناقشات الحديثة.

(٧) جعل تشومسكي في كتاباته اللاحقة (Thomsky، ١٩٧٦م) موقفه أكثر ثباتاً عندما قال (وهو مبسوط كبير) أن الأبطال لا يتعلمون اللغة بالقيام بتميزات حيالية، لكن الرجال مثل أمستدس يحتنعون نظريات بانواع قواعد مسببة على التجربة العملية. وناقشت موقف تشومسكي بصورة مطولة في كتابي «الحرية واللغة» و«التبني Making Sense». وأجد أن من الصعوبة بمكان الأحاد جدياً برأيه الخالي حول طبيعة الفكر الأصلي. انظر سامسون (Samson، ١٩٧٩م ب) من أجل تطور أفكار تشومسكي حول موضوع إجراءات الاكتشاف.

(٨) من أجل معالجة بطول كتاب للمدرسة الوصفية وإعادة تفسير العلماء اللاحقين لها انظر هامبر وفوت (Fought and Hymes، ١٩٧٥م).

### هوامش الفصل الرابع

(١) يعتبر أعضاء المدرسة التشومسكية المحدثون سائير على أنه رائد حركتهم. وأجد هذا الحكم مفروضاً نوعاً ما فساير لم يبين مناقشة واضحة ضد المبدأ السلوكي كما فعل تشومسكي، لكنه بقي بعيداً عن التأثير بالحجج المؤيدة للسلوكية (كان سائير مهتماً بموضوع المادة بدلاً من المنهج فقط).

(٢) نعل من المفيد ذكر مثال مفار من اللغة الإنجليزية، فهي اللهجات المحاطة، بما فيها لهجتي، تعتبر سمة الحياة صهراً كاملاً حيث لا تأخذ الإضافة الجرمانية إلا الأسماء ذات الحياة (N's مقابل of N) بما تسمح اللهجات المجددة بتعبيرات مثل the theory's influence the car's whee لكن هذه العبارات غير سليمة بالنسبة لي) ولكن انتابني انزعاج نوعاً ما لدى ملاحظتي أن الاسم الوحيد في كلامي أنا الذي يأخذ الإضافة الجرمانية باستمرار ويشتهك منه الفاعل انتهكاً صارخاً هو الاسم «كمبيوتر computer».

(٣) نعلنا سائل هما إذا كان سيجموند فرويد يفكر بتفسير لمي برول للعقلنة البدائية عندما ناقش انه «Id» (فرويد Freud، ١٩٢٢م، ص ٧٣-٧٤).

(٤) ذكرت في الفصل الثالث، تعاليم واس، أن اللغات لا يمكن أن تتمايز فيما بينها كلغات «بدائية» و «متقدمة» في ضوء تركيزها (النحوي والصوتي) الذي يصح بالمتانة والاستقلال عن مدى ندرة المتكلم أما المقدرات فتعكس مستوى المتكلم النماهي

- (٥) كاتب اليونانية الهومرية اللغة الوحيدة التي ناقشها برلين وكاي. وهي حالة مهمة على بحر خاص لأن فقرها الشديد بتعابير الألوان دفع غلادستون Gladstone دون سواء لتأييد منهج ورف في دراسة هذه الساحة من المفردات (غلادستون Gladstone، ١٨٥٨م، ص ٤٥٧ - ٢٩٩) ويذكر برلين وكاي تحليل غلادستون ولكنهما لم يراهما على ما يبدو. فهما يشركان في سوء الفهم الشائع الذي يقول إن غلادستون يظن أن قدماء اليونان كانوا مصابين بعمى الألوان، لا أن غلادستون كان يرفض صراحة هذه الفرضية ويحول بدلاً عن ذلك (مثلما يقول برلين وكاي بعده بأكثر من قرن من الزمن) إن تعابير الألوان الدقيقة تتماشى مع الثقافات المتطورة فقط.
- (٦) لاحظ أن برلين وكاي (ص ١٠٩) اقترضا أن ما اكتشفه كان ظاهرة عقلية لا مجرد ظاهرة فسيولوجية أو فيسيولوجية. ومن أجل المزيد من المناقشة حول جدل برلين وكاي والمناقشات الأخرى نبي توريد الكليات الدلالية انظر (سامسون Sampson، ١٩٧٨م، ١٩٨٩م).

### هوامش الفصل الخامس

- (١) يبدو أن ترويتسكوي يحول فكرته عن المفهوم الأساس إلى فرضية تجريبية عندما يدعي (Truhetsky، ١٩٣٩م، ص ٧٩ - ٨٠) أن التقابلات «الثانية» فقط يمكن أن تتحدد، وأن تحديد التقابلات «الخاصة» يتحقق دوماً بواسطة العضو غير «الموسوم» في التقابل؛ إلا أن هذه الادعاءات (بالرغم من أنها صحيحة بالنسبة للصائتين /d/ /t/ في الألمانية) تبدو كدبة مصفة عامة ما لم تفسر بحيث تصبح جوفاء (Vachek، ١٩٦٦م، ص ٦١ - ٦٢).
- (٢) يدعى النبر سمة «نغمية» لأنه يقع ضمن سلسلة من المفاهيم (وهي المقطع في هذه الحرف) بدلاً من أن يحتل موقعاً خاصاً به في السلسلة الفونيمية.
- (٣) استمرت هذا المثال من محاضرة ألقاها تشارلز فرايز.
- (٤) صحيح أن داروين بين لنا كيف أن التطور الذي يبدو متجهاً نحو ازدياد الصلاحية يلائم تماماً المفكرة الفائلة إذ كل طمرة تحدث بشكل عشوائي - إلا أن موسير يبدو وكأنه يقول (دون أن يناقش الداروينية صراحة)؛ إن الطفرات اللغوية لا تحدث بصورة عشوائية محسب لكنها تحدث بصورة عشوائية أيضاً. أما في علم الأحياء فلا يحفظ سوى الطفرات التي يصادف أنها مبررة.
- (٥) بعض النظر عن أن مارتينييه معروف بنظريته العلاجية حول التبدل الصوتي، فإنه معروف أيضاً برأيه الذي يقول إن للغة «الغظاً مزدوجاً» (Martinière، ١٩٤٩م، ١٩٥٥م، ص ١٥٧) ويعني بذلك أنه ما من لغة إنسانية تجري استمرارية أصوات الكلام إلى عدد من الوحدات يمكن أن يوضع بملاحة واحد لواحد مع عناصر المعنى التي يربط الإنسان بالإشارة إليها (هناك دوماً عدد من العوسجات أقل من المورفيمات في اللغة). لذا فإن اللغة تجري استمرارية الأصوات بطريقة عشوائية دلالية، وتستعمل مركبات عشوائية من القطع الصوتية الناتجة عن «الغظ» نشائي؛ لكي تمثل الوحدات التي يتجهها لفظ المعنى (أو اللفظ الأول) ولعل هذا يستحق الذكر لأن

- منذ سوسير الذي يقول إن اللغة مجموعة من السمات يتألف كل منها من المدلول واليدل يشير على ما يبدو إلى أن اللغات تبدل تقابلاً مباشراً<sup>٢</sup> بين لفظ الأصوات ولفظ المعاني . على أية حال فإن هذه الفعلة التي يثيرها ما بينيه مدو مذهبة ، ولا يستحق للمضي في مناقشتها
- (٦) قد يصرص المرء أن نظرية مارتنيه قد فتدت من خلال عمل أحد سابقيه من مدرسه الدراسات لعيب ، وهو حول غيليرون (Jules Gillieron ، ١٨٥٤م - ١٩٢٦م) الذي يقول إن التطور المعجمي يعرئ إلى غائل لفظي لا يمكن احتمالها سبه التبدلات الصوتية (ابوردان أور Jordan-Ort ، ١٩٢٧م ، ص ١٥٧ ، وما بعدها) . ويبدو أن مبدأ مارتنيه ينطوي على التبدلات الصوتية التي قد تؤدي إلى غائل لفظي لا يمكن احتمالها يجب ألا تحدث . ويقول مارتنيه (Martini ، ١٩٥٥م ، ص ٢٦ و ٢٧) أن رأيه لا يتناقض مع رأي غيليرون وثمة نقطة أخرى تشكل عقبة أمام نظرية مارتنيه وهي أن نظريته يبدو أن ليس لها تطبيق أبداً على التبدلات الصوتية مثل قانون فريم الذي يترك نظام التقابل الصوتي دون تعير .
- (٧) إن ما دعا ياكوبسون إلى افتراض أن جميع المقاييس «ثنائية» كان فكرة رياضية مفادها أن شعرة بيت تكون أكثر فعالية عندما تستعمل عبارات ثنائية مستقلة (انظر ص ص ٢٥٤-٢٥٥) ويشكل هذا الاهتمام بالمعالجة السببية أحد الجوانب التي يشاطر فيها ياكوبسون الرأي مع أعضاء مدرسة براغ الآخرين
- (٨) لقد ربطنا بين هذا الجانب من نظرية ياكوبسون وبين اعتقاده بأسبقية الصوتيات الأكوسمية على نصوتيات النطقية التي نوقشت في الصفحة ١٩٦ .
- (٩) من غير الواضح ما إذا كان ياكوبسون وزملاؤه يقصدون أن كل المقاييس النطقية يمكن أن ترد في نهاية المطاف إلى إحدى سماتها الإثنتي عشرة (وهو برنامج لم يقوموا بتنفيذه كاملاً في كتابهم) أو أنهم كانوا يعتقدون أن بعض المقاييس النطقية كان محكوماً عليها بالآلة تستخدم بشكل مميز في أية لغة ، وبالتالي فإنها لم تكن تنتمي إلى أي من السمات الإثنتي عشرة
- (١٠) ونجدد هذه الملاحظات ضد التفسير البديل لأسبقية الشعريات في لغة الطفل ، مبينة أنها الصوتيات التي تتمتع بألية لفظ ظاهرة للمعاني .

## هوامش الفصل السادس

- (١) يمكن الرد على رأي تشومسكي بأن السلامه الحوية ليست خاصية محددة جيداً بالرجوع إلى هوكب (Hockett ، ١٩٦٨م) . انظر كتابي «شكل اللغة» (سامسون Sampson ، ١٩٧٥م ، ص ص ٥٩-٥٣) . سأكتفي بكلمة «الشكل» عند ذكر هذا الكتاب من الآن فصاعداً (K) . وفي حين جود «و» ، عمل تشومسكي في معهد ماساتشوسس للتكنولوجيا (Chomsky ، ١٩٧٢م أ مثلاً) ، أن السلامه الحوية هي خاصية متدرجة وليست مسألة «نعم أو لا» . لكن هذا كما رأينا مسألة أخرى واجب ذات أهمية كبيرة .

(٢) إن هاريس لم يفكر بهوائيه في هذا الصوء . ومع أن تشومسكي يعتبر منهجه في النحو تصورًا منطقيًا لأفكار أستاذه، إلا أن هاريس رفض هذا الافتراض بمجرد أن حمل تشومسكي هذه الأفكار إلى نهايتها المنطقية، موضحًا أن السلامة النحوية في اللغة إنما هي خاصية محددة جيدًا (هاريس Harris، ١٩٦٥ م، ص ٧٠).

(٣) ذكرني ريتشارد هيدسون أن العنصر النحوي المعروف بالعبارة الاسمية لم يعرف إلا في هذا الزمن وذلك بفضل لسانيين من المدرسة الوضعية . على كل فإن من الصحيح القول بـ تحليل انتقالي كان ينسب نوعًا من النحو شيئًا بنحو المكونات إلى حد كبير .

(٤) وبهذا نستطيع أن نعرف الفئة التي تتضمن ولتقل كل سلسلة من المورفيمات الإنجليزية التي تحصص للقاعدة التي نص على أن «السلاسل ذات الطول المزدوج تحتوي على مورفيم واحد متكرر على الأقل، بينما لا تحتوي السلاسل ذات الطول المفرد على أي مورفيم متكرر» ومن الطبيعي ألا تكون أية لغة معروفة بقاعدة من هذا النوع شبيهة باللغة الإسبانية الحقيقية . وللمزيد من المناقشة حول اللغات التي لا مكونات فيها (انظر كتابي «الشكل» ص ٤١-٤٢).

(٥) في الواقع فإننا نجد أودية لا تحصص تمام الخصر إلى أي من هذين النوعين . وهذا هو سبب حر لاستعمال مصطلحات مرنة سياحيًا في الخرائط . ولهذا أيضًا ما يقابله في اللسانيات تشومسكية فقد يقول أتباع تشومسكي إن الحوادث كالكهات والارتدادات الأرضية التي تؤدي إلى تغير في شكلي '١' و '٧' إنما هي أخطاء في الممارسة نرتكبها الطبيعية ويجب أن نهمل تأثيراتها عند رسم الخرائط (انظر ص ٢٠٢ و ٢٠٣) . والمهم هنا هو أن الوديان إذا كانت كلها أمثلة كاملة من نوعي '١' و '٧' فلا يكون هناك سبب أيضًا لكي نعتز على مصطلحات الخرائط التي تسمح بحجاب أوسع من الاحتمالات .

(٦) يقول كلود هاجيج (Hagege، ١٩٧٦ م، ص ١٧ حاشية رقم ١) إن من جملة أسباب نجاح اللسانيات التشومسكية أو صياغة اللسانيات التطبيقية التي راجت فعلة في الستينيات كان تحديث نحو نظرية نموية كان المدرسون على دراية بمصطلحاتها النحوية من قبل بدلاً من المصطلحات الحديثة (مثل كلمات الفئة ١ عند هراير وما شابه) التي وصفت نلاحديرة حديثة بدلاً من أن تكون موروثة من اليونانية . واعتقد أن هاجيج على صواب . وأعجب الفلاسفة علماء اللسانيات التطبيقية بنموذج لو أنهم نريثوا قبل الإقدام على اتخاذ قراراتهم فمدرسة تشومسكي هي آخر المدارس التي نستطيع أن نقدم شيئًا للمدرس اللغة (كما نعتز تشومسكي نفسه).

(٧) قل أن نتائج المناقشة من الأهمية بمكان أن ننظر في النقطة التالية . إن أوسطي ، وهو أول من درس مسألة العناصر النحوية من المفكرين ، وضع نظامًا لغائيًا أكثر من ذلك الذي وضعه كرس بعد فريش ونصف من الزمن . فقد كان لدى أوسطي عنصر واحد مدعوم syndesmoi ويعطي حروف العطف والصائير والأدوات على الأقل (روبين Robins، ١٩٦٧ م، ص ٢٦)، على



الرغم من أن مثل هذا التصنف لا يمكن تبريره لا على أسس منطقية ولا على أسس لغوية ولو كان هذا التصنف كما يدعي تشومسكي ولا عندون، قد تم بناء على الاستطارة بدلاً من الثقافة و سجنه فإن هذا بطل على وجود حل ما في عقل أرسطو إلى أخذ الذي لا يراه المرء في صفوف المدرس في المعاهد الأمريكية

(٨) في كتابي «الشكل» (ص ١٥٦ وما بعدها) أشرت إلى أن الدليل التجريبي ربما كان ملائماً لإثبات نظرية «معنى النحو» لا «معنى الكلمة». وعرفت الآن أن ذلك كان مغايراً في غير موضعه

(٩) نقد بين كارل بوبر كيف أن الانحياز العلمي ينطوي على الخطأ سواء في الإطار الخدسي أو الشكلي (Popper, ١٩٥٠ م، ص ٧٧-٧٨).

(١٠) لقد أشار هاريس، أستاذ تشومسكي، عام ١٩٦٥ م (هاريس Harris, ١٩٦٥ م، ص ٣٦٥ حاشية رقم ٦) إلى الفصلة بين معنيدات تشومسكي السياسية المطلقة وبين منهجه في اللسانيات، وهذا ما ناقشته في كتابي «الحرية واللغة».

(١١) عد كنت أحاول أن أديب الفارق بين النحو والصرف، كما أن من سميات اللسانيات الأمريكية أن نديب هذا الفارق أيضاً (سواء في المدرسة الوحدية أو في المدرسة التشومسكية) والقرار الفاضي باعتبار الحملة سلسلة من التوريبات يتصل بمعاملة اللغات كما لو كانت جميعها من النوع الفاعل أو اللاصق (انظر ص ٢٣) بينما يرى أن الفارق بين النحو والصرف أكثر ما يظهر في اللغات التي تضم عناصر من النوع المنصرف

(١٢) يفتي أعضاء هيئة التدريس والطلاب على المقرر الذي يدرس في قسم هاليه وتشومسكي حول اللسانيات الانلانشومسكية اسم «لسانيات المشاكسين» (hard guys) (وهذا يشمل جميع ما ناقشته في هذا الكتاب باستثناء هذا الفصل والفصل الثامن) ومن الواضح أن التسمية لا تؤخذ على محمل الجد. لكنها مع ذلك ذات معنى وللاطلاع على تمبير حدي حول الموقف نفسه انظر الملاحظة التي ألقاها تشومسكي والتي ذكرها ميتا (Mehra, ١٩٧١ م، ص ١٩١)

(١٣) هذا النظام، وهو الذي يعترف بأن كثيراً مما يعتبر شعارات مهمة غير متوافر علماً، كان مبرة بارزة في لسانيات تشومسكي منذ بدايتها (انظر سامسون Sampson, ١٩٧٩ م ب)

(١٤) ب دليلاً الصريح ضد الادعاء بأن قدرة الإنسان اللغوية تعتمد على بنية نصية كاسه هو المحاح الكبير الذي جعلته تجارب حدثه في مجال تعلم نظم تواصل شبيهة بحوثاً باللغات الإنسانية لبعض المحلوقات الأخرى مثل الشممري، ونقد حاولت أن أدافع عن عقلانية تشومسكي ضد هذه المكشفات («الشكل» ص ١٢٦-١٢٩)، ولكني لا أعتقد أن دفاعي كان ماحيلاً تشومسكي وأتباعه سجاهلون بجارب الشمميري تجاهلاً كاملاً. وهذا ما يتماشى مع سياسة عصيل الدليل الخدسي على الدليل التجريبي، ولو أن هذا بعدد أنها كالمقاييس البحث التجريبي

المألوف فتجارب الشبائري تدحض لسانيات تشومسكي، ويعتبرها مكولامية محدثة  
(لندن London، ١٩٧٤م، ص ٢٤٦)

### هوامش الفصل السابع

(١) ينبغي استعمال عازه «بحو العلاقات» لتعطيه النظرية التي وضعها هلمسليف وأولدال ومن ثم  
طورها سيدي لام وبيتر رايح وقد أطلق هلمسليف وأولدال على نظريتهما اسم «لصريه  
العلوسمائية» أو «الحو الجوهرية»، كما أن عبارة «الحو الطبقي» ترتبط بأعمال لام ولكن ما  
من عبارة واحدة من التعبيرات الأخيرة تبدو مناسبة. كما أن الادعاء بأن هلمسليف ولام يتسببان  
إلى مدرستين مختلفتين هو ادعاء مضلل. وما يجب الخلط في هذا المجال هو استعمال عبارة  
«بحو العلاقات» في السنوات الأخيرة للدلالة على نوع من اللسانيات يختلف عن لسانيات  
تشومسكي والذي يركز اهتمامه على «الفاعل» و«المفعول به» أكثر مما يفعل تشومسكي نفسه  
ولا اعتقد أن هذه النظرية الأخيرة تختلف عن نظرية تشومسكي إلى حد يبرر معادمتها بشكل  
منفصل في هذا الكتاب (كما أن رايح قد ادعى أنه هو الذي أدخل مصطلح «بحو العلاقات»  
أولاً)

(٢) بالرغم من أن التمثيل بالشكل يسبب عادة إلى إسهام لام في تطوير بحو العلاقات، إلا أنه في  
الحقيقة اقتبس من اللساني الألماني ألفريد هوبه Alfred Hoppe انظر مثلاً هوبه (Hoppe،  
١٩٦٤م)

(٣) إن نقد نظرية لام الذي سطره هوبه على مناقشة مستعجلة في كتاب سامسون (Sampson،  
١٩٧٤م).

### هوامش الفصل الثامن

(١) قد بيت أن هذا واجب (سامسون Sampson، ١٩٧٠م)  
(٢) إن الفرق بين تطبيق ياكوبسون وتطبيق هالبه لمفهوم «نظام الصوتيات الكلي» على التغيرات  
الصوتية وعلى الظواهر المورفولوجية على التوالي هو مثل آخر على تأكيد أوردوفا على العلاقات  
الرأسية في اللغة إزاء التأكيد الأمريكي على العلاقات الأفقية فيها  
(٣) بالرغم من أن هالبه (Hallé، ١٩٦٢م) يكتب كما لو لم يكن هناك مسألة معادها أن الترتيب  
والعمليات الصوتية النظامية تعمل ضمن «فئات طيفية» من الأصوات ذات تماريف بسيطة  
صنع إطار السمات الصوتية، فإن بالإمكان العثور على العديد من الأمثلة المعاكسة، كما في  
هوكس (Hockett، ١٩٤٢م، القسم التاسع) ومارتني (Martinet، ١٩٥٥م، ص ٥١) و. ويكي  
(Zwicky، ١٩٧٠م). وإدما وضعنا الموقفين في كهي المبرر وجدنا أن البرهان يرجح كفه

(مسلوب مآلبه (وبالعمل فإن إدوارد سيبر من Edward Sievers أشار إلى هذه النقطة من قبل ، ١٨٩٦م ، ص ٤)

(٤) حد مثلاً النقطة التالية : إذا ما أعطينا نظاماً من أربعة مستويات نغمية ، ولنقل ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ (مع اعتبار أن ١ هو المستوى الأعلى) فإن المعالجة بنظام السمات الثنائية binary features ستشمل سمة عادية مقابل سمة متخصصة بحيث تكون ١ و ٢ عاليتين و ٣ و ٤ منخفضتين لكن السمة الأخرى قد تكون إما ٢ و ٣ = مركزي ، مقابل ١ و ٤ = طرفي ، أو ١ و ٣ مرتفع ، مقابل ٢ و ٤ منخفض . وييل ياكوبسون وهالبه نحو اختيار التحليل الأخير بناء على أن إحدى القبائل هي غرب أفريقيا التي تنطق بلغة رباعية السمة والتي تترجم معانيها إلى إشارات طبول تستعمل كأسماء للإشارات «طائر صغير أصغر» و «طائر صغير أكبر» و «طائر كبير أصغر» و «طائر كبير أكبر» على التوالي . ويبدو أن هذا البرهان هزيل ولا يكفي لإطلاق الادعاءات حول لغات تتكلم بها شعوب على بعد آلاف الأميال من أفريقيا

(٥) قد يرب كيبارسكي مرة إن التحاليل في النظام الصوتي المولد لنظم الأصوات كانت تؤدي إلى تكهات قابلة للاختبار حول التبدلات الصوتية اللاحقة (كيبارسكي Kiparsky ، ١٩٦٨م) حيث لا يمكن اعتبارها مجرد إعادة بناء التاريخ (ما لم يكن على استعداد للقول بمفهوم الظاهر غير المقبول للعمل من على بعد في الزمن) وهذا يعني السماح لحدث ما في زمن (ز) بأن يسبب حدثاً آخر في زمن (ر) في الوقت الذي لا يكون له فيه أي انكاس على الوضع الناتج في أي تاريخ بين (ز) و (ر) على أية حال فإن كيبارسكي (١٩٧١م) اضطر فيما بعد تحت وطأة ضحامة الأمثلة المعاكسة إلى استبدال مبدئه الأصلي الكلي حول التبدل الصوتي بمبادئ معدلة أن اللغات قبل نحو التحلي من التبدلات الصوتية النظامية غير المنظمة نسبياً وهي التي يصعب إتقانها . ومن الواضح أننا لسنا بحاجة إلى الصوتيات الوظيفية المولدة للتوصل إلى هذه النتيجة . ومرة أخرى يهرّب بول بوستال (Postal ، ١٩٦٨م ، ص ٥٥ وما بعد) عن اعتقاده بأن نظرية لنظم الصوتي المولد هي «نظرية قوية نسبياً» في علم النظام الصوتي لأنها تشمل شرط الطبيعة naturalness condition وهو الشرط الذي ينص على أن الوحدات ذات المسمى من الساحة الصوتية يمكن أن تذكر في أي مستوى صوتي نظامي ، بينما تسمح النظرية الوصفية وبعض النظريات الأخرى لأنها بقدر كبير من الحرية بحيث نضع مورفونيمات (مثل IPA التي سبق ذكرها) دون تفسير صوتي مباشر . ومن المؤكد أن شرط الطبيعة عند بوستال مرغوب فيه من الساحة المنهجية لكنه يعطيء حين يشير إلى أن التحاليل المولدة تخضع له . فقد وجد جمع مؤيدي مصومات المولدة أن من الضروري استحداث سمات لا معنى لها مثل السمة (رومانسية) مقابل (حرمانية) وهي التي تقرر ما إذا كانت لكا معينة ستصح لكا قبل صاغت أمامي غير مفتوح في سمه الإعلانية . ويحاول بوستال التوفيق بين شرط الطبيعة الذي يتحدث عنه وبين هذه الخصم بأن ينتهي بتحويل الأخير من ادعاء تجريبي إلى شرط كلامي قارع .

- (٦) قارن وصف جي فان جينكين J. van Ginneken لتطور اللغة عند طفل هولندي على أنه انتقال «من لغة إنسانية عامة إلى اللغة الهولندية» والذي ذكره ياكوبسون (Jakobson، ١٩٤١م، ص ٥١) وانظر ستامب (Stampe، ١٩٦٩م).
- (٧) تشير عبارة الانسجام harmony إلى القيود (الموجودة في العديد من اللغات) المفروضة على مدى الاختلاف الذي يمكن أن يكون بين الأصوات الواقعة في الكلمة نفسها. وهكذا نرى أن في اللغات التي تتبع الانسجام بين الصوائت يجب أن تكون الصوائت كلها أمامية أو كلها خلفية. أما في اللغات التي تتبع الانسجام بين الصوائت فإنها تتطلب أن تشترك الصوائت كلها في مخرج واحد في الكلمة الواحدة.

### هوامش الفصل التاسع

- (١) بينما يقدم المصلحون في هذه الأيام على تغيير كل شيء ابتداء من الأوزان والمقاييس وانتهاء بنظم توزيع العمل بين الجنسين بين ليلة وضحاها، سواء أكانوا على صواب أم على خطأ، دون أي اعتبار للتقاليد، فإن من الغريب أن نجد المنادين بتبسيط التهجئة في اللغة الإنجليزية يتهمون بالهوس أو بما هو أسوأ من ذلك. وقد كان إصلاح التهجئة في القرن التاسع عشر قضية حية وجديدة. وفي عام ١٩٣٧م قال فيرث إن التهجئة الإنجليزية تفتقر إلى نظام معين وهذا ما يشير إلى الشتمزاز. ومن الضروري إجراء إصلاحات فيها (فيرث Pinb، ١٩٣٧م، ص ٤٨). وفي اعتقادي أن تغير الموقف قد يمزى إلى فقدان الثقة على الصعيد القومي إلى حد مخيف وغير مألوف، وهذا ما تعانيه إنجلترا منذ الحرب العالمية الثانية. ونرى أنفسنا الآن نتبع الآخرين بدلاً من أن نكون مثلاً يحتذى. وبما أن البيروقراطيين في بروكسل لم يفكروا بإصلاح لغتنا بالنيابة عنا، فإننا نفترض بالخدم أن التغير مستحيل أو غير ملائم (مع أن الكثير من الأمم غيرنا نجحت بإدخال إصلاحات على تهجئتها مع أنها لم تكن في حال سيئة كالإنجليزية).
- (٢) هناك بعض العذر للمفروض في الصوتيات الأمريكية. فإتقان الصوائت الأساسية على سبيل المثال عبارة عن مهارة تنتقل بواسطة التدريب الشخصي المكثف لدى أشخاص تعلموها بشكل مباشر أو غير مباشر من دانييل جوتز نفسه. ويجب أن نحافظ الأذن الحساسة للصوائت الأساسية على دقتها من خلال فحوصات دورية تجري أمام الذين يحملون هذا التقليد. ويمكن ممارسة هذا الأمر ضمن نطاق دائرة اللسانيات البريطانية الضيقة أكثر منه في العالم الأمريكي الأوسع انتشاراً. ول سوء الحظ فإن هذا العرف قد بدأ بالاضمحلال حتى في بريطانيا نفسها منذ التوسع الكبير في الجامعات الذي حدث في الستينيات.
- (٣) كان الماركيز ويلزلي Marquess Wellesley أول من تقدم باقتراح إنشاء مثل هذا المعهد بعد فترة قصيرة من تعيينه حاكماً عاماً في الهند إبان الاستعمار البريطاني عام ١٧٩٨م.

(٤) لا ينطبق هذا المثال على المتكلمين بأشكال منصرفة قليلة مثل [dræmpt] بدلاً من [drempt] . ولكنني سأعاجل هذه المشكلة وسأختار مثالا أكثر كمالاً وأشد عمقا بالتأكيد .

(٥) أصر فيرت (Firth ، ١٩٤٨ م ، ص ١٢٢) دوغما ميرر على استعمال كلمة فونيماتي phonematic ، وهي كلمة صحيحة الاشتقاق (بدلاً من الكلمة الأمريكية فونيمي phonemic) من كلمة فونيم ، وذلك في المقالة نفسها التي كرّر فيها استعمال كلمة أحادية النظام monosystemic ومتعددة النظام polysystemic بدلاً من systemic .

(٦) يتحدث أتباع فيرت أحياناً عن التنعيم وكأنه قطعة تقوم بوظيفة البؤرة . لذا فإنه ليس من العدل أن أقول إن التحليل النغمي قد أسىء تطبيقه في المحاضرة التي أشرت إليها . لكن التحليل النغمي مقنع بوجه خاص فقط في الحالات التي لا يمكن تعيين قطعة بعينها على أنها «البؤرة» .

(٧) إن الاختلاف في المنهج بين أتباع الصوتيات الوظيفية المولدة والتحليل النغمي ليس نفسه الذي نراه بين اللسانيات الأوروبية والأمريكية والذي يقوم على التقابل الأفقي والرأسي الذي ناقشته من قبل . فنظم فيرت هي عبارة عن أنماط غير أن العلاقات الرأسية المقابلة تمثل بقواعد تعالج بناء كلمات ممكنة من الناحية الصوتية النظامية . ولقد أشرت للتو إلى أن أتباع الصوتيات الوظيفية لا يناقشون هذه الناحية . فهذه المجموعة تهتم في القواعد التي تربط بين التمثيل العميق والتمثيل السطحي . وهذا نوع ثالث من الظواهر يتميز عن الحقائق الرأسية والأفقية (مع أنها أوثق صلة بالنوع الثاني) . وهناك منهج أمريكي واحد يقدم تحليلاً شاملاً للعلاقات الأفقية في النظام الصوتي ألا وهو النحو الطبقي الذي أوجده لام . (فالنحو عند لام له النموذج تكتيكي سواء على مستوى النظام الصوتي أو على المستويات الأخرى) . إلا أن التعميم الذي أقول إنه اختفى من الصوتيات المولدة التي لا تحتوي على قواعد بناء المقطع (سامسون Sampson ، ١٩٧٠ م) هو مفقود أيضاً في النحو عند لام بما أنه يشمل تعديلاً للمقاطع يعتمد على البنية . وهذا ما لا تزيد قدرة النحو اللامي في أدائه على المستوى النظام الصوتي عن قدرته على المستوى النحوي .

(٨) لنأخذ المثال التالي : هناك اختلاف في الإنجليزية بين nimate و night rate ، مع أنهما يتألفان من سلسلة واحدة من الفونيمات (وإذا شئت أن نأخذ مثلاً مقابلاً من العربية أضرب مثلاً «كلمتي» مقابل «كلّ متني» ، المترجم) . فالتحليل المنطقي يشير إلى أن التحقيق الألفوني يعتمد غالباً على موقعه من الكلمة ، ولكن بما أن «الكلمة» هي مفهوم نحوي ، وجد معارضو خطط المستويات أنفسهم مضطرين لاقتراض وجود تميز فونيمي اصطناعي في حالات من هذا النوع .

(٩) ولعل هذا النقد للسانيات الأمريكية ليس خطيئاً كما يبدو لأول وهلة . فالنغمة تبدو وكأنها مجال تبدو فيه الإنجليزية الأمريكية والإنجليزية الأنغوزجية البريطانية RP مختلفتين جداً . لذا فإن أي تحليل نغمي أمريكي سيكون أكثر ملاءمة للإنجليزية الأمريكية منه للإنجليزية الأنغوزجية البريطانية .

(١٠) إن استعمال فيرت لكلمة المعنى استعمالاً سابقاً يجعل فكرته التي انتقلت عنها العلاقة المباشرة بين الصوت والمعنى معقولة في مقياسه هو .

- (١١) ربما وجدنا مقاييس دقيقة لا تكون فيها الكلمات المعنية مترادفات كاملة . لكن ليس هذا هو السبب في كون إحداها أكثر احتمالاً من الأخرى ضمن الإطار المذكور .
- (١٢) ويقول هالندي فيما بعد إن نظام التعدي transitivity في الإنجليزية هو في الواقع أكثر تعقيداً من هذا .
- (١٣) في الواقع فإن هدمسون يدعي هذا الآن (Hudson ، ١٩٧٦ م) ، إلا أن ادعائه ليس قاعدة في التقليد الذي يعمل به . واعتقد أن النظرية النظامية systemic theory تستحق الاهتمام أكثر مما يمكن عندما تنطلق لكي تؤدي شيئاً لم يتظاهر النحويون التوليديون أبداً بأدبه .
- (١٤) ذكرت في الفصل الثالث أن أسلوب الشعوذة كان بعيداً عن إرضاء اللغوي الحر . إلا أن الوضع يتغير عندما نتطرق إلى اللسانيات بوصفها علم خدمات يقدم النحو كي يستخدمه المستهلك في المجالات الأخرى . فعالم الجيولوجيا يريد أن يعرف مدى صحة نظرية تشكيل الوديان ، وسيكون راضياً كل الرضى إذا سمح للنظريات المنافسة بأن تتعاضد إلى ما لا نهاية . لكن ذلك لا يعني أنه يعتقد بوجود نوع واحد من الحرائط وبالتالي فإن من غير الملائم أن تختلف الحرائط التي يستعملها سائقو السيارات عن تلك التي يستعملها الجيش في المناورات الحربية .
- (١٥) نلاحظ هذه المشكلة أيضاً في نحو القوالب (انظر ص ١٠٦) الذي يشبه الأسلوب النظامي إلى حد بعيد .
- (١٦) كثيراً ما يقول اللسانيون أن لا وجود للنحو الشكلي الكامل ، وهم يوحون تصريحاً أو تلميحاً إلى أنه من المستبعد أن يكتب نحو من هذا النوع . وهنا نلاحظ مشكلتين : الأولى هي أن كثيراً من اللسانيين (وهذا يتعلق أيضاً على ثومسكي وهالندي) يخلطون بين الخطأ النحوي في بعض السلاسل وبين خلو بعض السلاسل الأخرى من المعنى مما يجعلهم يبالغون كثيراً بعدد الحقائق التي يجب على النحو الكامل أن يصفها . (إن مهمة تحديد أية جمل نحوية يمكن أن تستعمل بشكل مفيد في بعض الظروف هي مهمة مستحيلة مبدئياً لأنها تعتمد اعتماداً كلياً على سعة الخيال في بناء ظروف افتراضية ، ولا حد لخصوبة خيال الإنسان) . والنقطة الثانية هي أن اللسانيين الذين يهدفون إلى إيجاد وصف كامل لمجموعة الجمل الصحيحة نحويًا يواجهون مشكلة العائدات المختصرة . فبمجرد منافسة أنواع الجملة الرئيسية وأنواع العبارات نجد أنواعاً أخرى عديدة من الاستعمالات الخاصة التي تتعلق بمفردات بعينها أو بفئات صغيرة من المفردات . وبهذا تقل إضافات الجمل الجديدة في الوصف النحوي شيئاً فشيئاً التي توصف بأسلامة النحوية . وسرعان ما تغور عزائم اللسانيين لا سيما النظريين منهم بمجرد أن تبدأ العائدات بالاضمحلال بشكل ملموس . ولكنني لست أرى أن أيًا من هاتين التقطتين يجب أن نحمِلنا على استنتاج أن وصف النحو في اللغة عمل لا نهاية له من حيث المبدأ .
- (١٧) وفي هذا الصدد انظر معالجة لاجندوين لرأي روينس الذي يقول إن التحليل النعمي يجب أن تكمله كتابة فونيمية من أجل الأهداف العملية دون أية كلفة إضافية ، حسب تعليق لاجندوين (Langendoen ، ١٩٦٨ م ، ص ٥٩) . وعندما طرح موريس هاليه من معهد ماساتشوستس

للتكنولوجيا هذه النقطة بعينها فيما يتعلق برموز السمات (انظر مثلاً هاليه Halle، ١٩٦٢م، ص ٥٦ حاشية ٢) نقيت الترحاب كروية مهمة. ولدى كتابة مدارس اللسانيات كان اللسانيون في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا يخترعون التحليل النحوي من جديد تحت اسم الصوتيات الوظيفية أو توفعية (انظر مثلاً جولدسميث Goldsmith، ١٩٧٦م) بدون الإشارة إلى الأصل الذي يعود إلى فيرث.

(١٨) من ضمن النتائج العديدة لتوسع الدراسات العليا البريطانية الزائد والمفاجيء الذي حدث في الستينات هو أن الجامعات والمعاهد التقنية في بريطانيا أصبحت متخمة بأعضاء هيئة التدريس المهتمين بدراسة اللسانيات التشومسكية التي كانت في أوجها. وإذا أدى الانحدار الاقتصادي الخائفي إلى إقبال المزيد من معاهد الدراسات العليا في بريطانيا، أصبح بوسع المرء أن يأمل على الأقل بأن الانتعاش الذي سيتبع ذلك سيكون متدرجاً بحيث يسمح لجماعة الباحثين بالنظر في آراء أكثر تنوعاً.

### هوامش الفصل العاشر

- (١) من الممكن صيغاً لأحد علماء الدلالة التشومسكيين أن يدعي أن ما كان يعملُه إنما هو وصف استعمال سابق بدلاً من التنبؤ باستعمال لاحق. ولكن إذا كان هذا هو دأب علماء الدلالة التشومسكيين، فإن هذا العمل قد أجز من قبل بالفعل. فإذا كانت الكلمات موضع المناقشة ذات أهمية فلسفية خاصة دعي النشاط بالفلسفة التحليلية (كما كانت تدرس في أوكسفورد بشكل خاص في العقود الوسطى من هذا القرن). أما إذا كانت كلمات عادية دُعيت حينئذ بعلم المعجمات، وفي كلتا الحالتين لا يضيف جهاز التشومسكيين الذي يحاكي الدساتير الرياضية أي شيء إلى نوعية الوصف الدلالي، بل على العكس تمامًا في الواقع.
- (٢) انظر ماثيوز (Matthews، ١٩٧٩م، ص ص ٢٥ - ٣١).